

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
الرحّالة العُثمانى
أوْليا چلبى
الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش
١٠٨٢-١٠٩١ هـ
١٦٧٢-١٦٨٠ م
الجزء الثانى
كنوز مصر ومآثرها وعمائرها واحتفالاتها
1493
ترجمة وتقديم وتعليق
الصفصافى أحمد القطورى

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا چلبى والذى خصصه للحديث عن رحلته إلى مصروالسودان والحبش والتى قضى فيها ثمانى سنوات فيما بين (١٠٨٢-١٠٩١هـ=١٦٧٢-١٦٨٠م).وقد ألّفها باللغة التركية العثمانية تحت مسمى "أولياچلبى سياحتنامه سي-مصر ، سودان وحبش" وبعد الانقلاب الحروفى فى تركيا عقب ثورة ١٩٢٣م والذى أعلن عام ١٩٣٨م .قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعادت نشر الكتاب بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨م.

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

(١٠٨٢ - ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠م)

(الجزء الثانى)

"كنوز مصر ومآثرها وعمائرها واحتفالاتها"

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1493
- الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (جـ٢)
- أوليا چلبى
- الصفصافى أحمد القطورى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة الجزء الثانى من كتاب :

EVLIYA ÇELEBI

SEYAHATNAMESi

MIAIR, SUDAN, HABEŞ

(1672 - 1680)

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel. : 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

١٠٨٢ - ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م

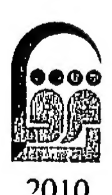
(الجزء الثانى)

"كنوز مصر ومآثرها وعمائرها واحتفالاتها"

تأليف : أوليا چلبى

ترجمة وتقديم وتعليق

الصفصافى أحمد القطورى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

چلبي ، أوليا.
الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش ١٠٨٢-١٠٩١هـ = ١٦٧٢-١٦٨٠م (جـ٢) تأليف: أوليا چلبي، ترجمة وتقديم وتعليق: الصفصافي أحمد القطوري.
ط١ - القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
٣٧٢ ص ، ٢٤ سم .
١ - مصر - وصف ورحلات .
٢ - السودان - وصف ورحلات .
٣ - إثيوبيا - وصف ورحلات .
(أ) القطوري، الصفصافي أحمد (ترجمة وتقديم وتعليق) .
(ب) العنوان ٩١٦.٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٤٥٥٤
الترقيم الدولي 978-977-479-650-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرس

الفصل الخامس والعشرون :

الفصل الرابع والأربعون :

الفصل الخامس والأربعون

الفصل السادس والأربعون :

إطلالة على الجزء الثانى

يبدأ هذا الجزء من رحلة أوْلِيا چَلَبِى إلى مصر والسودان وبلاد الحبش والتى بدأت عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢ م وانتهت عام ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠ م بالفصل التاسع عشر حسب تقسيم الرحَّالة لفصول رحلته، والتى امتدت إلى ما يزيد عن ثمانية أعوام .

يبدأ هذا الفصل بذكر المَوْكِب القانونى فى مصر، ويقصد بذلك الاحتفال الرسمى بوصول الباشا الوالى الجديد إلى مصر وكيفية استقبال المصريين له، وبيان رواتب الطوائف العسكريين . ثم يتبعه بالفصل العشرين حيث يُبَيِّن ما فى حكم قاضى مصر وحكومته وعوائده ونياباته والقضاة الذين فى إيالة (ولاية) مصر، وصفات نقيب أشراف مصر من العلماء والسادات الكرام . ثم ينتقل الرحَّالة فى الفصل الحادى والعشرين إلى بيان الذين بنوا قلعة مصر المحروسة ، وبناة عماراتها ومبانيها العظيمة، وفى هذا الفصل يبدأ الرحَّالة فى بيان أوْصَاف أم الدنيا مصر القاهرة "عمَّرها الله تعالى" .

يتناول فى بقية فصول هذا الجزء كل ما يتعلق بقصر القلعة وديوان الوالى والوزراء، وسواقى بئر يوسف وعقود المياه، والمحيط الدائرى لقلعة مصر السُّفلى وأبوابها وأبراجها ومتاريسها، والأحياء وقصور الأعيان العالية وسائر البيوت . ويصف ما فى مصر المحروسة من الجوامع التى بناها السلاطين، وسائر الجوامع والمساجد الأخرى . وقد خَصَّص الرَّحالة بحديثه فى الفصل السادس والعشرين ما فى مصر المحروسة من المساجد الكبيرة التى بناها بعض المهنيين، ثم تلا ذلك ببيان ما فى داخل مدينة القاهرة من المدارس ودور الحديث التى بناها السلاطين فى مصر القاهرة، وما فى داخلها من دور القراءة والمقارئ وكتاتيب الصبيان، وبيان ما فى

داخل القاهرة المُعِزِّيَّة من تكايا وزوايا ومساكن الصوفية، وما فى مصر القاهرة من العِمَارات الخيرية التى ينفق عليها الأغنياء والفقراء، وما فى مصر من حمامات .

أما الفصل الرابع والثلاثون فقد خصصه الرحَّالة لبيان خانات السلاطين والوزراء والوكلاء، وتبع ذلك بما فى فسطاط مصر من مستشفيات وصناعة للدواء . وبيَّن الرحَّالة عيون المياه العذبة التى تجرى فى مصر، والأحواض والسواقى والعيون المالحة، والآبار التى بداخل مدينة القاهرة . وكذلك بيَّن الخلجان التى تروى جملة المدينة وتسقى جميع ذوات الأرواح، والتى تجرى داخل مصر المعظمة . ولم يترك الجسور والقناطر التى فوق الخلجان والبرك العظيمة التى كالبحر فى بطن أم الدنيا وخارجها .

فى الفصل الحادى والأربعون وما بعده انتقل الرحَّالة إلى المدينة العامرة بندر بولاق المشهور فى الآفاق، والذى لا يُضاهيه بندر على الإطلاق، وذكر أوصاف مصيف السلطان قايتباى وما به من آثار العمران . ثم يعود الرحَّالة المدقق إلى مدينة الفسطاط القديمة يعنى أم الدنيا العظيمة، ويصف لنا كل ما فيها من عمارات وآثار وقلاع قديمة وعنابر الغلال . ويسهب فى القول عن النيل وما يهبه لديار مصر من حياة وثراء ونماء، وتاريخه وجزره ومقياسه وجزيرة الروضة، كما يسهب القول البديع فى أوصاف احتفالات فيضان النيل وما يصاحب ذلك من فرح ومرح وبهجة وسرور واحتفالات أصحاب المهن ... ويربط بين ذلك وبين ما ورد فى القرآن الكريم من صفات مياه النيل ونهيراته، وما يترتب على ذلك من حسنات ومساوئ ومضارب النيل، وما يُضفيه من صفات على القوم الجبارين المصريين .

(المترجم)

الفصل التاسع عشر

ذكر الموكب القانونى فى مصر

حينما يصل الباشا الوالى إلى مصر يهبُّ أهاليها لاستقبال وزيرهم بكل حفاوة وتعظيم فى المكان المسمى بالعادلية، حيث يرسل منها الپاشا أولاً عساكره وجنوده وأثقالهم إلى المدينة، فيذهب كل واحد إلى منزله ليغير ملابسه ويلبس ملابس نظيفة ثم يرجع إلى طابوره وآلايه . ويدخل أولاً رئيس الشرطة (الصوباشى)[1] بثلاثمائة من قوّاسيه من باب النصر ومعه خمسون من الزبانية قساة القلوب، فيقومون بإفساح الطريق وإخلائه من الناس، ثم يسير سعاة البريد المرافقون للباشا الوالى جنبًا إلى جنب راكبين، ويعقبهم موكب المتطوعين بأعلامهم المختلفة وأقوادهم ذات الألوان النِّمْرِيَّة وأثوابهم وتيجانهم السَّمُّورِيَّة، ومعهم صبيانهم يسيرون مثنى مثنى ، ويتبعهم خدم المائدة والخزنة (الكيلارجية) راكبين، ويسير بعدهم فرَّاشو الخيام والسَّرَّاجون، ثم موكب المتفرقة المدججين بالسلاح والرماح الثقيلة ومعهم صبيانهم . ثم يأتى موكب

(١) **الصوباشى** : أمين البلدية = مدير الأمن : اصطلاح إدارى عثمانى كان يُطلق على كبار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى، وكانت أعمالهم تشبه أعمال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى . وكان عثمان خان - مؤسس الدولة العثمانية - أول من أسند هذا المنصب إلى أخيه، كما أسند أعمال الحكومة إلى ابنه أورخان بك ، وذلك بعد فتح قره حصار. (عاشق باشازاده تاريخى ص ٢٠).

كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين سليمان بك "صوباشا بك" على إستانبول بعد فتحها، وفوضه فى أمر تعميرها وإعمارها. (تاج التواريخ جـ١ ص ٤٤٧).

(*) ملحوظة: جميع الهوامش فى هذا الكتاب من صنع المترجم، لذلك لسنا بحاجة إلى ذكر كلمة (المترجم) فى نهاية كل هامش .

"واجب الرعاية" يسيرون مدججين بالأسلحة والعُدَد، وبهم تنتهى مواكب جنود الباشا وأتباعهم . ويسير بعدهم موكب جاويشية مصر بملابسهم السمورية وبخوذاتهم المُقَصَّبة المزينة بالطُّرَر على خيول مطهَّمة حاملين دبابيس من الفضة الخالصة، وعلى خيولهم التجافيف وطرر متَّخَذة من ذيل فرس البحر وجلٌّ فضىٌّ، ثم يمر موكب المتطوعين مستغرقين فى المُقَصَّبات، يسيرون تحت قيادة ضباطهم على نقر الكوسات والطبل، حاملين رماحًا طويلة عليها أعلام حمر ومعهم صبيانهم من حَمَلَة الصاجات . ويمر بعدهم فريق من الجنود حَمَلة البنادق من الأسلحة النارية، وهم شبان من الشجعان يسيرون فى صفوف منتظمة على جياد أصيلة، ضاربين الطبول، ويأتى بعد ذلك جنود المتفرقة وهم أغوات الركاب، مزينين بحلل فاخرة، يسيرون على نقرات الكوسات، أمامهم الخيول المطهمة وخلفهم صبيانهم لابسين الدروع والمغافر، ومعهم أغوات البلوك. ويسير أغا الإنكشارية وأغا العزب مع سعاتهم اللابسين أثوابًا سودًا . ثم يأتى موكب البكوات الچراكسة فهم يسيرون بملابس فاخرة من المدربيات السمورية ممتطين الخيول المطهمة يسيرون مثنى مثنى. ووراء كل واحد منهم يسير أربعون أو خمسون من غلمانهم اللابسين حُلَلاً من القطيفة الفاخرة، بيد أنهم لا يملكون كوسات . ثم يأتى موكب البكوات الذين فى رتبة لواء، وهؤلاء يسيرون بملابسهم الفاخرة وعمائمهم المسترسلة، ووراءهم سبعون أو ثمانون من أغوات الخدمة الداخلية والخارجية بملابسهم النظيفة الخاصة، وشُطَّارهم الذين يمشون مثنى مثنى، ولكن ليست معهم الفرقة الموسيقية، ويسير كل بك مع آخر جنبًا إلى جنب بعظمة ووقار .

ثم يأتى موكب المشاة العزب (عزبان) وهم غزاة شجعان مسلحون تسليحًا كاملاً بالبنادق ويلبسون جلود النمور، تتقدمهم أعلامهم وراياتهم، وعلى رءوسهم اللبَّاد المزين بالقصب . وأما المحاربون القدماء فيلفون العمائم على الطرابيش، وأما ضباط فرقتهم فيشدون الحزام على سراويلهم الأسود لأن الأصول المتبعة أن يترقى أنفارهم إلى الفرسان وضباطهم إلى أغوية الإنكشارية أو كتخدا الجاويشية أو بكوية مصر ويسير وكيلهم وباشكاتبهم وباشجاويشهم فى هذا الحفل جنبًا إلى جنبٍ راكبين .

وهم اثنان وسبعون بلوكا من أيام سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ! وينقسمون إلى ثمانية چوربجية، ويطلق على كل منهم لقب "رئيس" حيث ينقسمون أيضًا إلى اثنين وسبعين أوضه[٢] بكل أوضه رئيس يُقال له "أوضه باشى"، وهؤلاء الأوضه باشيَّة ليسوا ممنوعين من الزواج، ولا يبلغون هذه الرتبة إلا بعد أن يبلوا بلاءً حسنًا فى الأسفار والحروب ويقدموا فى الخدمة، وهم جميعًا متزوجون . ويلبس باشجاويشهم وجاويش آلاى المتوسط والجاويش الصغير والأغا وچوخدار الكتخدا - كلهم مثل جاويشية الإنكشارية - الرداء الأسود والعمائم المسترسلة ويسيرون مشاة، فإن صار أحدهم من رجال بيت المال يلبس الفرجية ويطرح الرداء الأسود ويمتطى الجواد الأصيل . وجميع الچوربجية يركبون الخيول الأصيلة ويسيرون مع كتخداتهم المتقاعدين فى الموكب، وليس لهم كوسات أو طبول، إلا أنهم يذكرون اسم عمر رضى الله عنه فى كل مائة خطوة يصدر من أعماق قلوبهم، فيملأون القاهرة بأصوات "الله، الله" المدوية لأنهم جماعة طيبة مباركة يبلغ عددهم ثلاثة آلاف جندى من حملة البنادق الطويلة، مقامهم

---

(٢) **أوضه** = أوطه لر= أوضه باشى = أوطه باشى (أوطه = Oda / أوطه باشى = Odabasi رئيس أو قائد المعسكر / أوضه قلقه سى Oda Kethūdasi معتمد المعسكر / أوطه لر : Odalar) : مصطلح عسكرى يدل على معسكر الإنكشارية، فلكل أورطه أو بلوك معسكرها الخاص بها . كانت المعسكرات القديمة للإنكشارية فى شاهزاده باشى ثم أصبحت فى آقسراى . وأول معسكراتهم كانت فى أدرنة ، وعندما أصبحت العاصمة إستانبول نُقِلت المعسكرات إلى المركز . ثم أصبح يُطلق على الأوضه لر كلمة قيشلاق، أى معسكرات المشتى . وقد تحدث عن ذلك أ.د. إسماعيل حقى أوزون جارشيلى بشىء من التفصيل عند حديثه عن التشكيلات العسكرية العثمانية .

و الـ "أوضه باشى" هو اللقب الذى يُمنح لضباط المعسكر، أما "قالفة" المعسكر فيُعتبر من الرتب العليا فى السراى العثمانى . وأما "أوطه كتخداسى" فهو معتمد أو وكيل المعسكر، وهو أقدم ضابط فى المعسكر، وهو مكلَّف بحماية وحفظ حقوق العاملين فى المعسكرات إلى جانب أنه هو المنوط به عقابهم . وأما "أوطه لر" فهو يُطلق على معسكرات الإنكشارية سواء القديمة أو الحديثة . وعندما ألغى نظام معسكراتهم وتخريبها تم إلغاؤها أيضًا . (انظر M.Z.Pakalin C. 2 . S-716) .

بباب العزب داخل القلعة، وهو مكان رحب عُمَرِيُّ المقام. وغرفهم مطلة على ساحة قراميدان الفسيحة، وهى تتألف من اثنين وسبعين بيتًا خطَّابيًا .

وبعد مرور المذكورين بأدب ووقار تظهر أعلام موكب الإنكشارية، ثم مشاة مستحفظى الجيش المصرى، يسيرون فى الطليعة شبانهم الصغار اثنين اثنين حاملين بنادق مناسبة لحالتهم تحت الأعلام، ويتبعهم رجالهم الضخام الأجسام، ويسير بعدهم طوال الأجسام، ويتبعهم المحاربون القدماء مدججين بالسلاح وقد ارتدوا جميعًا أردية حمراء وحملوا بنادق مرصَّعة بجواهر زِنَتها أربعون أو خمسون درهمًا، وعلى رءوسهم اللبَّاد، وعلى أكتافهم جلود النمر، وبأرجلهم أحذية يمنية حمراء . ويسير فى وسط فرقتهم ستة من ضباطهم وبأرديتهم السود وأسكفاتهم وهم ينظمون الموكب . ويمر بعدهم شيوخهم ذوو اللحى التى وخطها الشيب وقد تدثروا فى جلود النمور، ويتبعهم "أوضباشية" البلوكات المائة والثمانية والثلاثون وشيوخهم، ونحو ألفين من شيوخ المشاة ذوى الجلود النمرية والتروس المذهَّبة والقاوق اللبدى . ويمر بعدهم زهاء سبعين أو ثمانين من المتقاعدين من رجال الكتخدائية والسردارية على خيول أصيلة، يتبعهم نحو خمسين أغا ذوى خدم، إلا أنهم لا يلبسون سراويلات مصرية حمراء، بل يلبسون الملابس الخاصة بالفرسان (سپاهية) والمتفرقة والجاويشية. وهذه الطائفة أيضًا من الإنكشارية تسير دون موسيقى أو طبول، ولكنهم يكبِّرون من وقت إلى آخر تكبيرات محمديَّة، ويسير كتخداهم وأفندى الإنكشارية وإمام الفرقة وسائر كتبتهم جنبًا إلى جنب راكبين، وهم أيضًا جنود عظام، يبلغ عددهم سبعة آلاف ومائتين وثمانية وثلاثين نفرًا . وليس لدى آل عثمان جيش مزين مثله، ولأوضباشيهم حق الزواج، فلذا هم جميعًا متزوجون . ومن أراد منهم التقدم والرقى أكثر من الاشتراك فى الحروب والأسفار حتى يتقدم فى السن فينقل إلى سلك لابس الأردية السود، وإن كان فيه استعداد وكفاية لذلك يُعَيَّن فى وظيفة الكتخدا التى يحصل له منها ألف كيس مصرى

من المال في العام . وإذا تم مرور هؤلاء ظهر موكب ملازمي الإنكشارية، وهؤلاء أيضًا صنف من الجيش الإنكشارية إلاَّ أنهم يضعون على رءوسهم إسكفات مزينة بطرفين من ريش مالك الحزين كأنهم الصقالب slivaques الذين يمشون بجانبَي ركاب السلطان . وإذا انتهى مرورهم ظهرت خلفهم أعلام الباشا المصنوعة من ذيل الفرس، وحُجَّابه ورؤساء بلوك الحجاب ونحو سبعين أو ثمانين من جنود اللوند[٣] المسلحين، ومعهم رئيس يهيِّئ المنازل في السفر، ورئيس المؤذنين . ثم يمر رئيس حجابي الباشا الوالي مع خمسة عشر أو عشرين من غلمانه المزينين، ويسير بعدهم تسعة من أقواد فيَل النوبة الباشا مزينة بعدد مطعمة بالجواهر، يقود كل واحد منها سائس ذو مجوزة راكبًا على جواد أصيل . ويسير بجانبيهم ملازمو الإنكشارية المارُّ ذكرهم، ثم رئيس التراجمة ورئيس المتفرقة جنبًا إلى جنب وهم ركوب، ويمر بعد ذلك كتخدا الجاويشية والروزنامجي.

(٣) جنود اللوند levent : مُصطلح عسكري كان يُطلق على جنود البحرية . والكلمة مشتقة من الكلمة الإيطالية levantino، والتي أطلقها البنادقة على الجنود الذين استخدموهم من أهالي الشرق . وللكلمة معانٍ كثيرة لغويا .

ما يهمنا هنا استخدامها كمصطلح عسكري يستخدم في البحرية، وهم الذين كانوا يقومون في بداية الأمر بالتجديف، ثم أصبح يُطلق على الجنود الذين يقومون بحراسة الربط والقلاع البحرية التي يفتحها الأسطول . ثم أُطلق على الجند المستخدمين في السفن الحربية والموكل إليهم حفظ الأمن ، وتنفيذ أوامر القبطان البحري . وكان يُطلق "لوند رومي" على المنتسبين إلى بلاد الروم، ثم ظهر منهم مَنْ تَسَمُّوا بـ "خيَّالة اللوند"، وهم من فرسان اللوند الموكل إليهم حفظ الأمن في الولايات والسناجق التي ليس بها أمير للأمراء أي قائد عام.

مع انهيار الدولة أصاب كلا الصنفين الإهمال ، وأقيمت لهم مزارع في مناطق بيك أوغلو وشيشلي . صدر قرار بإلغاء هذا النظام عام ١١٨٦ هـ = ١٧٧٢ م، واختفت هذه التشكيلات من الدولة العثمانية، وبقي هذا المصطلح في اللغة فقط وأصبح يُطلق على مَنْ يهتم بهندامه وقيافته .

كانوا يرتدون صديرية صفراء ، وشلواراً قصيراً على أفخاذهم ، ويلفون على رءوسهم عمامة يمنية ، ويتمنطقون بالسكاكين والخناجر على خصورهم . (انظر : محمد ذكي پاقلين جـ ٢ صـ ٣٥٨ - ٣٥٩) .

ثم يمـر شـطار[٤] الباشـا الوالـى العشـرة غـارقيـن فـى المقصبـات وعلى رءوسـهم خـوذات ذهبيـة، وبعـد هؤلاء جـمـيـعًـا يمـر الباشـا بكسـوته السـمورية وسرواله المخمـلىِّ متقلدًا سـيفًا مذهَّبا علـى حـزام مرصَّع، وقـد وضـع علـى عـمـامـتـه طـرتين سـلطانيـتين ممتطيًـا جـواده الأصـيل، ويسـير بجـانبيـه حَمَلة البنـادق وسـقَّـاء والقـافلة، وخلفـه سـلاحـداره[٥]

---

(٤) الشطار (satir - satirlar - satir basi) : مصطلح يُطلق على صنف من الناس الذين يكونون فى معيَّة السلطان وخلال مواكبه، وكانوا يسيرون بزيهم المزركش كوكبة حول السلطان، وكان يُطلق على مَنْ هم منتسبون إلى السراى " الشطار الخواص (خاصَّة شاطرلر)، ويُعتبرون من المشاة العثمانية . أُلغيت هذه التشكيلات ثم أُعيدت عدة مرات، وكانوا يسيرون على الميسـرة فى ركب السلطان، ثم سادت هذه التشكيلات فى الباب العالى وسائر الوكالات. يتصفون بسرعة العدو والجرى، ونال بعضهم إحسانات السلاطين لهذه الصفة . ألغيت هذه التشكيلات خلال عام ١٠٧٧ هـ، ولكنها أعيدت عام ١٦٦٦م. كان لهم رئيس يُطلق عليه "شاطر باشى" ووكيل معتمد. كانت ملابسهم مزركشة وأسلحتهم مرصَّعة، وفى عهد السلطان محمد الرابع تم اعتمادهم ليكونوا فى موكب صلاة الجمعة، وكانوا يرتدون على رءوسهم طاسات ذهبية وفى أيديهم بلط مذهَّبة .

أُطلق على الموظفين الذين يعملون فى معية الصدر الأعظم والوزراء وكبار موظفى الدولة، وكانوا مكلفين بإحقار مَنْ يقع عليه عقاب أو جزاء ما بين أفراد الشعب، وهم يماثلون قوات الدرك فى العصر الحديث . (انظر محمد ذكى باقالين . جـ ٣ صـ ٢١١).

(٥) **السلحدار ، سلاحدار،** Silahdar : لقب يُطلق على واحد من كبار رجال السراى، وكان يوازى لقب "سلحدار شهريارى " ، ويوازى أيضًا " سلحدار أغا " أى رئيس السلحدار، أى الأغا حامل السلاح. وفى بداية الأمر كان من الأركان الخواص وثانيهم ، أما الأول فهو "رئيس القطاعة الخاصة"، وكان السلحدار من المقربين إلى السلطان، ولهذا السبب كان من أرباب الوظائف المهمة .

وخلال المواكب الاحتفالية والمراسم كان يسير خلف السلطان مباشرة على الجانب الأيمن وقد امتطى صهوة جواده المطهم ، وهو فى كامل ملابسه المرصَّعة، ويضع على كتفه اليمنى سيف السلطان ويضع كوفية من القطيفة الحمراء اللون على رأسه .

وقد استُحدث هذا اللقب فى عصر يلدبرم بايزيد (= بايزيد الصاعقة) ، ويبين قانون محمد الفاتح أن هذا المنصب كان مهما منذ ذلك التاريخ ... وكان صاحب هذا المنصب يتلقى تعليمًا وتنشئة جيدة مسبقة فى السراى الهمايونى . =

وچوقداره[٦] لابسَيْن على رأسيهما " أسكفة " حمراء. ويسير بعدهما مدير مكتب الباشا والخازن وعشرون أغا من خواص الباشا ذوى الرتب ومائتا فراش مَتُّنى ، حاملين البنادق، ويسير بعدهم إمام الباشا الهمام وأفندى ديوانه الشهير وأتباعه

= كان يتدرج فى المناصب حتى يصل إلى هذا المنصب ، وكان منذ عهد السلطان مصطفى الثانى ١١١٠ هـ = ١٦٩٧ - ١٦٩٩م يصدر بشأنه فرمان خاص لمن يتولى هذا المنصب، مما زاد من قيمته . وكان من حقه أن يشرف ويفتش على كل الوظائف والمهامً داخل السراى .

وكانت تمنح له رتبة الوالى على بعض الولايات المهمة مثل مصر وغيرها ، كنوع من الإحسان السلطانى، ترضية أو مكافأة ، أو أن يُعيَّن أحدهم قبطانًا بحريا أو قائداً للأسطول ، بل وصل بعضهم إلى الصدارة ، ومَن لم ينل رتبة الوزارة فقد كان ينال الإقطاعات والزعامات والتيمارات الشاسعة . ومن كان منهم ينال هذه العطايا كان يعيش طوال حياته مرفهًا، ومن كان يُعين سلحداراً كان يُمنح مبلغًا نقديا تحت مسمى " عجميلك ". وقد وصل فى القرن الثانى عشر الهجرى، الثامن عشر الميلادى إلى ١١٦٠٠ أقچة . وكان السلحدار يُختار من بين الشخصيات العلمية، وقد وصل منهم ما لا يقل عن عشرين شخصية إلى منصب الصدارة العظمى .

كان يُطلق على رئيسهم " سلحدار أغا "، أى رئيس السلحدار، كما كان من بين تشكيلات الإنكشارية بلوك يُطلق عليه " بلوك السلحدار "، وكانت قواته من الخيالة والفرسان . كما كانت هناك خزينة خاصة تحت حراستهم ملاصقة لدائرة السلطان ولدائرة الأمانات المقدسة فى سراى السلطان ، وكانت تُحفظ فيها الأشياء القيِّمة إلى جانب أسلحة السلطان . وهم الذين كانوا يؤمِّنون طريق الجيش عند التوجه إلى الحرب ، ومن القوات المهمة المرافقة لموكب الحج والمحمل المتجه إلى الحرمين الشريفين ، وتكون هذه القوات تحت إمرة أمير قافلة الحج الشامى .

(٦) چوخة Çuha = Çuka ، چوقدار = چوخدار Çuhadar : الچوخة هى قطعة القماش المشبعة بمسحوق الطباشير، وتُمرر فوق الحبر لتجفيفه عند الكتابة "منشفة "، والـ "چوخة دار" من موظفى السراى العثمانى الذى كان يعمل فى خدمة السلطان، ثم أصبح يطلق على كل السعاة الذين يعملون فى الدوائر الحكومية. ثم صار هذا الاسم يُطلق على مَنْ يقوم بإعداد وحفظ ملابس السلطان والصدر الأعظم والوزراء وكبار موظفى الدولة " المُلبِّس "، وكان مخولاً بالإشراف على الخلع والستائر التى تُعد من قماش الچوخ القطيفة. كان هذا اللقب "الچوخة دار" يُطلق إداريًا على الموظف المكلف بفتح وإغلاق ستائر أبواب الوزراء وكبار رجال الدولة فى الدوائر الحكومية . ولما كانوا يلبسون ملابس مصنوعة من الچوخ فقد أُطلق عليهم هذا اللقب " أصحاب الچوخ "، وكان يقوم بالسعى لدى إدارات الحكومة لتسيير الأوراق مُعَقِّب يتابع الأوراق الخاصة للقادة العسكريين، وكان يُطلق على المسئول عن ملابس الإنكشارية "چوقة دار مينى" أى أمين صاحب الملابس . (انظر محمد ذكى پاقالين جـ١ صـ ٢٨٤).

وشعار علم رسول الله الأخضر، تحفُّه من جانبيه أعلام خضر وثمانية عشر زوجًا من الطبول يتبعها سراجو أغوات الخاصة والفراشون والسقاءون .

وإذا بلغ الباشا السراى بهذا الموكب العظيم أطلقت مدافع القلعة مائتى طلقة وعزفت موسيقاها أنغامًا شجية إيذانا بالفرح والسرور، ثم ينعم الباشا على الجنود بخمسة أكياس هدية لاحتفائهم به، ثم يُمَدُّ سماط محمدى عظيم يتناول الطعام منه جميع الموجودين، حتى إذا فرغوا من الطعام رفعوا أيديهم إلى السماء داعين الله وشاكرين نِعَمَه، ثم ينعقد الديوان حسب القانون السليمى فيُتْلَى فيه الخط الشريف (٧) "الأمر" الحامل لإمضاء السلطان، وينفذ هذا الأمر فى هذا الديوان وإلا فهناك حساب آخر .

وبمصر حاكم آخر هو سردار حرس الباشا، يقدم عادة من إستانبول، ويترقى إلى منصب أغا الإنكشارية بعد أن كان جاويشًا لهم، فيقوم بقبض أموال الحرس من بيت المال، وهو الذى يقوم بتأديب المذنب منهم، ولكن ليس من القانون اشتراكه فى المواكب وحضوره إلى الديوان، فلا يحضر إلاَّ إذا اقتضى الأمر حضوره وطلب إليه الباشا ذلك، فحينئذ تذيع فى مصر سمعة ذلك الحرس ويشتهر .

وهناك حاكم آخر هو رئيس الشرطة (صوباشى) الذى له أن يقتل بلا سؤال من يجده فى حالة مريبة، وفى يده من الأوامر ما يخول له ذلك . وبيد رئيس الشرطة أمن البلد، فعلى باب إدارته فرقة من الجيش الإنكشارى تقوم مقام العسس .

---

(٧) **الخط الشريف** : مصطلح إدارى كان يُطلق على الأمر الصادر من طرف السلطان بصدد أمر معين أو بشأن تعيين شخص فى وظيفة معينة، فلم تكن هناك ضرورة أن تخرج جميع الأوامر بخط يد السلطان، بل كان الكتبة أو الكُتاب هم الذين يخطون الأوامر ، ثم يوقع فقط من قبل السلطان . وكانت الأوامر تُكتب على ورق خاص بالسراى وتكون عليها طغراء السلطان. وهناك بعض المعاهدات أو الأوامر التى كان السلطان يخط بيده ملخصها ، ثم يقوم الكاتب بكتابتها، ويوقعها السلطان . وكان من المعتاد إرسال خط شريف إلى شريف مكة سنويا ، لتثبيته فى ولايته أو تولية غيره).

ولا يجوز فى القاهرة لبس السروال الأحمر لغير الچراكسة وحملة البنادق والمتطوعين والمتفرقة والچاويشية، وإن فعل ذلك أحد سواهم عوقب . وأما غيرهم من المصريين والإنكشارية والعزبان فلهم أن يلبسوا أردية من أنواع الجوخ " الحرأنى "، ويلبسوا على رءوسهم عمائم وعصائب ويتحزموا بأحزمة مختَّمة ويحملوا سكينًا كسكين الطهاة لأن للإنكشارية والعزبان مكانة فى مصر الآن، فقد رأيت كثيرين من أعيان المتفرقة والفرسان انفصلوا من فرقهم للالتحاق بالإنكشارية والعزب . وأما محافظو قلعة القاهرة وجنود حصونها وأبراجها ورجال السجن العامِّ والمتقاعدون فلا يسمح لهم بالخروج من القلعة لأنهم مكلَّفون دائمًا بحراسة الأموال المقدرة بألوف الأكياس . وكذا رئيس معمل البارود، فإن له معملاً فى ميدان السراى حيث يظل نصف رجاله فى ميدان السراى والنصف الآخر فى القلعة الداخلية حارسِين مخازن البارود، وبما أنهم محبوسون دائمًا فمخصصاتهم كبيرة . وفرقة موسيقى القلعة أيضًا لا تستطيع مغادرة القلعة، فإن رجال هذه الفرقة يعزفون بعد العشاء من كل ليلة على ثمانية أطقم من الأدوات فواصل يعجز رئيس الفرقة الموسيقية الخاصة بوالى مصر عن الإتيان بمثلها، لأن أفراد تلك الفرقة قد تخلف كل منهم عن وزير من الوزراء السابقين وله راتب ضخم. وليس هذا فحسب فإنهم يعزفون على آلاتهم فواصل موسيقية شجية من مقام " العشاق " قبل الفجر بساعتين تدمى قلوب العشاق، ومن العجب أنهم متفقون فى هذا مع مؤذنى القاهرة فى الوقت، بحيث لا ينتهى المؤذنون من التسبيح والأذان من هذا المقام نفسه على مآذن جوامع القاهرة حتى تشرع فرقة القلعة فى العزف وتستمر مدة طويلة .

فى بيان مواجب (رواتب) الطوائف العسكرية

التى مر ذكرها فى كل شهر وفى كل ثلاثة أشهر

حسب القانون السليمى تُصرف مواجب الإنكشارية والعزب (عزبان) والمدفعيين والقائمين بأحوال الذخيرة والعربجية والموسيقين (مهتران) فى كل ثلاثة أشهر. وأما المتفرقة والچاويشية وحملة البنادق (تفنكچية) والمتطوعون والچراكسة و" الكشيدية " والأيتام والجوالية، ففى كل شهر لهم مخصص (علوفة). والآن نبين مقدار المواجب واليوميات على عام واحد بالعملة التركية المسماة أقچة[8] والكيس .

الأول : المتفرقة هم بلوك واحد، عدد أنفاره ٢٧٤٣ تبلغ يوميتهم ٤٤٦٢٦ پارة[9] وتبلغ مع الإخراجات ٧٨٩٨١٧٦ پارة . والإخراجات استحقاق أفراد هذه الفرقة الذين يكلَّفون بمهمات لدى الكاشفين خارج القاهرة، أو بالالتحاق بحاميات القلاع، حيث ترسل إليهم مخصصاتهم علوفة . والباقى منها ٧٧٥٣٤٤١ پارة . والمجموع السنوى المستحق مع التفاوت يبلغ ٣٠٨ أكياس . ويكون الباقى ٥٤٤١ پارة. وأما التفاوت فيبلغ ١٩٢٥٣٥ پارة . والتفاوت هو ما يُضاف إلى إيراد الخزينة العامة من المبالغ المتحصلة لدى صرف المواجب والمخصصات، بواقع پارة عن كل أربعين "پارة".

(٨) أقچة Akçe : كلمه تركية تدل على سكّة فضّية صغيرة وكانت تُعتبر من أكثر العملات العثمانية تداولاً. تغيرت قيمتها من فترة إلى أخرى تبعًا لتغير الظروف الاقتصادية للدولة العثمانية، وكانت الكيسة منها تحتوى على خمسمائة قرش . عُرِّبت بكلمة " بيضة و أبيض، فكان يُقال خمسة أبيض، وقطعة بيضة .

(٩) پارة Parah : مصطلح مالى يُطلق على عملة معدنية كانت تساوى $\frac{1}{40}$ من القرش، وقد استعمل للدلالة على النقود بصفة عامة . انتقلت من الفارسية إلى العثمانية بمعنى السكّة، وكانت قيمتها أقل من الأقچة وأصغر منها فى التعامل، وكانت تمثل كسور القرش .

كانت تُجمع فى محفظة كبيرة ثابتة العدد تسمى " پارة كيسه سى " أى حافظة أو كيسة النقود . (انظر: محمد ذكى پاقالين حـ ٢ صـ ٧٥٢ – ٧٥٣) .

الثانى : الچاويشية (دفتر) وعددهم ١٤٤٩ نفراً، يوميتهم ٢٥٠٥٥ پارة، وإخراجاتهم ٤٤٢٤٧٢٠ پارة وبواقيهم ٤٢٢٦٥٥٨ پارة، والمجموع ١٧٣ كيساً والكسور ١٥٥٧ پارة، والتفاوت ١٠٨١٦٢ پارة.

الثالث : حملة البنادق (تفنكجية) وعددهم ١٠٨٧ نفراً، يوميتهم ٩٧٠٩ پارة، تبلغ مع إخراجاتهم ١٧١٨٤٨٨ پارة، وبواقيهم ١٦٧٦٦٦٥ پارة . والمجموع ٢٧ كيساً، والكسور ١٦٦٥ پارة، والتفاوت ٤١٨٢٣ پارة .

الرابع : المتطوعون وعددهم ١٣٦٥ نفراً، يوميتهم ١٢٥٧٥ پارة، تبلغ مع الإخراجات ٢٢٢٥٧٧٢ پارة وبواقيهم فى اليوم ٩٩٤٠ پارة . وفى السنة ١٧٥٩٤٦٤ پارة، وبواقيهم ١٧١٦٥٥١ پارة، والمجموع ٢٨ كيساً والكسور ١٦٥٥١ پارة، والتفاوت ٤٢٩١٢ پارة (يظهر أن هذا سقط لأن الحساب اضطرب وتكرر) .

الخامس : دفتر العزب القدامى (عزبان عتيق) وعددهم ٣٢١٢ نفراً، يوميتهم ١٣٨٤٨ پارة تبلغ مع الإخراجات ٢٤٥٠٨٣٦ پارة، وبواقيهم ٢٣٩١٠٦١ پارة، والمجموع ٩٥ كيساً، والكسور ١٦٠٦١ پارة .

السادس : دفتر عزب بندر السويس وعددهم ١٢٥ نفراً، يوميتهم ٢٦٧ پارة، تبلغ فى العام ٤٧٤٢٦ پارة، والبواقى ٤٦١٨٠ پارة، والكسور ٢١٨٨٠ پارة، والتفاوت ١١٥٦ پارة.

السابع: دفتر المستحفظان وعددهم ٧٢٣٨ نفراً، يوميتهم ٦٣٧١٦ پارة (فى اليوم ١١٢٧٨)، والبواقى ١١٠٠٢٧٩٠ پارة، والمجموع ٤٤٠ كيساً، والكسور ٢٧٩٠ پارة، والتفاوت ٢٧٥٠٦٩ پارة . وبلوكات فرقة المستحفظان هذه ١٣٨ بلوكًا، وهناك بلوك واحد من متفرقة المستحفظان يبلغ عدد أفراده مائة نفرٍ .

الثامن : مدفعجية القلعة، وهم بلوك واحد عدد أفراده ٥٥٠ نفراً .

التاسع: عربجية المدافع، وهم بلوك واحد يبلغ عدد أفراده ١٠٠٠ رجل .

العاشر: عساكر قلعة الخزينة، بلوك واحد مؤلف من ٢٠٠ رجل .

الحادى عشر: متقاعدو القلعة، بلوك واحد عدد أنفاره ٢٥ نفراً .

الثانى عشر: فرقة الموسيقى التى بالقلعة الداخلية (مهتران قلعة)، وهم بلوك واحد عدد أنفاره ٦٠ نفراً.

الثالث عشر: عمال الذخيرة، وهم بلوك واحد .

والفرق التى وردت أسماؤها بعد فرقة المستحفظان يأخذ أفرادها مواجبهم مع أفراد هذه الفرقة . تلكم البلوكات السبعة من جنود الإسلام الذين تبلغ مرتباتهم السنوية جملة ١٢٤ كيساً و٢٢١٦٧ بارة . والسلام .

الفصل العشرون

بيان ما فى حكم قاضى مصر وحكومته وعوائده وفوائده ونياباته والقضاة الذين بإيالة مصر

قبل كل شيء يجب القول إنه حينما ضم السلطان سليم خان مصر، كان ابن كمال باشا أحمد أفندى قاضى عسكر الروم[١٠] فى الجيش العثمانى، فأنعم عليه السلطان بمولوية مصر[١١] لأول مرة، حيث جعله حاكماً مستقلاً بها . كما أنه كلف كُلا

(١٠) **قاضي العسكر:** من أرفع المراكز العلمية فى الدولة العثمانية ، وقد كان منصب قاضى الجند أو العسكر موجوداً فى الدولة العباسية والخوارزمية ولدى سلاجقة الأناضول والأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، ويعد مراد الأول أول سلطان عثمانى أوجد هذا المنصب فى بلاده ، وكان "جاندارلى قره خليل " هو أول من شغل هذا المنصب فى الدولة العثمانية . وفى عهد محمد الفاتح تشعب المنصب إلى قاضى عسكر الروميلى والأناضول . وبعد فتح بلاد الشام وديار بكر ومصر فى عهد سليم الأول استحدث منصب " قاضى عسكر العرب والعجم "، وعين فيه المؤرخ المشهور " إدريس البتليسى ". وكان مكانهم فى التشريفات بعد الوزراء مباشرة ، ويجلسون فى صدر الديوان عند انعقاده ، ويستقبلون بمثل استقبال الوزراء، ويدخلون على السلطان أربعة أيام أسبوعيا كالوزراء. ويقف لهم السلطان عند استقبالهم فى الأعياد والمناسبات الدينية ، ولهم الحق فى الدخول على السلطان دون إذن فى وقت الحرب ، وترتب لهم العلوفات أو المرتبات، ويعقدون الديوان العسكرى ، ويخصص لهم مساعدون ، ويشتركون فى مناقشات الأمور الدينية التى كانت تعقد فى الباب العالى. (انظر : پاقلين).

(١١) **مولوية Mevleviyyet** : مولويت مصطلح يُطلق على مخصصات القضاة بصفة عامة فى التشكيلات العلمية . وكانت "المولويت" هى طريق كبار المدرسين، وكان يُطلق على أساتذة السليمانية "كبار المدرسين"، وظلت هذه الأصول والقواعد هى المتبعة بعد أن استخدمها سليمان القانوني، على الرغم من أن قانون محمد الفاتح كان يخصص مخصصات للملاى ابتداءً من الملازم " المعيد " حتى أساتذة الخارج الذين كانت يوميتهم خمسين أقچة . والمدرس الذى يُرقى إلى قاضٍ كانت =

من الغزالى (لعله جانبردى الغزالى) وابن كمال باشا بتحرير أراضى مصر . فعلى هذا التحرير والمسح يبلغ إيراد مولوية مصر على وجه العدالة والحق مائتى كيس من المال، فقاضي مصر يُصَرِّف شئونها القضائية بمائة من العمال والخدم، وفي ديوانه قضاة من المذاهب الأربعة، وهناك أيضًا عدد يبلغ المائة من المسجلين والمقيدين والشهود ومحضِّرى المحكمة وخدمها .

= ترتفع يوميته إلى ثلاثمائة أقچة يوميا، وهو بهذا يُصبح صاحب مولوية أو مولويت . أما القاضى الذى يتخرج فى "صحن ثمان" فكانت مولويته تصل إلى خمسمائة أقچة يوميا، وكان من الطبيعى أن يترقى من التدريس إلى القضاء . ومنذ سليمان القانونى والمولوية كانت توجه إلى المدرسين الكبار وتظل معهم بعد تعيينهم قضاة .

عندما قرر شيخ الإسلام فيض الله أفندى الذى كان أستاذًا للسلطان مصطفى الثانى باستحداث نظام "زاده كانلق التوريث فى المناصب العلمية، أصاب التشكيلات العلمية بضرر بالغ ، وجعل المولوية توجه إلى من لا يستحقها.

أما عن المخرج Mahrec فقد كانت المولويات ثلاث درجات ، مولويات بلاد المخرج ومولويات البلاد الخمسة ومولويات الحرمين الشريفين . وكان مصطلح مولويات البلاد العشرة يُطلق على مولويات المخرج وهى: إزمير وسلانيك وفنار المدينة الجديدة وخانية والقدس الشريف وحلب وطرابزون وصوفيا وغلطة والخواص الرفيعة (أبواب البلاد وملحقاتها)، وكان لهذه البلاد العشرة قُضاتها من أصحاب المولويات .

أما مولويات البلاد الخمسة فكانت لقضاة مصر والشام وبورصة وأدرنة وفليبة . وأما مولويات الحرمين الشريفين فكانت لقضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة .

كانت مولوية المخرج حقا لكل المدرسين ، ويُرقى إليها عشرة مدرسين سنويا، وبعد أن يقضى المدة العرفية يدخل ضمن أصحاب الدُّوْر فى مولويات البلاد الخمسة . وبعد أن يتولاها ويقضى بها المدة المعتادة يدخل ضمن المرشحين لمولوية الحرمين الشريفين، ورغم قلة ارتباطها المالى فقد كانت أعلى المولويات قَدْرًا . والذين يقضون مُدَدَهم فى هذه المولويات أو يُعزلون منها كانوا يتولون أمانة الفتوى أو وكالة التدريس أو قضاء العسكر أو رئاسة الأطباء أو رئاسة المنجمين، أو يُحسن إليه بأحد الأقضية ليعيش من دخله، أو يعيش على ما ادخره حتى يُعيَّن فى منصب آخر. كانت المدة العرفية لكل مولوية سنة واحدة. (انظر: محمد ذكى پاقالين ، جـ٢ صـ ٥١٩-٥٢١).

وفى معسكر إنكشارية مصر جهاز من الچورباجية(١٢) وظيفته المساعدة فى أمور الشرع الشريف فى الأمور العائدة إليه فيطلق على هؤلاء الإنكشارية لقب (ملازمين) ويلبس كل منهم ثوبًا أسود وأسكفة مقصَّبة .

وهناك رئيس المترجمين وهو مصرى، وكذا أمين السجلات، حيث يجلس فى قبة حجرية بها سجلات محمدية قديمة من عهد سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه وهى مكومة مثل الجبال وخاضعة لحكم أمين السجلات هذا .

وهناك أيضًا مدير مكتب القاضى (كتخدا) وهو واسطة الرشوة ويد خفية لها .

وهناك كذلك نائب الباب ونائب المدينة " ومحضرباشى " وهو رجل مسن خبير بالأمور وحامل رتبة الرءوس العلمية من إستانبول ومن كبار حجاب القصر العالى . وتحت يده ثلاثمائة محضر، وهو يحصِّل خمسة أكياس من المال فى العام .

وحينما ينعقد الديوان السلطانى - وهو يعقد خمس مرات فى الأسبوع - يحضر إليه كل من المحضر باشى لابسًا على رأسه أسكفًا مقصبًا وكتخدا القاضى لابسًا على رأسه عمامة مسترسلة ويعقد معهما المحضرون ممسكين بأيديهم العصى وخلفهما الإنكشارية بأثوابهم السود وأسكفاتهم، سائرين مثنى مثنى . ويأتى بعدهم القاضى

(١٢) **الچورباجية** : اصطلاح عسكرى عثمانى، يُطلق على ضباط البلوك الذين يكونون جنود المشاة فى الجيش العثمانى، وعلى ضباط معسكر الجند الجدد المكون من واحد وثلاثين بلوكا ، والذين كانوا بمثابة مخرج لمعسكر القالبى قولى، وهو مواز للبلوك باشى أى رئيس البلوك . وكانوا يُلقبون أحيانًا بـ "صورباشى"، ويطلق على أقدمهم فى الجماعات "باياپاشى" قائد المشاة، وكانت لهم خيولهم الخاصة بهم، وكانوا يرتدون جبة طويلة الأكمام من المخمل وقفطانًا رقيقًا وشلوارًا قرمزيا وبابوج نعل أصفر فى أقدامهم .

أما القادة الذين يلقبون " چوربجى كجه سى " فقد كانوا يرتدون فروًا مُقصبًا، وهم الذين يقومون بتنفيذ الجزاءات التى توقع على الجند وينظمون أمورهم ، أى أنهم كانوا بمثابة البوليس الحربى فى العصر الحديث . غُيِّر هذا اللقب إلى " أورطة أغاسى " بعد إلغاء الإنكشارية .

واضعًا على رأسه القاوق وبجانبه چوقدار الإنكشارية ووكيل السوق ونحو عشرين أو ثلاثين من مشاة السراجين، ويعقبهم رجال سجلات الديوان، يسيرون حاملين أكياسهم الحمر إلى الديوان السلطاني، وليس في بلد آخر مثل هذا النظام في موكب القضاة . ويطلق على كبير القضاة بمصر اسم قاضي العسكر أفندي وقد أطلق هذا الاسم لأول مرة بها على ابن كمال پاشا حين فتح السلطان سليم مصر ونصبه فيها على قضائها، فلا يزال يطلق على قضاة مصر حتى الآن، وهو مقيم في قصر عظيم يُقال إنه كان قديمًا قصرًا للمعز لدين الله الفاطمي القاهري المغربي .

وفي ديوان قاضي العسكر قاضٍ آخر يقوم بوظيفة القسام من قبل قاضي عسكر الأناضول حيث يقيد جميع المخالفات العسكرية بإذن منه، فيضبطها الپاشا بموجب ذلك القيد، ويقيم بديوان الپاشا ليلاً ونهارًا مندوب من قبل القاضي ومعه محضرون وشهود لاحتمال حدوث حادث في الديوان بعد العشاء يتطلب البت فيه حسب حكم الشرع الشريف .

ولقاضي العسكر أربع وعشرون نيابة بداخل القاهرة في كل منها نائب تركي (رومي) وقضاة من المذاهب الأربعة وخدم لقاعاتها، فأولى النيابات وأعظمها محكمة باب الخلق ثم محكمة المشهد الحسيني، ومحكمة باب النصر، ومحكمة باب (...) ومحكمة القيسونية، والمحكمة الجديدة بميدان الرميلة، والمحكمة الطولونية، ومحكمة باب الشعرية ومحكمة درب الجماميز، والمحكمة القديمة بسويقة الدلالين، ومحكمة باب الحديد، ومحكمة خارج السور، ومحكمة بولاق، ومحكمة مصر العتيقة .

والخلاصة أن حاصلات كل هذه المحاكم الأربع والعشرين تأتي كل أسبوع للقاضي أفندي. وهناك نائب آخر يسير مع المحتسب[١٢] في الأسواق للتفتيش والتفقد

(١٢) سوف يتحدث عنه الرحّالة بالتفصيل عند الحديث عن ليلة المحتسب وموكبها .

فقط دون الإجراء والتنفيذ، فليس فى استطاعتهم تنفيذ التسعيرة السلطانية لأن الجميع تحت الحماية، فلذا لا يمكنونهم من ذلك .

وهناك نيابات تُسَمَّى الضواحى كنيابات بلدة شبرا وبلدة البساتين وقايتباى .

بيَان الأَقْضِيَة التى فى حُكْم قاضى القاهرة فى الإيالة المصرية

من الأقضـــية الستة ، أولاً قضاء الغربية ، أعنى المحلة الكبرى التى هى المركـــز لها. حاصلها السنوى أربعون كيسًا مصريا، فهو قضاء معمور أنعم به مرات بصفة المولوية بمبلغ خمسمائة آقچة. ثم قضاء دمياط حاصله ثلاثون كيسًا، ثم قضاء رشيد حاصله ثلاثون كيسًا وهو قضاء شريف . ثم قضاء الإسكندرية حاصله على وجه العدالة أربعون كيسًا، ثم قضاء المنصورة يُحَصَّل منه عشرون أو ثلاثون كيسًا . ثم قضاء (منيتين) وهذا أيضًا يُحَصَّل منه خمسة وعشرون كيسًا . ويطلق على هذه الأقضية فى إيالة مصر الأقضية الستة الأولى . وأنعم بهذه الأقضية مرات عديدة على سبيل المولوية نظير مبلغ خمسمائة آقچة . ثم قضاء المنوفية، ثم قضاء البحيرة ، (البرلس) . ثم قضاء (فوقرة)، ثم قضاء سنديون ، ثم قضاء محلة أبو على، ثم قضاء إبيار ، ثم قضاء نهارية ، ثم قضاء محلة مرحوم ، ثم قضاء بلبيس، ثم قضاء ميت غمر ، ثم قضاء زفتى الشرقية ، ثم قضاء سلمون، ثم قضاء خنك، ثم قضاء الجيزة الذى أنعم به على شيخ الإسلام البولوى مصطفى أفندى، ثم قضاء الفيوم، ثم قضاء بنى سويف ، ثم قضاء (تزمپن)، ثم قضاء البهنسا ، ثم قضاء الفشنة ، ثم قضاء ملوى ، ثم قضاء منفلوط، ثم قضاء أسيوط ، ثم قضاء أبو تيج ، ثم قضاء طهطا ثم ، قضاء أشمونين ، ثم قضاء صنبوط الذى يخص النبى عليه السلام، وهو فى حكم السادات وعامر جداً، ثم قضاء الجزيرة، ثم قضاء سوهاج ، ثم قضاء المنشية، ثم قضاء الواحات الغربى، سوى هذه الأقضية وما سواها من البلاد بسكانها السود حتى بلاد السودان . ثم تأتى البلاد الخالية التى فى الجانب الشرقى من النيل

حيث تقع بلدة "صاى" فى منتهى حدود مصر . ثم قضاء إبريم، ثم قضاء أسوان، ثم قضاء قوص، ثم قضاء قنا، ثم قضاء إدفو، ثم قضاء شرق إخميم، ثم قضاء السويس .

سُردت أسماء الأقضية الستة والسبعين فى إيالة مصر، ما عدا بعض أقضية أخرى لم نذكرها لعدم شهرتها، ويطلق عليها لفظ مضافات . وتوضح هذه الأقضية كلها من الآستانة العلية ببراءات سلطانية(١٤) بمعرفة قاضى عسكر الأناضول الذى يتبعه القلم الخاص بأقضية مصر، قلم مستقل لا يتدخل فى شئونه قضاة قط، كما أنهم بدورهم لا يتصرفون فى مناصب الأناضول والروملى، بيد أن قواعد القانون السليمى أن قضاة مصر بعد أن يجتازوا مناصب ما يسمى الأقضية الستة الرئيسية (تخت باشى) وهى الغربية ودمياط والإسكندرية والمنصورة وأمثالها، يجوز لهم الحصول على المولويات فى الأناضول والروملى، وبذلك يخلصون من مناصب مصر، وإلا فإنهم مقيَّدون بها كل التقييد لا مفر لهم منها .

---

(١٤) براءات سلطانية BERAT : مُصطلح إدارى يعنى الورقة المكتوبة التى تحمل أمرًا معينًا أو محددًا، وهى عبارة عن أمر تعيين أو تصريح للقيام بمهام معينة ، ويحمل طغراء السلطان المعنِيّ بالأمر. وهى تحمل نفس معانى بترأت ، أمر ، بتى ، براءت شريفة، نيشان، نيشان شريف، حكم .

المعنى اللغوى : الورقة المكتوبة والمختومة اصطلاحًا هى الورقة الرسمية التى تحمل ماهية أمر أو فرمان لتولى مهمة أو رتبة أو منح امتياز أو صلاحية محددة .

لم يكن أى مسئول قبل إعلان التنظيمات (١٨٣٩م) يستطيع أن يقوم بأى مهمة ما لم تصدر له البراءة السلطانية بذلك من الديوان السلطانى، ولم يكن هذا المصطلح يطلق لمن يتولون الوزارة، بل كان ذلك يُسمى "المنشور" أو وزارت منشورى.

قبل إعلان التنظيمات ١٨٣٩م كانت البراءات والمنشورات تُعد فى ديوان رئيس الكتاب بعد أن يتسلم تذكرة الصدر الأعظم بذلك، وبعد أن تُعد البراءة أو المنشور فى دائرة رئيس الكتاب تُرسل إلى دائرة الصدر الأعظم الذى يضع عليها طغراءه وعلامة (✓) ثم تُرسل إلى طالبها أو مستحقها. وهناك أنواع للبراءات منها التجارية والإدارية والسياسية والالتزام والإعفاء والوزارة والدفتردارية وقيادة الجيش وبراءات سائر المهمات الرسمية . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، جـ ١ صـ٢٠٥).

هذا، وكانت الأصول تقضى بأن يكون فى مصر أربعة مشايخ للإسلام للمذاهب الأربعة، فكان شيخ الإسلام الحنفى بمصر فى زماننا هو مصطفى أفندى المولوى[١٥] الذى نفاه كوپريلى پاشا[١٦] إلى مصر لعدم إفتائه بجواز قتل الغازى دلى حسين پاشا سردار جزيرة إقريطش، وقد خصص لهذا الشيخ حاصل إيراد قضاء الجيزة، بيد أن أحداً لا يحتاج إلى فتاواه ولا يقصده فى ذلك، لأن الذى يحتاج إلى مثل هذه الأمور يذهب إلى الأزهر فيناول أحد علمائه بضع فلسات ويأخذ الفتوى كما يريد ويهوى، وفى الوقت نفسه يحصل غريمه وخصمه على فتوى أخرى على قول ضعيف أو رواية مرجوحة، وهكذا يحاول الخصمان تحقيق غاياتهما وأغراضهما بكل الوسائل، فينتهى الأمر إلى أن يعملوا حسب القول المأثور (الصلح سيد الأحكام) ويضيع حق أحد الطرفين لا محالة ويرغم على قبول الصلح .

---

(١٥) **شيخ الإسلام مصطفى أفندى المولوى** : هو صنع الله أفندى بن الحاج مصطفى بن جعفر أفندى ، ١٥٥ ٢ - ١٦٢١ م ، وهو شيخ الإسلام الثالث والعشرون فى الدولة العثمانية .

(١٦) **كوپريلى پاشا " الصدر الأعظم "**: كوپريلى (نحند پاشا - الصدر الأعظم) تولى الصدارة العظمى فى الدولة العثمانية ، كان واحداً من أكثر القادة اقتداراً. ينتسب إلى العرق الأرناءوطى، وصل إلى دار السعادة بعد أن شب فى سنجق برات . التحق بالراى العثمانى ضمن زمرة الطباخين الخواص، بعد ذلك انتسب إلى خسرو پاشا وأصبح خزيمة دارا ، وما إن وصل قره مصطفى پاشا إلى الصدارة حتى نال رتبة " مر أخورلق " إمارة إسطبل السراى . ثم عُيِّن والياً على الشام وطرابلس والقدس الشريف. تولى الصدارة ١٠٦١ هـ = ١٦٥٠ م، ثم تولى فيما بعد سنجق كوستنديل . أخيراً انزوى فى قصبة كوپرى التى سكنها، وعقب تقديمه عرضحالاً إلى الشير پاشا الذى تولى الصدارة حين مروره من حلب إلى دار السعادة عُيِّن على ولاية طرابلس، إلاَّ أنه لم يصل إليها بسبب تغيُّر طالع البشير پاشا وعَزْلهما هما الاثنين . عُيِّن على طرابلس مرة أخرى عقب تقديمه عرضًا للصدر الأعظم الجديد " بيونى كَرى محمد پاشا عام ١٠٦٦هـ = ١٦٥٥م . وعلى إثر توصية أصحاب المقاصد الخيرية عُيِّن من جديد صدراً أعظم، وبذل جهداً كبيراً فى إصلاح أحوال الدولة . استرد عام ١٠٦٧هـ = ١٦٥٦م العديد من الجزر من أيدى الأعداء، وفتح قلعة وراد عام ١٠٧١ هـ = ١٦٥٩م . أُصيب بالمرض سنة ١٠٧٢هـ = ١٦٦١م وتوفاه الله بعد أن رقد عدة شهور. تولى الصدارة فى زمن السلطان محمد خان الرابع . (انظر: شمس الدين سامى . قاموس الأعلام جـ٥ صـ ٣٩٠٧).

والحاصل أن إحقاق الحق فى مصر من أصعب الأمور، بل إنه بعيد الاحتمال، وذلك لأن إحدى الجهات لا بد أن تتدخل فى الأمر بالشفاعة والرجاء أو الإيحاء والإشارة بكل إصرار وإلحاح، وقد يحصل أن يتدخلوا فى الأمر والقضية مباشرة ويتسببوا فى صدور حكم ظالم وقرار جائر .

وفى مصر عشرون ألف عالم يتصدون للإفتاء ويخترعون مسائل غريبة وعويصة وقضايا عجيبة يتفننون فى معالجتها، ولا شك فى أن مصر بلد عجيب غريب الأحوال والأطوار جدير بالمعرفة والاطلاع، وله علماء وفضلاء كثيرون يشاركون فى علوم كثيرة وفنون عديدة، وليس لحكمائه أمثال ونظراء فى الكون؛ إذ هم فى غاية الذكاء والألمعية، كما أن الأطفال المصريين وشبانهم فى غاية النباهة والنجابة وسرعة الخاطر، فلذا يوجد بمصر عدد كبير من حفاظ القرآن يبلغ عددهم سبعة وخمسين ألفًا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، فتراهم منبثين فى الدكاكين ومفترشين الأرض فى قارعة الطريق ورءوس الشوارع وعلى أبواب الحمامات ولاسيما فى ميدان الروملى، وفيهم حفاظ يُجيدون التلاوة وهم محترفون لذلك .

وبالجملة فإن عدد العلماء والقضاة والمدرسين قد يبلغ مائة وأربعة وسبعين ألفًا، هذا ويكاد علماء الحديث والتفسير يختصُّون بمصر، وكذا فيها أكثر من اثنى عشر ألفًا من الأئمة والخطباء وأحد عشر ألفًا من المشايخ الكرام، وفى الجامع الأزهر وأروقته الكثيرة زهاء اثنى عشر ألفًا من العلماء الذين فى أيديهم الكتب وفى رءوسهم المساويك. وها نحن نبين العلوم التى تدرس فى مدينة القاهرة :

فى الحديث الشريف كما ورد فى الأثر: "العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان" . علم الطب، ثم علم الفرائض، ثم علم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الحديث، وعلم التوحيد، والعلم اللدنى، وعلم البيان، وعلم الكلام، وعلم الكمال، وعلم الآداب، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المنطق، وعلم المعانى، وعلم اللغات، وعلم العروض، وعلم الخط، وعلم النجوم، وعلم الجبر، وعلم الكف، وعلم السيمياء، وعلم الكيمياء،

وعلم الهيئة، وعلم الحكمة، وعلم الزيج، وعلم دانيال، وعلم الفأل، وعلم جر الأثقال، وعلم الرمل الوفق، وعلم الأسالمساماء، وعلم التسخير، وعلم الدعوة، وعلم الفلسفيات، وعلم الأدوار، وعلم الزايرجة، وعلم الإصطرلاب، وعلم الحرف، وعلم الحروف، وعلم النارنجات، وعلم طى المكان، وعلم الإخفاء، وعلم التعبير، وعلم السحر، وعلم الفراسة. كل هذا موجود، ولكن الأدب مفقود .

بيان توزيع الخزائن السابق ذكرها على جميع جنود مصر

... وغيرهم من العلماء والخلفاء والداعين لله، وكذا الخزائن الأخرى التى تُبْذَل مصروفاتُها من مصر، وصورة الدفتر الإجمالى الهمايونى لجميع ما يحصله الكتخدا إبراهيم پاشا بموجب الخط الشريف من الإيرادات وكيفية إيرادها إلى حصن الخزينة .

سبب تأليف هذا الكتاب بيان الشئون الآتية وإيضاحها، وهى أنه بالمجلس الشرعى المحمدى العالى الذى عقده حامى العاصمة اليوسفية القديمة بانى مبانى العدل وهادم أساس الظلم والفساد، وحافظ معالم الإسلام، ناصر ضعفاء الأنام وحامى حمى الدين والدولة ماحى آثار الظلم والذلة، أصف المكرم والوزير الأكرم الكتخدا إبراهيم پاشا وفقه الله لما يرضاه، مع الأمراء المصريين، وبخاصة مقدم ركب الحاج والبيت العتيق أوزبك بك أمير الحج ومحمد بك النوفالى مقدم جيش الأمراء وحسن بك وقانصوه بك ومصطفى بك ويوسف بك الذين شغلوا منصب الدفتردار سابقًا، ومحمد بك وعلى بك ومحمد بك الجندى وعبد الله بك وعمر بك من حكام جرجا السابقين، ومن أغوات الفرق السبعة محمد أغا رئيس المتطوعين ومصطفى أغا رئيس الجراكسة، ومصطفى أغا رئيس المستحفظان، وجعفر أغا رئيس العزب، وسليمان أغا كتخدا رؤساء خدم الديوان المصرى المحصلين، ومصطفى أغا ترجمان الديوان العالى، ومحمد أغا رئيس المتفرقة الخاصة بالديوان، وجعفر أغا رئيس الچبجية وكتخدائية البلوكات السبعة والچاويشية .

ومن أرباب الأقلام المصرية إيواز بك مدير الدفترخانة المصرية، وعبد الرحمن أفندى الروزنامجي وأحمد أفندى كاتبه الأول وعلى أفندى كاتبه الثانى ويوسف أفندى مدير الحسابات، ومصطفى أفندى وصالح أفندى من خلفائه، ومحمد أفندى مكَّاس الشرقية مقاطعة جى، وكاتباه على أفندى ومحمد أفندى، وحسن أفندى مكَّاس الغربية، وكاتباه أحمد أفندى وإبراهيم أفندى، ومحمد أفندى مكَّاس المدينة، وكاتباه شعبان أفندى ومحمد أفندى، ومرتضى أفندى مكَّاس الغلال، وكاتباه مصطفى ومحمد أفندى، ورضوان أفندى مكَّاس مصرف الغلال وكاتبه فضلى أفندى، والأفندية كتبة الچاويشية والمتفرقة والجوالة والإنكشارية والعزب والمتطوعين وحملة البنادق، وعلى أفندى وحسن أفندى كاتبا فرسان اليمين واليسار، ورجب أفندى كاتب الچبجبة وإبراهيم أفندى كاتب الأيتام ومصطفى أفندى البلطة جى كاتب الكشيدة، والأفندى كاتب الجوالى، وعثمان المُلَقَّب بكاتب الأرزاق، وسليمان أفندى كاتب الإنكشارية . ومنتهى القول أنه فى حضور جميع أرباب ديوان مصر وأعيانها كبارًا وصغارًا .

وأنه حينما عيِّن هذا الوزير المكرم لأمر مصر من قبل السلطان الذى يمثل عدالة الله فى أرضه، عُرِض عليه حين وصوله إلى مصر مُجْمَل قيودات الأراضى وسائر الأموال الناتجة من الأقلام الواردة إلى الخزَانة، إذ سجَّلوها فى الدفاتر بندًا بندًا مُصَحَّحًا خاليًا مِنْ الكشط والسهو، وتبين أن الدفاتر المصرية تُظْهِر أنه نظرًا إلى عدم كفاية الأموال المحصَّلة لنفقات الإدارة المصرية بسبب الثورات والقلاقل المستديمة من عهد الوزراء السابقين حتى أيام الوزير الحالى، ولأن النفقات السنوية تزيد عن الإيرادات السنوية، فقد جعل ما هو مقرر إرساله كل سنة إلى الأستانة العليَّة والبالغ ألفًا ومائتى كيس مصرى ينقص بمقدار أربعمائة وأربعين كيسًا وسبعة عشر ألفًا ومائة وثلاثًا وخمسين پارة . ونَقص كذلك المقرر إرساله إلى خزائن القصور العامرة فى الأستانة – حسب ما هو محرر بها من الذخائر السلطانية وغيرها من المواد الضرورية –

مبلغًا وقدره واحد وأربعون كيسًا وثلاثة وعشرون ألفًا ومائة وخمس وثلاثون پارة، بحيث لزم لإتمام الخزينة كل سنة مبلغ أربعمائة وأربعة وثمانين كيسًا مصريًا وخمسة آلاف ومائتين وثمان وثمانين پارة .

فلذلك عمل الوزير المذكور (أدام الله نعمه عليه) على إعمال الفكر واتخاذ التدابير الصالحة لضبط قيودات جميع القرى والأراضى التى انحلَّت وخلت من أربابها فى زمنه السعيد، وحصَّل جميع الأموال الضائعة عنها، بحيث صارت الواردات تفى بالنفقات التى أُنْفِقَتْ فى عهده، وأرسل الباقى بموجب الدفاتر المحددة فى الأقلام إلى الأستانة، مشفوعًا بتقارير وخلاصات عن أحوال البلد. وهكذا نال ثقة السلطان وصار موضع رجائه والتفاته، كما أن الدفاتر والتقارير التى رُفعت إلى السُّدَّة السَّنِيَّة اقترنت بالموافقة السلطانية، وتُوِّجت بالخط الشريف الهمايونى الذى كان مضمونه ما يأتى :

فَلْيَكُنْ مَعْلومًا لديك حينما يصلك خطنا الشريف أنه قد ورد إلى سُدَّتنا السَّنِيَّة دفتر خزينة مصر وكتابها الخاص، فألفينا الإيرادات والمصروفات قد نظمت وفقًا لمصلحة الدين والدولة بشكل واضح، إذ صُحِّح ما بالإدارة من خلل، وقُضى على الاختلاسات والاضطرابات التى كانت قائمة فى ما سبق، كما يدل على ذلك ما أرسل إلى ركابنا السلطانى من الملخصات والكشوف ، وقد حاز كل ذلك الرضا والقبول، أسعدك الله فى الدارين، وجعلك خليقًا بالتمتع بنعمنا. وإذ قد عرضت على سُدَّتنا السَّنِيَّة، والتمست منا بعض وصايا ونصائح فى بعض الشئون، فإنا نوصيك بالنصائح الهمايونية الآتية :

لا يجوز مُنذ اليوم البدء فى منح مخصصات سنوية أو مواجب أو بدل جراية أو فدادين محولة من خزينة مصر المحروسة، مهما

كانت قليلة، وإذا ورد الأمر الصادر من بابنا الهمايونى بمنحها فيجب قيده فى السجل المخصص لذلك، مُبَيِّنًا فيه مخالفته للقانون، وعرضه على أعتابنا .

وإن تم عزل والٍ من ولاة مصر فيجب على أمير اللواء المُعَيَّن نائبًا عن الوالى الجديد، ومدير المال والروزنامَجى والمكّاس وسائر الكتبة الذين لهم صلة بشئون الخزينة وخدماتها، أن يُباشروا محاسبة ذلك الوالى المعزول بموجب السجلات على وجه الحق والعدل، وأن لا يتدخل فى ذلك مَن لا صلة لهم بهذه القضية ولا علاقة لهم بشئون الخزينة.

ولا يجوز إعطاء المَحْلولات[١٧] التى تحدث فى أثناء تلك النيابة عن الوالى لأحد من الطالبين، ويجب حفظ المقدَّمة من قبل إدارة الأيتام بإشغال تلك المحلولات وتوقيعها حتى يحضر الوالى الجديد. ولا يؤجل مال الإيراد السنوى بالترك والإهمال، بل يعجل بتحصيله دون تأخير أو إمهال. وإن كان فى مقاطعة أو قرية عاطلة ما يقتضى التنزيل من الإيراد، فإن الباقى بعد تنزيل ما يقتضى تنزيله يبقى فى الخزانة ولا تُنْقَص بعد ذلك من الإيرادات حَبَّة ولا دانق، ما لم يوجد ما يقتضى ذلك أو يوجبه .

---

(١٧) المحلولات : الالتزام أو الإقطاع أو المولوية التى يتوفى عنها صاحبها؛ فتصبح محلولة أى خالية من أى ارتباط ، ويمكن أن تُمنح لملتزم أو أمير من الأمراء أو لقاضٍ جديد، فى مقابل مبلغ محدد يتم دفعه أو الالتزام به.

على والى الولاية وفى معيته الدفتردار والروزنامجى ومدير الحسابات فتح دفاتر حسابات الخزينة ومخازن يوسف فى شهر توت من كل عام، وإخراج ما يخص الخزينة من الإجماليات الواردة بأمر الهمايون ، والقيام بمراجعة إيرادات الخزينة ومصاريفها وإعادتها إلى أماكنها إن وجدت الإيرادات متعادلة مع النفقات، وإكمال الوالى ما فى الإيرادات من النقص بما يحصَّل من المال من المحلولات، ثم قيده بمعرفة الدفتردار فى السجلات كى يُعْلَم ما بالخزانة من الزائد والناقص، ثم تسليم ذلك الإجمال إلى البك أمين إرسالية مصر لتوصيله إلى الأستانة وتسليمه إلينا مع الخزينة .

يجب أن تُنفذ المواد المُبَيَّنة على وجهها المشروح، وأن يعمل حكام الإيالة المصرية ومحكوموها بما فى أمرنا الصادر فى هذا الباب من الأحكام .

وأنت أيها الوزير، عليك أن تقوم بتنفيذ المواد المذكورة على هذا المنوال فى عهد توليك، وأن تتجنب العمل بما يخالف ذلك مباشرة أو بالواسطة، ولأجل أن يكون هذا الفرمان[١٨] دستور

---

(١٨) الفرمان Ferman : مصطلح إدارى يعنى الأمر المكتوب الصادر من طرف السلطان فى أمر ما أو بشأن مصلحة ما تخص الدولة أو الأشخاص، وكلمة فرمان فارسية تعنى الأمر أو الإرادة .

استخدم مصطلح "فرمان" من قبل الإيلخانيين عقب قبولهم الإسلام ، ثم انتقل إلى العثمانيين . وهو يقابل مصطلح " التوقيع " الذى كان مستخدماً من قبل السلاجقة والمماليك، ومصطلح "يارليق" الذى كان يستخدمه التيموريون ومن قبلهم الإيلخانيون والقرة قونيلو وخانات القرم .

مهما تنوعت المسميات فكلها تعنى الأمر والحكم وإرادة التنفيذ . وللفرمان سبعة أركان: ١ – ذكر لفظ فرمان. ٢ – ألقاب المرسل إليه. ٣ – سبب إرسال الفرمان. ٤ – أمر المرسِل إلى المرسَل إليه. ٥ – التصريح بالأمر والمقصد المطلوب. ٦– الدعاء بالنتيجة الخيِّرة. ٧ – التاريخ والمكان المرسَل منه الفرمان .

=

العمل مدى الدهر، عليك بحفظه فى حصن خزينة مصر وإبقائه فيه، وذلك لإخراجه كل سنة فى أول " توت"، وإمعان النظر فيه حينما يُعْلَم الإجمال من الحسابات وفحص الإيرادات والمصاريف حتى يمكن رفع المخالفات التى تكون قد ارتُكبت فى أثناء السنة، حسب النصائح والتنبيهات الهمايونية الواردة فى فرماننا الهمايونى هذا . وحيث إنه قد صار فرماننا الشريف الجارى بقضائنا السلطانى وأمرنا العالى الواجب الاتباع بتنفيذ كل ذلك بالدقة والاهتمام حسب ما سبق شرحه، حتى إذا ما توقف يُحَصِّله أرباب الأقلام من الأموال على ما دوِّن من المفردات فى دفاتر الخزينة التى وضعت حديثًا تبين أن بالأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الشرقية ١٠٨٠ كيسًا مصريا و١٢٣٩٤ پارة ومن الأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الغربية ٢٦ كيسًا و١٧٧٢٨ پارة.

وحاصل القول أن مصير حاصلات أقلام مصر السبعة والسبعين الناتجة من الرسوم المفروضة على الطائر فى السماء والسابح فى الماء والسائر على الأرض أمانة هنا، حيث تنطق دفاتر الروزنامجى بأن النفقات تبلغ ٢٦٥٢ كيسًا مصريا و٥٠٤٣

= وقد كان الفرمان يُعد ويُكتب ويخرج من الديوان، ولا بد أن يحمل طغراء السلطان، وبعضها يحمل تأييد السلطان أو تأشيرته، والتى كانت تُسمى "دركنار" . وفى بعضها الآخر كانت تستخدم صيغ الأمر والتهديد، وبخاصة إذا كان مرسلاً إلى والٍ أو وزير أو عدو من الأعداء، وبعضها كان يوشَّح بخط يد السلطان "خط همايون موشح". (وإلى جانب الأركان له شروط يمكن مطالعتها بالتفصيل فى كتابنا: "الوثائق العثمانية = الدبلوماتيك" ، دراسة حول الشكل والمضمون . القاهرة ٢٠٠٥، فانظره. وكذلك انظر محمد ذكى پاقالين ، جـ١ صـ ٦٠٧– ٦٠٨).

بارة. ومن هذا المبلغ ٥٦٤ كيسًا و١٠,٠٠٠ بارة من الكشوفية الكبيرة و٥٤٧ كيسًا و٩٠٦٥ بارة من مقاطعة الثغر، و١٠٠ كيس و٥٥٤٨ بارة من أموال مختلفة مُحَصَّلة من قلم المحاسبة، و٤٠ كيسًا من المال يقدمه والى مصر مقطوعًا سنويًا لتكميل الخزينة عن القرى المحلولة تحت حلوان البلد، و٣٣ كيسًا و١٥٠٧٠ بارة أموالاً متحصلة من القرى التى وقفتها الملكة شجر الدر على كسوة الكعبة الشريفة و٥٥ كيسًا و١٢٥٠٠ بارة فى السنة من المال الذى يتكون من عملية خصم الـ " بارة " من كل إحدى وأربعين بارة المعتاد خَصْمها منذ القدم من عموم مصاريف ديوان مصر باسم " التفاوت ".

ويبلغ مقدار أموال العادات والرواتب والجرايات والمراعى والفدادين التى تصرف حسب الأصول القديمة على الزوايا والأضرحة التى بمصر، وعلى العلماء العظام والمشايخ الكرام، وعلماء بندر الإسكندرية، وكذا مال مراعى الأمراء المصريين والجنود المنصورين وأموال جميع العلماء مبلغًا قدره ١٨١ كيسًا و٥٠٠ بارة فى العام .

ولما كانت أثمان ما يلزم شراؤه من الأشياء للجنود القائمين على خدمة الحجاج والكسوة وغيرهم من الذين يرأسون الأعمال ويقومون بها حسب الوارد فى دفاتر الروزنامة هو مبلغ ٣٣ كيسًا و٢٤٢٤ بارة، حيث يكون ذلك مع مجموع رواتب العلماء والأمراء وأثمان الخلع مبلغا وقدره ٢٧٨١ كيسًا و٢٤٨٤٤ بارة . ولما كان ما يرسل إلى الخزينة العامرة حسب الأصول منذ عهد السلطان يبلغ مبلغًا قدره ١٢٠٠ كيس مصرى فيكون المجموع الكلى ٣٩٨١ كيسًا و٢٤٨٤٤ بارة سنويا حسب ما هو مقيد فى الدفاتر، وبذلك صار الإيراد السنوى مساويًا للمصروف السنوى .

كما أن دفاتر الروزنامة والمقاطعات وأقلام المتفرقة تدل على أن الباشا الوزير قد حَصَّل - بفضل عنايته وسعيه من يوم توليه حتى تاريخ الكتاب - مبلغًا للخزينة العامرة قدره ٢٣ كيسًا و٢٠٠٠٠ بارة زيادة على المبلغ الذى أرسله إلى الأستانة.

وحينما عرض الباشا الوالى هذا الأمر على الحاضرين فى المجلس طالبًا آراءهم فيه أفادوا بما يأتى: أنه حسب ما هو مقيد فى السجلات يبلغ مجموع ما ورد إلى الديوان المصرى مبلغًا من المال قدره ٣٩٨١ كيسًا و٢٤٨٤٤ بارة فى العام، وأن المصاريف السنوية حسب ما ورد فى دفاتر الروزنامة وسائر الأقاليم، ومع ١٢٠٠ كيس من المال المعتاد إرساله إلى الأستانة، يبلغ ٣٩٨١ كيسًا و٢٤٨٤٤ بارة، وعلى هذا يصير الإيراد السنوى معادلاً للمصاريف السنوية. وبعد اعتراف المذكورين وإقرارهم بذلك واقترانه بالأمر الهمايونى الكريم واتخاذ الدفاتر المذكورة دستورًا للعمل، بادر الدفتردار وسائر الموظفين إلى التعهد بأداء ما وقع من العجز والنقص من أموال الخزينة العامرة وسائر الإيرادات والمصروفات فى عهد القائمقامية، وقام الوزير المكرم الذى صار مظهرًا لنص الآية الكريمة ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف١٢/٥٥) بامتثال الأمر السلطانى وإطاعة ظل الله فى أرضه حسب قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء ٥٩/٤) . وبما أنك أيها الوزير عليم بأن طاعة أولى الأمر وامتثال أوامر من يتولى أمور الدين والدولة فرض وواجب، وأن مخالفة ذلك مخالفة للشرع، فعليك من الآن فصاعدًا باجتناب التغيير والتبديل والتحريف والتحويل فى الأمور المذكورة، وإياك وعدم الانصياع لقبول فحوى الآية الكريمة ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢ /١٨١) ، فى شأن صرف المرتبات والإنعامات الممنوحة من الأعتاب السلطانية السامية لفقراء الحرمين الشريفين والمشايخ الكبار... أموال المحروسة مصر التى هى مطبخ أرزاق العالم ومنبع معايش بنى آدم مدى الدهور والأزمان، فإن تلك الرواتب والمخصصات صدقة لا تنقطع.

وبموجب الفرمان العالى والأمر الملكى واتفاق آراء الوزيرالمكرم والأمراء الذين وردت أسماؤهم فى هذاالكتاب وسائر أمراء مصر المشهورين وأعيان الديوان وأغواته، قد أودعت دفاتر إيرادات الأقلام المصرية ومصروفاتها مع هذا الكتاب برج الخزينة لكى تكون دستوراً صالحًا للعمل، يُرْجَع إليه لدى الحاجة.

واختتم باللغة العربية قائلاً :

"تحريراً فى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ١٠٨٢ اثنتين وثمانين وألف بعد الهجرة الأحمدية صلى الله عليه وسلم".

صورة إمضاء قاضى مصر (ملا) أعنى حضرة أبى المعالى إسحاق زادة أفندى الشهير ما فيه من تكميل خزانة المال وختمها بخاتم التصديق من عدول الرجال . وقع عنه العبد المنكسر البال، الفقير إلى ربه ذى الجلال، أبو الفلاح محمد الصالح بن إسحق القاضى بمصر المحروسة دامت دار الأمالى، عفا عنهما ربهما يوم الحساب والسؤال. تم هذا المكتوب فى شهر شوال.

بيان اصطلاحات اللَّهَجات الخاصة بأهالى مصر

أولاً : إن اصطلاحات وعبارات أعيان مصر أم الدنيا كثيرة مختلفة الأنواع واللهجات.

ثانيًا : إن العديد من أهالى القاهرة يتكونون من قوم المماليك مثل الچراكسة الهاشمية والأباظية القرشية وسائر أقوام صَدْشَة والكرج والمكريل والداديان ذوى الرءوس الحاسرة والروس وغيرهم .

ولقد اقتضت الإرادة الإلهية الأزلية أن يُجلَب هؤلاء إلى مصر بسبب من الأسباب فيباعوا فيها بيع الرقيق - كما بِيعَ سيدنا يوسف - لأسرة كريمة مصرية، فتربوا فى

كنفها وتدرجوا في مضمار المعارف والفنون والآداب والكمال حتى صاروا ذوي مكانة واعتبار، وقد بلغ بهم السن الشيخوخة واكتمال العمر، وقد وصل عدد منهم إلى منصب عزيز مصر أيضًا . بيد أن مصر من البلاد العربية، فكان على هؤلاء المماليك أن يتركوا لهجاتهم الخاصة الثلاث[١٩] جانبًا ويتخلَّوْا عنها، ويقبلوا على التكلم باللغة العربية، ولكنهم اخترعوا لأنفسهم لهجة خاصة ذات عبارات تتألف من كلمات عربية وتركية خليطة يُقال لها "مُلَمَّع"، لأن لغتَي الأباظيَّة والچراكسة لغتان ثقيلتان لا يسهل استعمالهما دائمًا .

وهذه اللهجة المُخْتَرَعَة الخاصة تُسْتَعمل بين أهالي مصر فقط ، ولا توجد في بلاد تركية أخرى . وإليك بعض مفرداتها : (رَغِيف) الخُبز، (وحد الله)، و(الله يستُر)، وكقولهم (فُطُور ايده لِم) بمعنى لنفطر . وقولهم (بُيرون غَدْوَة ايده لِم) بمعنى تفضلوا لنتغدى، و(عَشْوَة إيده لِم) تعني تفضلوا لنتعشى . وكقولهم (أبرار أولدى) أي دخلت أول ليلة من رمضان وكبَّر لها، وقولهم (سلام أولدى) بمعنى كبَّر للفجر وأسفر الصباح، وقولهم (نِيل وفا ايتدى بمعنى وفى النيل وفاض ، و(غَشِيم) لِمَنْ كان غير متمرن وغير عارف بعمله، و(دُويدار) بمعنى كتخذا رئيس الشرطة و(جُندى) بمعنى أغا، و(سجَّان) معناه التركى " زندانجى " ويطلقون لفظ (مُوقَّع) على كُتَّاب الديوان، و(عَرَفَات) العارف والخبير بأصول الديوان وقواعده ، و(فرَّاش) الذي يكنس البيوت والمساكن، و(زبَّال) كناس الشوارع، و(حمَّار) على صاحب الحمير، و(جمَّال) على صاحب الجمال، و(طبَّاخ) على الأشجى، و(كاشف) بمعنى الحاكم، و(والى) بمعنى رئيس الشرطة، و(حاجب)، و(قوَّاس) الخادم الذي يحمل القوس ، و(مقدَّم)

---

(١٩) يَقْصد هنا اللهجات التركية التي كانت سائدة بين أهالي مصر، وهي التركية والأباظية والچركسية.

وهو الذى يسير أمام الحاكم، و(نايب غيبة) وهو الذى يتصدى للقيام بأمور الواردين من الخارج ، و(قلچدار) الذى يحمل السيف أمام الحكام ، و(روشَنْبا) بمعنى صاحب النَّوْبَة، ورئيس النواب وهى لغة صحيحة، و(ركابدار) بمعنى صاحب ركائب الحكام ومن يسير فى ركابهم، و(مسودَّة) الذى يخدم السماط والمائدة، و(استدار) الجاشنكرية رئيس الذَّواقة ، و(حاصل باشى) المُوَكَّل على الطهاة، و(حاصل) مخزن الكيلار والمؤن، و(رشيد) حاكم القرية، و(شيخ البلد) حاكم الفلاحين فى القرى، و(فلاح) هو الذى يحرث الأرض، و(غَفير) بمعنى الحارس، و(تخفير) الزراعة والفلاحة ، و(عاطل) القَرْية التى لا حاصل لها ولا إيراد . وكقولهم (رَى أولشدر) يعنى القرية المَرْوِيَة والمَسْقِيَّة، و(شراقى) القرية غير المَسْقِيَّة ، وقولهم (مساحة أولشدر) يعنى القرية المَشْغُولة المَمْسُوحَة ، وكقولهم (كَفْردَن فيض كلد) يعنى جاء المال والقَبْض من القرية ، و(شومنة = شونة) يعنى عنابر ومخازن القمح ، و(جَرَّافة) الصندوق الذى يوضع به التراب وتجره الثيران لتَسْوِيَة الأرض، و(نورج) الذى يُهْرَس به الغلال فى الجرن، و(جرن) هو بَيْدَر القَمح، و(غلال) مجموع الحُبُوب من قمح وشعير وبازلاء وبُقُول وفول، و(حِنْطَة)، و(قَمح) بمعنى واحد، و(عليق) هو جراية الشعير، و(جِراية) الشىء المعيَّن من القمح، و(يرجراية) يعنى الأرض التى سَيُزْرَع فيها الحب يُرادِف "التارلا" بالتركى بمعنى الحقل، وكقولهم (فدَّان يرى) أعنى الأرض ذات العُشْب والمَرْعى ، و(مُحتَكر) الذى يُقال له بالتركى "مطراباز" بمعنى الذى يَطْلب الغَلاء ويَسْعى للقحط، و(مُسَبِّب) الذى يَجْرى وراء الكَسْب والرِّبْح . وكقولهم (سد ايتدى) بمعنى أتَمَّه وأكْمَلَه، و(غلق ايتدى) بمعنى قَفَلَه وأغْلَقَه، و(آرق خانة) سجن المديونين وسجن قاضى العسكر، و(ديلم) سجن الصوباشى أى سجن مدير الأمن . و(والى ديلمى) يعنى الحَمَّال، و(نَشَّال شيال) يعنى الطَّرار قاطع الجيوب والهِمْيان ، و(نصَّاب) هو الذى يخدع الناس، و(مملوك) العبد والرقيق، و(مماليك) العَبْد

الأسود، و(طواشى) الأغا المحبوب - المَخْصى الذى يُقال له بالتركى " خادم أغا "، و(وكالة) بمعنى الخان، و(رَبع) مجموعة الغرف الخاصة بالمتزوجين، (وسطوح) هو سطوح المنازل، و(مُوالس) ذو الوجهين، و(خوردة) الجمرك. و(قَيَّالة) النَّومْ بعد الظهر والغداء ، و(كحك) الخبز المدور كالحلقة، و(بقسماط) هو البكسمات = السميط، بالتركى، و(قراقيش) اللُّقْمَة المَدْهُونَة الدَّسِمَة ، و(مُطَبّق) هو ما يسمى بالتركى " ياغدى كاغد ". وكقولهم (بَهْدِيل ايتدى) بمعنى أن فلانًا ضربنى وجعلنى كالرقاق . وكقولهم (بنى وتاح ايتدى) بمعنى جعلنى مجروحًا، وكقولهم (بن عَوَزميم مى ؟) يعنى هل أنا فى عوز واحتياج ؟ وكقولهم (يا خضرى) يعنى يا سلطانى، ويا (نظرى) يعنى يا عينىّ و(تلْت أول) الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لميعاد المال الميرى، و(تلت ثانى) هو الجزء الثانى، و(صيفى مال) المال الذى يؤخذ فى أيام الصيف، و(شتوى مال) الذى يؤخذ فى الشتاء، و(توت) هو أول السنة القبطية ، و(خماسين) هو أول أيام الحر الشديد بمصر حيث يُلاقى الناس فيها عذابًا شديداً، و(ملاق) يطلق على مسافة من الأرض بين القريتين . و(المِوُم) عِصيان العرب واحتشادهم ، وكقولهم (بوغ ايتدى) بمعنى سلخ جلد الإنسان وحشاه تبنًا ثم دخل به ديوان مصر، فيُطلق على هذا العمل " بوغ " ويقال (شرَّانى أتدر) بمعنى الفَرسَ الجموح ، ويُقَال (بطران أتدر) بمعنى الفرس الكسلان الخامل . ويُقال (تُرْعَة يى جَرَفَة إيتدى) بمعنى أنه طهر الترعة والقناة ، و(قِين يغنِى) بمعنى كومة الطوب والقرميد، و(عُمال) بمعنى الفَعَلَة ، و(بنَّاء) بمعنى الذى يبنى الحيطان والمنازل ، و(غرامة) بمعنى التجريم أو التعريض، و(شَرمُوطة) بمعنى الخرقة البالية ، و(ما يُبَالى) بمعنى الذى لا يبالى ولا يهتم. وكقولهم (ماله أو طوردى) بمعنى أنه تعهد بتسديد ما عليه من الديون ، و(بَرْطِيل) بمعنى الرشوة ، و(باشِمِزَه شبكة أولدى) بمعنى أنه صار مصيبة علينا . وكقولهم

(استحقاق در) يعنى يستحق ويستأهل لهذا ، و(كُلْفَة ويردى) يعنى أنه أعطى النفقة .

صفات نقيب أَشْراف مصر من العُلَمَاء السادات الكِرام

إن السيد برهان الدين الرومى نقيب الأشراف أعظم العلماء الأعلام وأجلُّ السادات الكرام، وهو السليل الطاهر للسيد برهان الدين من مدينة " أكردير " بسنجق حميد . وقد ظهرت لأجداده مئات الكشوف والكرامات . والسيد برهان الدين مقيم بمصر منذ سبعين عامًا، وقد بلغت أسرته الغاية من الكرم . لا يقصد رحَّالة من بلاد الروم أو العرب أو العجم أو الهند أو السند أو سمرقند أو بخارى، إلاَّ وينزل ضيفًا على داره الكريمة فينال شرف صُحْبَته، ويصيب من نعمه، ويكتسى من كِسَاه المختلفة . ومن الضيوف من أقام بداره عامًا أو عامين دون أن يشعر منه باستثقال، ومجلسه يحفل دائماً بمباحثة العلماء فى المسائل الشرعية ومعارف شتى. وله فى الديار المصرية سبعون نائبًا فى سبعين موضعًا، تصل إليه مَحْصُولاتهم كل شهر . وقد خُصِّصَ مركز الخانكة صدقة له، وهو يدير مدرستين وسبع نظارات، وله قرى عامرة ومزارع خصبة، وتحت سلطانه ٤٦٠٠٠ نسمة من السادات والأشراف[٢٠] بالقاهرة والقطر المصرى . وإذا كان هناك احتفال وخرج الناس لاستقبال الوالى انقلبت الشوارع إلى خُضْرَة من

---

(٢٠) **المشايخ السادات :** مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء وأحفاد سيدنا الحسن حفيد النبى صلى الله عليه وسلم ، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم الأشراف . وكان نقيب الأشراف ينظم حياتهم ، ويحفظ سجلاتهم ، وكانت لهم مخصصات من الدولة ، ولنقيب الأشراف نواب فى كل الولايات يحلون محله فى حل أمور الأشراف . وكان منهم أمراء مكة المكرمة فى بعض المراحل التاريخية ، وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكة " مكة شريفى " أى شريف مكة، وكان يتبع إدارة مصر عند الفتح العثمانى . وما إن علم بدخول سليم الأول مصر (٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م) حتى أرسل إليه ابنه ومعه مفاتيح مكة والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة ، وبهذا انتقلت إلى الإدارة العثمانية .

العمائم تحت العلم المُحَمَّدى ، وخفق لواء رسول الله بسناء النور المحمدى، وهم يمرون بالآداب الرسولية فى صفوف منظمة راكبين جياداً أصيلة .

تناولت فى هذا الفصل طائفة من جُنود مصر وعلَمائها وأمرائها وكاشفيها وملْتزميها وكَتَبَتها على وجه الاختصار، وسوف أكتب عنها فى أماكنها مفصلاً إن شاء الله .

أقام السلطان سليم الأول (عليه الرحمة والغفران) بمصر ورشيد والإسكندرية تسعة أشهر كاملة، وأحصى جميع الطوائف إحصاءً دقيقًا، وحَدَّد طوائف الجند وكل طائفة فى مَوْضعها، ورتَّب العلماء والصلحاء والمشايخ على حسب رتبهم ، ونظم جميع الأمور المهمة بقانون على أن يكون قانونًا سليميًا، ثم أقام وليمة عظيمة لكبار أولياء الله والعلماء وأجزل لهم العطاء والإحسان، ثم استأذن منهم فى الرحيل فأذنوا له حامدين داعين بالسفر إلى بلاد الروم . وبعد ذلك زار مقابر أولياء الله الكبار، فأمر بتلاوة مائة خَتْمَة فى يوم واحد فى المشهد الحسينى وهبها لأرواح الأنبياء والأولياء، وقصد بموكب عظيم إلى العدلية فأقام فيها مأدبة عظيمة لأعيان ديوان القاهرة، ثم أمسك ابن كمال باشا بيده اليمنى والوزير المكرم خاير بك بيده اليسرى فآخى بينهما بأن جعل كلاً منهما يُقَبِّل الآخر، فوحد أخوين فى الدنيا والآخرة، ثم قال: أستودع الله أمور مصر، وقد نَصَّبْتكُما حاكمَين وجعلتكما أمانة عند الله وفى أيدى أعيان مصر . وسلم ابن كمال باشا لعلماء مصر وشرفائها، وسلم خاير بك لأعيان مصر من أمراء الديوان ، ثم قرأ الفاتحة وسافر إلى الأستانة فى محرم سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م مفوِّضًا أمور مصر كلها إلى خاير بك .

كان خاير بك راغبًا فى مرافقة السلطان سليم الأول حتى غزة، إلا أن السلطان قال له : " وزيرى خاير بك إن أردت خيراً لمصر فارجع من العدلية، فإن البلاد مفتوحة حديثًا، فلمن تتركها ؟ افتح عينيك ! " . هكذا نبَّه السلطان سليم خاير بك فقفل راجعًا إلى القاهرة .

اتجه السلطان إلى الشام، وقد فَرش خاير بك للسلطان كل المنازل منزلاً منزلاً بِبُسُطٍ من الحرير حتى بلغ الشام وبذل الطعام والشراب والهدايا .

لم يكد السلطان سليم يُغادر إلى الأستانة حتى بدأ خاير بك فى إدارة البلاد وتنظيمها ، فأول ما قام به من الأعمال أن جمع جنود الرميلى والأناضول الذين أبقاهم السلطان للمحافظة على مصر، خشية أن يتفرقوا فى المدينة ويسببوا الفتن ، وجعلهم جميعًا فى قلعة قراميدان[٢١] ، وفى داخل القلعة المؤلفة من سبعة أقسام، واستتب بهذا الأمن والسلام فى مصر، ولم يتجاسر أحد على تجاوز حده، وصار وِجَارُ الذئب وحظيرة الغنم سواء .

كان خاير بك عادلاً فى إدارة الحكومة، جريئًا، وكان على وفاق مع المصريين حتى لم يعُدْ أحد ينظر إلى أحد نظرة سوء . فلذا قال المصريون: " الله ينصر السلطان خاير بك ! "، والحق أنهم إن أطلقوا على وزير مصر اسم السلطان فلهم وجه حق فى ذلك، على شرط أن يكون فعله مستحقا لما يُقال، ويَسْلَم حين عزله، فهو حينئذ ملك حقا، والرجاء قوى فى خروجه سليمًا إن شاء الله، وسنكتب عنه فى موضعه .

وقد شَيَّد خاير بك جامعًا عظيمًا على الطريق العامِّ بباب الوزير، ولا يزال مسجدًا نيِّرًا . وظل خاير بك وزيرًا خمسة أعوام فى عهد السلطان سليمان القانونى ودُفن فى جامعه أمام المحراب. ونظارة جامعه للوزير على حسب القانون، ولا يزال وزير مصر يقوم بالنظارة على جوامع آل عثمان وخيرات الوزراء بمصر ، وفيها مبانٍ وجوامع عظيمة، وسوف نكتب عنها وعن الخيرات والحسنات واحدًا واحدًا فى أماكنها إن شاء الله .

---

(٢١) قراميدان (قرا = أسود . ميدان = ساحة) : الميدان الأسود ، وكان عبارة عن ميدان أو ساحة بها عنابر الجنود فى داخل القلعة، وبالقرب منه " أت ميدانى " أى مضمار سباق الخيل والساحة التى كان يتدرب فيها الفرسان على الفروسية وركوب الخيل .

الفصل الحادى والعشرون

بيان الذين بنوا قلعة مصر المحروسة أولا
وبناة عماراتها ومبانيها العظيمة
أوصاف أم الدنيا مصر القاهرة عمرها الله تعالى

أوصاف مصر قد كُتبت في آلاف من كتب التاريخ، ولكن أنا رحالة العالم، ونديم آدم "أوليا " قليل البضاعة، كثير السياحة، فقد كتبت عنها هذا المختصر المفيد.

هذه الدنيا الفانية بقيت من آلاف الدول، ومصر جزء منها، فأول من بناها نقروش بن غرباب بن شيث بن آدم عليه السلام، وأما بعد الطوفان فبناها إبيزاء بن حسان بن نوح . وقيل إن مصر القديمة هى المبنية فى ذلك العهد . ومصر اسم لجميع البلدان، ولكن هذا الاسم أطلق خصوصاً على هذه المدينة، إذ إن نقروش كان أحد بناتها ، وقد سماه آدم مصرايم، فلذا سميت المدينة مصر . وكان اسمها الأول " مقدونية " بالعبرية و"أمسوس " بالسريانية و" فسطاط " باليونانية و" مصرايم " بالقبطية . وهى معروفة بين العامة بأم الدنيا . وتسمى بالعربية القاهرة المُعِزِّيَّة، وقد سُمِّيت بالقاهرة لخروج معز الدين القاهر من المغرب وفتحها بقهر الإخشيديين سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨م . ولما كان كل سكانها لا يزالون يذكرون اسمَىْ " يا قهار، يا قابض " فقد صار رجال الله بها منقبضين .

كانت مصر مزدهرة جدا فى الزمان القديم حتى بلغ طولها على حافة النيل مسيرة ثلاثة أيام، ولما كان فرعون موسى مسيطرًا على هذه البلاد العظيمة فقد اغتر وقال ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات ٧٩/٢٤). حاشا وكلاً ! وتُسَمى كذلك

بالقاهرة لأن فرعون اغتر بسلطانه وهُزِمَ فى قتاله مع موسى وغرق فى مضيق " قُلْنُدر " ببحر السويس، ففقد قومه ومُلْكه وعرشه بمنف، وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين ورغبوا فى إنهاضها وإحداث العمران فيها، وكان تعميرهم كذرة في الشمس وقطرة في بحر، وأقصى ما بلغوا من تعمير مدينة منف عاصمة فرعون أن أوصلوها إلى مقدار قصبة .

وأما مدينة الفسطاط، وهى مصر القديمة، فعمرها الملك طوتس جد الملك المقوقس، وبينما كانت الفسطاط بأيدى الأقباط (القبابطة) اتحد اليونان والفرنج قلبًا وغاية فهجموا فى سنة ٢١ م واجتازوا مضيق دمياط ورشيد بألفَىْ سفينة فى أيام فيضان النيل وأغاروا على المنصورة، وتقدموا حتى مصر القديمة فنهبوها واستولوا على ألوف من الخزائن المصرية وساقوا الأقباط أفواجًا كأنهم بحر من بنى آدم وجعلوهم أسرى، وسيطروا على مصر القديمة وجعلوها وقفًا على كنيسة أيا صوفيا، وصار الأقباط يعطون الخراج للروم .

وجبل المقطم الذى على مسيرة ساعة شرقى مصر القديمة يسمى إلى اليوم بجبل الجيوشى وجبل البجاميم وجبل التقاطع والجبل الشرقى وجبل المقطب، أى قطب الأقطاب، وجبل لوقان وجبل الحجان، وأما الجبال الواقعة غربى النيل فتسمى الجبل الغربى وجبل الجذام وجبل الحرام وجبال الهرمين. وهذه الجبال الشرقية والغربية تمتد من الجانبين حتى بلاد الفنج وبلاد البربر والنوبة، وبعض الأماكن بينها واسعة فى أسفل مصر . ويجرى النيل بينها منحدراً من جبال القمر جنوبيًا ويصب فى البحر شمالاً بفرعين أحدهما عند مدينة دمياط والآخر عند رشيد . وعلى ساحلَى النيل جبال كثيرة بعيدة عنه موغلة فى صحارى واسعة ، الجبلان الشرقيان المعروفان بالمقطم والجيوشى يحولان دون وصول نسيم الصَّبا إلى مصر ، كما يحول المقطم دون بلوغ نور الشمس مصر القاهرة حين تكون الشمس فى الأفق . ولما كان ضوء الشمس المحرق يمسُّ مصر فى الساعة الثانية بسبب ذلك الجبل، كان ظل الجبال كسرداب،

ولهذا أنشأ الأقباط مغارات فى الجبل وسكنوها، ثم شرعوا فى بناء مصر جديدة، ثم قدم إليها ملوك المسلمين من عمرو بن العاص فالأمويين فالعباسيين فالفاطميين، وقد رغب كل منهم عمران مصر القديمة وعمل على تجديد مصر الجديدة وتعميرها .

وأما أنا الفقير، كثير التقصير، فقد شاهدت كثيراً من التلال والجبال والصحارى فى سبعة وثلاثين عامًا فى سبع عشرة مملكة ، وكانت الكعبة الشريفة المملكة الثامنة عشرة، وهى مقصد الجميع ومرامهم، والحمد لله قد حججت وطوّفت بالبيت فى سنة ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١م، ثم رحلت إلى مصر، مقامنا المملكة التاسعة عشرة . والحمد لله قد بلغت العجالة منتهاها ودخلنا مصر القاهرة، ولكى ننعم بكسب الهواء ونجدد شهوة الصفاء ركبنا الركائب الصافات وشاهدنا مصر القديمة التى يتحسر عليها الملوك، والتى تُدْعى الفسطاط وأمسوس ومقدونية ومصرايم وأم الدنيا والقاهرة المعزية، والحق أنها تصدق على أسمائها ومجدها فى الزمن القديم، وتنطبق على ما شاع عنها من الأساطير، وقد امتلأت الدنيا بأبنيتها الأثرية .

حكاية مناسبة

إن بغداد الموصوفة بأنها مدينة تشبه الجنة فى ازدهارها تعادل حيا من أحياء مصر . قيل لرحالة: من أى بلاد أنت ؟ قال الرجل الظريف : من مصر . قيل له : من أى حى ؟ قال : من حى بغداد . قيل : مسيرة ثلاثة أشهر فى صحارى رَمْلِيَّة ؟ قال الرحالة: إن ما أسميه مصر إنما هى الدنيا، بل هى أم الدنيا، وأما ولايات بغداد والبصرة والإحساء واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان فكلها أحياء مصر . والحق أنه بقوله هذا نثر الدرر .

يحكى أن فرعون ادّعى الألوهية بمصر فسمع خليفة بغداد عنه فقال: إنه ملك بُلَيْدَةً فادعى الألوهية، فماذا كان يفعل يا ترى لو ملك مدينة كبغداد ذات الجنات ؟

ومفهوم هذا القول أنه بناء على أقوال مؤرخى اليونان كان فى العالم مدن مزدهرة منها مصر وبغداد والسند والعراق . وتلك المدن الأربع كانت أهم المدن على ظهر الأرض، وقد كانت مصر أكثرها ازدهاراً لوقوعها فى صُرَّة الدنيا، ولا تزال عديمة النظير فى أديم الأرض .

بيد أن كثيراً من أهلها قد جلوا عنها فى سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦ م فى عصر الچراكسة اللئام، حيث ثار الجنود وطغوا وسمح الچراكسة لماليكهم بارتكاب الظلم والطغيان، فأشرفت بوابات المدينة وأسوارها وأسواقها العامرة على الخراب، واندثرت بعض جهاتها العامرة فى الرمال والأتربة والأقذار، وصارت مصر القديمة بلْدَة زواياها وأركانها أعشاش للبوم والمصمص Masmas والحمام . فهى مدينة كبيرة شمطاء، قد بلغت السبعين من العمر بمضى الأيام والقرون، وبليت حواشى بيوتها، وباتت كل بوابة منها وكل ســور ذوات قلب هرم، يخبر بلسان الحال عن كثير من الأزمان وجم من الأحداث .

وأما الفسطاط فكانت قلعة عظيمة عامرة تُسَمَّى مصر القديمة على ساحل النيل ومجرى السيل، وكانت نادرة الدهر . وهى كأنها نُزُلٌ نزل بها كثير من الضيوف، أو كأنها عش أطار كثيراً من العنقاوات، ودارها المتنقلة من يد إلى يد تُشْبه رجلاً خدَّاعًا خدع كثيراً من ذوى الأطماع، فهى مدينة عتيقة ليست لقصة تاريخها غاية ولا لحكاياتها وروايات مجدها وشأنها نهاية . وقد رأيت داخلها وخارجها مطلسمًا بطلسمات غريبة، فهى من حيث المنظر خير الأقاليم، ومن حيث الخير أو سعها، ومن حيث القرى أكثرها .

تمتد المملكة المصرية عشرين مرحلة فوق أسوان ، وحصن فضاى (وفى نسخة يلديز "صاى") انتهاء حدودها، وهو مشاع بين مصر وملك الفنج . وأما نهايتها الشمالية فقلعة الإسكندرية بساحل البحر . وحدودها القبلية تنتهى إلى مكة، وحدودها الغربية إلى أوجلة .

وتحتوى الأراضى المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة وخبايا كثيرة ومطالب عزيزة ، وقد روى أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفى، لأن أهلها لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضى، ويدفنون أموالهم فى الأرض . كنت أنا الفقير لقرابتى من الكتخدا إبراهيم وزير مصر، أقيم فى برج " قوصونلى طلسم " فى مكان معروف عند أغوات الپاشا باسم مصيف الفقراء، فخرجت من حجرتى ذات ليلة وقت السَّحَر فعلمت أنه قد حدث نزاع وشجار أمام مسكن چاويشية الألاى وجرح فيه بعض خدم الأغوات . فلما ذهبت إلى مكان الشجار وتحريت عن سبب النزاع، علمت أنهم وجدوا فى ذلك الموضع دفينة فى تلك الليلة . وبينما هم يعلقونها انتثر فى الأرض ذهب كثير، وتصادف أن كان هناك خدم السعاة وسُيَّاس الأغوات وحمَّاروهم، ولما لم يصيبوا شيئًا منه، ثار النزاع والشجار، وكان أحد المماليك واقفًا إلى جانبى كذئب جائع يعيب ويفتش فى أثناء الشجار، والتقط مائة وسبعين قطعة ذهبية، ورجعنا إلى مسكننا . وكانت دفينة عظيمة، إذ كان المكان المحفور يسع خمسة رجال، والحق أنه ليس فى مصر مكان يخلو من دفينة. لقد كانت القطع الذهبية خالصة إلى حد أنها يمكن ثنيها باليد كأنها شمع العسل وكل قطعة منها تزن ثلاثة مثاقيل ، كتب على أحد وجهيها بالخط الكوفى كلمة الشهادة وعلى وجها الآخر اسم "سلطان الزمان المأمون الخليفة عز نصره ضُرب فى مصر " .

وبالجانب الشرقى من مصر عبر النيل يقع جبل جالوت ، وفيه المغارات التى قاتل فيها داود عليه السلام جالوت . وبجانبها بمقدار (منزل) مرمى مدفعٍ المقطمُ ويسمى أيضًا جبل التقاطع وجبل الجيوشى، لأن الشيخ الجيوشى مدفون فى مسجده فوق أعلى قمة ذلك الجبل الشامخ، وأما تسميته بجبل التقاطع فلعدم وجود خط بينه وبين قلعة مصر الداخلية، ويسمى أيضًا بجبل بجاميم لأنه كان فى الزمان الغابر مسكنًا لبنى بجم . وهذا الجبل الشامخ يمتد من مصر إلى السودان جنوبًا أربعين منزلاً امتدادًا مفصلاً، ويجرى النيل المبارك بينه وبين جبال الأهرام .

وصف ابتداء بناء قلعة مصر الداخلية بيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى

كان صلاح الدين وزيراً للسلطان نور الدين الشهيد ملك الشام سنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦م، وهجمت إسبانيا اللعينة على مصر بألف سفينة عن طريق دمياط فى أيام فيضان النيل، وبلغت المنصورة فاستولت عليها، ثم شرعت فى نهب الجوانب الأربعة، وبلغت السلطان نور الدين شكاوى من خليفة العباسيين ومن مصر، فعَيَّن صلاح الدين قائداً على ثمانين ألف جندى، وأرسله إلى مصر، ولما بلغ صلاح الدين القطر المصرى وانتصر على الكفار فى المنصورة سُمِّيت المدينة بهذا الاسم، وكان اسمها " ريحان "، ثم انتزع دمياط وقلعة التين من أيدى الكفار ، حتى إذا بلغ مصر سالمًا غانمًا استقبله المصريون بابتهاج عامٍ وجعلوه سلطان مصر متفائلين به ومعجبين بتدبيره . ولما بلغ هذا النبأ مسامع السلطان نور الدين استقدم صلاح الدين إلى الشام، ولكن صلاح الدين لم يعد إليها متعللاً بأنواع من المعاذير ، ولم يجعل السكَّة والخطبة لا باسمه ولا باسم نور الدين، بل باسم آل عباس .

ولاحظ صلاح الدين غضب نور الدين وخشى مغبة عمله، فبنى فوق جبل المقطم قلعة مسيطرة على مصر ، وأحاط الجزء الأسفل من المدينة من جوانبها الأربعة بسور طوله ٢٩٣٠٠ ذراع مكى، وأنشأ مدرسة قرب الإمام الشافعى . وقاتل كفار الفرنج بمرج عيون قتالاً عظيمًا وانتصر عليهم . وكان نور الدين قد توفى بالشام فأغار عليها واستولى على خزائنها وصار صاحب الشام كذلك . ثم استقل بسلطنة مصر وعُنِيَ بشأنها وعمارتها حتى جعلها عروس الدنيا بعد أن كانت أمها ، ثم جاء بعده ملوك كثيرون (سبعون ملكًا) وعملوا على ازدهارها إلى حد أنها لا تزال حسرة الملوك حتى اليوم . وأما أنا الفقير فسأبين أحوالها على قدر وقوفى عليها، والله المستعان .

وصف قلعة مصر الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية العليا قلعة جميلة فوق ربوة وعرة على رأس في الطرف الشمالي من جبل المقطم . ومن جبل الجيوشي إلى القلعة مسافة مرمى مدفع، وبينهما منخفض صخري عمقه مائتا ذراع، ويقطع منه الحجَّارون الحجارة اللازمة للولاية بلا انقطاع كما كان يفعل فرهاد، والمكان بين القلعة وجبل الجيوشي صخري، بحيث لا يمكن الالتجاء إلى المتاريس حين الحصار . والطرف الجبلي لهذه القلعة بناء متين جدا، وتبعد هذه القلعة الشامخة عن النيل المبارك مسير ألف وخمسمائة خطوة شرقًا، وجوانبها الأربعة صخور عالية بيض كأنها جدران بئر عميقة . إن بناء صلاح الدين هذا حصن حصين وسور متين قد ارتفع سَمكه إلى السماء ثمانين ذراعًا مؤسَّسٌ على أساس صخري ، وقلعة صلاح الدين تدعى القلعة الذهبية أيضًا، وذلك لأنه حين حفر أساسها نثر في أماكن الأبراج ذهبًا ممسَّكًا لكي تكون ميمونة الطالع ، فلذا ورد ذكرها في جميع كتب التواريخ باسم القلعة الذهبية، ولأن مصر منجم تبر الذهب . ثم إنها بُنيت على شكل مخمَّس بأمر مهرة المنجمين وتعاليمهم، فقد قيل إن البناء المثلث يحل فيه النحس فلا يخلو من الفتن والفساد. ولكن كما قيل "العبد يدبر والله يُقدر"، فهذا البناء مخمَّس، بيد أن طالعه نحس، فهو لا يخلو من شجار وقتال مرات في كل عام.

وللقلعة خندق محفور في الصخر كأنه بئر تمتد من باب المطبخ حتى برج أغا جيش الإنكشارية ، وعدد أبراجها اثنا عشر برجًا قائمة كلها على أسس صخرية، وهي برج الشرق وبرج الغرب وبرج الفرنج وبرج الباب والبرج المسطح (ياصي قله) وبرج صلاح الدين وبرج المعمار ... والأبراج مبنية بناء فنيا مزخرفًا ظريفًا، وكل برج مؤلف من ثلاث طبقات، ويتسع لألف رجل، فهو حصن ذو ثلاثة أقسام . وحُجَر الجيش الإنكشاري في إحدى طبقات البرج الذي بباب الشيخ صاري، وهي أربع وأربعون حجرة، وليس فيها شيء آخر. وأحد أبواب القلعة ناظر إلى الغرب، ومحيطها الدائري ستمائة خطوة تُقَدر بألفين وستين قدمًا . ويتصل بها الحصن الأوسط، وفي هذا

الحصن مسجد الشيخ الصارى وزاوية الچاويش وزاوية الكتخدا وباب الأغا ومخزن البارود والضربخانة والطُوبخانة ومصنع العربجية وحمام القلعة وثمانمائة بيت صغير وسبعون حانوتًا . ولهذا الحصن ثلاثة أبواب يفتح أحدها إلى الغرب، وهو باب حديدى مزدوج بين برجين، وبداخله مدافع ضخمة طول كل مدفع منها ثلاثون شبراً، وثمة مدفع بداخل مصنع العربجية، وفيه أيضًا سبيل ذو فرعين متصل بالضربخانة يدعى سبيل الغورى، وجميع سكان الحصن فى حاجة إلى هذا السبيل . ويفتح بابه الثانى إلى ميدان الإنكشارية غربيًا، وبهذا الباب ينعقد ديوان فرقهم، وهو مكان مغطى بالصينى القاشانى . وباب آخر فى الأسفل يُدْعى باب صلاح الدين، وحين يفتح هذا الباب فى الصباح المبكر يحضر الكتخدا ومدير بيت المال وستة من الچاويشية وجميع البوابين ويفتحونه بالدعوات الصالحة، وهو باب حديدى ذو ثلاث طبقات. وهناك أربع قطع من الرخام مثبتة على سور الحصن بين البابين المذكورين على يمين الداخل، وعليها تواريخ الملوك السالفين وهى: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا (محمد) وآله وصحبه وسلم. أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا ... السلطان مالك الملك العادل صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية والقلاع السواحلية، والأقطار الحجازية، سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض، القائم بالسنة والفرض، المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم، والسيد والعادل والسلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عز نصره سنة ست وتسعمائة " = ١٥٠٠ م .

وكُتب على هذه اللوحة الرخامية تاريخ قايتباى أيضاً، وعلى لوحة أخرى أن هذه القلعة ذات الطبقات الثلاث ليوسف صلاح الدين .

وكان خاير بك أول من تقلد وزارة مصر فى عصر السلطان سليم، وذلك فى سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م، وحكم خمسة أعوام وشهرين وعشرين يومًا، وتوفى فى عهد السلطان سليمان القانونى، ولما مات خاير بك مُنحت وزارة مصر لمصطفى پاشا البالاق ثم إلى أحمد پاشا الخائن . وكان السلطان سليمان مشغولاً إذ ذاك بحرب هنغاريا (أى

إنكروس = المجر) وحواليها، فطمع أحمد باشا فى الاستقلال بحكم مصر منتهزًا هذه الفرصة، وجمع حوله جماعة من بقايا السيوف من الچراكسة اللئام، وأحدث شغبًا وفتنة بمصر، وما إن بلغ النبأ السلطان سليمان حتى ساق إلى مصر جيشًا عرمرمًا برًا، وأرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا المقتول، على رأس أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة حربية، ولكن لم تأت الرياح بما تشتهى السفن، فكانوا كلما زادوا عناية زادت الريح شدة وعنفًا، حتى اضطُرَّ الوزير إبراهيم إلى النزول إلى البر وتجديد الاستعداد، بيد أنه لم يستطع القدوم إلى مصر بجيشه العظيم لينصف من يستحق الإنصاف وليقتص ممَّن يستحق القصاص من أجل ظلمه .

وأما فى مصر فقد قام أعيان الديوان وأشرافها العظام وعلماؤها بشغب عامٍّ قائلين: هل نتبع أحمد باشا الخائن ونشرع فى الشجار والقتال ونحن لم ننس بعدُ ما أصابنا من الصدمات فى حرب السلطان سليم ؟ إنا لا نقبل أحمد باشا ! وقبضوا عليه وذهبوا به إلى باب زويلة وشنقوه ، واستقر الأمن فى مصر .

أوصاف القلعة الداخلية وغيرها

قلعة مصر الداخلية حصن ذو ثلاثة عشر قسمًا، ولما قدم الوزير إبراهيم باشا إلى مصر وأقام العدل والإنصاف أرخ مصطفى چلبى بن جلال قدومه بالشطر الآتى :

آصف سلطان عادل مصرى آبا ايلدى

وهو بحساب أبجد يساوى ٩٢٩ هـ (= ١٥٢٢ م).

حكم حتى سنة ٩٣١ هـ = ١٥٢٥ م وكان أول ما قام من عظام الأمور أن ضم إلى القلعة الداخلية حصنًا آخر، وذلك الحصن لا يزال زينة للمدينة ومتانة للقلعة . محيط

هذا الحصن الدائرى ثمانمائة خطوة، وله باب حديدى مزدوج بين برجين بواجهته الغربية، ويسمى قلعة السلطان سليمان، وهو حصن بديع لا يزال وسط قلعة صلاح الدين . فقد بنى فى إحدى زواياه برجًا شبيهًا ببرج غَلَطَة (بإستانبول) مؤلفًا من عشرة أقسام، لا يقوى أى مهندس على هدمه، ففيه مقرنصات متنوعة ومشربيات وطنف، وبأركانه متاريس لضرب النار . وعلمه المرفوع على قُبته العالية الزرقاء يُشَاهَد من مسيرة فرسخين، وليس فى هذا البرج سوى الأموال السلطانية، وهى كلها تحت الأرض، وفيه يحفظ الدفتردار ما يحصِّله من الأموال . وليس فى خارج الحصن سوى منازل محافظ القلعة (دِزْدار) والكتخدا والإمام والمؤذن، وسوى زاويةٍ وعنبرٍ وصهريجِ ماء. ومن الإنكشارية المحلية من محافظى القلعة من هم محبوسون ليل نهار .

وبُنِىَ خارج برج الخزينة هذا أمام مسجد قلاون سورٌ متين من طبقة واحدة، وجُعل له بابٌ حديدىٌّ مزدوجٌ مواجه لذلك المسجد، وقام إلى جانبيه برجان عظيمان عاليان . ومن الأبراج العظيمة برج المهترخانة[٢٢]، وهو برج ذو عشرة أقسام، يسكنه

(٢٢) المهترخانة Mehterhane : مصطلح موسيقى يُطلق على الفرقة الموسيقية التى كانت تعزف فى العصر العثمانى، وكان يُطلق على الفرقة الخاصة بالسلطان " مهترخانة خاقانى " أو " مهترخانة همايون". والمهتران مفردها مهتر. الـ" مهتر " اصطلاح موسيقى يعنى الموسيقار الذى يقوم بعزف النَّوْبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار، وتُجمع على مهتران، أى مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطنى أو السلطانى أو النَّوْبات المختلفة فى الجيش . وكانوا يقومون بالعزف على الطبل والزمر ، ويطوفون الأحياء تبشيرًا بسير المحمل إلى الحجاز، ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض .

ومنهم " مهتران علم " أى الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم ، أو السلام الوطنى فى وقت الحرب، و" مهتران طبل وعلم " وهى الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى فى القصر السلطانى، وفى حضرة السلطان، وقائدها يُسمى " مهترباشى " . أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى "مهترخانة خاقانى " أو " مهترخانة همايون " ويقول هامر جـ ١ ص ٣١٣: إنها فرقة الشرف التى تعزف أمام الوزراء والقواد وقت الحرب ، وتذكرهم طبولها بأوقات الصلاة أيضًا=

عازفو القلعة . وثمة برج شاهق آخر مواجه لقصر الباشا يُسمى برج إبراهيم باشا، وهو برج عظيم يتسع لألفَىْ نفس . وبرج العنبر أيضًا مواجه للقصر، وهناك برج آخر على باب يوسف مسدس موزون، وهو أيضًا مواجه لقصر الباشا . والخلاصة أنها أبراج سبعة ذات قباب عالية مغطاة بالرصاص، وفى كل واحدٍ منها أربعون مدفعًا أو خمسون من المدافع الكبيرة والصغيرة، موجهة إلى قصر الباشا، حتى إذا سولت له نفسه العصيان نسفوا قصره بالمدافع .

ثم إن إبراهيم باشا أقام فى القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى من الإنكشارية، ورقَّم حجراتها وعمرها، وأدار شئون مكة والمدينة وفتش جميع الأوقاف، وتصرف بالأموال السلطانية تصرفًا حسنًا، ثم سلم وزارة مصر إلى كوزلجة قاسم باشا ورجع إلى إستانبول .

وكان بأسفل باب الوزير فراغ بين حصنين، فبنى قاسم " كوزلجة " سورًا وبوابة كبيرة فى هذا المكان، فلذا سُمى باب الوزير . وإذا صعدت منه مائة خطوة ألفيت بابًا آخر يُدْعَى باب الأغا، وهو باب حديدى يُقام الدعاء به، وإلى اليمين باب قسم من الحصن، وإذا سِرْت بين سورَى الحصن صاعدًا ألفيت بابًا حديديا مزدوجًا، وإذا دخلت منه فأنت فى ميدان سوق القلعة، وهو ميدان فسيح يسع خيل الديوان، وبجوانبه الأربعة حوانيت. وهنا أيضًا سور قلعة، وهو سور أبلق مزخرف وبه باب حديدى مزدوج متين، بين مسجد قلاون وبرج المهترخانة، تتجه جميع مدافعه السلطانية إلى الميدان، ومساكن أغوات الباشا أيضًا لا يقيم فيه سواهم، وبه طريقان كبيران ، أحدهما من جهة باب الكسوة والآخر يمر بين أعمدة ديوان قلاون، وليس هناك طريق غيرهما . ويوجد

= عند الجهاد . وتتبين أدوات المهترخانة كالتالى : ١٦ زورنًا و١٦ طبلة و١١ مزمارًا و٨ نقارات و٧ أجراس (صاجات) و٤ أوستانات . وكان عددهم ٧٢ فردًا، أما إذا اشترك السلطان بنفسه فى الحرب فيتضاعف هذا العدد . وقد ألغى نظام المهترخانة مع إلغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٢٤١ هـ = ١٨٢٦ م واستبدل به نظام موسيقات الباندو .

قسمان أيضًا من الحصن فى جهة مساكن العزب ولهما بابان حديديان مزدوجان، ينظر الباب الكبير منهما إلى ميدان الرميلة، وجميع البوابين يقومون بحراسته، وما بين البابين مزين بالدروع والتروس وآلات الحرب والأسلحة .

فى وصف قصر قراميدان وطول ذلك الميدان وعرضه

يوجد حصن آخر ذو قسم واحد بناه خاير بك حين كان وزيرًا لمصر، فأقام أسوار قراميدان الأربعة، وأنشأ بداخله حديقة غنّاء (جنّة إرَم) خاصة بالپاشوات. وكان قصر قراميدان للسلطان قايتباى فى ما مضى ولا يزال مزدهرًا حافلاً بالورود والكروم والنخيل، وينزل الپاشوات دائمًا إلى هذا الميدان ويتلهّون بلعب الجريد . وهو ميدان تبلغ دائرته ثمانمائة خطوة. وفى نهايته حُجرات فدائى الپاشا (پاشا دليلرى)[٢٣] . ولهذا الحصن أيضًا أبواب حديدية فى أربعة أماكن . (وهنا تم الكلام عن القلعة الداخلية) .

(أقسام قلعة مصر إلى تاريخنا هذا ثلاثة عشر حصنًا كما يبلغ عدد أبوابها فى جميع الأقسام تسعة عشر بابًا) .

بيان ما بالقعلة الداخلية من طلسمات

إن قلعة مصر حصن عالٍ فيه برج شامخ يُدعَى مصيف الفقراء، وهو برج مشرف على باب العزب . وقد أقمت أنا الفقير سبعة أعوام فى ذلك البرج، فكان منزلا نطل منه

(٢٣) پاشا دليلرى Pasa delileri : مصطلح عسكرى يُطلق على مجموعة الفدائيين الذين يقومون بحراسة الباشا سواء أكان مدنيا أوعسكريا، ويمكن أن يضحوا بأنفسهم، ويمكن أن يُشبه الـ " بودى جارد " فى العصر الحديث . وكانوا يلتفون حول القائد خلال المعارك الحربية أو خلال الاحتفالات والمواكب الرسمية.

على العالم. وكانت تحت نافذتنا كتابة فى سعة سجادة كبيرة، وبوسطها رسم طائر يبلغ حجمه تمثال رجلين ، وقد بسط جناحيه على رجليه وله رأسان . كنت مرة أصلح حجرتى وأرممها، فخرجت منها ووقفت على سقاله وشاهدته فإذا بالنحات الماهر صنع للطائر رسمًا سحريًا معجزًا، لو اجتمع نحاتو الدنيا لما استطاعوا أن يزيدوا عليه نقطة . تظنه لم يكد يفرغ منه الفنان فى حين أنه صُنع منذ ألف عام . والحجر الذى صُنع منه حجر صخرى أبيض . وقد أفاض عليه النقاش الماهر حسنًا بالأصباغ والألوان، حتى تخاله الطائر الموجود على عرش زولطة البولندى وليس بينهما فرق، بيد أن ما فى هذا الرسم من فن سحرٌ مبين . وله لسانان ، وإذا هبّت ريح الشمال بشدة أخرج لسان الرأس الذى إلى الشرق صوتًا حزينًا يبهر الإنسان ويخيل إليه أنه يسمع صوت نسر ، وإن هبّت ريح الجنوب سمع من لسان الرأس المتجه صوب الغرب صوت بجع مهيب . وقد صنع أحد اللسانين من النحاس الأصفر والآخر من الصلب النخچوانى(٢٤). وبإنعام النظر ألفيت أن نهايتَى اللسانين متصلتان بداخل الحجر كما يتصل السكين بقبضته . وإذا اصطدمت الريح بهذين اللسانين تحركا وأحدثا الصوتين فى الريحين . وأما فى سائر الرياح فتُسمع منهما أصوات كأصوات الفاختة والعقيق والعقاب . وتحت جناحيه ثقبان يسعان إصبع رجل وداخلهما أجوف، وتصدر منهما أيضًا أصوات عجيبة . وبطنه كبطن رجل بطين، والريش منقوش نقشًا حسنًا، وفيه ثقب أيضاً فى موضع السرَّة تمامًا يسع يد رَجُل، بداخله الأصداف البحرية التى تصقل بها الكاغد، إذا هبت ريح الشمال خرج منه صوت مهيب . وكان بعض الأصدقاء يسمعون هذا الصوت فيقولون : قد هاج أوليا چلبى . وكان فوق رأس هذا الطائر المطلسم كتابة فى ثلاثة أسطر وهذا الطائر الغريب المنظر مطلسم فى البحر وهو يظهر للزائر حين

(٢٤) نخچوان Nehçevan = Nakhitchevan : قصبة من قصبات أذربيجان الحالية، وكانت سابقًا من توابع قضاء روستوف، وتقع على الشاطئ الأيمن لنهر " دون "، وتبعد أربعين كم عن بحر آزاق حيث مصب هذا النهر، تشتهر بالمعادن وأفران القراميد وصيد الأسماك . احتلها بعض المهاجرين الأرمن بعد سنة ١٧٨٠م، ومثلوا أكثر سكانها، ولكنها الآن من مناطق أذربيجان (انظر : ش . سامى . مجلد ٦ . صـ٤٥٧٠).

الصعود من باب العزب يعرفه كل المصريين . ولم أشاهد الخط المكتوب فوق رأس هذا الطائر إلاَّ من أعلى سبيل معطل فى جهة النحاسين على حافة خندق بقلعة بلغراد الدانوب، ولم أقدر على قراءته . وقد قرر رجال المعرفة من المصريين أن هذا الطائر لا يصَفِر صفير أى طائر من طيور مصر، والحق أنه ليس فى مصر لا البجع ولا العقعق ولا الفاختة ولا العقاب ولا الزرزور، وتلك حكمة عجيبة .

طلسمات العقرب

بالقلعة العليا عقارب، ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات لأن هناك طلسمًا ، وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاون مبنى على أربعة وأربعين عمودًا لا نظير لها فى الربع المسكون إلا فى أسوان . وطلسم العقرب صورة عقرب من النحاس الأصفر معلق من ذنبه على حلقة من الحديد فوق العمود الأيمن فى العقد العظيم الذى بجانب منزل التتر، وهى لا تزال واضحة .

طلسم الثعبان

وهناك ثعبان أرقط ملتفٌ بالعمود المقابل للعمود الذى عليه طلسم العقرب ، وعلى ذلك العمود سطران بخط الوِفْق وهو طلسم الثعبان . وليس بقلعة شاهمران من الثعابين ما بخرائب قلعة مصر ولكنها لا تضر أحدًا بأمر الله، ولو كان حيوانًا مخيفًا .

طلسم أم أربع وأربعين

وثمة طلسم أم أربع وأربعين على عمود وعليه سطران من الوِفْق فلذا لا ضرر فيها من هذه الحشرة .

طلسم الحُمَّى

والحمد لله ليست فى هذه القلعة من حمى الربْع والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام شفى منها بأمر الله ، وذلك لأن العمود الذى بجانب باب وفيق محمد أغا الحلوانى مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوفق هو طلسم الحمى أى الذى يبطل أثر الحمى .

طلسم القولنج

ويوجد على أحد العمد وفق القولنج أيضًا، وطلسم يحول دون حدوث مكروه .

طلسم الطاعون

ويوجد أيضًا طلسم للطاعون منقوش على أحد الأعمدة، ويُقال إنه لأبى على بن سينا، وهو رحمة من الله فى قلعة مصر وليس له نظير فى سائر البلاد . ولكن يحدث الموت من الإسهال وذات الجنب واللقوة وكف الأسد وما شابهها من الأمراض المتنوعة، ولا تزال الطلسمات المذكورة ظاهرة إلى اليوم، وكل واحد منها لأستاذ ماهر سعى إليها وأراد أن يبين علمه وقدرته بكتابة وفق . فقد كتبوا على عمود أصفر وفق لمنع إباق العبيد من القلعة، وعلى عمود آخر لمنع اللصوص من السرقة، فإذا رام عبد أو خادم خيانة سيده شُلَّت يده . وعلى عمود آخر وفق للمنع من الزنا، وعلى عمود وفق لمنع الحريق فى مصر . ومن لطف الله أن هذا الطلسم لا يزال فعَّالاً، فالحريق ممتنع عن مصر بفضل هذا الطلسم، ويُقال إن وفق الحريق هو المكتوب على العمود السُّماقى الأحمر، وثمة وفق على عمود لنزول المطر فى مصر أربع مرات فى كل شهر، ووفق لمنع الرمد من عيون الصبيان. وموجز الكلام أن هناك أوفاقا (أى طلاسم) كثيرة لا تزال حتى الآن ، بيد أن بعض المغاربة والهنود الملاعين الذين لا يبالون بشىء والذين

يبحثون فى كل ركن عن الخزائن والدفائن ظنوا تلك النقوش علامات الدفائن، فتسلقوا بعض العمد وحكُّوا بماء النار والزئبق تلك الآثار البديعة التى يُعادل كل واحد منها عمر الدنيا وأبطلوا تأثيرها، فلا حصلوا على دفينة ولا على أموال كمينة، بل عادوا خائبين خاسرين دون أن يحملوا سوى وزر أعمالهم ومشاقهم، فالبراغيث والقمل والبق تلهب بدن الإنسان فى مصر من ذلك الوقت حتى اليوم. " اللهم عافنا "، وليس فى بلد ما فى مصر من البعوض والبق، فقد قيلت فيها أبيات وكُتبت رسائل فى الاستغاثة، وحتى أنا الفقير قد ألفت رسالة الاستغاثة من البق .

طلسم كلبين مسعورين

يوجد بمصر أيضًا على الطريق العامِّ بين قنطرة الأمير حسين وقنطرة المصطفى (تحريف من قنطرة الموسكى) حمَّام صغير يُدعى حمام الكلب . وبداخل قبة صغيرة فيه تمثالان من النحاس الأصفر لكلبين متهارئين ليل نهار، فلذلك ليس بمصر كلب مسعور، ولهذا سُمى ذلك الحمام بهذا الاسم، وقد ورد هذا فى تواريخ الأقباط .

الفصل الثانى والعشرون

أوصاف قصر قلعة وزراء مصر

هذه القلعة مُتَّصِلَة بالقلعة الداخلية إلاّ أن أبوابها غير أبواب تلك القلعة، ومفاتيحها بيد رجال الپاشا . والذى بنى هذه القلعة وهذا القصر هو يوسف صلاح الدين، ثم أضاف إليه كل ملك جاء بعده حتى صار قصراً منيفًا كأنه أحد قصور آل عثمان. فأول ما تُشاهده باب الديوان، وهو باب أصحاب العرائض أى أصحاب الحاجات . وإن دخلت منه وسرت خمسين خطوة رأيت حوانيت الخياطين من الجانبين، تجتازها وتبلغ باب السبيل، وإن سرت خمسين خطوة أخرى قابلك بابان : ففى اليمين على الطريق الموصل إلى دار المحافظ الباب الصغير، وفى الجانب الأيسر بوابة الديوان الكبيرة، وإذا نزلت مسيرة خمسين خطوة واجتزت بابًا فأنت فى صحراء واسعة مؤدية إلى ميدان السراء، وهو ميدان مساحته الدائرية ألف خطوة، وبجوانبه الأربعة حُجرات أغوات الپاشا ومسجد الدُّهَيْشَة . ويطل عليه كذلك الكتخدا والمحافظ، ومنزل خادم المائدة (الجاشنكَير)[٢٥] ورئيس الكيلارجية (الخزنة) وديوان السلطان قايتباى

(٢٥) چاشنگير Çasnigir = النُّوَّاقة : مصطلح عسكرى كان يُطلق على الذين يقومون بالخدمة على موائد الطعام، والبعض منهم كان منوطًا به إعداد طعام السلطان الشخصى ، وكان البعض الآخر منوطًا به توزيع الأطعمة بعد إعدادها على موظفى السراى . يُطلق على رؤسائهم " رئيس النُّوَّاقة " چاشنكَير باشى، أو "سرنواقين خاصة " . وكان هو المنوط به الإشراف على توزيع الأطعمة فى أيام اجتماع الديوان الهمايونى، وهم الذين يحضرون الطعام وفى مقدمتهم رئيسهم إلى الدوائر الخاصة . والنواقة هم الذين يعدُّون طعام الصدر الأعظم والوزراء، ويقدمون خدماتهم على نغمات المهتران (= الفرقة الموسيقية) . ويوم انعقاد الديوان يرتدون أزياءهم ومجوزاتهم وينتظرون فى جانب المطبخ العامر حتى =

والسلطان الغورى، ومنزل المدافع والبارود خانة ومنازل كتخذا (مراسل) البوابين والسعاة (شاطران) وصانعى البنادق، كلها تطل على هذا الميدان . ويُفْتَح المطبخ على هذا الميدان، وإذا دخلت منه فأنت فى قسم من الحصن فيه مطبخ عظيم، ويجتاز من الباب الذى على ميدان السراى بجسر مقام على عقد من عين واحدة، وتحت الجسر حفرة فى ارتفاع منارة، ويوصل الجسر إلى مسكن المتطوعين، وهو أيضًا حصن عتيق .

وأما المطبخ فحصن متين ذو ثلاثة أبواب، وقد سُمى أحد أبوابه بوابة سليم لأن البوابين فتحوه للسلطان سليم فدخل منه هو وجنوده . وأرخ عربى أعمى هذا الحادث بقوله: "سلطان سليم شوية شوية، سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م". وذلك الأعمى مدفون بجانب الباب، ولا تزال لأولاده مخصصات من الميرى وتعيينات المطبخ . وهو تاريخ عجيب حقًا، ويقول بعضهم إنه جفر . وباب سليم هذا لا يفتح دائمًا ولا يُستَعمل إلاَّ إذا

= يحين الوقت فيقدموا صحون الطعام. وفى الأعياد يقدمون خدماتهم وهم يرتدون أحزمتهم على خصورهم .

وعند تقديم الطعام فى الدوائر الخاصة (الحرم السلطانى) يكونون فى معية أوغلان الداخل وخدم الغرفة الخاصة الكيلارجية . اختلفت أعدادهم من عصر إلى أخر، فبينما كانوا نحو أربعين وصل عددهم إلى (١١٧)، وفى النصف الثانى من القرن الـ١٨ مُنح أكثر من خمسين نوُاقة من مسنيهم أغاوية البُلكات.

يُمنح النواقة يوميات حسب رتبهم، وبلغت يومية الفرد منهم أربعين أقچة فى منتصف القرن الـ١٧ ، وكان يقدم لهم كل سنتين بدلات لأحزمة كُحْلِيَّة اللون وقفطان من القطن . كانت لهم مخصصاتهم من السلخانة العامرة شهريا، كانوا يبيعونها ويقسمون أثمانها وكان السلطان يُكلِّف بعضهم بتوصيل بعض الرسائل المهمة إلى بعض الولاة .

خلال أيام الجلوس والأعياد كان من القوانين المعمول بها المثول بين يدى السلطان وتقبيل يديه ونيل عطاياه، وكانوا يأخذون أماكنهم فيما بين المتفرقة أصحاب العلوفة والمتفرقة أصحاب التيمار . وكانت هناك نوُاقة من السيدات يُطلق عليهن (چاشنكِيرأوسطه)، وعملن فى الحرم السلطانى وفى قصور الوالدة سلطان . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، تاريخ ديملرى وتريملى . حـ١صـ٣٣٠- ٣٣١).

كان الباشا قاصداً إلى جهة، أو توفى أحد الأغوات، أو حدث هجوم خفى، أو كانت فى فتحه مصلحة خفية، وهو باب حديدى عظيم متين . ويشتمل حصن المطبخ على مساكن مائة وخمسين من الطهاة، ولهم أئمة ومؤذِّنون فى زواياهم . ومن لم ير مطبخ مصر الخليلى هذا فكأنه لم ير دار نعمة فى مملكة ؛ يطهى فيه ليلاً ونهاراً ثلاثة قدور من الحساء للرائحين والغادين، قدر قازانات من العدس وقدر من الأرز . وتُبذل فيه ألوف القصاع والعلب للفقراء والمساكين صباحاً ومساءً ، ويتسع المطبخ لمائتى موقد، ويُطهَى فيه مائتا صحن من الطعام خمس مرات فى الأسبوع . وهذه النعم العظيمة خاصة بديوان السلطان الغورى تُبذَل للفقراء دون منة من أحد ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود١١/٦). إنه مطبخ حافل بمائة من الطباخين، ويبهر من يشاهده .

وهناك دواليب البارود المتصلة بهذا المطبخ بميدان السراى الخارجى، وهى مما ينبغى مشاهدته، وهى دواليب من الصفر تُدار بالخيل، يُديرها أربعون حصاناً تعمل ليل نهار بلا انقطاع، والبارود المصرى أقوى من البارود الإنجليزى .

والمبنى المشرف على المدينة من ميدان القصر قسم من حصن آخر وله ثلاثة أبواب تحت السواقى وباب تحت مسكن السعاة وباب تحت المبنى المشرف على المدينة، وهذه الأبواب الخمسة كلها أبواب حديدية مزينة مزخرفة وذوات سلاسل. وبينها غرف المعادن وكاتب الحسابات وحوانيت الخياطين والسراجين والمزينين وفى جهة دار الكتخدا دور متعددة الطبقات إلاَّ أنها ليست فى ضخامة دور القلعة وهى مع ذلك قصور منيعة لوقوعها على أسوار حصن قصر الباشا . وفيه حمَّامات وأحواض شادروانات[٢٦]

---

(٢٦) شادروانات Sadlirvan : مصطلح معمارى يُطلق على سبيل ماء له قُبَّة على شكل حوض، تتدفق إليه المياه من مجموعة صنابير ملتفة دائرياً حوله . وتُقام الشادروانات فى ساحات الجوامع للوضوء وتجديد الوضوء . وللشادروان مكانة مهمة فى العمارة العثمانية ، ويمكن أن تُقام قبة الشادروان أو سقفه فوق أعمدة وتمتد منها سجافات، وأمام الصنابير مقاعد من الحجارة لجلوس من يتوضأ ، وحتى لا تتناثر مياه الصنابير يوضع أسفلها أوانٍ عميقة . ويغطى أعلى بعضها بشبكة من السلك تُسمى " خزنة " =

(نافورات) وتستخدم أيضًا فى الوضوء وحجرات مزينة بالقاشانى ودور الحرم . وفيه قاعة لإسماعيل أغا، وهو كتخدا حسن باشا بن جانبلاط، مزخرفة بالقاشانى ومشرفة على ميدان السراى . وليس لشادرواناتها وحوضها نظير فى هذا السراى .

أوصاف قصر وزير مصر

إن هذا القصر مَضْيَفَة مخلَّفة من دول كثيرة، فقد أقام فيها كل وزير على قدر نصيبه ثم ارتحل، كأنه عُشّ حمام . إلا أن بناءه المقام على صخرة وعرة فوق سوره المرتفع مائة ذراع فوق سطح الأرض، طبقاتُه الثلاثة بإيوان كسرى . وكل حجر فى أساسه قطعة رخام فى حجم جسم فيل . وقد نقلها من جبال الأهرام بالجيزة فى سنة (...) عامل من عمال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يدعى قراقوش، وقد هدم قراقوش بعض جبال الأهرام وبنى بحجاراتها قلعة مصر وقناطر مدينة الجيزة، وقد احتوت القلعة على ضروب من الطُّنُف والنوافذ والمقاصير والقاعات، وجميع دورها ناظرة جنوبًا صوب جبل الجيوشى والإمام الشافعى، وتدعى تلك الجهة القرافة الكبرى، وهى مقابر عظيمة تشع نورًا وضياءً ، ومجموعها ثلاثمائة وستون حجرة مزخرفة معمورة. وكل واحدة منها أثر لوزير أو ملك، ولو تصدينا لوصف كل حجرة منها لطال الكلام .

وفى قسم الحريم ميدان فسيح يقوم فيه خواص الباشا (أغوات) بتعليم لعب الجريد والخيل والرمح والسيف والسهم والبندقية والترس والعصا والمطارق، وبجوانب

= حتى لا تلوث الطيور المياه . بعضها دائرى ، والبعض الآخر مربع أو مستطيل الشكل . وحتى الجوامع الصغيرة كانت بها شادروانات، وفى العادة تُقام فى ساحة الجامع أمام الباب الرئيسى . (انظر: محمد ذكى پاقالين ، تاريخ ديلمرى وتريملرى جـ ٢، صـ ٣٠٢) .

الميدان الأربعة غرف أغوات الحريم المؤلفة من دورين وثلاثة أدوار، تفتح نوافذها إلى الحوش، وتحت تلك الحجرات التى تقيم فيها أغوات الحريم إسطبل لخيول الپاشا ، ويبلغ مجموع الأغوات أصحاب الرواتب المقيمين بهذا المكان عشرين رجلاً . ويقيم فيه أيضًا الصرَّاف والمهردار(٢٧) ، وإذا اجتزت هذه الغرف ألفيت حجرة العرض الخاصة بالپاشا، وهى بناء قديم مذهَّب بناه قايتباى، تفتح نوافذها إلى الإمام الشافعى . وحجرة الخزنة متصلة بحجرة العرض هذه، وقد بنى الكتخدا إبراهيم پاشا قصرين عجيبين فى مكان قريب من حجرة الخزينة بساحة دائرة الحريم، أعجز عن وصفهما، وقد كُسيت جوانبهما الأربعة بالبلور والنجف وزجاج المُران فهما يشبهان قصر الخَوَرْنَقِ. وقد أرخت أنا الفقير القصر الصغير بالبيت الآتى :

قال أوليا جلبى لهذا القصر تاريخه تم القصر النادر المنيف سنة ١٠٨١ هـ.

---

(٢٧) مهردار Mühürdar مُهُرْ = خاتم = ختم :الـ مُهُرْ Mühür : مصطلح فنى يُطلق على آلة مصنوعة من المعدن أو الحجر يُحْفَر عليها اسم أو شارة ما ويُختم بها الرسائل أو السندات أو الأوراق.

والمُهر أو الخاتم أو الختم معروف فى مصر منذ عهد سيدنا يوسف ، وأشهرها لدى اليهود هو (خاتم سليمان) ، وكما عُرِف فى الشرق فقد عُرف أيضًا فى الغرب .

استخدم الرسول محمد ﷺ خاتمًا محكوكًا عليه كلمة الشهادة ، وكان للخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين أختامهم . وفى العصر العثمانى ظل كبار رجال الدولة والموظفون يستخدمون الأختام حتى سنة ١٩٠٨م = ١٣٢٦هـ ، وبعدها استخدم التوقيع .

وكان حك أو حفر الأختام من الفنون الجميلة ، ومازال الختَّامون يدخلون ضمن أصحاب المهن، وتَحَدَّث عنهم أوليا جلبى عند حديثه عن المهنيين فى إستانبول .

والـ " مُـهردار " Mühürdar مصطلح إدارى يُطلق عَلى من هو حامل أختام الصدر الأعظم أو الوزراء، أو فى العصر الحديث حامل أختام الدوائر الرسمية . ويُعتبر حامل أختام الصدارة أو الوزارة أو الولاية من أقرب الموظفين إلى المسئول، ولذلك كان يتغير حامل الختم مع تغيُّر المسئول . (انظر : محمد زكى پاقالين ، تاريخ ديلمرى وتريملرى ... جـ ٢ صـ ٦٠٧ : ٦٠٩) .

وقد أرخ رسمى چلبى قصر جهانما ببيت أخر . وقد كان رسمى چلبى هذا أحد خدم الپاشا الممتازين، نجيبًا رشيداً بحراً فى المعارف عليمًا بالناس متعدد المواهب، ولما أنشأ أفندينا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة ليتلقى فيها الدروس، قلت أنا الفقير التأريخ الآتى:

"أوليا چلبى بوكاخه ديدى تاريخن اولدى اتمام اى بكم قصر بلند" سنة ١٠٨١هـ .

وهناك فوق هذا القصر قصر الپاشا الغازى، وهو مشرف على جميع ضواحى القاهرة ، وقد كانت حجرة طعام الخدم الخواص قاعة عظيمة، كُسيت جدرانها الأربعة من الداخل بألوان الحجارة الدقيقة الملونة، وقد نقش على رخام عتبتها العليا بخط التعليق لرسمى چلبى التأريخ الآتى :

"قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والإقبال سلطان سلاطين جهان حضرة سليمان خان سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والأقطار الحجازية، محمد پاشا بن أحمد پاشا أدام الله إجلاله إلى وقت تاريخ البنيان، وهو خير مكان سنة ٩٦٢ هـ =١٥٥٥م" .

وإذا اجتزتها داخلاً ألفيت قاعة مزخرفة منقشة ذات صُفَّة نصفية على الطراز الرومى مطلة على الحديقة الداخلية، بناها سيدنا حسين پاشا بن جانبلاط، ليس لها نظير فى مصر . وإذ عمل لها الشيخ أحمد المالكى وفقًا فليس بها أثر للبعوض، وقد أنشأ بوسطها حوضًا لطيفًا فيه فوارة، فصارت مكان الأنس حقا . وإذا تقدمت داخلاً ألفيت قاعة بيرام پاشا ، وهى أيضًا بناء أثرى عظيم ذو صفّة نصفية، وقد نُقش على بابها بالخط الكوفى التأريخ الآتى :

" بنى حضرة بيرام پاشا وهو زين قصر الدنيا والدين، هذا القصر الجميل العديم النظير فى زمن يسير، فقل يا فتحى تاريخ إتمام بنائه : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحجر الآية ٤٦) . سنة ١٠٧٣ هـ= ١٦٦٢م.

وبداخل الباب هذا التاريخ: "تعالى الله زهى طاق مفرِّج" (تعالى الله ما أجمله من إيوان مفرح) سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ هـ .

وتحت قاعة بيرام باشا هذه ساحة طيبة جدا يتعلم فيها الخدم الخواصُّ استعمال الأسلحة .

وتلى هذه القاعة قاعة السلطان قايتباى ، وهى قبة شاهقة، تتجه نوافذها كلها إلى جهة الإمام الشافعى . وتأتى بعد ذلك دائرة الحريم، وهى ذات حُجَر متعددة الطبقات وخلوات وحمام وفوارات، وفى هذا القصر حمام فوقانى مؤلف من قسمين أحدهما ذو حوض بديع خاص بالپاشا والآخر لخدمه الخواصِّ . وفيه أيضًا دكان للحلاقين ورئيس الحلاقين من الخدم الخواصِّ ، وفى ساحة هذا القسم حديقة مزينة بالزهور والورود، وقد ألقت أشجار السرو والنبق والليمون والأترج وأنواع الكروم ظلالها الوارفة على "الخمائل القمريات". وفى هذه الحديقة حوض عظيم للسلطان قايتباى طوله ١٥٠ قدماً فى عرض ٨٠ قدمًا، فهو حوض عظيم كالبحر، إلا أنه مغطًّى من فوقه، وبجوانبه الأربعة عمد رخامية، وبنى إبراهيم باشا مقصورة صغيرة على حافة هذا الحوض، وكان يستريح فيها، فينثر على غلمانه المدللين المغتسلين فيه كثيراً من الذهب، فيزيل هموم الدنيا، وينعم ويتلذذ بما يُحدِثون من الصخب والضجيج .

وكان بأسفل قاعة بيرام باشا موضع يشبه المزبلة، فأمر سيدنا إبراهيم باشا بتنظيفه، وجعل منه حديقة غنَّاء مضاهية لحدائق العجم ذوات الطرق التى غرست بجوانبها الأشجار الباسقة، طولها خمسمائة خطوة فى عرض مائتى خطوة، وأنشأ فيه مجلساً ذا قمرية وحوضًا عظيمًا، ثم فتح قناة من الحوض الهائل الذى ذكرناه، فجعلت المياه تنحدر من ارتفاع عظيم يدهش الإنسان من دويِّها، وما فيه من الفوارات يقفز إلى علو منارة، وليس فى مصر كلها ما فى هذه الحديقة من العنب .

وكان بأسفل قصره بمقدار طول منارة مزبلة فأراد إزالتها كى لا تؤذى النظر، فجمع ما فى مصر من ألوف حمير الزبالين ومن الحمالين والأجراء ورفع حِمل مائة

ألف بعير وحمار من القمامة، مرتين كل أسبوع، ثم بنى أمامها سوراً عظيماً، ثم أمر البستانيِّين فى ٧٦٠٠ بستان بمصر، أن يأتى كل منهم بشجرة فأسس بها فى ثلاثة أيام حديقة شجراء مماثلة لحديقة أصفهان[٢٨] الموصوفة بنصف الدنيا، وأجرى إليها المياه من الأحواض التى بالحدائق العليا . وهكذا حوَّل الجهات الأربع من قصر مصر حدائق غنَّاء . ثم نقب سور القلعة فى موضع بأسفل قاعة بيرام باشا وأوصله إلى الحديقة بسلَّم مكون من مائة وخمسين درجة محفورة فى الصخر، وفى هذه الحديقة كان يتناول طعام الإفطار فى شهر رمضان المبارك، وفتح منها أيضًا طريقًا آخر ثم بنى مقصورة أرضية فى ركن من هذه الحديقة مُطل على ميدان " القاواق " (أى ميدان شجر الحور) وكان يستعرض الجنود من تلك المقصورة وهم يتمرنون على استعمال الأسلحة، فيقدم جوائز لمن يصيب الهرة بالرصاص والكرة بالسهم . ويبلغ طول ميدان " القاواق " ٧٠٠ خطوة وهو مفروش بالرمل وقد نُصبت فى وسطه سارية على رأسها كرة مذهَّبة . ولعمرى إنه لمشهد عظيم حين يمطر الجنود تلك الكرة بالسهام !

وهناك أيضًا قصر لمقصود باشا، مشرف على هذا الميدان، وقد بنى حسين باشا بن جانبلاط حُجرات مزخرفة وحمَّامًا لطيفًا وجعلها مضيفة للقادمين من إستانبول، وقد كانت مضيفة عظيمة مذهَّبة مفروشة بأفخر الرياش .

أوصاف ديوان السلطان الغورى

هو ديوان فوقانى عظيم يتسع لعشرة آلاف نفر . وقد جمع الغورى مَهَرة الصناع المصريين وبناه فى ثلاثة أيام ولياليها، محاولاً أن يظهر عظمة ملكه، حين كان مؤتلفًا

(٢٨) **أصفهان** : مدينة شهيرة فى إيران .

مع شاه إيران، ويلغه أنه سيرسل إليه سفيراً عظيماً، وحقا إنه ليس فى مقدور البشر، وقد كان إتمامه على هذا النحو علامة على انتهاء دولته . وقد كُسيت جدرانه الداخلية بالرخام الملون، وذُهِّبت سقوفه ونُقشت بضروب من الألوان، وأرضه كلها رخام أبيض . طوله مائة وخمسة وثمانون قدمًا فى عرض خمسة وخمسين قدمًا، وبجوانبه الأربعة ثلاث وثلاثون نافذة من الصفر وست وعشرون نافذة من البلور، وسقفه مقام على خمسة وثلاثين عرقًا من سواري السفن، وفوق العروق سقف خشبى، وليس عليه قبة معقودة، وهو سقف مذهَّب منقوش تكلُّ العيون من أضوائه .

ولهذا الديوان أبواب ثلاثة ، يفتح أحدها إلى دائرة الپاشا، والثانى ينزل منه بعشرين درجة صخرية إلى الحوش، والثالث يؤدى إلى المضيفة التى سبق ذكرها وينزل منه أيضًا بسلم صخرى، وجانبه المطل على ميدان السراى دهليز يجلس فيه رؤساء الأقلام فى أيام انعقاد الديوان . ولهذا الديوان أربع فتحات تتدلى منها حبال غليظة ذات بكَر، وإذا انعقد الديوان جيء بالأمناء والملتزمين للميرى، فيعلقهم الجلادون بتلك الحبال ويجلدونهم جلداً فظيعًا، اللهم عافنا منه إنه تعذيب مخيف . ونصف هذا الديوان مفروش بجلد الشجران البلغارى، وتتجمع فى أيام الديوان أكوام من القروش على تلك الجلود، ويعدها الصرافون من اليهود . وفى نهاية تلك الأبسطة إلى يسار مقام السلطان سليم، فوق الصُّفَّة الخاصة لجلوس وزير مصر، لوحة عليها طغراء[٢٩] السلطان مراد الرابع فاتح بغداد، بالخط الجليّ المذهَّب فى طول قامة رجلين، وهو من خط يد السلطان نفسه، كما أن له هناك درقة مصنوعة من تسع طبقات من جذر شجر

---

(٢٩) الطغراء Tugra : اسم الإشارة التى تحمل توقيع السلطان فى العصر العثمانى، وكانت تختم أو توضع على الفرمانات والأوامر السلطانية والبراءات والمعاهدات علامة على توقيع السلطان . وقد استخدمت منذ عهد السلطان أورخان حتى نهاية الدولة العثمانية، وكانت لها شروطها وأركانها اللازم اتباعها . انظر فى ذلك للمترجم : الوثائق العثمانية "الدبلوماتيك" دراسة حول الشكل والمضمون، القاهرة . وستجد الحديث عنها بالتفصيل، وصور كل طغراوات السلاطين العثمانيين .

التين، ودرقة قد خرقها بطعنة رمح أو بضربة سيف، وقد كُتبت فوق رأس الباشا بخط غليظ الآيتان الكريمتان الآتيتان : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ (القمر ٥٤/٥٤-٥٥). وأما الكساء الرخامى الذى يكسو الجدراين الأيمن والأيسر من ديوان الغورى فقد نقش أعلاهما وأسفلهما بخطوط متنوعة . وأما القطع الرخامية المربعة التى بالركنين الأيمن والأيسر لصُفَّة الباشا فقد كُتب عليها الرخَّام الماهر بالخط الكوفى وفقًا (أى طلسمًا) من علم الجبر يرمز إلى مجيء السلطان سليم إلى هذا الديوان، أخفاه عن السلطان الغورى. وإنه لرمز كأنه سحر مبين، فقد عرضته على مئات من رجال العلم لم يقدر منهم أحد على قراءته، فعلى الرخام الذى إلى يسار الباشا " عز لمولانا السلطان " وعلى الرخام الذى على يمينه "سليم شاه خلد ملكه"، وهذا أمر جد عجيب. وإذا خرجت من تلك الصُّفَّة فأنت فى حجرة الكرسى التى يقيم بها الباشا أيام انعقاد الديوان، ويسمع شكاوى الشاكين تطل منها نافذة على ميدان السراى ونافذتان أخريان إلى ديوان الغورى .

بيان مدح ديوان السلطان قايتباى

ديوان السلطان قايتباى القديم خارج هذه الحجرة، وهو مفروش بالرخام وقد أقيم سقفه المُذهَّب المزخرف على خمسة أعمدة من الرخام المزخرف المنقوش ويصعد إليه من ميدان السراى بسلم صخرى ذى خمس وعشرين درجة، وقد حضر السلطان سليم إلى هذا الديوان وأجرى الأحكام مرات كثيرة . ولا يزال رخام واجهته المقامة مكسواً بلوحة خضراء وقد كُتبت على هذا الجدار بخط كبير جداً الآية الكريمة ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف١٢/٦٤)، وعلى الجدار المقابل تلك الآية : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف٧/٨٩) .

وديوان قايتباى أصغر من ديوان الغورى، فطوله ثلاثون خطوة فى عرض عشرين خطوة وله ثلاث نوافذ، وكتب على بابه : "تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة" .

وموجز الكلام أنه قصر ملكى عظيم يقصر اللسان عن وصفه، وبأسفله مخزن مملوء بالمُؤَن، تُصرف منه تعيينات الأغوات جميعًا . وكان باب هذا المخزن بابًا لإيوان قايتباى فى عهده، ولا يزال يصعد منه حتى اليوم ببضع درجات دَرَج صخرى، إلا أنه طريق مظلم، ولا يزال يُسمى باب المخزن، وهذا هو التاريخ المكتوب على يمين ذلك الباب ويساره :

" بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ناشر العدل فى العالمين، السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد ملكه، بتاريخ شهر محرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة" .

وعلى يسار هذا الباب مقام السلطان سليم، داخل درابزين أخضر، وقد جلس فيه السلطان سليم حين دخل من باب المطبخ لأول مرة حين أُلقىَ عليه ثلاث قذائف من مدفع بالقلعة، ولا تزال أماكنها ظاهرة، وقد كتبت فى دائرة بجانب تلك الآثار هذه العبارة : " مولانا السلطان الأشرف قايتباى عز نصره " .

خشى السلطان سليم ضربات المدفع فانتقل إلى أسفل العقود التى تحت مسكن سعادة الباشا بجانب الباب الكبير المواجه لميدان السراى، ومكث فيه قليلاً وقد نجا من القذائف، ثم صلى ركعتين شكرًا لله، ثم عقد ديوانًا هناك، ولا يزال وزراء مصر يعقدون مجلسهم فى ذلك المكان قبل ذهابهم لصلاة العيد جريًا على قانون السلطان سليم . حينما يدخل وزير مصر فى هذا القصر فينزل عن جواده ويجلس أسفل السلم الذى أُصيب فيه سليم خان، ويدعو إلى عقد الديوان يوم العيد، ثم يبسمل فيصعد بعشرين درجة ويدعو الله فى ديوان قايتباى ويعقد الديوان، فأول ما ينظر فيه دفاتر غلال وصرر الحرمين الشريفين، لأنه خادم الحرمين .

والجيش الإنكشارى المصرى يسمى " مُسْتَحْفَظان " . وفى الجوانب الأربعة من ميدان السراى خمسة أبواب أحدها باب المطبخ والآخر باب الديوان الكبير، وكلاهما حديديان متينان يحرسهما البوابون أبناء " ألواح " الذى سلم المفاتيح إلى السلطان سليم . والباب الثالث باب الحصن المشرف على المدينة، والرابع باب الكتخذا المظلم ذو السلاسل، مقابل لسجن " أريقخانة "، والخامس هو الباب المظلم الذى ينزل منه إلى القراميدان، وهو طريق مشقوق فى الصخور، ومنه إلى باب آخر يدعى باب الطلسم، وقد قذفه دلى حسين باشا بعدة قذائف مدفع، أحدثت فيه خدوشًا، زاعمًا أن به دفينة، إلا أنه عدل عنه قبل أن يتخرب . وهناك باب حديدى آخر إذا نزلت منه مائة خطوة وصلت إلى مصنع السروج، وجميع خدم الپاشا الممتازين وسراجيه وسائسيه يقيمون فى ثمانين مسكنًا بداخل ذلك الباب . ووسط المساكن ميدان واسع، وإن نزلت مائة خطوة من مصنع السروج رأيت نخلة باسقة كشجرة جوز الهند بجانب باب الإصطبل، وإذا نزلت خمسين خطوة أخرى ألفيت باب الإصطبل الكبير الذى فيه خيل الپاشا وخيل خواص رجاله، وعلى مسيرة مائة خطوة أخرى حصن يقيم به حرس أمير الإصطبلات، والسراجون يشغلون سبعين حجرة، وحصن قراميدان خارج هذا الحصن، وقد كتبنا عنه .

يبلغ مجموع مساحة قلعة الإنكشارية وحصن سراى الپاشا وحصن قراميدان ثمانية آلاف وخمسمائة خطوة، ولما كانت جوانبها الأربعة كجدران بئر عميقة فليس بها خندق إلاَّ فى مسيرة سبعمائة خطوة بجانب باب المطبخ نشأ من قطع الحجر للقلعة، ومجموع أبراج القلاع سبعون برجًا مكشوفًا من فوقه، وأما حصن القراميدان فليس به أبراج، وبه أربعة أبواب، منها الباب الحديدى الكبير المفتوح على ميدان الرميلة، وبه سلسلة مشدودة عليه دائمًا، وهذا الباب متجه إلى الجهة الشمالية، وبجانبه باب صغير مسروق يجتازه الفارس بصعوبة، وأحد أبوابه باب الإصطبل وهو أيضًا باب حديدى يفتح إلى الغرب، وله باب متجه إلى القبلة بجانب مقر فرسان الاستطلاع وهو باب زاوية، وعلى مسيرة خطوة منه باب القرافة المتجه إلى الجهة الشرقية .

تتألف القلاع والحصون على ما بيَّنَّا من ثمانية عشر قسمًا وسبعين بابًا كبيراً وصغيراً تغلق كلها ليلاً، فلا يُسمَح باجتيازها، فمفاتيح أبواب الإنكشارية فى يد قائدهم، ومفاتيح باب العزب بيد رئيس تلك الطائفة، وأما مفاتيح أبواب حصن الپاشا فبأيدى البوابين وبيد كتخدا الپاشا، بينما قلاع مصر وحصونها كلُّها (وسنبين ما فى هذه القلاع المنيعة) مقامة على الصخور العالية الوعرة، وبها الكثير من عباد الله ودوابِّه .

بيان أوصاف سواقى بئر يوسف

عندما بنى صلاح الدين يوسف قلعته رأى أن سكانها يحتاجون إلى الماء، فجمع كل المهندسين والحجَّارين واستشارهم فى كيفية إيصال الماء إلى هذا الجبل الشاهق الوعر، فقرروا أن لا وسيلة إلى ذلك غير حفر بئر واستخراج الماء منها، وقدروا عمقها بمائتى باع. ولما كان صلاح الدين قد عزم على إيجاد الماء فى قلعته بأى ثمن، فقد أمرهم بالمبادرة بتنفيذ ذلك، منذراً إياهم بضرب رقابهم بسيفه إن عجزوا عن ذلك، وما إن صدر هذا الأمر حتى اجتمع الصناع المهرة، وشرعوا فى حفر بئر بلغوا نهايتها بعد أن حفروا مائة وخمسين ذراعًا فى ثمانية أعوام . وهذا العمق لا الحبال تحتمله ولا من يستسقون منه . فلذا قطع الحَجَّارون الصخر من حوله وجعلوا منه طريقًا حلزونيًا، فصار شكلها كجعبة يدور حولها الطريق، وفتحوا للطريق فتحات من البئر ليأخذ منها النور . وهو طريق شبيه بالطريق الذى يصعد منه إلى طبقات مسجد أياصوفيا فى إستانبول، يصعد منه الراجل والراكب بسهولة وينزل، ويبلغ طول قاع البئر ٣٠٠٠ خطوة، وهى مكان مظلم وجد مخيف، فلا يستطيع النزول إليه إلا الشجعان .

قسَّم الأسطى الفنان البئر ثلاث طبقات، فجعل الطبقة الأولى ستين باعًا وفتح بجانب البئر مغارة وأنشأ فيها سواقى يديرها زوجان من الثيران، تنزح الماء من قاع

البئر فتصبها فى حوض عظيم محفور فى الصخر، ومن هذا الحوض يرفع الماء إلى الطبقة الثانية بواسطة سواقٍ كالأول ويصب فى حوض محفور فى الصخر، ثم يرفع الماء منه إلى الطبقة الثالثة بدواليب تُديرها أربعة أزواج من البقر فيصب فى حوض . ومن هذا الحوض يوزع على نادى الإنكشارية وجامع سليمان باشا الطواشى وإلى الأسبلة وبعض البيوت . إنها لبئر عجيبة خليقة بالاعتبار تجب مشاهدتها، يقال إنها ليوسف عليه السلام، ولكن هذا القول غير صحيح، فهى لصلاح الدين يوسف وليست ليوسف عليه السلام . وينزل إليها الزوار بالمصابيح والأسرجة الهوائية فى مدة ساعة، ويعيش فى قاعها نحو مائة رأس من البقر . وفى كل طبقة منها زرائب فى مغارات، وأما ما فى الطبقة السفلى من الأبقار فقد نفقت لافتقارها إلى الهواء الضرورى للمحافظة على حياتها، وأما العجول التى تربى فيها فتتعود الحياة فى الظلام الحالك والهواء القليل وتعيش . والفلاحون الذين يديرون السواقى ويخدمون الأبقار يقيمون هم وأولادهم بالطبقات الثلاث، ورواتبهم من أمين الساقية . ورواتب القائمين بإدارة السواقى التى فى الطبقات السفلى أزيد من رواتب عمال السواقى العليا، كما أن أبقارهم أكثر. والدواليب تدور ليل نهار ، وإذا وقفت فى أسفل البئر ونظرت إلى فتحتها فترى أمرًا عجبًا، إذ ترى دواليب عجيبة طالعات نازلات لها دوى وضجيج كأنها الفلك الدائر . وموجز القول أن من ساح فى الدنيا ولم ير هذه البئر فكأنه لم ير شيئًا ولم يعرف ما الفن وما المقصد من كون الإنسان أشرف المخلوقات، وما قدرته على إيجاد المعجزات، والعارف بالله لا يكاد يلمحها حتى يقول : " همة الرجال تقلع الجبال"، فهى عمل قد بلغ رتبة الكرامات وليس فى مقدور البشر حقا . والماء المستخرج منها بهذا القدر من المشاق فيه ملوحة قليلة ولكنه يُشرب حين الضرورة بسهولة، وقد شرب منه جميع سكان القلعة حين حصار الغورى، ولا يزال بعض الناس يستقون من بئر يوسف دون أن يكونوا فى حاجة إليها .

فى أسفل الحصن الأوسط سبيل يتسع لاثنَىْ عشر ألف قربة ماء، وسبيل عند باب الأغا يسع عشرين ألف قربة ماء، وكذا سبيل الشيخ "صارى"، وصهريج محمد باشا أوكوز فى السوق يتسع لعشرين ألف حمل بعير ماء، وهو وقف عظيم . تُحمل المياه إلى هذه الصهاريج من النيل على ظهور الجمال فتُملأ . وهناك صهريج كأنه بحر قد أقيم بمائة عمود، بين الحمَّام والحصن الأوسط، وتُحمل إليه حين الحصار مئات الألوف من أحمال المياه بالجمال من النيل وبئر يوسف .

بيان عقود الماء التى بناها السلطان الغورى وعددها

وأما المرحوم المغفور له السلطان الغورى فلم يكتفِ ببئر السلطان صلاح الدين يوسف، بل عُنى فى سنة ٩٠٠ هـ =١٤٩٤م بتوفير الماء لسكان القلعة ومصر القديمة، فبنى فى مصر القديمة ساقية شبيهة بقلعة، أنفق فيها ألف كيس مصرى من ماله الخاص حسبةً لله . ويصعد الراكب إلى تلك الساقية ثمانين ذراعًا حلزونيةً، ويُرفع الماء من خمسة أماكن من النيل بدواليب تديرها الأبقار، ويفرغ فى أحواض ويجرى منها فوق عقود الماء إلى القلعة فى ساعة. وعقود الماء بناء حجرى ضخم أقيم على ٣١٣ عقداً، وإذ صادف بعض أماكنه هوة فقد بلغ ارتفاعه ثمانين باعًا وبعضه خمسين باعًا، وفى مواضعه القليلة الارتفاع سدت نحو مائة من العقود .

بيَان ما فى حصن سراى الپاشا من دواليب الساقية

تجرى المياه فوق هذه العقود حتى أسفل القلعة فتملأ هناك آباراً هائلة، وتُرفع منها بسواقٍ وترسل إلى ساقية بقصر الپاشا، ومنها تُوزع على المطبخ والأسبلة وحديقة أغوات الپاشا والأحواض وأسبلة السوق . ويوصل ماء النيل إلى قصر الپاشا كذلك بثلاث طبقات من السواقى، وفى حصن السراى ساقيتان لماء النيل إحداهما بأسفل

قصر إبراهيم پاشا والأخرى أمام دار المحافظة ، وهذه الأخيرة ساقية ذات أربع عيون تديرها أربعة أزواج من البقر . والمياه المرفوعة بسواقى الطبقة الوسطى تذهب إلى بئر العزب والإصطبلات وبعض الأسبلة وسائر الأماكن، وهى ممزوجة بالماء المالح . وثمة ساقية فى قراميدان خلف مساكن فرقة الپاشا الاستطلاعية، وحى أمير الإصطبلات وعمر بن الفارض[٣٠] وهذه الأخيرة أعمق الجميع، وهى أيضًا تابعة للميرى، وبئر يوسف، والسواقى الكبيرة ذوات العيون الخمسة، وساقية حى العزب، وساقية بعين واحدة بقصر أغا العزب، وهى تأتى من السراى مارة بأسفل مسجد السلطان حسن، والدواليب العظيمة التى فى مصر القديمة وحصن الپاشا كلها من خيرات السلطان الغورى، ينفق عليها ٢٠٠ كيس كل سنة، وتعمل فيها ٢٥٠ بقرة، وأمين الساقية ضابط من الإنكشارية . وإذا نظرنا إلى أن أعزَّ ما فى مصر هو الماء فهذه خيرات عظيمة ، لأن النيل يجرى على مسيرة ساعة من مصر، والمياه التى ذكرتها تذهب كلها إلى القلعة الداخلية، لكون مصر السفلى فى غِنًى عن مياه تلك العقود والسواقى . وأرض مصر منخفضة، ففى كل بيت وكل قصر وشارع آبار كثيرة .

بيان آبار مصر السفلى

أرسل السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ م فرمانًا إلى بيرام پاشا والى مصر، وإلى على بك الجرجاوى، ورضوان بك أمير الحج، يأمرهم بالإحصاء

---

(٣٠) عمر بن الفارض : هو الشيخ أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على الحموى الأصل المصرى المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض. ولد فى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦هـ بالقاهرة وتوفى بها يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ، ودفن بالقرافة فى سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف بالعارض. كان من كبار الصوفية، له ديوان شعرى رائق العبارة، وقد شاع شعره فى جميع أقطار العالم الإسلامى . (ديوان ابن الفارض، مكتبة زهران، القاهرة، د. ت. صـ ٢) .

والتحرير، فأحصوا من واقع دفتر الغزالي وتعداد ابن كمال باشا جميع عمارات مصر وخاناتها وجوامعها ومساجدها ومدارسها واحداً واحداً، وبينوا في تقريرهم الذي رفعوه إلى السلطان أن مصر مفتقره إلى الماء ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (الأنبياء ٢١/٣٠) .وقد أحصوا آبار مصر وبولاق ومصر القديمة فوجدوها ٢١٧٤٠٠٠ بئر كلها مالحة، ومياه جميع الحمامات مالحة كذلك، ما عدا بئر حمام القيصوني وسبع آبار أخرى، فإن مياهها صالحة للشرب، وإنها لحكمة عجيبة وأمر غريب أن تقع مدينة على شاطئ النيل العذب الماء وتكون آبارها مالحة، " يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته" .

وأما ماء القلعة الداخلية العليا وهواؤها ففي غاية الجودة وفيها الحياة، إذ إنها مصيف مرتفع تهب فيها أحياناً رياح جد شديدة، وتكون مياهها باردة في الخماسين، فلذا يحملون إليها بعض المرضى لتغيير الهواء واكتساب الصحة، فلا تمضي أيام قليلة حتى يشفوا بإذن الله وينجوا من عللهم. ومن جودة هواء القلعة ولطافته تجد عيون صبيانها كحيلة كعيون الغزال في حين إن عيون صبيان مصر السفلى كعيون الغول جاحظة، وتلكم حكمة عجيبة !

الفصل الثالث والعشرون

بيان المحيط الدائرى لقلعة مصر السفلى وأبوابها وأبراجها ومتاريسها

لبست أنا الفقير وغلامان لى أحذيتنا وقت السَّحَر، فخرجنا مدججين بالسلاح من باب القلعة المواجه لباب الوزير، وسرنا خمسمائة خطوة منحدرين شرقًا حتى بلغنا باب النظامية، وهو باب خشبى مواجه للشرق، وسرنا نحو ٥٠٠ خطوة شمالاً فبلغنا باب القرافة المنحدرة وهو باب خشبى مزدوج يقابل الجنوب، سرنا منه نحو ألف خطوة أخرى بين المدافن حتى ظهرت أسوار القلعة خطوطًا سوداء، وألفينا باب الدرب الأحمر الخشبى المزدوج، وقد اختفى سور القلعة فى هذا المكان. إلاَّ أن داود باشا أقام سوراً داخليا باللبِن، وبعد مسيرة خمسمائة خطوة بلغنا باب المغرب، وكانت فيه قرافة المغاربة فى عهد المعز لدين الله، وهو باب خشبى صغير أسواره مجددة، والمقابر التى هنا داخلة فى أسوار القلعة القديمة . وبعد أن سرنا ألف خطوة خارج هذا الباب متتبعين سور القلعة وجدنا برج الكوم وهو أحد الأركان الشرقية لقلعة مصر . سرنا منه شمالاً ألف خطوة متتبعين سور القلعة وبلغنا باب النصر، وهو باب حديدى مزدوج ارتفاعه عشرون ذراعًا وعلى عتبته العليا تأريخ الجعفرى وصلاح الدين . وبهذا الباب تمر مواكب الحجاج والوزراء رائحات غاديات، وهو باب كبير يفتح شرقًا، سرنا منه شمالاً نحو خمسمائة خطوة متتبعين السور فبلغنا باب الفتوح وهو باب حديدى مزدوج فى ارتفاع عشرين ذراعًا، متجه إلى الجهة الشرقية، وهذا الباب مزدحم بالناس لوجود

حى (واروش)[٣١] الكبير خارجه، ويختفى سور القلعة غربى هذا الباب بين البيوت والحدائق والبساتين . وقد ذرعت أنا الفقير المدينة سيراً حولها فوجدت أبواباً عليها متاريس وبالقلعة فتحات لضرب النار، وتُحفظ مفاتيح الأبواب فى أيدى أئمة مساجد تلك الأحياء .

وعلى مسيرة ألف خطوة من باب البحر سيرًا حول الحدائق يأتى باب اللوق (باب بحر اللوق) وهو باب خشبى غربى، وأمامه بيوت للدعارة ومشارب البوظة، وعلى مسافة مائتى خطوة خارج هذا الباب غربًا يأتى " باب عبادة " وهو باب خشبى متجه صوب الغرب، وبجانبه مسجد ذو أربعين عموداً ومئذنة واحدة، يُدعى مسجد الوالدة عبادة، وجسر الخليج الكبير . وعلى مسيرة ألف خطوة من خليج النيل يأتى باب البحر وهو أيضًا باب حديدى مزدوج ويبلغ ارتفاعه عشرة أذرع، وبجانب سوره مسجد مزار تفرجكاه (المتفرَّج) بساحته شجرة نبق باسقة لا نظير لها بمصر، وإذا سار المرء من ذلك المسجد بشاطئ الترعة نحو مائتى خطوة جنوبًا فاجتاز حديقة العجم ثم سار حتى " باب قنطرة الدكة " يكون قد قطع سبعمائة خطوة . وبجانبها جامع الشيخ شاذلى وهو مدفون فيه، ويمر خليج الأزبكية من تحت هذه القنطرة، وعلى مسيرة ألف ومائتى خطوة منه جنوبًا باب السكينية، وجامع السكينية مسجد مفرح فى هذا الموضع، وعلى مسافة ألف خطوة جنوبًا سيراً بين الحدائق والبساتين عبر مصنع اللبن يقع باب الدباغين الخشبى المطل صوب الغرب، فوقه متاريس قلعة، أمامه جسر بعقد واحد، وعلى مسافة خمسمائة خطوة منه باب السقَّائين وهو باب خشبى ناظر إلى الغرب، والمسافة بينه وبين جامع الجُبْيَّة عبر الحى الذى بداخله مائتا خطوة، وتقطع سبعمائة خطوة أخرى للوصول إلى باب الأصمعى، وفى هذا المكان سوق تسمى الناصرية، وفيه أيضًا مسجد أمير الإصطبلات، وكلا الجامعين مرتفع بهيج جميل، وعلى مسيرة

---

(٣١) واروش Varos : كلمة تُطلق على الحىِّ المحاط بالخنادق والمحاور الرئيسة بالمدينة ، مشتقة من اللغة المجرية . (انظر : محمد ذكى پاقالين جـ ٣ . صـ ٥٨٤) .

ستمائة خطوة من مسجد أمير الإصطبلات عبر قنطرة السبع يقابلك الباب الجديد، وهو باب خشبى على طريق كبير وعلى عتبته العليا متاريس وفتحات لإطلاق النار، ومنه إلى باب عز الدين نحو الجنوب من طريق السيدة رقية بنت الإمام على مسيرة أربعمائة خطوة . ومسجد جمال الدين فى هذا المكان، وباب عز الدين خشبى يقابل الجنوب . وعلى مسافة خمسمائة خطوة صوب القبلة عبر المدافن يقع باب خرط النصارى، ويقابل الغرب وعليه متاريس وفتحات لإطلاق النار، وبداخله حانات مصر ونساؤها العاصيات وصبيانها . وبعد سير نحو ٨٠٠ خطوة حول المدينة بجانب سورٍ ذى طبقة واحدة يوصل إلى باب السيدة نفيسة وفيه جامع السلطان خير الأم، وباب السيدة نفيسة خشبى متجه نحو القبلة . وعلى مسافة مائتى خطوة شمالاً خارج حى السيدة نفيسة باب القرافة الوسطى، وإذا دخلت منه وسرت خمسمائة خطوة جنوبًا مارا بالقبر الطويل بلغت باب القرافة الكبرى، وهو باب خشبى كبير ناظر إلى الشرق، ومنه الطريق إلى الإمام الشافعى وعمر بن الفارض، وباب ابن الفارض على مسيرة خمسمائة خطوة بجانب سور قلعة قراميدان . وإذا سرت خمسمائة خطوة أخرى إلى الجنوب الشرقى ألفيت بابًا خشبيا يطل إلى الشرق وهو باب الجمالين، وهو بأسفل سراى الپاشا بقرب ميدان شجر القاواق .

تمَّ هنا وصف الأبواب التى بجهات مصر الأربعة وقد بلغ بنا التعب والإعياء منتهاه، ولكننا لم نكتفِ بهذا القدر، بل قوَّينا العزم ومررنا بالقرب من باب المطبخ صاعدين سور قلعة ميدان القاواق، متخطِّين خندق القلعة، ثم مشينا حول غرف الإنكشارية بالقلعة الداخلية، وبلغنا باب النظامية بقطع ألفى خطوة أخرى، ووصلنا إلى مسكننا بالنظامية قبل المغرب متعبين مُنْهَكى القوى .

إن مجموع مسافة الأماكن التى بها أسوار القلعة المحيطة بالأحياء السفلى يبلغ على هذا الحساب خمسة عشر ألفًا وخمسمائة خطوة، بها إحدى وعشرون بوابة و٢٤٠

برجًا و٧٠٠ متراس، وأما الأبواب التى فى أماكن غير مُسَوَّرَة فخشبية وعليها متاريسُ وفتحات لضرب النار .

ولما انبلج صبح اليوم التالى ركبنا خيلنا فأسرعنا إلى باب النصر ، ونزلنا عنده عن ظهر الخيل فأمسكنا القلم والدواة وشرعنا فى العمل قائلين: " ما الحساب إلا بالتمام "، فابتدأنا نجول فى الأحياء الواقعة خلف الأسوار المحيطة بمصر خارج باب النصر وباب الفتوح حتى سلخانة الأغنام، وسرنا منها إلى جامع الظاهر بيبرس، ومنه إلى قنطرة الأزبكية ثم إلى قنطرة الميمون، وتبلغ مسافة هذا الحى الكبير ألف خطوة . وخلاصة القول أن مسافة الدائرة التى تحيط بمصر، والتى تشتمل ما كتبنا عنه بالأمس من المواضع المسورة وأبواب الأحياء غير المسورة، وهذا الحى الخارج عن السور والبالغ مساحته الدائرة ألف خطوة، تبلغ ثلاثة وأربعين ألف خطوة، وقد شغلَنا هذا العمل يومًا وإلى الظهر من اليوم التالى، أى أننا درنا حولها فى سبع عشرة ساعة من الزمن، ويشمل هذا الحساب القلعة الداخلية بأقسامها وحصن الپاشا، وأما مدينة بولاق ومصر العتيقة ومصيف السلطان قايتباى وأحياء الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض وأبى السعود الجارحى فخارجة عن الحساب المذكور، لأنها أحياء تبعد عن مصر بمسافات، فالمسافة المحيطة بمصر المحروسة ثلاثة وأربعون ألف خطوة، والسلام .

وأما الخندق الذى بالجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية والشمالية لهذا الحى فقد امتلأ قمامة، وكان فى عصر صلاح الدين قلعة عامرة جميلة . وقد جرت فى بعض أطراف المدينة خلجان كترعتَى الأزبكية والناصرية بدل الخندق، وعلى شواطئها الأبواب التى ذكرتها، وإذا كان الليل مر الحراس والبوابون ورئيس الشرطة (صوباشى) والدويدار بتلك الأبواب فأغلقوها، إذ إن فى مصر من أولاد الحرام من الفلاحين والقواصين والأشقياء واللصوص ما لا نظير له فى سائر البلاد .

بيان ما فى دروب مصر السفلى من الأبواب

وللتخلص من أولئك الأشرار أنشئت فى كل ركن بمصر أبواب مفردة ومزدوجة، وقد بنى الأعيان طُنُفًا ومشربيات من درب إلى درب ومن عطفة إلى عطفة، جاعلين منافذها على الطريق العام لرمى الأشقياء منها بالسهام والنار حين الضرورة، ولكل ركن باب، والبوابون تابعون لإدارة رئيس الشرطة . ويبلغ عدد الأبواب كما فى دفتر رئيس الشرطة ٢٦٠٠٠ باب، فيها أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة، تُغْلَق الأبواب جميعًا بعد عِشاء كل ليلة، ولا يستطيع أحد الخروج من منزله بعد ذلك، وتسلم المفاتيح إلى أئمة مساجد كل حى أمانة، والبوابون مسئولون عن كل شىءٍ وكل حادث فى الليل ومعرضون للعقاب، فلذلك يبيتون واقفين خلف الأبواب متكئين على نبابيتهم، ويدفع السكان للبوابين " ديوانيا " من العملة المصرية كل يوم لقاء خدمتهم هذه .

الفصل الرابع والعشرون

بيان الأحياء وقصور الأعيان العالية وسائر البيوت

تحتوى مصر أم الدنيا، فى ما بيَّنَّا لها من سعة، بناء على إحصاء الغزالى، على سبعمائة وأربعين حيا إسلاميا، بها ثمانية وسبعون قصرًا منيفًا من قصور أسر السلاطين السالفين، يقصر اللسان عن وصف كل قصر منها، فعلى شاطئ بركة الفيل قصر قايتباى، وفى قلعة الكبش قصر السلطان الجاولى الذى بأسفله قصر محمد بك، وبمقابله قصر نزير أغا، وقصر رضوان بك أمير الحج، وقصر ذى الفقار بك أمير الحج أيضًا، وقصر يوسف بك أمير الحج السابق، وقصر الشيخ صارى، وقصر محمد بك البيقلى، وقصور محمد بك وعباس أغا ومحمد أغا البلطجى ورضوان أغا وشعبان أغا ورئيس المتفرقة، وبكير أفندى كاتب الإنكشارية وكنعان بك وطاشياتير، ومحمدينى قابيلى، والشيخ البكرى والحاج باشا وأوزبك ومسعود أغا، واثنان وعشرون ألف منزل من منازل المسلمين . وللأقباط عشرون محلة بها ستمائة منزل، ومجموع الأقباط الدافعين للخراج ٩٠٠٠ نفس، يحصِّله منهم أمير البحرية .

ولليهود حى خاص، فهم يسكنون جميعًا فى جهة واحدة، وأزقتهم ضيقة، وهم مُضَايقُون، وليس فى إمكان الحصان أو الجمل المرور من طرقهم، ويسكنون منازل ذات أربع طبقات وخمس طبقات، وقد جعل فى كل خمسين خطوة درب يغلق بابه . وأسواقهم فى حيهم، فلا تمسهم حاجة إلى أسواق أخرى، وفيه نقطة للإنكشارية للمحافظة على الأمن، وعدد دافعى الخراج من اليهود ٦٠٦٠ نفسًا .

وللأروام أربعة أحياء وللأرمن حيان، ويبلغ عددهم جميعا ٣٠٠٠ نفس من دافعي الخراج . وثمة خراج ستة آلاف أو سبعة آلاف من ضيوف الكفرة، وليس في مصر من غجر الروم، بيد أن المصريين كلهم من قوم فرعون . ويسكن في حي بشاطئ الخليج كفرة من الفرنج ، ولكن بما أن في مصر وكلاء سبعة من ملوك الفرنج فإن نحو ثلاثة آلاف من هؤلاء الكفرة يتمتعون بالإقامة في مصر دون أن يدفعوا شيئًا من الخراج !

وموجز القول أن في مصر سبعين شعبًا، وتُتكلم فيها مائة وأربعون لغة ، ففيها من اللغات عداً عشرون لغة نصرانية، واللغة المغربية، والأندلسية، والبرناوية، والأفنوية والدنقلوية والبربرية والفنجية والقرمانيكا Kirmanika والبكنسكى Begenski والحبشية واللبنانية والسودانية والتلمسانية والربية والميبورية والفارية والرجوية والنوبية، وأمثالها من اللغات التي لا يمكن التعبير عنها باللسان ولا التحرير بالقلم . بيد أنني أنا الفقير ساكتب عن كل أحوال مصر وأجناس مخلوقاتها كلٌ في موضعه إن شاء الله .

وصف باب زويلة

عندما كان حسين القائد بالله بن المعز لدين الله باني مصر الجديدة خليفة بمصر سنة ٤٨٠هـ = ١٠٨٧م، عين أمير الجيوش أبا النجم بدر الدين الجمالي الذي كان سابقًا وزير المستنصر بالله العباسي، وزيرًا له، فهدم الوزير الجهة الجنوبية من الأسوار التي بناها جوهر القائد، وأقام بدلها سورًا متينًا عاليًا لا يزال بعض أجزائه تحت الأكوام في جهات قايتباي. وباب زويلة بناه أمير الجيوش المشار إليه في ذلك العهد ، مضى عليه واحد وخمسون عامًا حتى كتابة هذا الفقير تاريخه، ولم أرَ في رحلاتي بابًا عاليًا فيه ما في هذا الباب من الفن والزخرفة. لما بنى بدر الجمالي هذا الباب جعل له طلسمًا عظيمًا ولم يجعل له مصراعين، فلذلك كان يظل مفتوحًا دائمًا، وكان إذا أراد أحد أن يخطو الحجر الأسود الموضوع بعتبته قاصدًا دخول مصر

لارتكاب جناية أو قتل أو نهب راكبًا كان أو راجلاً، تعثرت قوائم فرسه فوقع على أم رأسه فهلك، أو توقف فرسه جامدًا، فلم يكن هناك سبيل للناهب أو الباغى أو اللص لاجتياز باب زويلة. ثم إن هذا الباب فضلاً عن أنه مُطَلْسَم، كان موضع اجتماع موسى والخضر عليهما السلام ، فلذا لا يزال مزارًا باسم مقام الأربعين، وكان طلسمه فعالاً حتى فى خلافة الملك الكامل ناصر الدين محمد، وقد أراد الملك الكامل ذات يوم أن يدخل منه لتأديب الأشقياء المتحصنين بالجامع الأزهر فتوقف جواده، ولما همزه بالمهماز وثب الجواد وانقلب على رأسه وتمرغ الملك فى التراب، فغضب وذبح على عتبة الباب مائة رأس من الغنم ولطخه بدمائها، وأفسد الطلسم بنزع ذلك الحجر الأسود منه، ثم جعل له مصراعين وصار بابًا يُفتح ويغلق كسائر الأبواب .

الفصل الخامس والعشرون

وصف ما فى محروسة مصر من الجوامع التى بناها السلاطين وسائر الجوامع الأخرى

يوجد بمصر ستة وخمسون ومائة جامع بناها السلف من السلاطين، ولم يُخَلِّف ملوك بلاد الروم والعرب والعجم وسلاطينهم، بل فى بلاد المسلمين قاطبة، جوامع عظيمة بهذا القدر، فكل جامع وكأنه جنة، ولسوف أزورها جميعًا وأكْتب عنها إن شاء الله، ومن تلك الجوامع، الجامع القديم والمعبد العظيم، المستجاب فيه الدعاء، كعبة الفقراء وملجأ الضعفاء بمصر القديمة ألا وهو:

جامع عَمْرو بن العاص (رضي الله عنه)

عندما حاصر عمرو بن العاص بابليون الذى نشأت عنه مدينة الفسطاط من بعد، أقام خيام جيشه فى مكان هذا الجامع، وحفر حولها خندقًا وأمر بدفن شهداء المسلمين الذين يستشهدون كل يوم فى هذا الموضع . ومن حكم الله، أنهم لما فتحوا قلعة مصر القديمة واقتضى الأمر طى الخيام وحملها، رأوا حمامة قد عَشَّشَت فوق خيمة القائد عمرو بن العاص، فلما أخبروه بذلك قال : " لا تحلوا الخيمة، فإن الحمامة ضيف ينبغى إكرامه حتى تُفْرِخ وتطير فراخها ، فكل من اعتصم بنا من طائر أو إنسان أو حيوان هو فى أمن وسلام " . ولما أفرخت وطارت أفراخها اعتادت الوقوف أمام عمرو واستأنست به، وحلوا الخيام وأنشأ جامعًا وضع أسسه من الخندق المحفور سابقًا. ولما عادت الحمامة وعششت فى الجامع أيضًا سمى "جامع الفسطاط ". أتم بناء الجامع

بأربعين ألف جندى، ثم صاروا يصلون فيه دائمًا . فهو مسجد عتيق، جم المناقب، ولكنى سأكتُب عنه ملخصًا .

هو جامع كبير مربع الشكل وكأنه حصن ذو متاريس، تبلغ مساحته طولاً وعرضًا مائة وثمانين خُطْوَة موسَّعة، يوجد فى الجهة القبلية والجهة التى تجاورها بابان ومائتان وثمانون عمودًا عاليًا من الرخام الأبيض . ولم يكن عند ابتداء بنائه جدران فى أطرافه الأربعة، بل أقيم كله على أعمدة، ولا تزال رءوس الأعمدة ظاهرة فى بعض أماكنه حتى اليوم، وفيه أيضًا ثلاثمائة عمود . ودكة المؤذن أيضًا على أعمدة، فمجموع الأعمدة على هذا الحساب ثمانمائة وعشرون عمودًا عاليًا، وفوق العقود سقوف مزخرفة منقوشة ليس فيها قباب، ثم أقاموا حوله سورًا عظيمًا من الطوب اللبن كأنه سور قلعة، ليزيدوا من متانة الجامع . أما منبره ومحرابه فمن الطراز القديم، فأما المنبر فمصنوع من الخشب الدقيق المنقوش، وأما المحراب فمن صلى فيه ركعتين فى الجمعة الأخيرة من رمضان المبارك نال سعادة الدنيا والآخرة بلا ريب . وصحنه فى اتساع الصحراء مفروش بحجر رخو أبيض، وفى وسط الصحن غرف علوية، وكان يقيم بها سابقًا السيد علاء الدين الطائى قطب الأقطاب، ولا يزال يقيم بها الشيخ يوسف الشناوى صاحب السلوك. ولا تزال حول أطراف الجامع الأربعة مئات من الزوايا المظلمة التى يسكنها العارفون بالله، الذين يفطرون مرة فى الأسبوع، ومنهم الشيخ على الفارضى ورمضان العارفى القيصرى من أصحاب الكشف والكرامات ، والشيخ على الفارضى من السلاطين العظام الذين يتلذذون بعلم الموسيقى، إن قرأ وأمامه الألوف من البشر. ويصبح كبحر زاخر من الناس الذين يصلون الجمعة به ، ويُقال إن أرواح الأنبياء تحضر إليه فى ذلك اليوم بلا ريب .

ويوجد لهذا المسجد سبعة أبواب وأربع مآذن، فى كل ركن ترتفع مئذنة، وهى على الطراز القديم. وبجوار الركن الأيمن مصلى داخل درابزين، وفيه مصحف من كلام رب العزة بالخط الكوفى، كتبه عمرو وعثمان رضى الله عنهما بيديهما الكريمتين على جلد الغزال . وبالقرب منه مقام دُفن فيه سبعة آلاف من الصحابة، وبالركن الأيسر مزار

مربع الشكل يُقال له " مقام الأوتاد ". وللجامع محراب آخر، بالقرب منه قطعة مربعة من الرخام الأبيض على ارتفاع ثلاثة أشبار من الأرض، كُتب عليها بالخط الجلى نص التاريخ: " إنما بنى بالتمام المكان الشريف سنة ٨٣ هـ = ٧٠٢ م العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عمر المجلى التاجر ، من أكابر تُجار حوض الشريعة عفا الله عنه". لجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه البروق سبع بوابل بَيع لوجه الله غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين" .

وكُتب على لوحة فى طول باع بيمين المنبر أربعون بيتًا أو خمسون بالخط الجلى تأريخًا لما قام به بيرام باشا[٣٢] من تصليح وترميم له أيام أن كان وزيرًا لمصر سنة ١٠٣٢ هـ = ١٦٢٢م. وإليك بيت التأريخ :

سير ايدركن ايكى اكسيكلى ديدلر تاريخى

اثرن ايلدى اصحاب كزينك احيا سنة ١٠٣٢ هـ

و معناه :

"شاهده اثنان من الضعفاء فقالا تاريخه

أحيا أثر الصحابة الكرام" (سنة ١٠٣٢ هـ).

(٣٢) بيرام باشا Bayram Pasa : نال منصب الصدارة فى عهد السلطان محمد الرابع . من مواليد إستانبول، التحق بزمرة الإنكشارية وهو شاب حتى صار أغا الإنكشارية عام ١٠٣٢ هـ = ١٦٢٢م، ونال شرف مصاهرة السلطان مراد خان حيث تزوج أخته عام ١٠٣٥ = ١٦٢٥ م. عُيِّن واليًا على مصر، ثم نُقل إلى ولاية بودين بالمجر . تولى الصدارة عام ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٩م، وصاحب السلطان عام ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م حين توجهه لاسترداد بغداد. وافته المنيَّة فى أورفة ، وحُمل نعشه إلى إستانبول، ودفن بجوار مسجده وتكيته التى أقامها فى إستانبول . (انظر : س. سامى . قاموس الأعلام ، حـ ٢ ١٤٢٨ - ١٤٢٩) .

عجيبة من عجائب جامع عمرو بن العاص

يوجد فى جامع عمرو بن العاص موضع غريب جدير بالمشاهدة، حيث يوجد أمام المدخل القبلى عمودان من الرخام مقامان جنبًا إلى جنب، يقول الناس إن من كان نجسًا أو عاصيًا لا يستطيع المرور بينهما، وإن كان طاهرًا أو بريئًا مر . فمن الناس من هو بدين ضخم ويمر كالسهم ومنهم من هو ضعيف نحيل ولا يقدر على المرور فيخجل . ويُقال إن " شاطرًا " ممتازًا من شطار أحد الأمراء دخل بينهما يريد المرور فعجز عن المرور أو العودة، فاجتمع الحاضرون وأمسكوه من يديه وأرجعوه القهقرى وسط صخب وجلبة، وما إن خرج من المسجد حتى أسلم الروح توًا لسبب مجهول، أهو من الخجل أم من أمر آخر؟ وغُسِّل الرجل على الفور، وصلى على جنازته ألوف من الناس بعد تأديتهم صلاة الجمعة. إنها لحكمة عجيبة !

وليس بجامع عمرو زخارف كسائر الجوامع، وله ما يزيد على مائتى خادم، وحوله نحو سبعين أو ثمانين بيتًا من بيوت الفقراء . ولولاها لكانت جوانبه الأربعة مُحاطة بخرابات مصر القديمة .

وصف الجامع الأزهر (جامع جوهر القائد)

هو من مآثر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، بناه سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. قدم عبد من بلاد المغرب يُدعَى جوهر، يحمل عدة آلاف كيس من المال، وشرع فى وضع أساس هذا البناء فى ساعة السعد والبركة، بإذن من سلطان الإخشيديين . وكان يعمل معه عشرة آلاف عامل وكل المغاربة الموجودين فى المدينة، وما إن أوشك بناء الجامع على التمام حتى خرج المعز لدين الله من المغرب مُغِيرًا فدخل مصر فى غفلة من أهلها، واستل المغاربة المتسترون باسم العمل فى بناء الجامع الأزهر، استلوا الحسام

وانضموا إليه، وانتزع المعز لدين الله مُلك مصر من يد الإخشيديين واستقل بالحكم . ولما تم له ذلك عُنىَ بالأزهر، فاستقدم العلماء من البلاد وخصص لهم الطعام والشراب من اللبن والتمر والسكر، ولا تزال أوقاف الجامع الأزهر أكبر الأوقاف فى القطر المصرى، ولما كان مباشر الأزهر عبداً مملوكًا يدعى " مباشر" فهو لا يزال يذكر بذكر الاسم، كما أن المعز لدين الله صار مَلِكَ مصرَ لبنائه جامعَ الأزهرِ بأمواله .

ولا يوجد فى مصر جامع له ما للأزهر من جماعة، وإذ هو واقع فى عين فعل مصر، أى محط اهتمام مصر، فهو مزدحم بالناس ليلاً ونهاراً، فلا تجد فيه موضعًا للسجود . يجتمع فيه اثنا عشر ألف طالب علم ليل نهار، وتطن أصواتهم كأصوات النحل وهم يرتلون ويحفظون، مما يدهش الإنسان ، وقد انهمكوا فى مباحثات علمية .

ويبلغ طوله من باب فى جانب إلى باب بالجانب الآخر مائة وسبعين خطوة موسعة، وعرضه من باب المُجلَّدين عبر الصحن الأصغر وباب الصحن الأكبر حتى المحراب مائة وخمسين خطوة موسعة، وفيه مائة وعشرون عموداً أبيض، عشرون منها مبنيَّة بالحجارة، وهى الأعمدة الصغيرة التى بين الصحن والجامع. وسقوف الأزهر الخشبية الخضراء الملونة بألوان مختلفة تُقام على أربعمائة عقد. يخلو من القباب، ويبلغ ارتفاعه قامة ثلاثة رجال، ليس بناء حجريا عاليًا كسائر الجوامع، ولكن به روحانية طاغية، فمن دخله لا يرغب فى الخروج منه . وبه محاريب للمذاهب الأربعة ، وقد كُتبت على محراب الحنفية هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (الحج٢٢/٧٧) . ومنبره خشبى منقوش، وعلى الجانب الأيمن منه محراب خشبى كُتب عليه بالخط الجلى الأبيض على أرضية زرقاء لازوردية هذه الآية: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ (البقرة ٢/١٤٤) . ويوجد بالجامع مائتا

خزانة كُتب، ارتفاع كل منها خطوتان، وتتألف كل خزانة من ستة أرفف أو سبعة، ويبلغ عدد الخزائن على هذا الحساب ٩٠٠٠ خزانة مملوءة كُتبًا وسائر حاجات طلبة العلم من طعام وشراب . وبالأزهر يدرس نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من مكفوفى البصر من حَفَظَة القرآن، ولشدة ما يحدث من الصخب والجلبة فى أثناء المباحثات والمجادلات العلمية بين الطلبة يعجز المصلى عن القيام بأداء الصلاة. وصحنه الخارجى فضاء مبلط ببلاط أبيض فى مائة وخمسين خطوة طولاً وعرضًا، وإذا أضفت إليه الإيوانات (الصُفَّات الجانبية) بلغ ١٧٠ خطوة، وصحنه مفروش بأحجار غير لامعة، وأسفله صهريج تتجمع فيه مياه الأمطار التى تهطل فى الصحن . وليس هذا فحسب، بل يُملأ هذا الصهريج بأحمال أربعين ألف بعير من ماء النيل الذى يوزَّع على الطلبة فى شهر يوليو (تموز). وبالصحن ثلاث فتحات، والصهريج كأنه بحر ماؤه عذب . والأماكن المخصَّصة لإلقاء الدروس فى أواوين الأزهر تُسمى بالأروقة، ففى جوانبه الأربعة يوجد خمسون رواقًا، هى أماكن أقوام من خمسين بلدًا، والحقيقة أن كل واحد من تلك الأروقة حافل بعلماء المسلمين من شتى أجناس الدنيا، بحيث إن سكان أى رواق لا يعرفون عن سكان الرواق الآخر حتى لغتهم ولا سائر أحوالهم، فالكل مشغول بعمله، وإذا أُذن للصلاة - والعظمة لله - فكأنه يوم المحشر، يحمل كل منهم كُتبه وثوبه ويجدد وضوءه ويصلى، ثم يعود إلى مذاكرة العلم . لا شك أنى أنا الفقير لم أسمع فى الأزهر كلام هذه الدنيا الدنيئة، فما إن أزوره حتى أتخلص من العلائق الدنيوية، ولقد نلت الحظوة من حالات أخرى .

ويحفل الجامع الأزهر بالعلماء المصريين الذين يقومون بإلقاء الدروس فى سبعين مكانًا، فهناك رواق الروم (الترك) فى ركن خاص يقيم به الأتراك، وهو رواق نظيف جدا ومُحَبب إلى سُكانه، وأوقافه كثيرة، وأما الرواق العربى والرواق المغربى فليسا

بنظيفين، وسائر الأروقة الموجودة هى رواق الفنج، ورواق الأكراد، والرواق البلخى، ورواق التتر، ورواق الداغستانيين، ورواق العجم . وخلاصة القول أن طلبة من خمسين أمة يقيمون بأروقتهم المخصصة لهم، ويعملون دومًا على تحصيل علوم مختلفة . وبهذه الأماكن المسمَّاة بالأروقة حول الصحن مائتان وخمسون عمودًا من الرخام الأبيض، إلاَّ أن خمسين منها مبنية بالحجارة، فيكون مجموع العقود على هذا الحساب أربعمائة عقد . ويوجد بداخل الجامع وخارجه ١٢٠٠ مصباحٍ توقد كل ليلة، فلا يحتاج الطلبة إلى استعمال مصابيح الشمع الخاصة. ولما بنى القائد جوهر الجامع الأزهر جعل له طلسمًا، فلذا لا تجد فيه أثرًا للطيور كالعصفور والخطاف والحمام والحدأة، فهى لا تدخله ولا تعشش فيه، إنه لطلسم عظيم .

وعلى باب محرابه مئذنتان، لكل مئذنة خمس شرفات، وعدد أبوابه سبعة، وهى أبواب من الصفر مزخرفة . وعلى يسار الصحن حوض مساحته عشر فى عشر، وحول الصحن الكبير توجد مدارس ودار للحديث ودار للقراءة وحلقات للدروس كثيرة، والطلبة لا حصر لهم، ثم إن هناك – عدا الأروقة – ربوعًا إذا دخلها المرء تاه فى غرفها، وهى كذلك تكتظ بأعيان العلماء والصالحين .

وخلاصة الكلام أن بالأزهر اثنى عشر ألف نفر، ولا يحدث اضطراب فى مصر إلاَّ وخرج علماء الأزهر ثائرين صائلين، وأصواتهم خطرة جدا "اللهم عافنا "، إلى حد أن قاتلاً أو لصا إن اعتصم به تائبًا متطهرًا فلا يقدر الحاكم على انتزاعه منه ووضع اليد عليه . وتُتلى فى الأزهر ألف ختمة يوميا، وإذا أراد أحد أن يهدى إلى أرواح أبويه وأساتذته وأولياء نعمته ختم القرآن العظيم فثمن ذلك ٣٠ پارة ، وإذا تردد طالب الختم فى الدفع فهم لا يتورعون عن انتزاع كيسه غصبًا . إن الواحد منهم يختم القرآن فى سبع ساعات، ولجميع الفقراء من طلبة الأزهر رزق مقرر من مطبخ الله صباحًا ومساءً، وهو صحن من حساء الأرز والعدس ورغيف خبز، وفى كل ليلة جمعة يقدم إليهم الأرز

واللحم بالبصل والحلو . ويجلجل بداخل الأزهر هزيم كهزيم الرعد ليلاً ونهارًا، وفيه قضاة حكام من المذاهب الأربعة . وقاضى الأروام هو مصطفى أفندى برواق الأروام، وكم من المجرمين والقتلة صاروا علماء . ولما كان المصريون يؤمنون بفضل الأزهر فهم يتصدقون عليه كثيراً ويؤدون زكاة أموالهم له، كما أن صُررًا وعطايا ترسل إليه من سائر البلاد، فأوقافه هائلة يقصر اللسان عن وصفها .

أوصاف جامع السلطان أحمد بن طولون

قدم السلطان أحمد بن طولون من الأتراك من أرض العراق إلى مصر فى سنة ٢٥٤هـ=٨٦٨ م، ورأى رسول الله (ﷺ) فى منامه، فأقام هذا الجامع الذى يخاله من يراه قلعة، فإن أركانه المعقودة بالصواميل وما فى جوانبه الأربعة من المتاريس، ومتانة جُدرانه المضاعفة لا تتوافر فى قلعة . هو جامع مربع الشكل، وترتفع جدرانه أربعين ذراعًا، فكأنه بُنى على شكل الكعبة الشريفة . وإذا كان محرابه قد وضع بوحى من الرسول صلى الله عليه وسلم فهو أصدق قبلة، ومتفق مع جميع المواقيت والبوصلات، وتتبدى فيه الروحانية، لأنه محط أنظار الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم إن هذا الجامع كعبة الفقراء، لأنه معبد عتيق، فقد وردت أوصاف هذا المعبد فى تاريخ الأقباط، وكانت أرضه تُسمى " الحمراء القصوى " ويطلق على جبله اسم جبل الكبش . ولما كان عمرو بن العاص يحاصر الفسطاط ضرب بنو يشكر خيامهم فى هذا المكان فسمى (جبل يشكر) . ثم شيد أحمد بن طولون قلعة على هذا الجبل سميت بقلعة الكبش، وقيل أيضًا إنه سمى بذلك الاسم لأنه كان فى عصر الأقباط طلسم كبش مصنوع من الصفر ناظر نحو جبال الأهرام بالجيزة، وإذا رفس برجله وثغا كثر الغنم فى ذلك العام، وأقيمت عند الكبش سوق للغنم، ولا تزال سوق الغنم تقام فى ذلك المكان حتى اليوم، كما يُقال إن موسى عليه السلام كان يرعى غنمه فى ذلك الموضع ويتعبد فيه . ومحراب مسجد أحمد بن طولون هو المكان الذى اجتمع فيه موسى والخضر عليهما السلام، وقد

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أحمد بن طولون فى منامه قائلاً : " يا أحمد فى مقام أخى موسى النبى" فبنى الجامع على جبل الكبش فى مقام موسى وعلى شكله القديم الطاهر، فهو معبد عتيق، ومن صلى فى محرابه مرة كانت مقاصده الدنيوية والأخروية مقضيَّة عند الله .

ويبلغ طول الجامع من بابه القبلى إلى بابه الغربى مائة وعشرين خطوة موسعة فى عرض مائتين وعشرين خطوة مثلها، وداخل الباب من الجهة القبلية قباب حجرية معقودة على تسعين عموداً ضخماً مبنيا بالحجارة، وفى أواوينه المحيطة بصحنه من جهاته الأربع مائة عمود مبنيَّة بالحجارة أيضًا، وبين العقود مائة وستون لوحًا من الزجاج . وأبوابه ستة ويُصعد إليه بسلم صخرى ذى ثمانٍ عشرة درجة من بابه الكبير الذى بالجهة القبلية. وفى تلك الجهة هوة، وكانت مياه بركة الفيل تجرى فى ماضى الأيام فى أسفل هذا السلم، ويتوضأ منها المصلون فى الجامع، ولا تزال آثارها ظاهرة . وفى وسط الصحن قبة عظيمة كأنها قلعة، وتحتها حوض شافعى، وعلى يسار الصحن نخلة باسقة لا نظير لها فى إقليم مصر، ويُستدل من تمرها على أنها تثمر بأمر رسول الله (ﷺ) ثمراً شبيهًا بتمر نخيل المدينة المنورة ، وصحن الجامع مفروش برخام أبيض غير مزخرف وبه مقصورتان .

ويوجد لهذا المسجد مئذنة عجيبة، بنيت فى جهته الشمالية عبر الطريق بعيدة عنه، وليس لها نظير فى مساجد بلاد المسلمين ، حيث إن المآذن يُصعد إليها بسلم بداخلها، وأما هذه المئذنة فقد اخترع لها المهندس الفنان طريقة لصعود المؤذنين عليها من الخارج من حولها، وهى مع ذلك ليست بغليظة، وقد بذل فيها الأستاذ المعمارى ضروبًا من الفن لا يمكن وصفها أو التعبير عنها، فلا بد من مشاهدتها، ومتى كان السماع كالرؤية ؟ كما أنها أعلى من كل المآذن فى مصر المحروسة، وقد وُضع على ذروتها العليا بدل الهلال شعارٌ كسفينة مصنوعة من النحاس، ويُقال إنه طلسم، ويقول بعض أرباب العلم إنها علامة على غرق مصر بفيضان النيل حتى ذروة تلك المئذنة. ولا شك أنها مشهد عجيب .

وأراد الخطاط الشهير أحمد القره حصارى، وهو فى طريق الحج إلى بيت الله الحرام أيام السلطان سليمان، أن يترك أثراً فى مسجد أحمد بن طولون، فكتب على جداره الأيسر بسملة شريفة فى طول أربعين خطوة ، وكل ألف منها طولها ثمانية أذرع، وامتداد سينها سحر مبين . وهى مجلوة لامعة ومتوائمة مع نقوش الجدار يُخَيَّل إلى الناظر أنه قد فرغ من كتابتها توا، وكتب فى أسفلها: "الفقير أحمد القره حصارى سنة ..." ولمسجد أحمد بن طولون وبسملة القره حصارى شهرة لدى الرحالة من الروم والعرب والعجم، وقد كُتب بجانب تلك البسملة حرف الـ " و" ولفظ الجلالة " الله "، ويبلغ عرض الحرف ثلاثة أشبار . وفيه بسملة أخرى كذلك بيمين الباب القبلى للصحن، تكاد تكون طبق البسملة السابقة، بيد أنها مكتوبة بالأبيض، وهى أيضًا فى طول أربعين خطوة كتبها چلبى القره حصارى.

وللجامع بابان على جداره القبلى يفتحان على سوق المغاربة، وفى ركن الباب الأيمن منها مئذنة قصيرة ذات شرفتين ومئذنة ذات طبقتين فى الركن الأيسر الذى به المحكمة، فمجموع مآذنه ثلاث، منها تلك المئذنة العظيمة المزدانة، ومما يستحق العبرة فى هذا المسجد منبره الخشبى المصنوع بالحفر، أى بالأويمة، فإنه لسحر مبين يحار فيه عقل المشاهد، ومحرابه المصنوع من الفسيفساء سحر معجز .

أوصاف جامع الحاكم بأمر الله

يُقال إن أميراً من آل العباس قدم إلى مصر من بغداد إثر حادث هولاكوخان، وأقام بقلعة الكبش، ولما كانت سنة ٣١٩ هـ = ٩٣١ م أمر باسم الخليفة وبنى هذا الجامع . وهو جامع كأنه قلعة عظيمة، ويشغل ما بين باب النصر وباب الفتوح، مساحته مائتا خطوة طولاً وعرضاً. وجملة أعمدته مائة وخمسون عموداً أبيض مبنية بالحجارة، وأسقفه ملوَّنة بألوان مختلفة، وليست بقباب معقودة، ويقع بوسط صحنه الواسع حديقة غنَّاء ذات ورود وريحان وأشجار نبق ونخيل، وقد سُوِّرت جوانبها بسور.

ومنبره خشبى مزخرف بطرز الحفر، أى الأويمة، ومحرابه على الطراز القديم، ويخلو من الزخرفة. وله ثلاثة أبواب يطل أحدها بجوار القبة على باب النصر، والآخر مطل على باب الفتوح، والثالث يقع على يمين الجامع. ومآذنه ثلاث، إلاَّ أن المئذنة التى على المحراب صغيرة لا يستطيع رجلُ الصعود إليها، وقد يستطيع ذلك صبى، وأما الأخريان فمئذنتان متينتان كأبراج قلعة تتسع الطبقتان السفليتان منهما لخمسمائة رجل، وقد بنيت فيهما متاريس، والطبقة العليا منهما بديعة الزخرفة أعجز أنا العبد الفقير عن وصفها، والطبقة الثالثة صغيرة مزخرفة أيضًا، والقسم الأعلى مضلَّع كأضلاع عمامة رجال الطريقة البكتاشية[٣٣]، وموجز الكلام أنهما مئذنتان تفنن فيهما الصناع . وقد بناه الحاكم بأمر الله، وخصص لجماعته لبنًا وتمرًا وسُكَّر النبات، ومع ذلك لم تكثر الجماعة بمسجده، فلما رأى عدم إقبال الناس أمر بإهمال الأزهر وتحويله إلى مزبلة، كما أمر بملء جامعه بجماعة المصلين . ولكن علماء الأزهر الذين سيقوا إلى هذا الجامع ابتُلوا بالنسيان وفقدوا مَلَكَة الحفظ والعلم، فاضطروا إلى الفرار من جامع الحاكم بأمر الله فرادى الواحد تلو الآخر والعودة إلى الأزهر، وكان الأزهر مملوءًا بالقمامة، فرفعوها على ظهورهم حتى نظفوه وطهروه واتخذوا منها مساكن لهم، وظلوا كذاك حتى قُتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ=١٠٢٠م فنجا الناس من شره .

---

(٣٣) البكتاشية ، أو الطريقة البكتاشية : اشتق هذا الاسم من اسم مؤسسها (حاجى بكتاش ولى) ويرجعها البعض إلى حضرة سيدنا على رضى الله عنه هو وأولاده . وعند قدوم حاجى بكتاش ولى إلى نيشابور سنة ٦٤٥ هـ أشار عليه الشيخ أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول فسافر إليها فى سنة ٦٨٠ هـ، واستقر فى مكان بالقرب من قيرشهير وارتحل إلى العالم الآخر سنة ٧٣٨ هـ . وقد انتشرت هذه الطريقة فى القرى والمراكز أكثر من المدن، ولها دورٌ كبير فى توطين الترك فى قرى الأناضول . معظم افكارها باطنية ولا بد من المرشد، وكل تشكيلاتها سرية وغير معلنة للجميع، كما كانت تستخدم مجموعة من الرموز والإشارات الخاصة بها . انتشرت بين جنود الإنكشارية فى الجيش العثمانى ووصل الأمر أن انتسب إليها بعض السلاطين العثمانيين. وقد انقسمت إلى عدة أفرع يختلف بعضها عن بعض فى الرموز والإشارات والمراسم والذكر الخاص بكلٍ منها. (انظر فى ذلك للمترجم "إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ص ٥٦) .

سجّلت كُتب التاريخ الكثير عن سفاهات الحاكم بأمر الله، وقد قيل إن مذهَبه كانت تُشتمُّ منه رائحة الاعتزال، وذهب بعض المؤرخين إلى أنه لم يتقيد بمذهب بعينه، فلهذا السبب لا تصلى فى جامعه جماعة كبيرة، وإذ كانت توجد فى صحنه محكمة، فقد تحول وسط الجامع إلى طريق يربط بين باب النصر وباب الفتوح .

أوصاف جامع الظاهر بيبرس (= بايبرس)[٣٤]

وهذا الجامع أيضًا جامع عظيم يُشبه القلعة، وقد تم البناء على الجانب الشمالى من القاهرة وعلى مقربة منها، وقد حارب الظاهر بيبرس الكفار فى القدس فى أيام حكمه، وهزمهم شر هزيمة وفتح القدس الشريف، وأمر ببناء هذا الجامع بالأموال التى غنمها من تلك الغزوة. وهو جامع يقصر اللسان عن وصفه، وليس فى مصر كلها جامع فيه من فنون العمارة ما فى هذا الجامع والله أعلم . فمساحته تبلغ مائة وخمسة وثمانين خطوة طولاً وعرضًا، وفى جهة المحراب مائة وسبعون عموداً من السماقى الأحمر واليراقانى والزنبورى والرخام الأبيض، يساوى العمود منها خراج بلاد الروم، وقد أقيمت قبته الشاهقة التى فوق المحراب على اثنى عشر عموداً سماقيًا ضخمًا،

---

(٣٤) **الظاهر بيبرس** : هو الملك الظاهر سيف الدين الصالحى البندقدارى (٦٢٠-٦٧٦ هـ = ١٢٢٣-١٢٧٧م) وهو السلطان الرابع للماليك البحرية . اختلفت الروايات حول مولده، وهو قبجاقى فى الأصل، اختطفه تجار الرقيق هو وأخاه فى الرضاعة وأحضر إلى سيواس ومنها إلى حلب ثم أخيراً إلى الشام. نال أخيراً حريته على يد ملك مصر الأيوبى الملك الصالح نجم الدين . أحبه شعب مصر لسلوكه الطيب تجاه الشعب، وكوّن إمبراطورية مصرية أصبحت لها كلمة مسموعة فى العالم الإسلامى . ما زالت آثاره على مستوى العالم العربى والإسلامى ماثلة للعيان، وبخاصة فى القاهرة وحلب والشام والحجاز ، ويعتبر من أهم الحكام الذين أعطوا أهمية قصوى للمنشآت المعمارية من جوامع ومدارس ومستشفيات وأسبلة .

كان رجل دولة من الطراز الأول ؛ له بصماته فى ميادين الحرب ، وتشكيلات الجيش ، وإدارة أمور الدولة . جمع السلطات فى يده لكى يضمن الأمن فى البلاد ، ويحول دون فساد المماليك .

وزخرفت داخلها بضروب شتى من النقوش الملونة المذهَّبة وبالفسيفساء والزجاج الملوَّن، وكُسِيَت الجدران التى حول القبة بالسماقى وأنواع من الرخام الخام . وقد زُخرف القسم الذى يعلو الجزء المكسو بالرخام بأنواع من الزهور وشجرة طوبى من الأحجار الدقيقة، وكلها ذات ألون بديعة تكلُّ العين من النظر إليها، وبصحنه تعلو بعض أشجار النبق، وله ثلاث مآذن قصيرة ولعلها ناقصة، والله أعلم . وله ثلاثة أبواب، ولكن جماعته قليلة، وقبة المحراب مكسوة بطبقة من الرصاص، فهى إحدى قباب مصر المغطاة بالرصاص، ويمر بداخل الجامع طريق عامٌّ . وسقفه المقام على الأعمدة مزيَّن بالنيلو والأزرق، والقباب ليست ذات عقد ، وجوانبها الأربعة مشكَّلة من زجاج ملوَّن . وأما ما فى المنبر ودكة المؤذنين من الفنون والزخرفة، فليس له مثيل فى أى مسجد من مساجد مصر، كما أن فى باب القبلة من الفن المعمارى ما لا يوجد فى أى مملكة أخرى، فهو حقا مسجد واجب المشاهدة .

أوصاف جامع آلجاى أتابك (= الأتابك آلجاى)

الأتابك آلجاى من وزراء السلطان حسن، ومسجده يقع أمام إيواس بك فى صف حمام الدفتردار القريب من مسجد السلطان حسن، يُصعد إليه بثمان درجات من سلم ذى جناحين، وجدرانه مزخرفة باللونين الأبيض والأحمر، وسقفه مذهَّب ومزخرف ومُقام على عقود، ومنبر محرابه يشتمل على عدة ضروب من الفن، وله بابان يطل أحدهما على يمينه، ويوصِّل إلى دورة المياه، والجامع مبنى على الطريق العامِّ، ولهذا فليس له صحن . وبابه القبلى يؤدى إلى الطريق العامِّ ، وقد كُتب على يمين هذا الباب ويساره بالخط الجلى الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (التوبة ٩/ ١٨) وعلى يساره العبارة التالية : " أمر بإنشاء

هذا الجامع والمدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى الأمير الوالى أمير النعم آلجاى أتابك العساكر المنصورة الملكى الأشرفى أعز الله نصره، بتاريخ شهر رجب سنة ٧٧٤ هـ = ١٣٧٢م" .

أوصاف جامع السلطان المؤيّد

كان السلطان المؤيد ملكًا كريم الأصل، وكان له هذا الجامع الذى لا مثيل له، والذى يعجز اللسان عن وصفه . هو جامع علوى تحته طابق سفلى وحوانيت، ويُصعد إلى بابه ذى الجهات الثلاث بسلم حجرى مزدوج ذى خمس عشرة درجة، وبجانبه سبعون نافذة مطلة على الأسواق السلطانية أى الرئيسيَّة، وهو مُقام فى مكان مزدحم بالناس، ويُعد أكثر المساجد جماعة بعد الأزهر، كما أنه مسجد طلق الهواء نيِّرٌ يشرح الصدر، ومساحته ثلاثمائة وعشرون قدمًا طولاً وعرضًا بقدم متوسطة ذات خُفٍّ، وإن قستها بالخطو فتبلغ مائة وستين خطوة، وسقف جهة المحراب على شكل عقود منقوشة مقامة على أربعة وثلاثين عمودًا رفيعًا، تُذكِّر بإيوان كسرى، وليست به قباب. وبإيوانه الدائر حول صحنه خمسة وتسعون عمودًا من الرخام الأبيض، ومجموع أعمدته مائة وثلاثون عمودًا، وقد غُطِّىَ جدار المحراب كله بقطع رخامية كبيرة تبلغ طول قامة ثلاثة رجال طوال، وهى من السماقى المُمَوَّج والرخام المختلف الألوان، وصحنه واسع كالبيداء، مفروش بمختلف أنواع الرخام الملون المزخرف والرخام الأبيض والفسيفساء، فرشًا بشكل يقل نظيره فى مساجد الدنيا، وهو لامع دائمًا لجفاف أرض الجامع لكونه فوقانيًا، والرخام الذى يكسو جداره الداخلى مصقول، لدرجة أنك ترى فيه وجوه الناس وركوع المصلين وسجودهم. وأوقافه كثيرة، وخدمه كثيرون يقومون بتنظيفه بشكل دائم، ويتوسط صحنه حوض عظيم عليه قبة رفيعة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام، ونافورته جارية المياه دائمًا يجدد فيها الناس وضوءهم بشكل مستمر .

وللمسجد ثلاث مآذن، اثنتان منها مؤلفتان من ثلاثة طوابق، ومقامتان على جانبي الباب، متقاربتان جدا حتى تكادان تكونان ملتصقتين، وهما مئذنتان رشيقتان تُعدان آية من آيات الفن . ومئذنته الثالثة بيمين المحراب البديع، ومنبره خشبي ولكنه مصنوع من خشب مخروط خرطًا دقيقًا كأنه الفن المعروف بالفسيفساء (فصوصكار) ودكة المبلغين عظيمة مزخرَفة، كأنها مقصورة مقامة على أعمدة متجانسة، ونوافذه التي تبلغ السبعين أقفاصٌ من الصفر، ومائة وعشرون زجاجًا معقودًا . وموجز الكلام أنه مسجد بديع الفن مفرح الطلعة، وأما مصابيحه المعلقة فلا مثيل لها في مساجد أخرى، ففي قبة المحراب ثريا تشتمل على ألفي قنديل، كأنها منارة مضاءة .

ولأن هذا الجامع بناء متين كالقلعة فقد اعتصم به رجال الجيش الذين ثاروا على عمر باشا سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م أيام أن كان والي مصر، فانضم إليهم كثير من الطغاة وظلوا يقاتلون ثلاثة أيام ولياليها، حتى اضطر عمر باشا إلى مسالمتهم بالاستمالة والعفو عما ارتكبوا من الجرائم، ولكنهم لم يصغوا إلى كلامه، بل نظموا صفوفهم واستمروا في النهب والسلب في بعض جهات المدينة، فما كان من عمر باشا إلاَّ أن رفع اللواء المحمدي الشريف وأخرج منادين ينادون في الناس أن من يطع السلطان فليحضر إلى علم رسول الله، وأن العصاة قد حل قتلهم ونهب أموالهم، ورءوسهم ملك للسلطان، ثم تقلد عمر باشا سيف عمر رضي الله عنه وأخرج خمسة أو ستة من المدافع " باليمز "[٣٥]، وأنشأ متاريس في جهة " حمام صوباشي " وأطلقت من المدافع بعض القذائف على جامع المؤيد، والثوار مشغولون بإطلاق النار من فوق

(٣٥) باليمز Balyemez : اسم نوع من المدافع طويلة المدى، استخدمها العثمانيون ثم ألغوها. والاسم تحريف للكلمة الإيطالية Ballemezza ويُنسب إلى مخترعه الإيطالي Balyemez ، وكانت هذه المدافع تُصب في أفران ضخمة، وتذكر إحدى الوثائق أنه قد تم استخدام ثلاثمائة قنطار من النحاس لصب ثلاثة مدافع من هذا النوع . (انظر : محمد ذكي پاقالين ، تاريخ ديملري وتريملري جـ١ صـ١٥٧) .

سطوحه ونوافذه، ومن العجيب أن أول قذيفة أطلقت على الثائرين أصابت رئيسهم فى رأسه فصاروا بلا رأس ولا رئيس، وتحول قرارهم إلى فرار، وأُشربوا كئوس المنيَّة وهم يفرون من زقاق إلى زقاق ومن حارة إلى حارة. ولما تم ذلك عاد الپاشا إلى القلعة مظفَّرًا منصورًا، وأمر بتتبع الثوار والقضاء عليهم، وأعاد إلى مصر الأمن والسلام، وكان عمر پاشا حقًا عُمَرِيًا فى عدله وشجاعته ! ولا تزال آثار القذائف واضحة على بعض جدران الجامع .

أوصاف جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاون

كان ملكًا من الأتراك عظيم الشأن، وثار عليه مماليكه فقتله فدائى يُدْعَى يَلبُغا Yelbuga، ثم قُتل يلبغا كذلك بيد الملك الأشرف، وهو من نسل السلطان محمد بن قلاون، ولقى جزاءه الجدير به، وكان ليلبغا مملوك چركسى يُدعى برقوقًا، وقد اشتهر ببرقوق العثمانى لكونه فى خدمة السلطان خدواندكار الغازى مراد الأول، وهو من سلاطين آل عثمان قبل أن يصير مملوكًا ليلبغا . جمع برقوق حوله الچراكسة والأباظيين وثار مطالبًا بدم سيده يلبغا، فانهزم واضطُرَّ إلى الفرار مع الذين كانوا معه من الچراكسة والأباظيين. لجأ برقوق إلى السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد بالشام وصار وزيرًا له، وأرسل مقدار " خزينة مصر " من الذهب إلى مصر صدقة على روح سيده يلبغا وعمارة مسجد السلطان حسن .

بنى السلطان حسن مسجده العظيم الجدير بمثله فى ميدان الرميلة بالقاهرة، وهو جامع وحيد تحت القبة الزرقاء، أى السماء . إنه وجميع ملحقاته قلعة أخرى شدادية صخرية الأساس، ليس فيه بناء خشبى قط، كما أنه لا يتصل به شىء . جوانبه الثلاثة طريق عامٌ، وأساس جدرانه من الحجارة الضخمة الصلدة، وكل قطعة منها فى حجم جثة فيل، ومساحته الدائرية ألفا خطوة. رآه السلطان سليم فاتح مصر من العدلية

فسأل: ما هاتان المئذنتان الظاهرتان كأنهما قلعة ؟ فقيل له: هو جامع السلطان حسن. فقال : يا ترى هل يحاربنا الغورى متحصنًا به ؟! يعنى بذلك أنه حصن متين إلى حد أنه يفوق قلعة مصر متانة، وقد ثار الجنود مرة فاعتصموا به، فأطلقت عليه عدة قذائف، ولا تزال أماكنها ظاهرة حتى اليوم .

ويعلو جدارنه الأربعة عشر طبقات من نوافذ المدرسة، وهى حُجَر متعددة الطبقات والأقسام، وارتفاع جدرانه المحيطة به مائة ذراع . إنها جدران شاهقة، فقد زاد ارتفاعه عن إيوان كسرى أحد عشر ذراعًا، وقد زينت الجدران من الخارج بمقرنصات، وله بابان يفتح أحدهما شرقًا على سوق السپاه أى الخيَّالة، وهو جامع مرتفع عن الأرض يُصعد إليه من بابَيْه بعشرين درجة من سلم حجرى، وفوق هذا الباب عقد على طراز المحراب، بذل فيه الأُسطى الفنان الماهر قدرته فى زخرفة الرخام حتى جعله سحراً معجزًا . فهو عقد باب انقلب إلى السماء فى ارتفاع ثمانين ذراعًا، وله مصراعان من الصفر المفرَّغ البديع ارتفاع كل منهما عشرون ذراعًا . وبجانب الباب قطعة مربعة من الرخام الأبيض والأسود فى طول قامة ثلاثة رجال، كُتبت عليها الشهادة بالخط الكوفى العريض، وقد ظلت ثابتة طوال هذا الزمن المديد، وما بليت . وإذا ما دخلت من هذا الباب فأمامك ممر ضيق مفروش بالرخام الأبيض يوصل إلى باب الصحن بعد مسيرة مائة خطوة . وللصحن أيضًا بابان يفتح أحدهما على ميدان الرميلة يوصل إليه بقَطْع مائة خطوة مفروشة بالرخام، ويكاد هذا الباب يكون كالباب المطل على ميدان السپاه فى ارتفاعه وزخارفه الفنية . وقد كُتبت فوقه هذه العبارة .

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان المرحوم الناصر محمد بن قلاون، وذلك فى شهور سنة ٧٦٤هـ = ١٣٦٢م" .

ومساحة الصحن مائة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا، وعلى جوانبه الأربعة أروقة هائلة يصلح كل رواق منها أن يكون مسجدًا، وداخلُ هذا الجامع يختلف عن الجوامع الأخرى إذ ليس به أعمدة كما فى سائر الجوامع، فقد بُنيت سقوفه كلها عقودًا بجوانبها سبعمائة حجرة مدرسية، يسكنها الآن خدم المسجد الجاهلون، ويتوسط الصحن حوض مثمَّن ظريف بجوانبه الثمانية ثمانية أعمدة رخامية دقيقة، بُنيت عليها قبة عالية، مبيَّضة بالجير ومزخرفة منقوشة .

ورد فى تاريخ فضائل مصر أن يزيد بن معاوية أرسل إلى المصريين فى سنة (...) بعد الهجرة رأس الإمام الحسين بن على، - ... - وهم يفضونه، فتُرك مسجد السلطان حسن، وظل آلاف من اليزيديين يدفعونه بأرجلهم ، فنشأ فى أرجل الكثيرين منهم مرض التورم، فصارت كأنها قربة منفوخة، ولا يزال فى مصر آلاف من ذريتهم ذوى الأرجل القربية . ثم أراد الله حفظ الرأس الشريف، فظهرت بركة حوله فاختفى عن اليزيديين، ثم ذبح أحد مُحبِّى آل الرسول ابنه فوضع رأسه موضع رأس الإمام الحسين وأخفى رأس الإمام فى موضع المشهد الحسينى الحالى، ثم بنى المشهد فى أيام العباسيين . ولما كانت سنة ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م أنشأ السلطان حسن هذا الجامع، وتبرَّك بجعل الحوض العظيم فى موضع البِركة التى ظهرت محافظة على رأس الإمام . وحكمة الله أنه لما ثار الأشقياء من جنود السلطان حسن قتلوه على حافة المبنى فى مكان البركة التى ظهرت محافظة على رأس الإمام، وسال دم حسن كما سال دم الحسين فى الحوض، وجف الماء فى لحظة ! وجاء بعد ذلك أبناء السلطان حسن والوزير شيخون فأنشأوا ساقية لاستخراج الماء من بئر، ولا يزال الحوض يُملأ بواسطة ساقية، كما أن الناس لا يزالون يجددون الوضوء من ذلك الحوض على أنه المقام الحسنى، فيذكرون السلطان حسن والإمام الحسين، بتلاوة الفاتحة على روحيهما مترحِّمين عليهما[٣٦] .

---

(٣٦) لا شك أن هذا فى حاجة إلى تدقيق وتمحيص من أهل الاختصاص لما فيه من خلط للأحداث والأمور كما هو الحال فى غيره من المواضيع.

ودكة المبلغين مبنيَّة على ثمانية من الأعمدة الدقيقة، وهى بناء عجيب لا نظير له فى مصر . وأما ما فى محرابه مِن فن الفسيفساء " الفصوصكار " الهندية والفسيفساء الدقيقة، فيكاد يخرج عن قدرة البشر، ومنبره عجيب يجب مشاهدته، فقد صُنع من الرخام الخام على طراز فريد لا يوجد له نظير فى أى مسجد آخر . فقد نقش الفنان على رخام المنبر ورودًا وزهورًا من الفل الأسلمى المختلف الألوان نقشًا يشبه الفن المعروف بالأويمة الفخارية، نقشٌ لو اجتمع كل الحَجَّارين وصناع الرخام لما استطاعوا أن يزيدوا عليه نقشة ! فكأنه منبر معلق، ويمر الناس من تحته . وكُسيت ثلاثة من جدران القسم الذى فيه المنبر بألواح من الرخام الأبيض والسماقى الأحمر واليرقانى فى طول قامة ثلاثة رجال، والسلطان حسن مدفون تحت قبة شاهقة بيضاء أمام المحراب . ويعلم الله أنه ليست فى الربع المسكون قبة مزخرفة مزينة نَيِّرة مثلها، وفيها، عدا النقوش الذهبية المختلفة الألوان، كُتب نفيسة ومصاحف مزخرفة، ومصابيح ثمينة، وبُسُط مزركشة، ومئات من القناديل والمصابيح والمباخر وأوانى ماء الورد المحلاَّة بالجواهر الثمينة التى لا توجد أمثالها إلا فى القبة الشريفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتوجد نافذتان، إحداهما على يمين المحراب والأخرى على يساره، وهما مواجهتان لقبر السلطان حسن ، ولهما قفص من الصفر تستخدم إحداهما بابًا لقبر السلطان . وللنافذتين مصاريع ارتفاعها طول ثلاثة رجال فى عرض باعين . وقد حليت المصاريع من أولها إلى آخرها بالمينا السيلو Silu واللازورد الرمانى والأزرق والأحمر على الذهب والفضة . ويُقال إن ضلفة منها تساوى خزينة مصر، وهذا قول حق، وليس فى قدرة أحد من الفنانين فى صناعة الذهب أن يلمسها بمطرقة أو مبرد حتى اليوم، والبيت الآتى قيل عن هذا الجامع :

رأيت مساجد الدنيا جميعًا ولكن ما رأيت كمثل هذا

وللجامع مئذنتان عاليتان بُنيتا على جدار جانبَى المحراب . وسقطت المئذنة اليسرى فى عهد إبراهيم باشا الدفتردار، فبنى مئذنة جديدة على أساسها إلا أنها صارت أقصر من الأولى بطبقتين، وأما المئذنة اليمنى فشاهقة، تضاء بخمس طبقات من المصابيح، وليست فى القاهرة مئذنة أعلى منها، يُصعَد إليها بتسعين درجة من داخل المسجد حتى باب السطوح، ثم يُصعَد إليها بتسعين درجة أخرى فى داخلها، فمجموع دَرَج السلم مائة وثمانون درجة، إلا أن كل درجة منها نصف ذراع معمارى . فقد صعدت إليها مرة، أنا الفقير، فمكثت ثلاثة أيام عاجــزًا عــن الوقــوف على ركبتَىَّ . إنها لمئذنة شاهقة تقابل طبقتها الوسطى، حسب القواعــد الهندسـية، عتبة باب القلعة الداخلية ، فقياسًا على ذلك يمكن معرفة مقدار ارتفاع القلعة ومبلغ جودة هوائها .

ويمر طريق من أسفل الجامع وبجانبيه مبانٍ حجرية ونحو خمسين حانوتًا، ودورة للمياه وأحواض شافعية ومَضْيَفَة، وكلها مبانٍ عظيمة ذات أوقاف كثيرة يقوم على نظارتها أمناء خزينة مصر ووزراؤها . والسلام .

وأمام مسجد السلطان حسن عبر الطريق:

جامع محمود باشا

وهو من وزراء السلطان حسن، أنشأ هذا الجامع حين كان واليًا على مصر، فرأى فيما يرى النائم أن السلطان حسن ارتقى سرير الخلافة، وعقد ديوانًا عاليًا جمع فيه كل علماء مصر وقال لهم : " إن لى قضية شرعية مع محمود باشا الذى بنى مسجدًا فى حدود الجامع الذى بنيته، فسرق جماعة مسجدى، فما جزاؤه شرعًا ؟ قال العلماء: (ايركنى) ينبغى أن يخلع عليه، لأنه بنى المسجد بأمنية التقرُّب إلى الله وسرق

الرحمة "، فما كان من السلطان حسن إلاَّ أن غضب وأحضر الجلاد وأمره بقتلى، فأبركني وقتلني". وطلب محمود پاشا من إمام مسجده تفسير رؤياه، ففسرها بأنه يُخلع عليه لباس حسن، وأنها رؤيا حسنة. وحدث أنه حين كان محمود پاشا يمر بموكبه أمام مسجد السلطان حسن فى اليوم التالى، إذ بجندى يطلق عليه رصاصة فيقتله ويشرع في الهرب، ولكن جنود محمود پاشا قبضوا عليه بعد أن أنزلوه عن فرسه، فألقوه على جثة الپاشا وضربوا عنقه بالسيف، وحكمة الله أن السيف أصاب عنق الپاشا وفصل رأسه عن جسده، ثم إنهم قتلوا الجانى أيضًا بجانب الپاشا . ولا يزال الپاشا مدفونًا فى قبة أمام المحراب. وقد أُرِّخ استشهاده بالسطر الآتى : " عاقبت محمود شد " سنة ٩٧٥ هـ = ١٥٦٧ م .

و هو جامع علوى صغير ظريف، مبنىٌّ على الطراز التركى الجميل، يُصعد إليه باثنتى عشرة درجة من سلم حجرى، ومئذنته على طراز مآذن جوامع إسلامبول.

وعلى يساره عبر الطريق :

جامع أمير الإصطبلات الكبير (أمير آخور)

وهذا أيضًا جامع صغير علوى مزخرف، وكل جدرانه الداخلية مزخرفة منقوشة ويتم الصعود إلى الباب الذى بجانبه الأيسر بست عشرة درجة من سلم ذى فرعين . ونُقشت على عقد هذا الباب الآية الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء١٧/٨٠) . وعلى يمين الباب ويساره كُتِبت على رخام بالخط الجلى العريض العبارة الآتية بنصها :

"أنشئ أيام هذه المدرسة المباركة من فضل الله، المعز الأشرف مولى الموالى لتنغى (قانالى) أمير آخور كبير أعزه الله تعالى" .

بابه أربع طبقات ومئذنته مبنية بأضلاع أربعة .

وهذان المسجدان ليسا من مساجد السلاطين، وإنما كُتب عنهما هنا لاتصالهما بمسجد السلطان حسن .

جامع السلطان الغورى

يُعد هذا الجامع أحدث المساجد عهداً، لأنه أنشئ بعد كل الجوامع، ولهذا فقد اقتبس مهندسه الفنان من كل مسجد فنًّا، فأظهر فيه ضروبًا من آثار مهارته وفنه، وأبان صنعته، فقد نسق المرمر والسماقى التى بجدرانه الداخلية تنسيقًا بديعًا، وألصق بعضها ببعض، إلى حد أنه لم يبق فيها موضع لرِجْل بعوضة وكأنها صنع الله، ووفَّق بين الأحجار الرخامية التى فُرشت بها أرضه توفيقًا، إذا أمعنت النظر فيها خلتها قطعة واحدة، وليس لها نظير إلا فى رخام قاعة قصر صاحب هذا الجامع. ولما كان الجامع فى سوق الغورى وسط المدينة كانت جماعته كثيرة جدا، ولكن أبوابه تُغلق بعد أداء الصلاة، لأنه لا يمكن إنقاذه من فلاحى مصر بغير ذلك، لأنه مسجد شبيه بقصر ظريف طلق الهواء خفيف الروح، فلو بقى مفتوحًا لانقلب إلى مضيفة، وهو مسجد عال عن الأرض يُصعد إليه بسلم ذى فرعين بتسع درجات فى السوق السلطانية . وله باب آخر فى مقابل جهة القبلة يُفتح على صنَّاع الطواقى ويُصعد إليه بعشر درجات أيضًا، وللجامع محراب مصنَّع بشكل فنى لو اجتمع مهرة صناع الفسيفساء (الفصوصكار) الهندى على أن يأتوا بمثله من الفسيفساء لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . أما منبره فمختصر مفيد، حيث إنه مصنوع من خشب العود، فلهذا يخلو من النقوش، وعلى جوانبه الأربعة قباب معقودة وليس فيها أعمدة قط.

وزُين هذا المسجد بأنواع من المصابيح المعلقة الثمينة، ونوافذه المواجهة للسوق السلطانية مزخرفة بالفسيفساء الدقيقة من الزجاج المعشَّق الملوَّن حتى إذا ألقت

الشمس نورها صار داخل المسجد نوراً على نور . وليس لهذا الزجاج مثيل إلا فى جامع السليمانية بإسلامبول. ولما كان هذا الجامع بُنِىَ فى موضع ضيِّق، فلذا ليس له فناء، فهو كقصر منيف . وأما قبته التى تعلو المحراب فقبة شاهقة زرقاء، مكسوة بالقاشانى اللازوردى الأزرق ومئذنته ذات أربع شرفات، وذروتها العليا متشعبة .

ويقابله عبر الشارع :

ضريح وتُربة السلطان الغورى

وهو قبة شاهقة مغطاة من فوقها بالقاشانى اللازوردى بدلاً من صفيح الرصاص، وهى لا تزال زاوية تُقام فيها الصلاة جماعة، ولها خدم ، وهذه القبة أيضًا مرتفعة يُصعد إليها بسلم حجرى بعشر درجات . وتربة الغورى زاوية ولكن ما أشبهها بقصر ملكى! فنوافذها المطلة على الأسواق السلطانية من جوانبها مزخرفة مطلية بالذهب والألوان المتنوعة كأنها طبيعية من صنع الله [جل شأنه]. استعمل فى بنائها من الفنون والزخرفة ما جعلها قصراً من قصور " إرم "، يعجز اللسان عن وصفه. بناها المرحوم السلطان الغورى بهمَّة عظيمة وعناية فائقة فى زخرفتها لتكون له قبراً يُدفن فيه، ولكن "العبد يدبر والله يقدر" ، فصارت زاوية للصلاة ، إذ فُقد الغورى فى حربه مع السلطان سليم خان . وفى هذه القبة خزانة يُحفظ فيها فى علبة مزدانة بالجواهر بعض مخلفات الرسول عليه الصلاة والسلام ومنها فوطته ومكحلته ومروده وبعض شعراته، يعرضها الناظر على الضريح على من يريد من الأعيان رؤيتها تبركًا . وحدث أنى، حين عدت من ولاية الفُنج وقد كَلَّتْ عيناى من الحر، أنى تجرأت بلا حياء وكحلتهما مرة من تلك المكحلة، وشاهدت نفعها إذ زاد نظرى قوة وبعداً!

وفى هذه القبة والجامع الذى أمامها طلسم عجيب، ذلك أنهما يمتازان بالخلو من البعوض والذباب والبق، وإذا زارهما غريب ذو قمل بضعة أيام زال قمله وبراغيثه ونجا

من تلك الحشرات! إنه لطلسم عجيب، وقد تأكدت أنا الفقير بنفسى، إذ وقفت على أنه ليس فيها البعوض والذباب البتة، فكثيراً ما كنت أذهب إلى القبة مع ناظرها فنستغرق فى نوم أهل الكهف، ونستريح فى ذلك السرداب الطلق الهواء بعيدين عما يحدث الذباب من العذاب، وكثيراً ما يشتاق إليها ظرفاء المصريين لذلك السبب، وحاصل الكلام أنها موضع يجب مشاهدته . والسلام .

و بعدها :

أوصاف جامع السلطان برقوق

السلطان برقوق كان ملكًا مجاهداً فى سبيل الله من مختارى دولة الچراكسة . كان فى أول أمره مملوكًا اشتراه يلبغا التركى قاتل السلطان حسن ، حتى إذا قتل الملكُ الأشرف ذات يوم سيده يلبغا جمع برقوق أربعين أو خمسين ألفا من الچركس والأباظيين وقام بالمطالبة بدم سيده المقتول يلبغا، فانهزم وطُرد مع أعوانه ورفقائه إلى الشام . إلا أن برقوقًا نجح فى الشام وعلت مكانته بعد أن قام بفتوح عظيمة فى عكا وصيدا وطرابلس الشام، ثم عاد إلى مصر بجيش كالبحر وصار ملكًا وخطب له بعنوان " الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن النمر العثمانى " حتى عام ٨٠١ هـ = ١٣٩٨م . وبرقوق أول سلطان من الچراكسة، وقد بنى مسجده هذا بما جاء به من الشام من أموال الغنائم، وهو مسجد مرتفع عظيم على الطراز القديم فى السوق السلطانية، ويُصعد إليه بسلم حجرى بثمانِ درجات، ومساحته مائة وسبعون قدمًا طولاً وعرضًا، ويحيط بصحنه من جهاته الأربع أروقة مُقامة على عقود حجرية، وبصحنه حوض عظيم، ومنبر المحراب على طراز قديم، وله مئذنتان ذواتا ثلاث شرفات لا تُشبه إحداهما الأخرى، فقد عُنِىَ الفنان الماهر بكل واحدة منهما عناية خاصة فأخرج للناس سحراً معجزاً من الفن . وبابه يُفتح على السوق وليس له مثيل فى مسجد آخر، فعقوده وزخارفه البديعة وبابه ذو المصراعين النحاسيين تُعجِز اللسان عن

الوصف وبخاصة بابه، فإن له شهرة لدى رحالى الدنيا، ويعجز اللسان عن وصفه، وعلى المحراب الآية الآتية : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ (الروم٣٠/٥٠) . وتحتها " أمر بعمارته فى أيام مولانا السلطان برقوق سنة ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ م" .

وليس فى هذا المسجد أى عمود، وكله مبنيٌّ على عقود حجرية، وأما صحنه فمن الرخام المتنوع، فليس له وجود فى غيره .

ويتصل بهذا المسجد :

جامع السلطان الملك الكامل محمد

وقد بُنى عام ٦٣١هـ = ١٢٣٣م، والملك الكامل محمد كان ملكًا شجاعًا متدينًا من أعاظم ملوك الأيوبيين، ومسجده سفلى (أرضى) وليس بحاجة إلى الوصف، لأن طراز بنائه مطابق لطراز بناء مسجد السلطان برقوق مطابقة تامة، فكأنهما بناء واحد . وإن كان ثمة فرق فهو فى المئذنة، فهو بمئذنة واحدة ومن طراز مختلف، وقبته العالية مصنوعة من خشب على شكل دائرى، وهى واحدة من القباب المغطَّاة بالرصاص ، فالفرق بينه وبين مسجد السلطان برقوق إنما هو فى القبة والمنارة والسلالم .

وفى محاذاته كذلك :

جامع السلطان ناصر الدين

يبدو من آثاره أنه كان ملكًا حسيبًا نسيبًا من بنى أيوب، ومسجده يضاهى مسجد السلطان حسن، حيث رتب داخله على نفس القواعد الهندسية المستعملة فى مسجد السلطان حسن، عقود حجرية وليست به دعامة أو أعمدة، ومساحته مائة

وخمسون قدمًا طولاً وعرضاً، ومنارته المزخرفة مبنية على شكل برج ، وبصحنه حوض شافعى عشر فى عشر ، وعلى باب صحنه هذا التأريخ: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة السلطان العادل ناصر الدين بن محمد بن السلطان سيف الدين بن السلطان قلاون الصالحى " .

وأمامه عبر الشارع :

جامع السلطان الملك الظاهر

هو من آل (...)[٣٧] ، وهذا الجامع أيضًا مسجد عتيق مرتفع يُصعد بعدة درجات من سلم حجرى ، ومساحته مائة وسبعون قدمًا طولاً وعرضاً، وبجوانب صحنه الأربعة أربعة أروقة مقامة على عقود، وبصحنه حوض ومنبر ، ومحرابه من الطراز القديم، ومئذنته ذات طبقات . وليس فى رخام صحنه أثر كبير للفن، ولكنه جامع يشع بالروحانية .

وبإزائه عبر الطريق :

جامع السلطان قلاون الصالحى

وهذا السلطان عظيم من أصول الترك، ومسجده علوى يُصعد إليه من بابه المفتوح على السوق بسلم حجرى، وبابه متقن كثير الزخارف والنقوش. وكُتب عليه: " أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى، وكان ابتداء ذلك فى ربيع الآخر سنة (...)[٣٨] .

(٣٧) ترك الرحالة هذا الفراغ، وهو فى حاجة إلى التحقيق .

(٣٨) ترك الرحالة هذا الفراغ ، وهو فى حاجة إلى التحقيق .

ولهذا الجامع أيضاً أربعة أروقة حول صحنه الكبير، منها ثلاثة مبنية بعقود، وأما الرابع - وهو الرواق الذى به المحراب - فسقفه مذهَّب منقوش على أعمدة عالية من الرخام. ومحرابه بديع مزخرف بالفسيفساء الصدفية الدقيقة ، ومنبره مصنوع من ألواح نقشت عليها زخارف نباتية دقيقة جداً، ويتوسط صحنه حوض شافعى عشر فى عشر ، تعلوه قبة عالية مزخرفة منقوشة بنجف دقيق، مقامة على أعمدة رخامية، ينبثق من فواراته الماء السلسبيل. ومئذنته العالية مبنية على الطريق بعيدة عن الجامع، ذات ثلاث شرفات يتداخل بعضها فى بعض كبرج قلعة. ولما كانت البيمارخانة (أى المستشفى) والعمارة السلطانية على مقربة منه، فإن جماعته حاشدة . وأوقافه غنية، تبذل منها الأرزاق لعدد يقارب خمسة آلاف نفس كل يوم، وسوف أكتب عن عمارته وبيمارخانته فى محلها إن شاء الله .

جامع السلطان الصالح نجم الدين أيوب
بن الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب

هذا السلطان من الأكراد ، نظم شئون مصر وأصلحها وهزم جيوش الكفار فى المنصورة ورشيد ، ثم بنى هذا الجامع بالأموال التى غنمها فى الحروب، وهو حفيد أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى . ومسجده على الطراز القديم ، ويتمتع بروحانية عظيمة ، وبالجهة المقابلة للباب وهى التى بها المحراب أروقة مبنية على عقود، وعلى طرفَىْ صحنه فصول مدرسة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام الدقيق فى كل جهة ، ونوافذ المدرسة مواجهة للصحن . والمحراب والمنبر مبنيّان على الطراز القديم البسيط ، ويتوسط صحنه حوض شافعى وله باب ومئذنة. والسلطان الصالح مدفون تحت قبة عالية خلف السبيل الذى على يسار الصحن ، وكان ملكًا عظيمًا، ملك بعده سبعة من أبنائه كما ملك بعدهم أبناء أبنائه، ولا تزال أوقافه عامرة، وقد كُتب على محرابه تأريخ إصلاحه وترميمه :

أتحف الله مصرنا بوزير قد تسمى باسم الجليل الكريم

تم تجديده سعد تاريخ نجم إشراف أحمد المرحوم

سنة ١٠٦٣ هـ = ١٦٥٢م.

وكان جامعًا قديمًا مغرقا فى القدم، ولما جُدِّد صار درة بيضاء تشع نورًا على نور .

وهناك جامع آخر لسلطان من السلاطين الماضين السابقين، يقع على الطريق العامِّ من الجهة المقابلة، وهو :

جامع السلطان الأشرف

والسلطان الأشرف هذا أيضًا أحد الأيوبيين، ومسجده غير مرتفع، يُصعد إليه بست درجات. وهو مسجد مُتْقَن، وكأن الأسطى الفنان لم يكَدْ ينتهى من بنائه، وطراز بنائه هو طراز بناء مسجد السلطان الصالح، فقسم المحراب مقام على عقود، ولكن ليس على جانبيه إيوان وإنما ما هى إلاَّ جدران، ووسطه مكشوف وليس به صحن . والمسجد كله زخارف، فجدرانه الأربعة مكسوة من الداخل بألواح من الرخام المتعدد الألوان تبلغ طول قامة إنسان . وهو حافل بالمصلِّين لكونه فى السوق السلطانية ، ومئذنته الوحيدة ذات ثلاث شرفات .

تلكم الجوامع التى بناها السلاطين بعضها قريب من بعض، كأن الجدار يجاور الجدار والمئذنة تجاور المئذنة، ومعظم مساجد القاهرة كذلك .

وفى باب النصر :

جامع السلطان جانبلاط

جامع مرتفع عجيب يُصعد إليه من سلم خارج سور القلعة بعشر درجات، وقد بُنِيَ في سور القلعة، ويكاد يكون متصلاً بباب النصر. وهو مسجد صغير بلا صحن، ولكني ما رأيت له نظيراً في مصر، بل في البلدان التي ارتحلتُ إليها كذلك . ففيه قبتان شاهقتان مربعتا الشكل مدببتان بُنِيَتَا بحجارة، كل قطعة منها في طول ذراع، ولم أرَ في بلد ما قبة من الحجارة، وما طُلي ظاهرهما بالجير أو الرصاص بل بقي حجراً خالصًا . وبناء القباب من الحجارة فن خاص بمصر، ففيها قباب أخرى غيرهما من الحجارة ، وهي على رسم فريد . وقد التزم البناءون المصريون القدماء أمرين اثنين لإظهار مهارتهم في تزيين مصر، فأما الأمر الأول فهو أن تكون قبة كل جامع نسيجاً مستقلا وأن لا يكون بينها وبين قباب الجوامع الأخرى شبه، وأما الثاني فهو أن تكون مآذن جوامع مصر مختلفة في الفن والزخرفة، وأن كل مئذنة من طراز خاص. ولمسجد جانبلاط أيضًا مئذنة رشيقة ذات ثلاث شرفات آية في الفن، وفي هذا الجامع يُحيي أمير الحج المصري ليلة مع العلماء والمشايخ بتلاوة قصة المولد النبوي[٣٩] والذكر، حين عودته من مكة المكرمة مع المحمل الشريف في اليوم السادس من صفر الخير، وإذا كان الصباح ذهب أمير الحج بالمحمل الشريف في موكب عظيم إلى الباشا الوزير وسلمه إياه ، فلذا كان مسجداً مباركًا .

وإن دخلت من باب النصر ودنوت من وكالة جعفر أغا فأنت أمام :

جامع السلطان بيبرس

هو من مماليك العباسيين، ومسجده ليس بكبير، ولكنه روحاني لأنه أُسِّس بأموال الغزو . وليس فيه عمود قط، فجوانبه الأربعة عقود مبنية على أربعة أواوين (صُفَّة) وقد

(٣٩) يقصد قصيدة المولد لسليمان چلبي والتي تُسمى " وسيلة النجاة " .

كُسيت جدرانه المحيطة بصحنه بقطع ضخمة متنوعة من الحجر الطبيعى، كل قطعة منها فى حجم سجادة من الرخام المجلى، وأما محرابه ومنبره فمن الطراز القديم، ولا يحتويان على شىء كثير من الفن المعمارى، وأما مئذنته ذات الشرفات الثلاث فتحفة فنية بديعة الصنع .

وبجانب باب " صوباشى " وأمام باب الحديد :

جامع السلطان الحاج صالح آخر المماليك البحرية

والله أعلم لعل هذا الجامع أيضًا لصلاح الدين يوسف ، لأنه عتيق وصغير ، وفيه أربعون عمودًا، ومحرابه ومنبره ليس فيهما صنعة، وبصحنه شجرة نبق باسقة، وللجامع ثلاثة أبواب حديدية، إلاَّ أن بابه الموصل إلى قصر " الصوباشى " مسدود، وهو أيضًا جامع مرتفع تحته ست قاعات هى سجون الصوباشى التى يعبِّرون عنها بـ " ديلم" لأنها مُطبَّقات كأنها آبار جهنمية ، يُسجن فيها القتلة والمجرمون الذين يجب قتلهم. وله مئذنة عتيقة ذات شرفتين ، وبجانب بابه القبلى محكمة شرعية .

وعلى مقربة من جامع النظامية :

جامع السلطان قايتباى الچركسى

قتل هذا السلطان فى يوم واحد سبعة من ملوك التركمان، وسمل عيون بعضهم فصاروا يستجْدون فى الطريق، وأولئك الملوك السبعة مدفونون أمام محراب الجامع، فلذا يسمى مسجد السلاطين السبعة . والسلطان چقمق أيضًا مدفون بينهم، وليس لهذا الجامع غير باب واحد يفتح على الجهة القبلية، وقد كُتبت على رخام بجانبَى الباب الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ (التوبة ١٨/٩)
تاريخ شهر (...) سنة ٨٨٤ هـ = ١٤٧٩م .

وهذا الجامع مرتفع وصغير جدا، وله مئذنة قصيرة ذات شرفتين، وقبابه مبنية بحجارة، وجماعته قليلة مع أنه فى مكان طلق الهواء .

وإذا سرت منه ففى القلعة الداخلية (قلعة الجبل) بأسفل باب الوزير مسجد الإمام الحسن .

وبعد قرافة المجاورين داخل باب المدافن الملغاة :

جامع أرسلان قاى Kay

جامع صغير مرتفع عن الأرض مقدار ست درجات، وليس له صحن ولكن مئذنته المبنيَّة من طبقتين عجيبة وآية فى الفن، وأمام باب قبلته سوق القمح . وهو متصل بسور القلعة، بيد أن السور رُدم بأتربة المدافن، فلذا يخاف أهل الجامع من لصوص القاهرة .

جامع السلطان قلاون (= قيلاون Kiavan)

والسلطان قلاون من الأسرة التركية، ومسجده العظيم كأنه حصن آخر ذو متاريس فى القلعة الداخلية، فمساحته مائة وخمسون قدمًا طولاً وعرضًا، وسقف جهة المحراب قائم على ثمانية وثلاثين عمودًا عاليًا ، وأما قبته الشاهقة التى على المحراب فمطلية بالجير الأبيض ، فلذلك هى مفعمة نورًا وضياءً، وقد زين داخلها بنقوش مذهَّبة تشبه نقش بهزاد. وهى مقامة على أسطوانات من السماقى الأحمر، ومحرابه مزخرف

بالفسيفساء من الحجارة الدقيقة، ومنبره القصيـــر من الرخام الأبيـــض، وقد كُتبت على باب المنبـــر الآية الكريمـــة ﴿ إنَّ اللَّه ومَـــلائكَتـــهُ يُصلُّونَ علَى النَّبى ﴾ (الأحزاب٣٣/٥٦).

وعلى يمين المنبر مصلى خاص للپاشاوات داخل مقصورة مربعة من الحديد . وهذه المقصورة شبكة مصنَّعة، إلى حد أنها تُعَدُّ سحراً معجزاً من الأويمة الفخرية على الحديد أو كأنه من عمل سيدنا داود، وليس لهذه المقصورة مثيل إلاَّ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة . وفوق العقود المبنيَّة على واحد وعشرين عموداً من الرخام الأبيض لإيوانه المحيط بصحنه من جهاته الأربع، سقف مزخرف مذهَّب، ومزخرف بأنواع من اللون الأزرق واللازوردى والأحمر على المينا المذهَّب، وهو سقف منقوش مزخرف، وفيه صحون مثمَّنة الشكل، كل صحن من تلك الصحون المزينة يتسع لإنسان . يُقال إن السماط المحمدى الذى كان ينصبه السلطان قلاون يوميا كان يشتمل على ثلاثة آلاف صحن مرتبانى فجعل فى سقف الجامع ثلاثة آلاف حفرة مزخرفة على صورة صحن لتكون شبهًا وتذكيراً لتلك الصحون المرتبانية . وجدران الجامع كلها مزخرفة بالصدَّف الدقيق فى ارتفاع قامة خمسة رجال، كأنها من النقوش الصينية، وقد زخرف بعض مواضعها بالرخام الدقيق زخرفة هى السحر الحلال. وما رأينا فى مصر جامعًا آخر كُسيت جدرانه الداخلية كلها بألواح الرخام المنقوش المزيَّن كما هو الحال فى هذا الجامع، وقد سدَّ الپاشا البابَ المعروف بـ " ضارب المدفع" (طوپ آتان) باب القبلة، بيد أن بابيه الجانبيَّين المصنوعَين من الصفر المفرغ يُستعملان حتى الآن .

وأما دكة المبلغين الدقيقة المقامة على ست عشرة أسطوانة دقيقة من الرخام الأبيض فكأنها مقصورة من مقاصير " إرم "، وأحد بابى الجامع على يسار المحراب، وهو الذى يوصل إلى دورة المياه . وفى جهة حوضه مئذنة ظريفة ذات شرفتين من القاشانى الأخضر، وصحنه مبلط كله بألواح من الرخام الأبيض، وللجامع أوقاف كثيرة

يقوم بنظارتها باشچاويش الإنكشارية. وفى هذا الجامع خير المؤذنين صوتًا، ويستمع الپاشا إلى تمجيداتهم كل ليلة . وكثيرًا ما يصلى فيه الپاشوات صلاة الجمعة، وقد صنع أستاذ فنان مزولة لمعرفة الأوقات الثلاثة، وجعلها فى صحن الجامع، وهى آلة شبيهة بميقات على القوشچى[٤٠].

وهناك جامع بميدان سراى الپاشا وهو :

جامع الملك الناصر فرج

هو جامع السلطان فرج إلاَّ أنه معروف لدى عامة الناس بمسجد دهيشة، ذلك أنه بُنِىَ فى موضع كان فى عصر الأقباط ديرًا لفتاة تُدعى " دهيشة " فاشتهر باسمها، وهو مسجد مرتفع عن الأرض بست درجات، وله بابان جانبيان وليس به باب للقبلة، وسقفه الخشبى الأخضر مقام على عمد ذات أضلاع، وهى مبنية بالحجارة . ومدوَّن على يمين الباب الكبير ويساره تاريخ السلطان فرج . وهو مسجد صغير بلا صحن وعلى يساره ميدان السراى وتطل نوافذه على ذلك الميدان، ومئذنته قصيرة ذات طبقة

---

(٤٠) **على قوشچى** Ali Kusçu : هو علاء الدين بن محمد. من مشاهير العلماء، نشأ فى بلاد ما وراء النهر ، كان والده من رجال ألوغ بك، وكان هو رئيسًا للصقَّارين . درس علوم الفلك والرياضيات من علماء عصره فى سمرقند، هاجر نحو بلاد كرمان وهناك أكمل تحصيلة من علماء عصره فى هذه الديار . عاد إلى جوار أولوغ بك، وقدَّم رسالة حول " القمر " كاعتذار ، فأمره باستكمال بناء مرصد سمرقند . بعد وفاة أولوغ بك، وعندما رأى إهمالاً من أخلافه ، استأذن لأداء فريضة الحج ، ولقى ترحيبًا كبيرًا من قبل أوزون حسن فى تبريز، وأرسله إلى السلطان محمد خان الثانى لعقد الصلح فنال احترامًا وإكرامًا عظيمًا من الفاتح ، ومع أنه التمس الإقامة فى إستانبول فإن الفاتح وعده بذلك بعد إتمام مهمته . ألَّف فى علم الفلك " الرسالة المحمدية " وقدَّمها إلى السلطان الفاتح ، فأنعم عليه السلطان الفاتح، بالتدريس فى مدرسة = كلية الأياصوفية . له عدا ذلك " محمدية " الـ " فتحية " و"تجريد" و " عنقود الزواهر " . توفى فى إستانبول سنة ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤ م، وهو مدفون بالقرب من أبى أيوب الأنصارى . (انظر : ش . سامى ، قاموس الأعلام ، حـ ٤ صـ ٣١٩٧).

واحدة، ومحرابه منحرف إلى ركن، وله مؤذنان يؤذنان بصوت رخيم، وخطيبه الشيخ سالم رجل من صالحى الأمة لا مثيل له ولا بديل .

وبالقرب من بِرْكة الأزبكية :

جامع السلطان أوزبك

يرتفع عن الأرض بست درجات، ومساحته مائة قدم طولاً وعرضًا، وقد أقيم سقفه المزخرف باللون الأزرق على سبعة وثلاثين عمودًا أسطوانيا رخاميا، منبره ومحرابه من الطراز القديم، وله باب قبلى وبابان جانبيان، ومئذنته ظريفة مزخرفة جدا، وهى ثلاث طبقات .

وبالدرب الأحمر :

جامع أم السلطان حسن

مسجد مرتفع يُصعد إلى بابه الواقع على الطريق العام بثمان درجات من سلم حجرى، ومئذنته أربع شرفات مصنَّعة . وهو مسجد جد ظريف وكثير الزخارف إلاَّ أنه دون فناء، نوافذه تطل على الطريق العام، وليس به أعمدة، وسقفه المزخرف مُقام على عقود، أما محرابه ومنبره فلا أثر فيهما للفن .

جامع السلطان المردانى

المردانى من تجـار الأكـراد، كان جزاراً، وكانت امرأة تأتى إليه كل يوم فتشترى منه خروفًا وتذهب، فتعجَّب من ذلك وتعقَّبها ذات يوم ليعـرف مـكان ذهابها حتى

بلغت مغارة بجبل الجيوشي فدخلتها، وكان بها دُب مهيب قدَّمت إليه الخروف، فأكل الدب هدية المرأة ثم واقعها. وقد شاهد مردان الجزار هذا المنظر وسط دهشة بالغة . ورأى أن بالغار كنزًا كأنه سرداب إفراسيان (دفينه أفراسياب) وعاد الجزار إلى حانوته بعد أن اطلع على الحال وعلم السر، ولما كان الصباح جاءت المرأة كعادتها وابتاعت الخروف وانصرفت إلى حبيبها الدب، فعلَّق الجزار في حزامه شاطور أهل الفتوة (جومرد) واتجه إلى المغارة، وإذ كان الدب والمرأة يتبادلان الحب صاح الجزار صيحة هائلة، ثم هجم على الدب هجمة قضت عليه بأمر الله، وكما يقال " من ضرب الضربة الأولى حصل على مراده " . ثم استنطق المرأة فقالت: " كان هذا الدب مُوَكَّلاً بهذا الكنز فجاءوا بى إلى هذا الواصل، فوصلت إليه وصرت آخذ منه المال وأبتاع منه خروفًا أقدمه له طعامًا، ثم يواقعني الدب . وها أنا قد أُنقذت منه بعملك هذا وانتقل مال قارون إليك بعد الآن[٤١]، فافعل به ما تشاء". أخذ مردان مالاً كثيرًا وحمل المرأة إلى الملك وقص له ما حدث بالتفصيل، فأذن له الملك قائلاً : " أعطنا عُشر الكنز وتَصَرَّفْ بالباقى كما تشاء ". ونقل مردان من أموال الكنز حتى شق عليه فبذل منه الكثير لفقراء مصر، وبنى هذا الجامع، وإذ هو مشغول ببناء مسجده توفى الملك فنودى به ملكًا.

والجامع مرتفع ظريف متقن مزخرف، وسقفه المنقوش مُقام على ستين عمودًا رخاميا، وله صحن واسع وبابان جانبيان وباب قبلة ومئذنة ذات ثلاث شرفات، ومنبره الخشبى المنقوش آية فى الفن، ومحرابه مزخرف بالصدف، ومزين بمصابيح ثمينة معلقة ، وبالمسجد ثريات تشتمل الواحدة منها على ألف قنديل . ولما كان المصلون فيه

(٤١) مما لا شك فيه أن هذا الكلام فيه تأثر بالطوطمية التى كانت سائدة بين الأتراك القدماء، والتى كانت تروج للزواج بين الإنسان والحيوان . انظر فى هذا الصدد كتاب المترجم " إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم قبيل الإسلام " .

كلهم من الأتراك (الأروام) فإن خدمه يحفظونه نظيفًا دائمًا، وله أوقاف غنية، وله من الخدم عدد كبير .

وعلى مقربة من السيدة نفيسة :

مسجد خير أم

كانت بانيته أمًا لسبعة من الملوك، فلذا سُمِّيت " خير أم " . وهو مسجد عتيق، قليل الجماعة، ولكن به من الفنون القديمة ما يعجز اللسان عن وصفه والقلم عن رسمه. مئذنته تخربت، وأوقافه ذهبت مع الريح .

وبالقرب منه :

مسجد السلطان عبد العزيز

والسلطان عبد العزيز من العباسيين، وجامعه الصغير مسقوف بسقف عجيب مبنيٌ على اثنتى عشرة أسطوانة رخامية. محرابه بسيط غير مزخرف، ومنبره من الخشب المنقوش، وله مئذنة فنية مزخرفة . ولما كانت السيدة نفيسة مدفونة أمام محرابه فهو يُدْعَى مسجد السيدة نفسية، وسوف أصفه فى موضعه .

وبالمدينة السفلى وداخل حارة " القاوقجية "، أى صانعى القلانس وبائعيها :

مسجد البيكخانة (أى مسجد محطة البريد)

وهو مسجد سفلى إلا أن جماعته كثيرة جدا .

وفى سوق الوزانين :

مسجد حسام الدين

وهذا أيضًا مسجد صغير .

وهناك أمام قصر رضوان بك عبر الطريق :

جامع محمود باى

وهو مسجد صغير بلا صحن بسوق الأحذية، ولكنه نظيف جدا ومتقن البناء، وقد أُقيم محرابه على طراز خاص مزخرف بحجارة دقيقة، وعلى جانبيه عمودان من الرخام " اليرقانى " فى سُمْك ذراع، كأنهما من الكهرمان، إذا مرض أحد باليرقان فداوم على لحسهما ثلاثة أيام من أيام السبت زال الاصفرار من جسمه بإذن الله ، وله مئذنة فنية ظريفة .

وفى هذه الحارة أيضًا بالسروجية :

جامع خانم بهلوان

مسجد بديع الصنع مرتفع عن الأرض بست درجات سلم ، ومئذنته عجيبة ذات ثلاث شرفات، وهى من أجمل المآذن .

وهناك جامع آخر علوى ذو مئذنة ظريفة على مقربة منه يكتظ بالمصلين ، ويقع بأول الخيامية :

جامع الجانبكية

مكتوب على بابه هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ (فصلت٤١ /٣٠)، ثم عبارة " سنة اثنتين

وثمانمائة = ١٣٩٩م" . وهذا الجامع أيضًا مرتفع يُصعد إليه بخمس درجات من الجانبين، وهو صغير ولكنه جامع نوراني.

وبالقرب من سوق الصليبية :

جامع الحاجب السلطاني الأمير ألماس

جامع أرضي صغير لكنه نظيف جدا وروحاني لا تنقطع عنه الجماعة أبدًا، فقد بُني بأموال أخرجت زكاتها، فلذا يترعرع فيه رجال من أرباب الأحوال ، وإن أصاب أحدًا ألم فصلَّى فيه مرة اطمأنت نفسه وابتهج قلبه . وسقفه منقوش ومذهَّب مُقام على ثمانية وعشرين عمودًا مجليا. ويصحنه شجرة نبق تثمر فاكهة كالجوز ، وفيه صنابير وفقًا للحنفية تقع تحت قبة صغيرة بيضاء مقامة على أربع أسطوانات رخامية نحيفة . ومحرابه على الطراز القديم، ومنبره رخام أبيض، وعلى بابه :

" أمر بإنشاء هذا المكان المبارك الفقير الأمير ألماس صاحب، فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وكماله سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية ". ومئذنته المزخرفة خليقة بأن تكون محل نداء إلى الصلاة حقًا .

وأمام سوق الصليبية :

جامع الشيخونية

وكان وزير السلطان حسن كردى الأصل شجاعٌ عُمَرِى السيرة، كما كان اسمه عمر، وآثاره البنائية عمارتان متماثلتان . إلا أن العمارة التى على يسار الشارع العام جامع نيِّر . وكلا البناءين يرتفع عن الأرض مقدار سبع درجات سلم ، ومساحة كل منهما مائة وستون قدمًا طولاً وعرضًا . وقد أقيم سقفاهما المزخرفان على خمس

وأربعين عموداً أسطوانيا من الرخام الأبيض . وللجامع باب واحد، وصحنه مفروش بالرخام . وله أوقاف غنية، فلذا تجده نظيفًا دائمًا، كأنه درة بيضاء . وقد صُنع منبره من خشب منقوش بالأويمة أى الحفر، وأما محرابه فمزخرف بألوان من الحجارة الدقيقة . وقد أراد أستاذ فنان أن يثبت قدرته على الرسم فرسم الكعبة الشريفة على جداره الأيسر فيخيَّل إلى مَن يراه أنه يرى الكعبة رأى العين .

أما العمارة التى أمامه، وهى التكية الشيخونية، فتكاد تكون طبق هذا الجامع، وهى تكيَّة قادريَّة سوف أكْتب عنها حين الكتابة عن التكايا .

وإذا تركت الشيخونية صاعداً إلى ميدان الرميلة فهناك :

جامع المحمدى

جامع فوقانى صغير له مئذنة عالية، بيد أنى لم أدخله ولم أصلِّ فيه . وتسير منه إلى جامع آلتى بارماق أى صاحب الأصابع الستة ... !

وهو مسجد ظريف مرتفع عن الأرض بست درجات سلم واعظة وناصعة، وكل المصلين فيه من الأتراك . وله باب واحد ، وسقفه المقام على عمد منقوش نقشاً عاديا بسيطًا، وليس به صحن، جُعلت تحته ستة حوانيت، ومئذنته الوحيدة قصيرة . والشيخ آلتى بارماق مؤلف السيرة النبوية مدفون أمام محرابه .

وبإزائه وأسفل منه قليلاً :

جامع المرزبانية

مسجد ظريف مرتفع عن الأرض بخمس درجات، وسقفه المذهَّب مقام على عشرين عموداً أسطوانيا مجليَّة وظريفة ، وفى محرابه ومنبره كثير من الفنون الزخرفية وبصحنه نخلة باسقة.

جامع الداوُدية

بانيه هو داود باشا والى مصر بعد سليمان باشا الطواشى من وزراء السلطان سليمان خان . وقد قام حقا بإجراء ما هو جدير بالوزراء من العدل والإنصاف، ثم بنى هذا الجامع الذى ليس له نظير بين جوامع الوزراء . وهو مسجد مرتفع ينتهى الصاعد إليه إلى باب ذى ثلاثة جوانب، يُصعد إليه بعشرين درجة من سلم حجرى . وبه ستون أسطوانة مزخرفة عليها ستون قبة معقودة مدورة مطلية بالجير ، وفوق كل قبة شعار من الرخام فى فن دقيق، وصحنه الواسع مفروش بالرخام الخام . وأما محرابه ومنبره ومئذنته ذات الطبقة الواحدة فكلها على الطراز التركى ، وله حرم سفلى خلاف صحنه العلوى . وبنى هذا الجامع النورانى وسط ذلك الحرم الواسع كصحن ذى متاريس قوية، وليس له اتصال بشىء آخر، وجماعته كبيرة جدا .

جامع إسكندر باشا

صار واليًا على مصر بعد محمد باشا الدوقاكين، وهو أيضًا من وزراء سليمان خان، وجامعه نيِّر وجميل حقا ويندر أن يكون له مثيل، ويمتلئ بالمصلين ليلاً ونهاراً كمسجد رستم باشا بإستانبول، وهو مسجد مرتفع يُصعَد إليه بثمانِ درجات إلى أحد أبوابه وخمس عشرة درجة إلى باب آخر، وبداخله ثمانِ أسطوانات، ونوافذه مطلة على الطريق العامً . ومنبر محرابه بسيط ولكنه ظريف، وهو مقام فى مكان ضيق مزدحم وليس له صحن . ومن طرفه الأمامى يجرى الخليج المصرى ، ومئذنته الظريفة ذات شرفة واحدة ومسدسة الشكل كمآذن مساجد الترك .

جامع منجك اليوسفى

وهو من وزراء السلطان حسن ، وكان له قصر منجك الصغير الذى يقع بساحة "كوك ميدان " أى ساحة السماء بدمشق الشام . وجامعه هذا ذو مئذنة واحدة، مبنىٌ على صخرة عالية تحت جامع النظامية، وهو جامع عتيق .

جامع الفتح النظامى الأصفهانى

وهو جامع منير يطل على العالم من فوق ربوة خارج باب الوزير، وهو بناء وضّاء تبدو القاهرة كلها تحته . سقوفه منقوشة ظريفة وليست به أعمدة ، ومئذنته عالية رشيقة ذات ثلاث شرفات . وقد بناه الشيخ نظامى الأصفهانى بأموال اكتسبها حلالاً فى أيام السلطان محمد بن قلاون الصالحى، وتم البناء سنة ٧٣٦هـ = ١٣٣٥م، والشيخ نظامى الأصفهانى " قدس سره العزيز " مدفون فيه . وجامعه هذا تكية عظيمة لرجال الطريقة الخلوتية، فلذا سوف ترد أوصافه فى أثناء الكتابة عن التكايا .

وبداخل باب العزب :

مسجد العزب

مسجد صغير ولكنه مكتظ بالمصلّين لوقوعه أمام مقر العزب، ولكن ليس به فناء. وقد بنى له الكتخدا إبراهيم مئذنة رشيقة على الطراز الرومى (التركى).

وفوق هذا الجامع داخل عطفة على سور القلعة :

مسجد السلطان المؤيد

وقد كان باب الوزير يقع تحت هذا الجامع فى ما سبق، وهو لا يزال مسدوداً وظاهراً . وهو جامع علوى صغير مرتفع، وتفتح نوافذه التى تطل على سور القلعة على طريق باب الوزير، وليس به أعمدة ولا صحن، ومئذنته بسيطة .

وبالقلعة الداخلية العليا :

جامع سليمان باشا

وهو الولى سليمان باشا الطواشى الأبيض ويُلقَّب بـ (سليمان باشا الخادم). وهو من وزراء السلطان سليمان خان، وقد صار وزيرًا لمصر مرتين، وسافر إلى الهند على رأس أسطول مؤلَّف من مائتى سفينة ففتح مدينة " بندر ديو " و" بندر صَرْتى " وسبع مدن أخرى، وهزم البرتغاليين، ثم وهب تلك القلاع لملك الهند، وقد غنم أموالاً جليلة . ثم فتح اليم وعيَّن أوزدمير بك قائدًا للجيش الذى خُصِّص للهجوم على بلاد الحبش وفتحها، ولما عاد إلى مصر منتصرًا غانمًا بنى هذا الجامع .

هذا المسجد بداخل القلعة، ولم يدخل فى بنائه خشب، وإنما هو بناء معقود كله، وله قبة وحيدة مدوَّرة زرقاء ليس بداخلها عمود . وقد كُسيت جدران المسجد كلها من الداخل بألواح الرخام المختلف الألوان ، وبُنِى محرابه بناءً فنيا بحجارة دقيقة جدا . وإلى جانبى المحراب شمعدانان طول كل واحد منهما كقامة إنسان، يوقد عليهما شمعتان مصنوعتان من شمع العسل فى طول قامة إنسان ، وليس لهذا مثيل فى أى جامع فى مصر . ومنبره الرخامى بديع ظريف . وبالجامع آلاف المصابيح المعلَّقة ، وأمام محرابه أربعون نسخة من كلام رب العزة، كل نسخة تعادل كنزًا . وأبسطته الفاخرة تفوق كل وصف ، وله بابان جانبيان وباب القبلة . وهو جامع صغير لا تزيد مساحته على مائة وعشرين قدمًا طولاً وعرضًا ولكنه درة يتيمة ، وكذلك ساحته الخارجية لا تزيد على مائة قدم طولاً وعرضًا . وإيواناته الجانبية ذوات قباب صغيرة مزخرفة مقامة على عشر أسطوانات، وقد كُسيت تلك القباب والقبة الكبرى بالقاشانى اللازوردى الأزرق . وبباب المحراب فنون وزخارف تبلغ حد الإعجاز والسحر المبين ، وجدران الأواوين مكسوة بألواح الرخام والسماقى المختلف فى طول قامة إنسان، وقد كتب عليها الخطاط الفنان آية الكرسى بالخط الكوفى الذى لا يُشبه خطا من الخطوط الكوفية الأخرى؛ يتوافد الرحَّالة من العلماء لمشاهدته .

وصحنه مفروش بالرخام الأبيض المجلى تنعكس فيه الوجوه ، ولهذا الصحن ثلاثة أبواب، منها اثنان جانبيان والثالث من جهة القبلة . وقد دفن الشيخ " سارية " من الصحابة الكرام في قبة عالية به ، والشيخ سارية هذا هو الذى جعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائداً للمسلمين المقاتلين بنهاوند من بلاد العجم . وقد حدث أن كان عمر يخطب على المنبر في يوم الجمعة فلمح ببصيرة قلبه أن سارية يوشك أن ينهزم فصاح: "يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ ! "، فدهش المصلُّون من كلام الخليفة للمسافة التى بينه وبين سارية، الذى كان فى جيش المسلمين المحاربين وجيشه جهة الجبل، وهُزم الجيش الغازى بأمر الله، فلما عاد سارية إلى المدينة مظفراً منصوراً سُر الذين كانوا بالمسجد حين صاح عمر " يا سارية الجبل الجبل "، وسمعوا صيحته ثم سمعها منهم من كانوا بالمدينة وأرّخوها، فزاد ارتباطهم بعمر وزاد حبهم له أكثر مما كان، فالثاوى فى هذا الجامع هو ذلك الصحابى الكريم الشيخ سارية . وقد دُفن فى غار ثم بنيت عليه قبة وزاوية فيها حجرة وخادم ضريح . وعلى باب قبلة الجامع هذا التاريخ : " قد بَنَى وعمَّر الجنابُ العالى مملوك سلطان السلاطين ، السلطان سليمان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو أمير الأمراء المصرية سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين، بنى مسجداً لوجه الله الملك المعين وطلبًا لمرضاة رب العالمين، ليعبد فيه عباد الله الصالحين" . وكان تاريخه " فاركعوا لله مع الراكعين " سنة ٩٣٥ هـ = ١٥٢٨م .

وعلى المصراع الأيمن لباب مصر كتابة كُتبت بداخلها بالذهب الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (الزمر٣٩/ ٧٣)، وعلى المصراع الآخر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (الزمر٣٩/ ٧١)، "صدق الله العظيم " . وصحن الجامع يقع فى الجهة الشرقية، وفيه حوض ونافورة تجدد فيه جماعة المصلين وضوءهم من صنابير الحوض . وهذا الجامع ليس مطليا بالجير كسائر جوامع مصر، بل هو مكسوٌ كله بالصينى القاشانى اللازوردى، فلذا يخاله من يراه من بعيد مغطى بالرصاص . ومئذنته طبقتان وهى أعلى مئذنة بمصر، وذلك لأن الأرض التى بُنِيَتْ عليها مرتفعة، فلذا ليست فى مصر مئذنة أعلى منها، وطرازها إسلامبولى،

ومحرابه فى شبه قبة، وتظهر من نوافذ المحراب حديقة غناء ذات ورد وريحان تعطر أدمغة المصلين فى الجامع بأريج زهور متنوعة . ولأن ناظر المسجد أغا الإنكشارية صارت له أوقاف غنية ثابتة ، ثم إن الأغا يؤدى فيه فرائض الأوقات الخمسة، فلذا هو نظيف جدا وعامر " حفظك الله تعالى " .

وبداخل باب آللوق :

جامع البرمشى

وهو مسجد عامر مزخرف، كثير الجماعة ، ومئذنته ذات ثلاث شرفات سامقة رشيقة فنية .

وبالدرب الأحمر على رأس شارعين :

جامع القيشاس أى جامع القاشماز

وهو جامع مرتفع صغير تحته دكاكين، يُصعد إليه بثمان درجات، إلا أنه لطيف ونيِّر ومزخرف وكثير الجماعة . وليس له فناء لأنه بُنى فى مكان ضيق ، وتمر الشوارع من جوانبه الأربعة .

وفوق هذا الجامع وتحت وكالة الكتخدا محمد الحبشى :

مسجد المهمندار أى جامع المضياف

بُنى سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م، وهو مسجد كأنه جامع من الطراز القديم، يرتفع عن الأرض بخمس درجات، وليس به زخارف كثيرة، إلا أن جماعته كبيرة لكونه فى السوق السلطانية أى الرئيسية . ونوافذه مطلة على الشارع العام، وله مئذنة عالية ذات شرفتين .

وبالدرب الأحمر أيضًا :

جامع إبراهيم أغا

إبراهيم أغا من أغوات الإنكشارية بمصر، ومسجده مرتفع . وهو قريب العهد فلا يزال جديداً مزيناً ظريفاً محبوباً كأنه لم يكَدْ يخرج من يد الصانع الفنان ، وليس فى استطاعتى تعريف منبره ومحرابه، فهما لا يوصفان باللسان ، ومئذنته الرشيقة منارة عالية ممتازة .

وبالقرب منه :

جامع خاير بك المحمدى باشا

كان خاير بك من وزراء السلطان الغورى فأعرض عنه واتبع السلطان سليماً، ثم فتح السلطان سليم مصر برأيه وتدبيره وفوَّض إليه وزارة مصر سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م، وقام خمسة أعوام ونصف عام بالولاية، وبنى هذا الجامع. وصارت وزارة مصر بعد خاير بك إلى مصطفى باشا لاَله الذى نُصِّب بعد عام صدراً أعظم للدولة العثمانية . فعَيَّن مكانه قاسم باشا ثم أحمد باشا الخائن الذى خنقه الجنود .

وهذا الجامع نور محض، فقد كُسيت جدرانه الداخلية بالأحجار النفيسة من الشب اليرقانى والسماقى والرخام السحابى . وأما المنبر والمحراب فهما تحفتان فنيتان . وهذا الجامع لم يعقد بالجص، بل سُقِّف كله . وبصحنه صنابير حنفية وبضع أشجار من النخيل . يدفن صاحب الجامع تحت قبة عالية على الشارع العامٍّ وقد حلِّى الجامع بمئذنة رشيقة لها نصيب من كل المآذن، فهى مئذنة شاهقة ظريفة ذات ثلاث شرفات.

بيد أن چراكسة مصر لا يلتفتون إلى جامع خاير بك، ولا إلى ضريحه الذى يشع نوراً ، لأنهم غضبوا عليه لزعمهم أنه كان السبب فى قدوم العثمانيين إلى مصر وانتزاع المُلك من أيديهم، فلذا يمرون بمسجده دون إلقاء نظرة إليه . وليس لمسجد من المساجد

المصرية ما لهذا المسجد من كثرة الخدم ومتانة الأوقاف والنظافة والطهارة .

وعلى طريق باب النصر :

مسجد مرزوق الكفافى

مسجد مرتفع صغير ذو سقف مزخرف مقام على أربعة أعمدة ، وهو زاوية الشيخ مرزوق الكفافى، من مشايخ الطريقة البدوية ، وله مئذنة مزخرفة .

وبالقرب منه على طريق باب النصر :

مسجد جمال الدين

وهو مسجد مرتفع صغير ذو مئذنة واحدة، وليس له صحن .

وإذا سرت منه ودنوت من خان الكتخدا ذو الفقار عبر الطريق فأنت عند:

مسجد السلطان سُنقُر

وهو مسجد مرتفع يشع ضياءً على الأسلوب القديم، فقد بنيت منارته على شكل مربع، تشبه مقاصير متداخلة بعضها فى بعض، فهى منارة فريدة فى أسلوبها، وصحنه البديع مفروش برخام عظيم لامع .

وبإزائه عبر الطريق :

جامع الخانقاه (أى الخانكَاه)

وهو مسجد تحتانى عتيق، قد أقيمت سقوفه المزخرفة المنقوشة على أربع وثلاثين أسطوانة مبنية بالحجارة . محرابه ومنبره من الطراز القديم، وله صحن واسع، ومئذنته بسيطة من طبقة واحدة، وهو مسجد واسع .

واذا اجتزت باب اللوق خارجًا فهناك :

جامع ولد عبادة

مسجد غير مرتفع على حافة الخليج، بصحنه شجرة نبق باسقة .

وبالقرب منه جامع غير مرتفع واسع بمئذنة قصيرة من طبقة واحدة وبصحنه شجرة نبق عتيقة كثيرة الفاكهة .

و على مقربة منه :

مسجد الأصمعى

مسجد تحتانى قديم مزخرف جدا، بصحنه أشجار الجميز الباسقة، ولكن جماعته صغيرة ، وبابه مغلق دائمًا .

وبالقرب منه :

مسجد أمير آخور

أى أمير الإصطبل، وهو مسجد مرتفع تحته حوانيت وليس له صحن .

المسجد الأبيض

وهو مسجد مرتفع له صحن، وسقوفه المزخرفة مقامة على عشرين أسطوانة رخامية بيضاء، بُنى على حافة الخليج . وله منارة واحدة، وبجوانبه الأربعة حديقة غناء، ولأنه واقع على شاطئ الخليج يؤمه الناس فى تنزهاتهم .

مسجد خان بك

وهو مسجد مضىء تهواه النفس ذو مئذنة صغيرة، ولكن جماعته كبيرة، وهم جميعًا خِضْرِيُّون صالحون وبه بعض المنعزلين من أرباب الأحوال الصوفية .

وهو مسجد مكشوف الوسط، وليس له صحن، ومنارته ثلاث شرفات، وبه أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، ومنبره خشبى .

وبداخل باب الحديد :

مسجد المغاربة

وهو مسجد مكشوف الوسط، به ستة وعشرون عمودًا، مبنى بالحجارة، ومساحته خمسون قدمًا طولاً وعرضًا .

وبالسوق السلطانية أى الرئيسيَّة داخل باب الشعرية :

مسجد العمرى

وهو مسجد بلا صحن، أقيمت سقوفه المزخرفة على واحد وثلاثين عمودًا، ومنارته ثلاث شرفات .

مسجد عابدين بك

وهو مسجد مرتفع يُصعد إليه بعشرين درجة، وتحته حوانيت . وقد أقيمت سقوفه المزخرفة المنقوشة على أربعة وعشرين عمودًا من الرخام الأبيض، لو اجتمع مانى

وحسَّان وبهزاد[٤٢] من الفنانين لما استطاعوا أن يزيدوا عليها نقشة . وله منارة عالية من الطراز الإسلامبولى ليست عديمة النظير فى مصر وحدها، بل ليس لها نظير فى مساجد المسلمين على وجه الأرض قاطبة، وبه منارة رشيقة سامقة سحرية الزخرفة، كثيرة الألوان، فقد بُنِيَتْ على ست عشرة زاوية، وبين كل زاويتين نوع من الحلية المعروفة بـ " ثلاثية الدرجات "، تمتد من أساسها إلى شرفتها، صنع الفنان هذا بالحجر، فلو أراد (الخطائىُّ) المذهِّب أن يرسم مثله بجدول على ورق لعجز . فقد استُعمل فى كل زاوية من أولها إلى آخرها ضروب من (الأسليمات) والأربطة والعقد والروميات حتى صارت كأنها نخلة سلطانية فى فرح ملكى، وصُنِع لشرفاتها مقرنصات ودلاَّيات، فصارت ككأس دائرة الفلك ، وهى بناء آية فى الرقة . حفظه الله .

وإلى جانب باب الحديد :

مسجد مردة بك الإينالى

وهو مسجد فوقانى على شاطئ الخليج، أقيم سقفه على ست أسطوانات عالية، وليس له صحن، ونوافذه مطلة على الطريق العام وعلى الخليج، وبداخله محكمة . وله منارة ذات شرفات ثلاث مسيطرة على العالم، زُخرفت (بشبابك) ودلاَّيات . وأصلحه القاضى منصور صهر الشيخ على الشمرلسى حين كان ناظره، فصار مسجداً يشع نوراً. وهو مسجد بديع حقا ، وله بابان، وإذا خرجت من بابه الذى إلى يساره فأنت أمام جسر خشبى على الخليج حيث :

---

(٤٢) و هم من أمهر الرسامين الإيرانيين، ولهم شهرة واسعة فى فنون إيران وأواسط آسيا .

مسجد الجندى

وهناك مسجد صغير بمئذنة قصيرة قبالة الخليج بسوق الدلاَّلين يسمى مسجد الجندى .

وبهذه السوق أيضًا :

مسجد الداوُدية الكبير

وهو مسجد مرتفع عن الأرض بمقدار تسع درجات حجرية مزخرف، ومنارته الرشيقة السامقة ذات ثلاث شرفات، ومحرابه منقوش بفسيفساء الصَّدَف الدقيق . وعلى باب منبره الآية الكريمة : ﴿ إنَّ اللَّهَ ومَلائكتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِى﴾ (الأحزاب ٥٦/٣٣)، وكُتب على باب الجامع البيتان الآتيان :

بناه على اسم داود صدِّيق   وفى سبيل الهدى قد جدَّ سيراً

حمد ثنا فورخنا بناه حقا   حرا حمداً جزى الله خيراً

سنة ٩٥٤هـ = ١٥٣٨م .

وخارج باب الفتوح يوجد :

مسجد المطهر

وهو مسجد قديم وبناء عظيم بمئذنة واحدة، كثير الجماعة ولكن لم يتيسر لى دخوله، وهو مسجد علوى مرتفع .

مسجد البندقانى

وهو مسجد مرتفع ظريف، ولكن لم يتيسر لى الدخول فيه، وله باب فنى مصنَّع ومنارة مزخرفة ذات ثلاث طبقات .

مسجد الكَتْخُدَا محمد الحبشى

وهو مسجد جديد مرتفع عن الأرض مقدار خمس درجات، وسقوفه مقامة على أربعين عمودًا . وله باب إلى القبلة، ومنارة على الطراز الرومى (التركى).

مسجد الحكيم قيصونى

وهو مسجد بالقرب من الداوُدية الكبير إزاء منزل "أفندى الإنكشارية".

مسجد الشيخ كريم الدين الديوشرى ومسجد الهندى

وهو مسجد صغير مرتفع ارتفاعًا يسيرًا، مبنى على شاطئ الخليج فى طريق باب الخلق يُصعد إليه من الشارع بثمان درجات، وتحته ثلاثة حوانيت ، ونوافذ مطلة على البِرْكة، سقوفه ومنارته فنية مزخرفة . وهو فى السوق، فجماعته كبيرة .

وثمة جامع عظيم آخر مرتفع مساحته مع صحنه مائة وستون خطوة طولاً وعرضًا وقد أقيمت سقوفه المزخرفة على مائة من الأعمدة العالية، من ضمنها عشر أسطوانات من الرخام الأبيض استُعملت فى بعض أماكن الجامع خارجًا وداخلاً وتحت دكة المبلغين . ومحرابه مصنوع من الرخام والحجارة الدقيقة ، ومنبره خشبى، بيد أنه دقيق الصناعة فنى، وبقباب أبوابه الثلاثة ضروب من التصاوير منقوشة على حجر زنبورى .

وبوسط صحنه العريض حديقة مسوَّرة بدرابزين مربع قصير، تعطر أدمغة المصلين بأريج الزهور وفيها نخيل باسق . وإلى جانب باب القبلة منارة من ثلاث طبقات مكسوة بالقاشانى الأخضر الزمردى . وقد كُتب إلى الجانب الأيمن من باب القبلة الآية : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّه ﴾ (التوبة ٩/١٨) وإلى اليسار "أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الباقى"[٤٢] . ولما كان المقيمون حوله من أعيان الأروام (الأتراك) وأشرافهم فإن خدمه يعنون بنظافته دائمًا . وله خطيب من صالحى الأمة، إذا تلا القرآن الكريم والفرقان المجيد بصوته الرخيم انتعشت أرواح سامعيه . وهو شريك هذا الفقير (أولياچلبى)، فقد تلقينا العلم معًا على يد أستاذنا الشيخ على الشمرلسى . ولا يوجد فى الشعب المصرى رجل ورع حليم سليم، ذو صوت مؤثر ومثير، خفيف الروح، مثله . فلذا تحضر إلى المسجد جماعة كبيرة لسماع خطبته فى يوم الجمعة، حتى يعجز المرء عن الحصول على مكان قبل الجمعة بساعة .

وبجوار بركة الفيل أيضًا على مقربة من قنطرة سُنقر على شاطئ الخليج :

مسجد الشيخ إبراهيم الكاتب

له باب وحيد على الشارع العامّ، يُصعد إليه من طرفين بسلم ذى ست درجات وقد نقشت إلى يمين الباب ويساره الآية : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّه ﴾ (التوبة الآية ٩/١٨) ولكن ليس له تاريخ . وهو مسجد صغير لطيف بمئذنة ذات ثلاث طبقات تفتح نوافذه من جهة القبلة إلى الشارع العامّ، ونوافذه الشمالية إلى الخليج .

---

(٤٢) نسخة يلديز : قوصون الباقى .

مسجد الحبانية

وهو مسجد صغير نيِّر، مقام على عشرين عموداً، يعلو عن الأرض مقدار ست درجات، وهو بناء متين، على بابه منارة ذات ثلاث طبقات . وقد جعله الجاويش سليم، الذى كان ناظراً له، درة بيضاء .

وبباب الشعرية :

مسجد الشيخ الشعرانى

وهو مسجد مرتفع يُصعد إليه بإحدى عشرة درجة، وتحته حوانيت . وهو ليس بمسجد واسع، وليس له صحن، لأن أحد جوانبه على الخليج الذى يجرى داخل المدينة وسقوفه مقامة على اثنى عشر عموداً . ومحرابه ومنبره مختصران، بيد أن منارته ذات الطبقات الثلاث فنية مصنَّعة. والشيخ الشعرانى مدفون فيه ، وللشيخ من المؤلفات ثلاثمائة مجلد .

وعبر الخليج على شاطئه تقريباً :

مسجد الشيخ الخلوتى

وهو مسجد غير مرتفع أقيمت سقوفه على عشرين عموداً، وليست به قبة معقودة . ومنبر محرابه بسيط ونوافذه مطلة على الخليج ، وبصحنه حديقة صغيرة بها شجرة نبق باسقة، تثمر ثمرة لذيذة . وفى ركن الشيخ وعلى مقربة من الميدان محراب من السماقى الأخضر قطعة واحدة لا نظير له فى مصر، ولكن نظيره فى القدس الشريف ، وله مئذنة عالية رشيقة سامقة ذات ثلاث شرفات . وحول هذا المحل الخلوتى الشريف نحو سبعين أو ثمانين حجرة للفقراء، سوف نكتب عنها فى موضعها .

مسجد بَشَك

من الچراكسة، هرب إلى الشام سنة ٨١٣ هـ = ١٤١٠م فالتحق بتيمورلنك . ومسجده هذا تحتانى مزخرف لطيف ، مبنى على الطريق العام . وسقوفه الداخلية والخارجية مقامة على ست عشرة أسطوانة، وبصحنه نخيل . وهو مسجد مزخرف بزخارف كثيرة، ومنارته الرشيقة ثلاث شرفات .

مسجد نقيب الجيش

وهو مسجد قديم ومصنَّع جدا، بالقرب من مسجد " قاراقوجه " بقنطرة الجماميز .

مسجد قاراقوجه

وهو مسجد صغير ولكنه كثير الجماعة ، وبدرب الجماميز أيضًا.

وبإزاء قنطرة عمر :

مسجد كتكوت

وهو مسجد صغير على الطريق العام، وبه مغارة آية فى الفن والجمال، وهو أحد الجوامع الكثيرة الزينة والزخرفة .

وعلى طريق باب الحديد تحت قلعة الكبش :

مسجد الأمير لاچين

مسجد نيِّر لطيف يعلو عن الأرض بمقدار خمس درجات، منارته الشاهقة رشيقة رقيقة للغاية، ونوافذه تُطل على الطريق العام . وقد أقيمت سقوفه المحلاة

بنقوش وزخارف عجيبة على أربعة عشر عموداً . وكان صاحبه وزيراً للسلطان الملك الظاهر .

وبقلعة الكبش أيضاً وفوق سور القلعة :

مسجد الجاولى

تيسَّر لى دخوله ، وهو زاوية عالية، لها منارة مربعة من ثلاثة أدوار.

وإذا مشيت منه داخل جامع ابن طولون داخل الحى فأنت عند :

مسجد الأمير يوسف أزبك

وهو مسجد علوى لطيف بُنِيَ على مفترق الشوارع بناء بديعًا، له سقوف محلاة بزخارف بديعة مقامة على أربعة عقود منقوشة، ومحراب مرصَّع، ومنبر خشبى مقرنص. ودكة المؤذنين عجيبة الزخارف والحليات، ومنارته من ثلاث شرفات مكسوّة جدرانها بأنواع من الأحجار الملونة . ولا يوجد له صحن .

***

ولو أردنا الكتابة عن كل جامع من الجوامع التى بمصر – وهى نحو ألف جامع – لاقتضى الأمر كتابة مجلد ضخم، فلذا اكتفينا بإيراد أسماء البعض من بقية الجوامع وهى :

مسجد الإمام الحسين، ومسجد مسيح باشا فى طريق الإمام الشافعى، ومسجد القيصونى القريب منه، وإلى جانبه مسجد أم السلطان حسن، وبالقرب من القبر

الطويل مسجد الشيخ بدر الدين الوصائى، وعلى مقربة من مسجد الخاتونية وباتصاله مسجد الأشرفية، وإذا سرت داخل حى الخلالين فهناك مسجد شجر الدر وهو مسجد قديم للملكة شجر الدر التى كست الكعبة الشريفة بكسوة من الحرير الأسود . وبإزاء قنطرة الموسكى مسجد الزينية وهو مسجد ذو مئذنة واحدة ، وعلى الطريق العامّ بأسفل باب الوزير مسجد أَيْتَمُش الذى كان من وزراء الظاهر بيبرس، وهو مسجد متين ذو مئذنة وقبة، ومسجد الشيخ شمس الدين الحنفى وهو مسجد عامر وخانقاه قديم، ذو جماعة كبيرة ، ويصحنه شجرة نبق باسقة مثمرة، وله مئذنة واحدة . وفضلاً عن هذه الجوامع فإن فى مصر آلافًا من مساجد وجوامع وأوقاف مقيدة كلها فى سجل قاضى العسكر أفندى، لأنه حين يدخل مصر يتقاضى من كل مسجد جنيهًا (ذهبًا) على الأقل، وثمة أوقاف كثيرة يتقاضى منها من خمسة جنيهات إلى مائة جنيه حسب ثرواتها واتساعها . وقاضى العسكر أفندى هو ناظر نظار الأوقاف جميعًا فلذا قُيدت فى سجله جميع الأوقاف التابعة لتفتيشه .

الفصل السادس والعشرون

فى حق ما فى مصر المحروسة من المساجد الكبيرة

وردت الآية الكريمة ﴿ وأنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أحداً ﴾ (الجن٧٢ /١٨) فى حق المساجد. وقال الله سبحانه وتعالى فى قرآنه العظيم وفرقانه المجيد فى حق من يعمر المساجد من المسلمين: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة٩/١٨). فليكن معلومًا لإخواننا المسلمين أن المصريين كانوا فى الأزمان الماضية جد مغرورين، حتى إن أحداً منهم إذا ملك عشرة أنفار استنكف العبادة فى مساجد غيره فخصص ركنًا من داره يصلى فيه هو وأتباعه، أو بنى له مسجداً خاصاً، فلذا روى أنه كان فى مصر مائة وسبعة وسبعون ألف محراب فى أيام الأيوبيين والتركمانيين . ولا تزال هناك مساجد متصل بعضها ببعض فى قايتباى وبالقرافات، وأما المحاريب العامرة المحفوظة الأوقاف حتى اليوم فعددها ستة وأربعون ألفًا، بعضها ذو مئذنة وبعضها لا مئذنة له، ونبين هنا ما اطَّلعنا عليه من المساجد، وهى :

مسجد رئيس الطهاة فى القلعة الداخلية، ومسجد قلاون، ومسجد السوق، وبالقسم الداخلى مسجد الچاويش أغا، ومسجد الباب، ومسجد البرج الداخلى، ومسجد غرف العرب، ومسجد السراجخانة، ومسجد القراميدان، ومسجد (القوافين)، ومسجد الگلشنى، ومسجد الخراطين، ومسجد السادات، ومسجد المغاربة، ومسجد الشيخ البكرى، ومسجد الدرب الأحمر، ومسجد إبراهيم أغا، ومسجد قنطرة الليمون، ومسجد حسن الشاذلى، ومسجد باب الخلق (الخرق)، ومسجد الجمامين، ومسجد

الطباخين، ومسجد الشيخ كتعان، ومسجد شجاع الدين، ومسجد رسول أفندى، ومسجد ذو الفقار كتخدا، ومسجد ريحان أغا، ومسجد السيد على، ومسجد أبارى .

وخلاصة القول أننا لو أخذنا بإحصاء الغزالى وكتبنا عن جميع المساجد لاقتضى ذلك كتابة مجلدٍ .

وهناك مسجد المهمندار بالقرب من جامع القچمازية .

الفصل السابع والعشرون

بيان ما فى داخل مدينة القاهرة من المدارس

منذ أن فتح عمرو بن العاص مصر حتى فَتْح العثمانيين تقلبت على حكم مصر سبع دول : الأموية والعباسية والإخشيدية والفاطمية والكردية والتركمانية والچركسية، وبلغ عدد حكامها ثلاثمائة وأربعين سلطانًا، بنى كل واحد منهم مدرسة . وقد أسهم وزراؤهم ووكلاؤهم وكبار الأعيان فى الإصلاح والتعمير، فأنشأوا مدارس بلغ عددها ثلاثة آلاف وستمائة مدرسة، بيد أن مرور الأيام وتقلبات الزمان أثَّرا فى أوقافها فدرست وتخربت المدارس . وأما المدارس التى لا تزال عامرة حتى اليوم فهى مدارس السلطان حسن والسلطان قلاون والسلطان الصالح والسلطان برقوق والسلطان فرج والسلطان الأشرف والسلطان سيف الدين والسلطان أيبك التركمانى . وموجز القول أنه لا يزال فى مصر مائة وستة وخمسون جامعًا للسلاطين وأبنائهم، وملحق بكل جامع مدرسة، وهذه المدارس مزينة بمنارات يخالها الناس جوامع وهى ليست بجوامع وإنما هى مدارس تُلقى فيها الدروس .

وبالقرب من باب الخلق مدرسة إسكندر پاشا، وهى مدرسة لها حجرات على الطراز التركى (الرومى)، ويصحنها حوض وشادُرْوان، ولها مدرسون وطلبة . والمدرسة الداوُدية، ولهذه المدرسة منارة من ثلاثة أدوار كمنارة جامع صرغتمش الذى

تحت الصليبة، وبها حوض عظيم ومحراب وحُجرات، ولها مدرس برتبة المولوية وناظر خاص . وبالقرب من الشيخ مرزوق الكفافى مدرسة تُدعى المدرسة القرافية، وهى بناء مرتفع قديم، وبالسراجخانة مدرسة سليمان باشا، وهى على الطراز التركى، وجميع فصولها قباب معقودة، وبصحنها دورة المياه، وهذه المدرسة لا تزال عامرة، وصاحبها سليمان باشا الطواشى الذى له مسجد عند الشيخ سارية بالقلعة الداخلية، وناظرها أغا الإنكشارية. والمدرسة الباسطية . تلكم هى المدارس الثلاث العظيمة ، وهناك مدرسة غير مرتفعة ذات بناء عظيم فى طريق عمر بن الفارض، وهى المدرسة المَيْمُونِيَّة، يخالها الناظر إليها مسجداً لمنارتها ذات الشرفات الثلاث، وقد نقش إلى جانبها الآية ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (التوبة٩/١٨) وتحتها " سنة أربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية " . والمدرسة الحسابية مدرسة عامرة، وبداخل مصر مدرسة الملك الكامل، وهى أول مدرسة بنيت فى القاهرة للحديث . وعند تربة الإمام الشافعى مدرسة الملك الكامل، وهناك حوض شافعى وسبيل أمام تربة الإمام الشافعى . وقد جلب الملك الكامل ماء النيل إليهما من بركة الحبش التى تقع بالقرب من قرية البساتين بواسطة عقود المياه التى جعل حولها خيرات عظيمة . وله خيرات كثيرة فى مدينة دمياط ، ولما انتهت دولة الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧م خَلَفَه ابنه الملك العادل أبو بكر . وهناك مدرسة السلطان صلاح الدين التى بُنيت سنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩م بالقرب من الإمام الشافعى وبانيها هو صلاح الدين يوسف الذى بنى قلعة مصر الداخلية سنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦م .

الفصل الثامن والعشرون

بيان دور الحديث التى بناها السلاطين السابقون فى مصر (القاهرة)

بالقاهرة ثمانمائة وستون داراً لدراسة الحديث، ولا يُدَرَّس فيها سواه ، ويقع منها نحو الأربعين حول الجامع الأزهر وحده . ويُتلى البخارى ومسلم فى مسجد المؤيد، والبخارى يتلى فى دار الحديث الأزهرية أيضًا . ولو كتبنا عن كل ما يوجد من دور الحديث لكان مجلداً ضخمًا، والقاهرة علماء الحديث فيها أكثر من خمسين ألف محدِّث، يحفظ كل واحد منهم عشرين ألف حديث أو ثلاثين ألفًا مع رواتها . وهناك عميان مشهورون بحفظ الحديث كحفظ القرآن الكريم، لا يستطيع سواهم من العلماء تلاوة حديث واحد أمامهم . ولعلماء الحديث مكانة أعلى من سائر العلماء بمصر ، فالمصريون يُعِزُّونهم ويُكرمونهم كثيراً، ومن حكمة الله أن من يملك ناصية الحديث يشع النور من وجهه . ولكل من دور الحديث محراب وحجر للفقراء والمدرسين ، وتتجمع فيها جماعات عظيمة ثلاث مرات فى الأسبوع لقراءة الحديث يفدون إليها من كل الأرجاء زرافاتٍ ووحدانًا .

الفصل التاسع والعشرون

بيان ما بمصر فى داخل القاهرة من دور القراءة

بالقاهرة ثلاثمائة وسبعون دارًا للقُرَّاء، كان السلف من السلاطين يعينون عليها غالبًا شيخًا للقراء فى كل جامع يرأس الأئمة والخطباء والمؤذنين وقراء الرواتب، إلا أن الأعيان وأصحاب الثراء لم يكتفوا بهذا بل أنشأوا قبابًا ودورًا للقراء فى سائر الأماكن، يلقن فيها القراء طلبتهم البيت الآتى من كتاب الجزرية وهو :

والأخذ بالتجويد حتم لازم　　　من لـم يجوِّد القُـرآن آثم

ويلقِّنونهم مخارج الحروف تلقينًا جيدًا ويقولون :

إذ واجب عليهـمُ محتـم　　　قبل الشروع أولا أن يعلموا

وإذا أتموا الجزرية حفظوهم ابن كثير ثم الشاطبية، وهكذا يحفظون القراءات السبع، ثم القراءات العشر، ثم القراءات التقريبية[٤٤] حتى يتموا علم القراءة كله . ففى القاهرة أئمة يؤمون الناس على سبعة عشر قولاً، إلاَّ أن الأشهر عندهم القراءة على رواية " قالون "و" أبى عمرو "، وأما عند الأتراك فالأفضل قراءة حفص . كانت هذه القراءات محظورة فى أيام خلافة عمر رضى الله عنه، فلما توفى رحمه الله شاركت

(٤٤) لعله يقصد القراءات الأربع الشاذة ، تتمة الأربع عشرة .

ابنته حفصة عثمان رضى الله عنهما فى جمع القرآن، وأخذ عثمان عنها هذه القراءة فسُمِّيت باسمها[٤٥] .

أمَّا عند الأتراك فلم يشتهر إلى أيامنا غير قراءة حفص . وقد أخذ أستاذنا أوليا أفندى أستاذه الشيخ أحمد إلى إستانبول، إلا أن علماء الأتراك ظلوا مقيَّدين بقراءة حفص، حتى إذا توفى الشيخ أحمد وعُيِّن أستاذنا أوليا أفندى شيخًا للقراءة شاع علم القراءات السبع والعشر والقراءات التقريبية . ومتعلمو القراءات فى سائر البلاد، فإذا استطاعوا أداء الحروف حقها فإنما يقدرون عليها كالأتراك (الروم) إذ إن الشعب التركى شعب ذكى ومقلد رشيد، فكأن قول القائل :

وذاك أيضًا حلية التلاوة — و زينة الأداء والقراءة

ذاك إعطاء الحروف حقَّها — من صفة لها ومستحقَّها

خاص بالأتراك . وأما المصريون فكثيرًا ما يقعون فى اللحن الجليّ والخفيّ، ويخرجون الحروف بإمالات التسهيل والترقيق، بيد أن فيهم كثيرًا من الحُفَّاظ سريعى الحفظ، ومنهم حُفَّاظ عظام كالشيخ سلامة والشيخ عبد الحق والشيخ محمد الحمزاوى والشيخ حمد الله العصبوتى من حُفَّاظ عصرنا، فكلهم فصيح اللسان بديع البيان . وكان هناك سبعمائة من القراء أمثالهم ، إذا ما تلوت القرآن أمامهم أقسموا قائلين: "إنك تعلمت قراءة القرآن من قارئ" . وفى مصر مكانة عظيمة لحملة القرآن الكريم .

(٤٥) هذا القول خطأ، وفيه خلط بين حفص القارئ وحفصة بنت عمر رضى الله عنهما .

الفصل الثلاثون

بيان ما فى مصر أم الدنيا من المقارئ وكتاتيب الصبيان

يوجد بالقاهرة ألف وخمسة عشر كُتَّابًا يتعلم فيها الصبية الحروف الهجائية، ولهذه الكتاتيب أوقاف دائمة، وبها أيضًا نحو ألفين من الكتاتيب الحسبية ضاعت أوقافها. ومن الأمور المعتادة أيضًا أن يكون هناك مكتب فوق كل من الأسبلة التابعة لمائة وستة وخمسين جامعًا من الجوامع التى بناها السلاطين، وإن أضفنا إليها أسبلة الوزراء والوكلاء والأعيان والأثرياء، بلغ عددها نحو أربعين ألف سبيل . ومن المحتم أن يكون فوق كل سبيل عالٍ كُتَّاب ذو شباك مزخرف مقرنس يُذَكِّر بقصر يوسف . ومن دأب أعيان القاهرة أن يبنوا الكتاتيب فوق الأسبلة التى تُغطَّى جوانبها بستائر ذات أهداب، وأن يكون الصبية الذين يحفظون القرآن بداخلها . ويكون بالقاهرة على الحساب المتقدم ستمائة وسبعة عشر كُتَّابًا. وخيرها هى الكتاتيب التى بمساجد السلاطين، وهى كتَّاب السلطان الغورى وكتاب السلطان حسن وكتاب السلطان قلاون وكتاب السلطان الأشرف وكتاب السلطان المؤيد .

وخلاصة القول أنه إذا كان النصف من رمضان جمع حفاظُ كتاتيب السلاطين والوزراء والأعيان الأطفالَ الذين يعلمونهم، وهم من الأيتام والفقراء، وعلى صدورهم ألواح مكتوب عليها آيات من كلام رب العزة، وساروا معهم مارِّين بالأسواق، ويصيح بعضهم: "يا حنَّان" . وبعضهم: "يا منَّان" . ويذهبون إلى ناظر الكتَّاب الذى يخلع على كل صبى ثوبًا من النسيج المصرى المميز وعراقية حريرية، وأربعين أو خمسين پارة مصرية من الأوقاف الخيرية، وهى رواتبهم . وإذا تم ذلك انصرفوا عائدين فرحين

مسرورين متصايحين: "يا حنان يامنان" . وتستمر هذه الحركة من نصف رمضان حتى يوم الوقفة، فتشاهد الصبية رائحين غادين بين الكتاتيب ودور نظارها، كأنهم يتظاهرون. إنها لأوقاف عظيمة حقًّا .

وإذا حان وقت الظهر أو العصر وشرع المؤذنون في أداء الأذان بأصواتهم البلالية من منارات المساجد السلطانية، والعظمة لله، أخذ أربعون أو خمسون من الصبية الطاهرين ذوى الأصوات القوية العالية في كل كُتَّاب، يُسمِعون الناس أذانًا محمديا من نغمات " الحجازكار " و" السيكة " و"الحسينى " مدة ساعة نجمية . وليس في بلد من البلاد أذان الكتاتيب هذا . وإذا تم أداء الصلاة اجتمع الصبية في مكان واحد وتلوا سورة المُلك، وداموا على الصلاة الطويلة، ووهبوا ثوابها لأصحاب الخيرات . وهذه العادة أيضًا غير موجودة في سائر البلاد . وكثيرًا ما يقوم الصبيان ذوو الأصوات الحادة الرخيمة بالأذان المسلسل متجاوبين، فتنتعش أرواح السامعين . وإذا مر بعض الأعيان بمواكبهم وشربوا من أسبلتهم الماء السلسبيل، قرأ الصبيان من فوقها بأصواتهم العالية الآية الكريمة ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان٧٦ / ٢١). فينتهى ذلك بإحسان أهل الكرم إليهم . فجميع كتاتيب مصر على هذا الأسلوب والنظام .

وأما كتاتيب الأتراك (الأروام) فيوجد سبعون مكانًا، وليست كتاتيب مكلَّفة كالقصور، مبنية على أسبلة مزخرفة، وإنما هى في حوانيت الخطاطين المهَرة والمعلمين في داخل الأحياء، وبالقرب من زاوية الگلشنى بخاصة، يتعلم في كل منها ستون أو سبعون صبيا القراءة والكتابة والحساب وعلم القراءات، وليس بها من صبيان الفلاحين والخُضَريين ومعلمى الأتراك من يسكن بتلك الأماكن .

الفصل الحادى والثلاثون

بيان ما فى داخل القاهرة المعزية من تكايا وزوايا الدراويش ومساكن الصوفية

تحفل القاهرة بثلاثمائة وستين طريقة صوفية، وخيرها جميعًا طريقة العلماء والصالحين أهل الشريعة، أهل الحقيقة والمعرفة، أهل الحقيقة المحمدية، ثم طريقة صاحب الغار أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهو أول من تلقَّى (قَبِل) جهاز الفقر (= تعاليم التصوف) من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعه . ومنها نشأت الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّة التى تسمى طريقة السادة (خواجكان) ، وقد اشتهرت فى بلخ وبخارى وخراسان وبلاد الأكراد وتركيا (الروم) ، وتفرعت منها اثنتا عشرة طريقة تنتهى كلها إلى نقشبند. ثم طريق الإمام على رضى الله عنه، والذى تلقَّى (قَبِل) جهاز الفقر (= تعاليم التصوف) من الرسول (ﷺ) فنشأت الطريقة الخَلْوَتِيَّة التى تفرعت منها ثلاثمائة طريقة خلوتية، تنتهى جميعها إلى طريقة على الخلوتية، ثم طريقة الإمام الأعظم وهى تاج الطرق كلها، ثم طريقة الإمام الشافعى، ثم طريقة الإمام مالك ثم طريقة الإمام الحنبلى، والقادرى والسعدى والبدوى والرفاعى والرايى Rai والدسوقى والبرهانى والواحدى واليسوى والكمبللى Kembilli والعباسى والأدهمى والبكرى والساداتى والريسى والعَلّوى والحيدرى والشمسى والمولوى والولدى والعشاقى والغنائى واليمنى والبكتاشى والقلندرى والصمودى والبَيْرَمى والحمزاوى والإدريسى وعمر الروشنى والگلشنى والسنائى والزينى والنعمة اللهى والنوربخشى والمطاوى والسناوى والسعودى والليثى والفارضى والخموشى . وموجز القول إن هناك آلافًا من الطرق عدا

الثلاثمائة والستين التى أوردنا ذكرها، فقد ورد فى حديث الرسول (ﷺ): " الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ". ولكن مما لا يخفى على أهل البصيرة أن مشايخ الطرق قد افترقوا بحسب مشاربهم، فذهب كل واحد إلى جهة واستقر فيها، ثم أرسل فروعه إلى كل الأرجاء كأنه شجرة باسقة كثيرة الأفرع والثمر. وفى مصر أكثر من ثلاثة آلاف طريقة للدراويش كلها محمدية، والمصريون كلهم أهل توحيد، ولا تزال فى القاهرة ألف وستون زاوية لتلك الطرق، بيد أننا لا نكتب هنا إلا عن التكايا العامرة . ففى القاهرة مائتا زاوية لطريقة السيد أحمد البدوى ، وأما فى القطر المصرى فيبلغ عدد زواياها حسب سجلات خلفائه ألفين وستين زاوية بدوية . يحضر خلفاؤه جميعًا مولده الكبير كل عام ويجددون البيعة ، وذلك لأن الشعب المصرى برمته يعتقد بالسيد أحمد البدوى ويجلونه ، فلا يقع أحد منهم فى ضيق أو ورطة إلاّ ويقول: " يا الله يا سيد يا بدوى ". وإذا لزم لأحدهم أن يحلف اليمين فى محكمة أقسم " بسر البدوى وبسر أبو اليامين ". ولهذه الطريقة مبان عظيمة بالقاهرة وأوقاف غنية ثابتة ونحو ثلاثمائة ألف من الأتباع الدراويش ذوى الرداء الأحمر والأبيض والعيون الكحيلة . وأما مقرها ففى وسط مدينة طنطا بالغربية على مسيرة منزلين من القاهرة شمالاً، وهو مقر عظيم سوف أكتب عنه إن شاء الله . وأما مركزها العام بالقاهرة فعلى الشارع العام بالقرب من سراى قاضى العسكر .

تكية الشيخ مرزوق الكفافى

هو أحد خلفاء الطريقة البدوية وأحد المشايخ الذين كانوا على قيد الحياة فى أيام السلطان سليم الأول، وقال مع أبى السعود الجارحى: "يا سليم تعال اجلس فى مصر"، وتكيته فى جامعه، يقيم دراويشه فى أربعين أو خمسين حجرة، بها طعام مبذول، وشيخهم الآن الخليفة أحمد .

تكية الشيخ رفاعى

هذه الزاوية مركز عظيم إلى جانب مسجد السلطان حسن، وهى تكية الطريقة البرهانية، لها مائة ألف من الدراويش . ولهذه الطريقة أتباع كثيرون فى القاهرة يزينون الشوارع بخمسمائة راية بيضاء فى أيام الاحتفال بالمحمل الشريف . ومن مشايخهم العظام الشيخ إبراهيم الدسوقى البرهانى أخو السيد أحمد البدوى ومن معاصريه . والمصريون يعتقدون به مخلصين، فلذا يقسمون به قائلين: " بسر مُوَلِّى النحاس " ومعنى ذلك (أقسم بإبراهيم الدسوقى مدوِّر الشعار النحاس) أى العلم أو الشعار الذى يُرفع على المآذن . والحق أنه إذا اقترب ظهور حدث من الأحداث بدأ الشعار النحاسى على قبر الشيخ إبراهيم الدسوقى يتحرك ويدور قبله ببضعة أيام، فيُستَدل به على الحدث قبل وقوعه . ولإبراهيم الدسوقى أيضًا مائة ألف من الدراويش، ومركزه على ساحل النيل بالقرب من رشيد، وسوف أكتب عنه فى موضعه .

تكية الإمام الشافعى

مقر عظيم يجتمع فيه كل ليلة سبت عدد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف من الدراويش والضعفاء، ويُحْيُون الليلة حتى الصباح، يختم فيها القرآن الكريم أكثر من مائتى مرة، فهو حى خاص، جميع سكانه من فقراء الشافعية، ويبذل لهم الطعام من وقف الله . وإذا كان مولد الإمام الشافعى اجتمع فى تلك التكية عشرة آلاف نفس من الأتباع بطعامهم وشرابهم لإحياء المولد، ويُقال إن روح الرسول الأكرم تحضر هناك فى تلك الليلة .

وعلى مقربة منها :

تكية الإمام الليث

وهذه التكية أيضًا مركز عظيم ومزار مبجل فى حى خاص جنوبى القاهرة وخارجها ، وكان الشيخ الليث أيضًا على قيد الحياة فى عهد السلطان سليم(٤٦) وقال: "يا سليم اجلس إلى مصر". ولليث كرامات كثيرة ، ويُسَمَّى أتباعه بالسعوديين نسبة إلى أبى السعود الجارحى الذى عاصر السلطان سليم الأول، وهم رجال متصفون بالحلم والسلم .

تكية السادات

أوقاف نصف القاهرة على هذه التكية . لما قدم إلى مصر من أرض المغرب كان النيل ممتنعًا عن الفيضان ومصر مبتلاة بالقحط والغلاء، فالتمس أهلها أن يدعو لهم بفيضان النيل، فأمره الشيخ بالفيضان بأمر الله فما أسرع ما هاج وماج وفاض فى غير أوان الفيضان ، فلذا صار المصريون يجلونه ويقولون: " يا الله، يا سادات ". وتكيته مركز عظيم بها كثير من الفقراء .

تكية عمر بن الفارض

هذه التكية بأسفل جبل الجيوشى، يجتمع فيها بعد صلاة الجمعة أكثر من خمسة آلاف رجل، فيتلون سورة الكهف والأوراد والأذكار والتوحيد السلطانى، ثم يشرع الحفاظ ذوو الأصوات الرخيمة فى تشنيف آذان السامعين وتمتيع أرواحهم بتلاوة الأعشار بصوت جميل، حتى إذا أتموا تلاوة الأعشار بدأوا فى إنشاد قصيدة

(٤٦) هذا القول فى حاجة إلى تدقيق، يبدو أن هناك خلطًا بين الليث بن سعد (من كبار أئمة وفقهاء القرن الثانى الهجرى) وليث آخر يقصده الرحّالة .

لعمر بن الفارض بصوت واحد حزين على نغمة الحجاز . فترى العُشَّاق ثملين حيارى، لأنه يجتمع فيها فى ذلك اليوم جميع العشاق الصادقين، والأبدال والأمناء والأوتاد والنجباء والنقباء والمجذوبين والملاميين، وفيهم المحبون العظام الذين تشرفوا بمشاهدة جمال وجه الرسول عدة مرات. وسبب ازدحامهم ذلك أنهم يزعمون أن النبى يحضر بذاته الكريمة إلى تلك التكية كل يوم جمعة، ويشتد الزحام إلى حد أنك لا تجد مكانًا لوضع قدمك، بيد أن الحضور لا يُظْهِرون أمارة تدل على التألم والامتعاض، ولو جلس بعضهم فوق أكتاف بعض، فهم جميعًا فرحون مستمتعون، وتلك حكمة عجيبة . ثم إنه ليس فى هذه التكية فرق بين الغنى والفقير، فكلهم يجلسون ركبة إلى ركبة كالأسماك . وبها نحو ستمائة من الدراويش غذاؤهم حساء العدس، وهو يبذل لكل من يحضر من الإخوان .

وفوقها :

تكية الشيخ شاهين

إنها حقا لصخرة شاهين العظيمة كأنها وكر نسر مسيطر على مدينة القاهرة برمتها وبها مسجد بمئذنة ، ويجتمع محبو الله فى هذه التكية كذلك بعد صلاة الجمعة، فيقومون بالذكر والتوحيد، وفيها نحو مائتين من الدراويش .

تكية الشيخ الجيوشى

وهى مقر شاهق مشرف على العالم من فوق جبل المقطم المشرف على قلعة مصر الداخلية، فالقاهرة كلها تحتها . وهى لذلك طلقة الهواء جدا ، لها مسجد ونحو أربعين أو خمسين درويشًا . ويوصل كتخدا والى مصر مياه النيل إليها من القاهرة بواسطة الجِمال، ومنها تذهب إلى الدير .

تكية عقبة بن عامر الجهنى

هو عقبة بن عامر الجهنى من أصحاب رسول الله (ﷺ) فقد جدد محمد باشا الخاصكى الزاوية والمسجد سنة ١٠٦٣ هـ = ١٦٥٢م، وجعلهما معًا حصنًا يعجز المرء عن وصفه، ولهذه التكية نحو سبعين أو ثمانين من الأتباع الدراويش .

تكية البساتين

وهى تكية ذات حديقة غناء بها حوض وشادروان بقرية البساتين القريبة من النيل، يديرها نقيب الأشراف، لها مطبخ وعدة مقاصير، ودراويشها من الأشراف .

تكية رماة السهم

وهى تكية متصلة بقدم النبى، يحضر إليها القوّاسون ورماة السهام للرياضة والاستجمام، لها مطبخ ومساكن وسواقٍ للمياه ، وبها لكل بطل (بهلوان) حجر يتخذه هدفًا يربطه بتكية قدم النبى . وهذه الخيرات من أوقاف إبراهيم باشا الدفتردار، وسوف نكتب عنها إن شاء الله فى أثناء الكتابة عن المتنزهات، لأنها خيرات عظيمة حقا.

تكية قدم النبى

وهى مُسَجَّلة فى دفتر خيرات إبراهيم الدفتردار، وإن شاء الله سنكتب عنها وعن مشاهدتها ، نعمها مبذولة للغادى والرائح ، وهى بالقرب من القبر الطويل .

تكية السيدة نفيسة

إنها لدار عظيمة بها أكثر من مائتى درويش، وبها خادم للضريح وناظر، ويقدم الطعام لزائريها من الخيرات .

تكية الشيخ نور الله البدوى

إذا سرت من تكية السيدة نفيسة ودنوت من القبر الطويل فهناك تكية الشيخ نور الله البدوى، وبها نحو مائتى درويش، وإذا سرت منها إلى عقود الماء التى بناها السلطان الغورى، فعلى مقربة منها داخل المدافن :

تكية زين العابدين

وهى دار عظيمة كأنها قلعة ذات متاريس ، وبها أربعون أو خمسون درويشًا، كانت لها أوقاف غنية فى الأيام الغابرة، إلا أنها ذهبت ولم يبقَ منها أثر .

تكية الشيخ (...)

على مقربة من حارة السقائين بالقاهرة، بها مسجد قديم عتيق بمئذنة واحدة وبميدانه يبيع فقراء المسلمين الغلال .

تكية الشيخ الخلوتى

تكية كبيرة على حافة الخليج بالقرب من قنطرة سُنقر بالقاهرة، وبها صوامع للفقراء، وبها محراب مصنوع من قطعة واحدة من السماقى الأخضر، أعجز عن وصفه باللسان ، يلبس الشيخ عزيز عبد الرحمن عمامته السوداء، فيقوم بالذكر مع آلاف من الدراويش أمام ذلك المحراب . وتقام فيها صلاة الجمعة أيضًا، فلها جامع لطيف اشتهر فى القاهرة باسم جامع الخلوتى . وبالحديقة المتصلة بحرمها بئر يُسْتخرج منها ماء عذب، وبمطبخها طعام يُبذل للفقراء ليلاً ونهاراً .

تكية حضرة الشيخ الشعراوى

تكية قريبة من باب الشعرية بالقاهرة، والشيخ لا يزال على قيد الحياة ، وهو يقوم بالذكر لله ليلاً ونهاراً مع بضع مئات من الدراويش والمريدين، ويخرج من مطبخها طعام للفقراء ليلاً ونهاراً .

تكية الشيخ شمس الدين الحنفى

وهذه أيضًا دار كبيرة بالقرب من الخليج، بها مسجد وتكية ذات حجرات، وبها نحو مائة وخمسين مريداً يداومون على ذكر الله، ويُبذل منها الطعام للزائرين .

تكية الشيخونية

كان شيخون وزيراً للسلطان حسن، وتكيته دار عظيمة لطريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقد أقيمت أسقفها المنقوشة المزخرفة على ستة عشر عموداً، وعلى حوضها العظيم الذى بوسط حرمها قبة عالية بيضاء تزينها ثمانية أعمدة، وصحنها مفروش بالرخام الأبيض الخام . وإذا دخلت من باب فى ركنها الأيمن فأنت فى حرم مسقوف، حوله حجرات ذات عدة طبقات يسكنها دراويش القادريّة الذين يقيمون ذكر التوحيد فى ذلك الحرم، ويربو عددهم على المائتين . وفيهم رجال يجاهدون فى الرياضة فقراً وفاقة، يشع من وجوههم النور . وهذه التكية منبع العلماء، ولها أوقاف غنيَّة متينة تُبذل منها النعم للمترددين عليها، ويقوم بنظارتها إمام ولاة مصر . ويَردُ للإمام ما يربو على تسعين ألف پارة مصرية هدية حلوانًا فى العام ، ولها منارة عالية من ثلاث شرفات على بابها الواقع على الشارع العام. وبإزائها عبر الشارع جامع الشيخونية، وهو نظيرها تمامًا وقد بُنيا على طراز واحد، ونوافذها تطل على الشارع العام . والشيخ

الحالى للتكية " أمير چلبى "، وهو رجل حليم له طبع السادات الكرام، مبجًل من الجميع. وبالقاهرة أربع تكايا قادرية، إلا أن هذه أعظمها .

وبالقرب منها وبالصليبية كذلك :

تكية الشيخ الأبَّار ومناقبه

وهو رجل من الصالحين الكرام، ولا يزال على قيد الحياة، مقيم بزاويته، ولا يفارقها أبدًا. كما أنه رجل منزوٍ زاهد، يعيش على صوم داود، فطوره عشرون درهمًا من خبز الشعير وسلطانية من لبن، وهذا غذاؤه الدائم . إنه شيخ عالم فاضل كامل ورع زاهد وصاحب رياضة مستجاب الدعاء .

كنت أنا الفقير فى حضرة الشيخ الأبار قبل نزول أحمد پاشا الدفتردار من القلعة، فقال لى فى أثناء الحديث: ماذا يفعل الپاشا ؟ قلت: إنه ملازم لخدمة مكة والمدينة ومشغول بدعائكم. فما أسرع ما كشف، وقال : يا ترى هل يمر بعد ثلاثة أيام بزاويتنا ويسأل عنها ؟ وأشار إشارات، واستنتج الحاضرون من إشارة الشيخ أن الپاشا ليس محبًا للفقراء، فتطاولوا عليه ببعض الألفاظ، فلم يكن من الشيخ إلا أن قال: كلا، كلٌ من عند الله، فلا تدعوا عليه، فمن لطف الله أن الجراد المضر لا يقيم بمصر بل يهلك، فلن يظل فيها المضر من بنى آدم أيضًا ولا يُعَمِّر فيها من يقوم بالفتن ليلاً ونهارًا. ومن العجب أنه فى اليوم الثالث تمامًا اجتمع رجال الجيش فى ميدان الرميلة مدججين بالسلاح، وثاروا ثورة عامة، فكانوا كالبحر المتلاطم الأمواج، حتى إذا كانوا أمام باب العزب أنزلوا عبد الفتاح كاتب عنبر يوسف عن جواده فقطعوه إربْاً إربْاً، ثم طالبوا الپاشا بالنزول من القلعة وعزلوه بلا سبب وأنزلوه من القلعة عنوة . فلما كان يجتاز شارع الصليبية مع أتباعه وأعوانه رأى خدم الشيخ الواقفين لتحيته

فسلَّم عليهم وسأل عن حال الشيخ، ثم نزل ضيفًا على قصر الحاج پاشا ومكث فيه.

وخلاصة القول أن إشارته منذ ثلاثة أيام - حين قال " يا ترى هل يمر الپاشا بزاويتنا بعد ثلاثة أيام ويسأل عنا؟" - قد وقعت فى اليوم الثالث تمامًا . وله كشوف وكرامات غير ما ذكرنا ، لا يدخل فى يده ولا فى أيدى أهله وأولاده درهم ولا دينار من غير الحلال ، سوى أنه يقبل الأطعمة الواردة إليه عن طريق الهدية كالأرز والعسل والسمن والقمح، وكسوته أيضًا من الهدايا المخلوعة عليه، فهو ولى وسلطان للفقراء، ويعيش الفقراء فى تكيته على لقمة الرضا والكفاف .

تكية (الخواجكَان)

زاوية منبع الدراويش فى النهاية الشرقية لميدان الروميلى ، جميع سكانها من دراويش الأزبك وبلخ وبخارى ، ولكن أوقافها ضعيفة، فلذا يعيش فقراؤها مما يرد إليها من النذور . ومن الطريف ما يُحْكَى عن بنائها أن السلطان سليم لما خرج من إستانبول قاصدًا فتح مصر رافق جيشه رجل نقشبندى يحمل على كتفه قطعة من عمود من الحجر السماقى الأحمر زنتها أربعمائة أقَّة، وأوصلها إلى مصر تحت نظر السلطان سليم . فلما تم الفتح بنى له السلطان هذه التكية، وعُلِّقت قطعة العمود على باب التكية بسلاسل حديدية يشاهدها المترددون على التكية مندهشين لأنها قطعة تزن حمل بعير، وحملها كرامة حقا، وحاملها مدفون فى جانب التكية .

تكية الأزبك

زاوية صغيرة بلا أوقاف، يعيش سكانها على لقمة الرضا والكفاف، وهم جماعة من فقراء الأزبك والهنود والبلخيين والبنغاليين والسلمانيين والمغول والبوغوليين،

وشيخهم من أرباب الأحوال الصوفية، فهم يجتمعون حوله كما يجتمع الفَرَاش حول شمعة .

تكية النظامية

أُنشئت سنة ٧٢٣ هـ = ١٣٣٢م. كان الشيخ نظام الدين سلطانًا عظيمًا في الطريقة الخلوتية، واستأذن من السلطان محمد بن السلطان قلاون أن يبنى بماله الخاص تكية للدراويش والفقراء له، فبنى على ربوة عالية خارج باب الوزير داراً عظيمة مشرفة على العالم، لا نظير لها فى القاهرة . فيها مسجد لطيف وحُجرات لنحو مائتى درويش، وحجرات المتزوجين منفصلة عن حُجرات العزاب . وتقام مراسم الذكر فى ساحة عالية مفروشة بالرخام الأبيض، ويُقدَّم الطعام للمترددين عليها من مطبخها . وقد قمت أنا الفقير بنظارتها مدة سنة فى عهد مولانا حسين باشا بن جانبلاط، فجعلت الجامع والتكية درّة بيضاء بإنفاق كيس مصرى من إيراد الأوقاف، وصار الطعام يُقدَّم فى وقتين . وإيراد أوقاف التكية سبعة أكياس ومصاريفها أربعة، وهى أوقاف جد غنية. وقد أقام عمر أفندى المصرى الذى توفى بإستانبول أربعين سنة فى هذه التكية، وتبحَّر فى مختلف العلوم والفنون ، فهى تكية روحانية، والشيخ نظام الدين الأصفهانى مدفون فيها .

وتحت جامع السلطان حسن :

تكية الواحدى

وهى تكية يسكنها الهنود، بها صحن صيفى وصحن شتوى وبضع حُجرات، ليست لها أوقاف ، ولكن ربط لها إبراهيم چلبى خازندار ابن جانبلاط جِرايتين، وبنى فوق سقفها عشرة حوانيت . وفيها ناسك هندى قضى أربعين سنة دون أن ينطق كلمة

دنيوية، وهو يتعبد ليلاً ونهاراً، وهو أصمُّ أبكم . وفيهم من يقف على قدميه ثلاثة أشهر ثم يقف ثانية ، ففيها فقراء من هذا النوع .

تكية الإمام الحسين

وهو من أبناء العباسيين، بنيت سنة (...) وبناؤها جامع كبير ، ولما كانت أعمدة الجامع فى حرم الكعبة جرت العادة أن تحضر الكسوة إليه بعد مشاهدة الوالى لها، وتكسى بها تلك العمد فى كل عام . ولهذه التكية دراويش وخدم للضريح ، وأوقافها تكفى حاجتها، ولكنها تتلقى كثيراً من النذور والطعام والشراب من جوانبها الأربعة .

وبالقرب من باب الحديد :

تكية الشيخ إبراهيم الكَلشنى

بناها بأمواله الخاصة سنة ٩٤٠ هـ = ١٥٢٣م فى عهد السلطان سليمان القانونى . لها دار عظيمة (آستانة) على الشارع المحمدى الرئيسى (شاهراه محمدى)، يُصعد إليها من باب حرمها من سلم حجرى بعشرين درجة، وهذا الباب ثلاثة أبواب متداخلة بعضها داخل بعض . وقد كُتبت على إطار الباب الأول وهو الباب الكبير الظاهر على الشارع العام الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (فصلت٤١/٣٣) . وإذا دخلت من هذا الباب قرأت بينه وبين الباب الأوسط أبياتًا مكتوبة على لوحة بالخط الجلى معناها : " إن خانقاه الكلشنى مفعمة ذوقًا وصفاء، وما يُقام فيها من المراسم كلها من سنن المصطفى . فلا تبتعد عن خانقاه الكلشنى أيها الدرويش، فإن فقيرها هادى الناس إلى طريق السواء" .

وإذا اجتزت الباب الثانى فأنت أمام سبيل الفقراء الذى يُقدِّم ساقيه للناس أكوازًا مفعمة بالماء الصافى، معطرة بالعود والعنبر . يُصعَد بعد ذلك إلى صحنه الأكبر المفروش بالرخام الأبيض، وفيه محراب مزين مزخرف، كُتبت على رخام فوقه هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة ٢/١٤٤)، وجوانب الصحن الأربعة غُرَف متعددة الطبقات لسكنى الفقراء تحت كل حجرة فسقية، وإذا توفى صاحب الحجرة دفن تحتها، ثم تباع مخلَّفاته ويُشترَى بثمنها أجزاء القرآن الكريم، وتوقف ليتلو فيها الفقراء ويُهدوا ثوابها إلى روحه، ويذكروا اسمه بالخير . وليس فى أى تكية أخرى خيرات كهذه، كما لم نر تكية تحتها مقابر، فهى خانقاه مؤسسة على نظام عجيب . وفيها الآن أكثر من ثلاثمائة درويش كلشنى ذوى نفوس طاهرة نزيهة، يقضى كل واحد منهم وقته منزويًا فى العبادة، أليف رياضة وخلوة . وفى كل ليلة جمعة يُفْرَش هذا الصحن بأبسطة حريرية ثمينة وتُقام فيه صلاة العشاء، ثم تُتلى سورة الملك والأوراد والأذكار، ثم يُشرع فى التوحيد السلطانى أى الرئيسى بأن يأخذ بعض العشَّاق بأيدى بعض ويُشْغَلوا بسماع الإنشاد وتوحيد البارى جهرًا دائرين، فتصير الخانقاه الكلشنية حديقة غناء . ينشد الذاكرون والشاكرون بالعزف على الناى، بغناء أناشيد عندليبية من مقام العشاق فيسكرون عشاق الله ، وينتهون بهم إلى مقام " الراست (الصدق) ". وفى خلال ذلك يقوم الدرويش وبعض الفقراء بتبخير الخانقاه بمباخر يُحرق فيها العود والعنبر، ويُنثر ماء الورد على وجوه الزوار، ويتم تقديم مشروب سكر النبات . ويتلو الذاكرون فى هذا الحفل الذى يستمر سبع ساعات أو ثمانى ساعات أنواعًا من التأليفات الغنائية كالمسلسل والنقش والذكر والعمل والدوبيت والتقسيم والصوت، وبأصواتهم الرخيمة الرتيبة المؤثرة، على اثنى عشر مقامًا وأربع وعشرين شعبة وثمانية وأربعين تركيبًا وأربعة وعشرين أصلاً ،

بطريقة يرد فيها بعضهم على بعض . وبينما هم كذلك يشرع أحد الذاكرين فى الغناء بصوت داودى برباعية أو مخمس من أشعار "الفضولى" (٤٧) أو "روحى البغدادى" (٤٨) أو "عرفى" أو "عمر الخيام"، ليستريح الذاكرون من التوحيد المسلسل، فما إن يسمع الفقراء تلك الأبيات على أنغام شجية مؤثرة حتى ينسوا أنفسهم فيندفعوا فى الذكر

---

(٤٧) **الفضولى** : من شعراء الأدب الديواني في القرن السادس عشر، ولد نحو سنة ١٤٩٥ وتوفى سنة ١٥٥٦م، اسمه الأصلى محمد ووالده هو سليمان . يُعْتقد أنه وُلِد بالحلة فى العراق، وعندما استولى الشاه إسماعيل الصفوى المتوفى عام ١٥٢٤ على بغداد قدَّم له فضولى مثنوية " بنج وباده ". بسط عليه الوالى الصفوى القانونى لبغداد عام ١٥٣٤م، قدَّم فضولى إليه هو وقواد الجيش قصائد المديح .

وعندما لم ينل المعاش المناسب كتب كتابه الشهير " شكايت نامه " وقدَّمها إلى النيشانجى جلال زادة مصطفى چلبى، وخلال مدة الأشهر الأربعة التى قضاها جيش القانونى فى بغداد اختلط بالشعراء الأتراك الروم مثل "خيالى" و"يحيى بك".

قضى حياته فى الحلة وكربلاء ولم يغادر بغداد قط . توفى فى العراق سنة ١٥٥٦م على أثر انتشار الطاعون فى البلاد، وضريحه فى كربلاء . أجاد العربية والفارسية والتركية منذ صباه، وله أشعار فى اللغات الثلاث ، وكتب باللهجة الأذارية ولذلك يحتفى به الأذربيجانيون أيما احتفاء، وفى أذربيجان إقليم باسمه ، وهناك العديد من المؤسسات العلمية والتماثيل التى تحمل وتخلد اسمه .

اتسمت أشعاره بالغنائية وبالعواطف الجيَّاشة ، ونلمس فيها الفلسفة الصوفية العميقة . له غزليات عديدة . ومن أشهر أعماله " ليلى ايله مجنون " أى ليلى والمجنون، والتى ترنم فيها بالعشق الصوفى ونظمها على الطراز المثنوى . نال العديد من الدراسات فى شتى اللغات الإسلامية والأوروبية. (انظر : بهجت نجاتنى غيل ، ادبياتمزده اسملر سوزلغى، وارلق، إستانبول، ١٩٧٠م) .

(٤٨) **روحى البغدادى** : من شعراء الديوان فى الأدب التركى العثمانى، وُلد فى بغداد وتوفى فى الشام عام ١٦٩٥ م . كان من رجال الوالى على بغداد أياس پاشا ، تزوج فى بغداد، وينسب إلى من يُسمى الروميلى محمد . توطن الشام ومات بها وكتب بها أكثر أشعاره، واشتهر بنوع " التركيب بند " الذى استخدمه فى ديوانه الوحيد " روحى " . وقد كتب عبد الحميد ضيا پاشا – من شعراء التنظيمات – نظيرة لهذا الديوان من الشعراء المبدعين فى عصره ، وأشعاره تترنم بالمعانى الصوفية كدأب أقرانه وعصره . (انظر : بهجت بخاتى غيبل، صـ٢٦٠) .

والتوحيد فى مقام آخر، ويداومون على الذكر على هذا النمط إلى ما شاء الله، وأما حُضَّار هذه الخانقاه فكلهم أتراك من أرباب العلم والمعرفة وأعيان الدولة، ولا يدخله أولاد العرب .

ويثوى الشيخ إبراهيم الكلشنى وأبناؤه وحَفَدته فى قبة عالية بوسط صحن هذه الخانقاه . وإلى الجانب الشمالى من الخانقاه باب كُفِّتَ بالفضة الخالصة ونقشت عليه ضروب من الطُّرْق والأزهار وأنواع من الكتابات، فكأنه باب مرصَّع . وقد نقشت على عتبته العليا الآية : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر٣٩/ ٧٣) . وفوقها أبيات كتبها أستاذ فنان بالخط الفارسى المحلَّى بالذهب واللازورد، لم يؤثر فيه مرور الزمن وحرارة الجو والأمطار مقدار ذرة، ولا يزال آية فى الجمال . وتاريخه :

" كفت تاريخ أمير أو تاريخ مات قطب الزمان إبراهيم " ٩٤٠ هـ = ١٥٣٣م.

وإذا دخل الزائر من هذا الباب بُهِت، فإن التعاليق المزينة والمحلاة بالذهب مما يحير العقل . ففيه ما يربو على ألف من القناديل الفضية والثريات البلورية، وبجوانب مقصوراته الأربع أنواع من الثريات المزدانة بالجواهر التى هى سراج الليل وأنواع من القناديل والشمعدانات والمباخر وأوانى ماء الورد، كل منها يفوق الآخر فنا وجمالاً . وقد أرسل إليه السلطان سيف الدين من ملوك خراسان مشكاتين وشمعدانين من النحاس الأصفر يخالهما من يراهما ذهبًا خالصًا، وبهما من الفن ما يعجز فنانو زماننا عن الإتيان بمثله . كل واحد منهما فى طول قامة إنسان، يوقد فيهما بضعة آلاف من الشمع الكافورى كل ليلة، والقبة مفروشة بِبُسُط مزركشة، وبوسطها يثوى الشيخ إبراهيم الكلشنى فى ضريح حوله مصاحف بخطوط ياقوت المستعصمى والشيخ (...) والقراحصارى والدرويش محمد وعبد الله القريمى، كل مصحف منها يساوى خزينة مصرية، قد أهداها السلطان سليم والسلطان سليمان، وبها كثير من الكتب المهمة من تأليفاته، وبخاصة كتاباه "المعنوى" و"الديوان" فإن منهما نسخًا بخط يده . يثوى الشيخ بعمامته الخضراء قرب الجدار القبلى للقبة، وقبره لطيف، وبالقبة من

قبور أبنائه قبر الشيخ إبراهيم أفندى وابن الشيخ على الصفوتى بن أحمد الخيالى بن حسن بن الخيالى بن إبراهيم الگلشنى " قدس سره العزيز " ، ويليه قبر الشيخ أحمد الخيالى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ = ١٥٦٩م، وقبر الشيخ على الصفوتى بن الشيخ أحمد الخيالى، وهو حفيد الشيخ إبراهيم الگلشنى، توفى سنة ١٠٠٥ هـ = ١٥٩٦م، ثم الشيخ حسن بن السيد الخيالى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م، وقد خلفه صهره الشيخ محمد أفندى الذى توفى سنة ١٠١٤ هـ = ١٦٠٥ م ودفن فيها، ولكن ليس له تكية . وقد دُفن كثير من شيوخ الطريقة الگلشنية والطريقة الروشنية وأعيانهما فى القبور التى تحت هذه القبة وتحت صحنها المحيط بها.

ارتحل الشيخ إبراهيم الگلشنى إلى خراسان وبلخ وتلقى فيها جهاز الفقراء (= تعاليم التصوف) عن الشيخ عمر الروشنى، الذى تلقاه عن السيد يحيى الشروانى، فلذا تنتهى سلسلته إلى علىٍّ كرم الله وجهه . والتكية الگلشنية خانقاه عظيمة ذات أوقاف غنية لا نظير لها فى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم، ولا فى بلخ، ونعمه النفيسة مبذولة لجميع المترددين عليه، وهى فوق ذلك مكان روحانى لا نظير له فى مصر. وليس فى تكيةٍ ما فى هذه الخانقاه من أرباب المعرفة، فكل منهم عارف بالله، قد أتم فنون الطريقة . وفيهم دراويش من أصحاب الأنفاس لو ضاع العِلْم عن العالم ولم يبق من يعيده لاستطاعوا إيجاده، فكأن كل واحد منهم عبد الله الغاريابى الناصرى وغلام الشادى وفيثاغورث والتوحيدى، وهم من أكْمَل الأساتذة، ولو كتبنا عن مقدار ما وقفنا عليه من شئون لطال الكلام .

تكية قصر العيْنِى

تقع على شاطئ النيل غربى القاهرة، وهى متنزة بديع ذو شجر وطرق واسعة يدعى "قصر أبو العين" . وهو موضع عناية كثير من السلاطين والملوك السالفين، إلاّ أن مؤسِّسَه الأول كان السلطان الملك الظاهر، ثم زاد عليه كل صاحب خيرات جزءًا،

فصارت فيه قاعات وأروقة وقصور ذات طوابق عدة، وحجرات وأحواض وشادروانات وطنف، ويحضر إليه أعيان مصر ليتمتعوا ويُنعَّموا فى تلك الحجرات بضروب من المتع .

والتكية البكتاشية وسط تلك الحديقة الغناء، وهى قبة عالية بيضاء مطلية بالجير الأبيض، داخلها ساحة عظيمة تتسع لألف نفر، فرشت أرضيتها بالرخام الأبيض وجوانبها الأربعة مفروشة بفراء الأضاحي الذى يجلسون عليه . ففى صدر المحراب فروة الشيخ محمد درة ثم فروة خليفته الأول، ثم الإمام ثم المؤذن ثم الداعى (دعاجى) ثم الفقية (شريعتيجى) ثم مُستقبل الضيوف ثم رئيس الطهاة ثم رئيس الخبازين، وهكذا يجلس كل واحد منهم على فروته مُميلاً عمامته، ويقوم بالعمل الذى كُلِّفه . فهم جماعة من المريدين من أهل السنة والجماعة يؤدى كل منهم عملاً، فمنهم من يقوم بالتدريس ومنهم من يقوم بتلاوة القرآن، ومنهم من يعمل على اكتساب العرفان، ومنهم من يقوم بخدمة المترددين على التكية، باذلين أرواحهم فى سبيل الأحياء .

وإذا ما ألقيت نظرك من خلال القضبان النحاسية الصفراء لنوافذ القبة التى على جوانبها الأربعة لرأيت حديقة غنَّاء مذكِّرة بـ " إرم ذات العماد " بها قبور شيوخ البكتاشية العظام . وقد أحيطت جدران القبة من الداخل بآلاف من أظلاف الأضاحى منظومة بالحبال كأنها مسابح . وإذا أرادوا أن يُرغِّبوا بعض الزوار فى تقديم أُضحية قالوا له مشيرين إلى تلك المسابح: " ألا ترغب أيها المُحِب فى أن يكون لك أيضًا كعب فى هذه المسابح ؟ " . وقد زُينت الجدران بأشياء السلف من البكتاشيين كالعمائم والعصى والمواعين والكشكول والمقلاع والفأس، وغيرها مما كان يستعمله أهل الطريقة من الأعلام والطبول والنوافير والصنجات . وإلى جانبَى المحراب أعلام وشمعدانات مذهَّبة، وألوان من القناديل والمشاكى الثمينة. وكان السلطان سليم قد زار مصر فى موسم السياحة ونزل ضيفًا على هذه التكية وقضى فيها بضع ليال ، فلما تم له فتح مصر قدم إليها مع خواص رجاله وأقام بها سبع ليال وفاء للعهد، وسماها قصر بو

العينى نسبة إلى نفسه . قال أوليا چلبى: "قيل له قصر بو العينى أخذا بمنطلق السلطان سليم، هذا مجاز، ولكنه حقيقة لأن تشبيهه أولى" .

حقا إنها مكان خليق بأن يكون متنزه الملوك ، ولا زال بها مقصورة صغيرة عالية فى ركن، بات فيها سليم الأول، ولا يقيم فيها أحد، وبها كتب التكية الموقوفة . وفى مطبخها الحيدرى رجال من أسر عظيمة حقا حُسَّر الرءوس محلقون، قد وصلوا إلى كنز الأسرار فى زوايا العزلة متجردين عن كل ما سوى الله . كُلِّف كل منهم عملاً، ففيهم أصفياء قد صُهِروا فى تنانير الخبازين حتى خلصوا من أدران العيب، يقومون بتحضير خبز خاص أبيض طعامًا للمحبين ، فالأرز والحلوى يقدَّمان من مطبخها للمريدين والمترددين عليها صباحًا ومساءً .

ويحضر بعض الأعيان إلى هذه التكية أحيانًا فيرجون من دده أفندى أن يسمعهم بعض أشعار المريدين، فينادى المريدين العارفين أمثال شيدا دده، وعاشق دده وقربان دده، والبكار دده، ورجعى دده، وغواص دده، وجوانمست دده، ومدهشون دده ... ويقول لهم: " أيها الأحباب إن لضيوفنا رغبة فى سماع أشعاركم، فهل تتكرمون بإنشادها ؟ " فيردون عليه : "سمعا وطاعة" . ثم يقفون فى صحن التكية (الميدان) اثنين اثنين والعِصِىُّ بأيديهم ومجموعة الأشعار على أحزمتهم، فيشرعون فى الإنشاد متقابلين متخاصمين، وبينما هم منهمكون فى الإنشاد ينادى شيخهم الوقور: " صلوا على محمد المصطفى "، ويرد الشعراء :

بردل عالم فانى چونه دارد بيناد .·. بر كيسوى رح بخش محمد صلوات

وينشدون أبياتًا من كل أنواع الشعر كالدوبيت والمثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمسبعات والمثمنات والمعشرات، ومن القصائد المعروفة بترجيح بند والمراثى والمستزادات والغزليات بردِّ العجز على الصدر وغيرها من الموازين المشكَّلة، فكأن كلاً منهم حسان أو امرؤ القيس .

وإذا انتهى ذلك اندفع إلى الميدان دراويش من الشباب الراقصين (كوچ لر) أمثال "جانكلى" و"تن بالى" و"شير على" و"جان ولى" و"شحمة ممى"، حُفاة حُسَّر الرءوس، وقد لبسوا تنوراتهم الثلاثينية، وأمسكوا بعصيهم وفئوسهم ونوافيرهم، ووقف كلٌ مقابل الآخر بصدره العالى الناصع كالورد المصرى الأبيض، وشمَّر عن ساعدين بضَّين كافوريِّين، وشرعوا فى التجاوب بنكات مستملحة تدور كلها حول الطعام والشراب من كلام قايغوسز أبدال[٤٩] ورموس أبدال لتسلية الضيوف، ولهم نكت عن الحشيش يتخدر من يسمعها من الضحك فيصير مسطولاً .

وكل من زار هذه التكية من أرباب العرفان ترك فيها أثرًا مكتوبًا. وقد كتبت أنا الفقير الأبيات الآتية، حين بنى إبراهيم پاشا والى مصر القصر المنيف المشرف على ميدان الجريد بقصر العينى سنة ١٠٨١ هـ=١٦٧٠م، وقد بلغ عددها أربعين بيتًا، نُقِشت على لوحة بالخط الفارسى المحلًى بالذهب واللازورد وهى :

سبحان الله ما أجمله قصرًا منيفًا ذا أبراج .

قد أُقيم عرشًا عاليًا مشرفًا على النيل .

وقد جلعته دارًا شبيهة بجنة المأوى فى خانقاه الحاج بكتاش .

إنى جلت عليه فى الأقاليم السبعة وما رأيت له نظيرًا

---

(٤٩) **قايغوسز أبدال** : من شعراء القرن الخامس عشر الشعبيين ، بكداشى الطريقة ، ليست هناك معلومات قاطعة عن حياته . يتردد بين الشعب أنه كان ابن أمير علائية (آلانيا الحالية فى تركيا) ، صار مريدًا للبكداشى أبدال موسى وظل يخدم فى التكية أربعين عامًا . أُرسل إلى مصر لنشر الطريقة البكداشية ، شيد تكية فى مصر وعند وفاته دُفن فى مغارة داخل التكية . حاول فى أشعاره نشر أفكار الطريقة ، نجح فى استخدامه الوزن الهجائى جنبًا إلى جنب وزن العروض .

(انظر : Türk ve Bati Edebiyatindan Sailer ve yazarlar MUAMMER Yüzbasi oglu).

ولا مثيلاً إلى أن يخلق أستاذ الأزل مثله .

منذ أنشأ إبراهيم باشا الغازى هذا القصر

فلم يبق من قصر إرم وقصر يوسف غير اسميهما.

وقد دخلت أنا طوّاف العالم البلاد

وجبت الأرض من أقصاها إلى أقصاها فما رأيت له نظيراً.

وإن كان له نظير فهو هذا القصر مهبط السعد .

كم بُذلت لأم الدنيا نعَم .

فلا جَمٌّ رأى هذا المجد ولا إسكندر ولا دارا .

اللهم اجعل بانى هذه الجنة فى مأمن من الأضرار فقد كان منبع العطاء .

واجعله سالمًا ما دامت الأرض، يصغى إلى قولى ويفهم المراد ويبذل الهمم .

وأقول أنا " أوليا " مؤرخًا داعيًا: " أدام الله هذا المقام عاليًا ما دامت الأرض ".

"زمين طوردقچه طورسن بومقام آسمان آسا - سنة ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١م".

وقد زاد هذا القصر الملكى قصر العينى حسنًا وبهاءً .

تكية حسن بابا البكتاشى

هو صاحب علم رسول الله (ﷺ) قد بنى تكية بكتاشية صغيرة، بها نحو عشرين مريدًا فقيرًا من أرباب الأحوال، تُصرف أرزاقهم من مطبخ العزب بالقلعة.

تكية قيغوسز بابا البكتاشى

وهى خانقاه صغيرة بدرب مظلم داخل عطفة قريبة من بين القصرين، بالقرب من باب قاضى العسكر، خالية من الأوقاف، بها نحو عشرين شيخًا من المريدين الزهاد الأتقياء، يعيشون بما يقدَّم إليهم من الهدايا (پارسه)، وبها صحن صغير وضريح نورانى . وفى كل يوم جمعة يقدم للمترددين عليها خروف وأرز بلبن رائب مما يعطيهم الله، وقد طار صيتهم بذلك، ويعطيهم البارى من خزائن الغيب .

تكية عبد الله الأنصارى

وهو من الأصحاب الكرام، وتكيته داخل منزل المُراجع (مقابله جى) بالقلعة الداخلية، ويتصرف بها الآن بعض المريدين من أتباع الطريقة البكتاشية، ولها أوقاف كبيرة .

تكية عبدالقادر الجيلانى

هى تكية صغيرة بالقرب من سراى الكتخدا تحت زاوية الملك الظاهر، وقد دفن فيها أخو أبى أيوب الأنصارى وأخو الشيخ سارية رضى الله عنهم، وبها نحو عشرة من المريدين، يأتى طعامهم المؤلَّف من اللحم والأرز من قِبَل الپاشا، ويحضر إليها فى كل ليلة جمعة دراويش من مريدى التكية الشيخونية، ويقيمون حفلة ذكر عظيمة . كانت قريبة من منزلنا بالقلعة الداخلية، فكنَّا نزورها كل ليلة جمعة لنتمتع بسماع ذكر الله .

تكية قراقيا

تكية ضيقة للشيخ عبد القادر أمام دار أمير آخور بقراميدان، بها سبعة أو ثمانية من المريدين، تُصرَف مخصصاتهم من العمارة الشيخونية .

تكية مصلى سبيل المؤمنين

أنشأها السلطان قانصوه الغورى سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦م، ترتفع عن الأرض مقدار اثنتى عشرة درجة، وكُتب بالخط الجلى على الرخام الأبيض الذى بعقدها هذا التأريخ: " بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام أبى النصر عبد الله قانصوه الغورى بتاريخ جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وتسعمائة من الهجرة النبوية " .

وفى هذه التكية يصلًّى على المقتولين تنفيذاً للشرع فى ميدان الروميلى، وعلى أعيان القاهرة حين يُتوفون إلى الله، فلهذا السبب سميت مصلًّى المؤمنين . وحول التكية حُجرات وسبيل مياه ولكن لا مطبخ لها، وقبتها المعقودة بالجير محملة على أربعة أعمدة فقط، ويجتمع فقراء طريق المطاوعة فى كل يوم جمعة، ويقيمون بعد صلاة الجمعة حفل ذكر فى هذه التكية، ليس فى إمكان أى طريقة من الطرق المائة والستين أن تأتى بمثله ، فهم حينما يذكرون الله باسم " اللهم " ويمدون أنفاسهم به يُسمع لفظ "اللهم" فى حالتى الزفير والشهيق . وإذا بلغوا حالة الوجد رأيتهم كأن بعضهم يصول على بعض راكبًا جواداً أصيلاً بإحدى يديه سيف وبالأخرى رمح . ويتظاهر بعضهم بأنه يطلق السهم على الآخر الذى يتظاهر بمظهر المصاب، وقد أزبدَ فمُه، ويتظاهر آخر بأنه تحاشى السهم فنجا منه، ويقف بعضهم موقف المحارب الراجل الرامى بالمزراق، بينما الآخر فى موقف المدافع المصاب ، فيشتبكان فى القتال صائحين صاخبين، وقد احمرت عيونهما وأزبد فماهما كأفواه الجمال . وقد يبلغ بهم الحال إلى الاشتباك حتى

يصعب على الشيخ أن يفرق بينهما، وبعضهم يقف أمام بعض كأنهم أسود زائرة متهيئة للقتال، على حين ترى بعضهم قد وقع على الأرض وأخذ يتمرغ كأنه كلب أو قط بعد أن كان زائرًا كالأسد، على حين يقف الآخر كالتنين ذى الرءوس السبعة يفحُّ مهددًا ويصول عليه الآخر زائرًا كالأسد، ولكن لا يكاد يدنو منه حتى يجف ما بفمه من زبد ويمتقع لون وجهه، فيستره بكم ثوبه ويجلس فى ركن كأنه امرأة خجلة، ولا تمضى لحظات حتى يهجم رجل صائح، ويخيل إليك أنه يصرع، ولكن سرعان ما يقع مصروعًا وقد احمرت عيناه، يصدر أصواتًا تقطع مرارة السامعين، ثم يسرع إلى الاختفاء إما خلف الشيخ وإما خلف أحد الدراويش فيسكت . أقسم بالقرآن العظيم أن بهذه التكية حالات غريبة، ولا يمكن الوصول إلى مزاياها دون حصول على اليقين وعين اليقين، وليس السامع كمن يرى .

وتقام لهذه الطريقة حفلات ذكر فى يوم الجمعة فى عدة أماكن، ومنها جامع الحاكم بأمر الله، وهى حفلات لا أستطيع التعبير عنها باللسان ولا وصفها بالقلم.

التكية الكلَشنية

هى تكية حسنة ذات طابقين على ساحل النيل ببُولاق ولكن ليست واسعة، يقيم بها نحو ثلاثين مريدًا من الزهاد العفيفين أهل السلوك، ولها أوقاف متينة يبذل منها الطعام للمترددين عليها، ويجتمع فيها مرة فى كل عام جمع غفير من علماء القاهرة وأعيانها فى أيام عودة سفن السيد البدوى، فيقيمون احتفالاً عظيمًا بالمولد.

تكية الشيخ فرج الله

وهذه أيضًا تكية صغيرة على ساحل النيل ببولاق، وشيخها عظيم يعتقد الناس فى ولايته، يعيش مع أربعين أو خمسين مريدًا على ما يرد إليها من النذور الكثيرة .

وطريقته يمنية وتكيته بناء صغير قد اختفى فى ظلال الجميز والنبق، فلا تؤثر فيها حرارة الشمس، فكأنها حديقة من حدائق العجم . ويقدِّم لزائريها فنجان عظيم من القهوة اليمنية، لكنها قهوة يستحيل تحضير مثلها فى أعظم دار من دور الأعيان، كما أنه ليس فى استطاعة رجل من رجال الدولة بذل هذا المقدار من القهوة ، فهى بَرَكَة شاذلية عجيبة . والشيخ فرج الله مدفونٌ فيها، والبَركَة الخليلية إنما هى من روحانيته .

وببلدة بولاق نحو خمس وأربعين تكية، وقد اكتفينا بذكر هاتين التكيتين .

تكية السلطان الأشرف

وهى قبة عالية عظيمة مطلية بالجير الأبيض فى مصيف السلطان قايتباى، شبيهة بالتى فى قصر العينى تمام الشبه . وهذه التكية بناء مدور يسع صحنه ألف رجل، وعليها قبة مزخرفة معقودة بالجير ، وبُنيت خصوصًا على الطريقة الخلوتية، ولها أوقاف كثيرة، وبها أكثر من مائة مريد، لكل منهم حجرة ومقدار وافٍ من الطعام .

تكية السلطان قايتباى

وهى خانقاه عظيمة تقع قبالة جامع السلطان قايتباى، مخصصة للطريقة البدوية، يُحتفل فيها مرة فى كل عام بإحياء مولد السيد البدوى، وبها نحو ثلاثمائة مريد كلهم متزوجون ينفق عليهم من عمارة قايتباى .

وبذلك الحى إحدى عشرة تكية أخرى .

تكية السلطان طومانباى

وهى تكية واسعة تحت قصر الضيوف بالعدلية، يقيم بها نحو عشرين مريداً خلوتيًا .

تكية المَوْلَوِيَّة

وهى خانقاه عظيمة بالقرب من شارع الصليبية، بها حُجرات ذات أدوار ومكان سماع (الذكر) ظريف، ومريدون يقرأون كتاب المثنوى . وقد حدث أن ترك حسن زاده أفندى قضاء مصر مؤْثرًا حياة الفقر على حياة البذخ وأقام بها منعزلاً ، وفيها دُفِن الشيخ أدم الذى كان شيخ التكية المولوية التى بباب القلَّة بإستانبول، وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وتوفى بمصر حين عودته عنها "عدم دييه مز ايدرك كيتدى جنانه" = لقد مضى إلى الجنة، وهو لا يؤمن بالعدم ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠م.

والموضع الذى فيه تكية ابن طولون بالقاهرة يسمى قلعة الكبش وجبل يشكر أيضًا، وهو الموضع الذى كلم الله فيه موسى عليه السلام فتصدع[٥٠] ، وهو مكان مستجاب الدعوات. وأكثر سكان التكية مغاربة، وشيخهم رجل يُدعى عزيز نصر الله، وهو شيخ مبارك حسن الحال، يعيش على صوم داود، رحمه الله .

تكية الطوبخانة (= دار صنع المدافع)

وهى من خيرات السلطان قايتباى، على مسيرة ربع ساعة خارج القاهرة شرقًا، بها قبة مزخرفة بضروب من الألوان، ترتفع عن الأرض خمس عشرة درجة سلم . وأما

---

(٥٠) المشهور أن موضع تكليم موسى عليه السلام فى سيناء .

مـا بهـا من نقـوش " المانى " و" ولى " و" جـانى "و" اليـمـانى " قليس لهـا إلاّ على والزنـجارى، ما تكلُّ منه عين من ينظر إليـها . فهى قبة سـحرية ولكنها بالجير الأبيض وليست رصاصية رزقاء ، وليس فى مبنى من المبانى الأثرية ما فى محراب هذه التكية من الفسيفساء وما بكساء جدرانها الأربعة من الحجارة الخضراء المعروفة باليشَم الهرقانى Harkani وكذلك الحليات الذهبية والعُقَد المصرية . وهى تكية مبنية كقلعة للطريقة الأحمدية، يسكنها نحو ثلاثمائة من المريدين، ولها أوقاف تفى بإدارتها، ويقام بها مرة فى كل عام مولد عظيم يستمر ثلاثة أيام بلياليها ، وبجهتها القبلية نخيل وحدائق .

تكية تيمور طاش

وهذه أيضًا تكية خلوتية ذات قيمة عظيمة بالقرب من الطوبخانة، وخانقاه علوية عظيمة، يحضر إليها آلاف من محبى الله كل ليلة جمعة، ويقومون بالذكر العلوى الحيدرى . بُنيت سنة ١٠٧٥ هـ = ١٦٦٤ م ، ولها حدائق وكروم وحُجرات لإقامة المريدين، وصحن لحفلات الذكر (سماعخانة).

تكية السلطان الغورى

خانقاه لطريقة السيد البدوى على مسيرة ساعة من القاهرة شرقًا ، وهى أيضًا كتكية الطوبخانة حافلة بألوان من الزخارف والزينات كأنها الزون الصينى، وقد فُرِشت أرضها برخام دقيق ليس فى طاقتى التعبير عنه . وبها محراب ومنبر، وتقام فيها صلاة الجمعة، وهى فى حى خاص له سوق صغيرة، ويقيم بها نحو ألف من الدراويش أتباع السيد أحمد البدوى الذين يعيشون على الكفاف لضيق أوقافهم، وشيخهم رجل

فاضل من صلحاء الأمة ، ويُقام فيها مولد عظيم مرة فى كل عام تُعقد فيه حفلات الذكر .

تكية قدم النبى عليه الصلاة والسلام

فى عام ١٠٧٤ هـ =١٦٦٣ م أنشأ إبراهيم باشا الدفتردار قبة عالية ومسجداً كبيراً أنفق عليه خمسين كيساً مصريا من أمواله الخاصة، محبة للنبى صلى الله عليه وسلم، فى موضع قدمه المباركة، وإنها لقبة يقصر اللسان عن وصفها . وبنى على ساحل النيل قاعات ومقاصير وأروقة ودواوين ذات طوابق متعددة، ليتمتع الناس بمشاهدة النيل منها، ثم بنى قصراً منيفاً مطلاً على ميدان الجريد، وزين دوره الأرضى بأروقة ، وإنها لخانقاه عظيمة.

ومسجده الظريف مُعبَّد ذو سقوف مربعة منقوشة تحملها أعمدة ستة من الرخام الأبيض ، ومحرابه مصنوع صناعة بسيطة وجميلة، ومنبره من الخشب الأحمر المنقوش، وقد فُرش المسجد بطنافس حريرية، وزين بألوان من الثريات الثمينة، وأمام المحراب حديقة زهراء . ومساحة المسجد مائة قدم طولاً وعرضاً ، وقد كُتب على لوحة بباب القبلة بالخط الجلى المُحلى بالذهب واللازورد تاريخ ١٠٧٨ هـ = ١٦٦٩ م.

وقدم النبى المباركة فى خزانة ذات باب فضى بقبة داخل باب بالجهة اليمنى من المسجد، مملوءة بماء الورد. ويمسح الزوار وجوههم بالموضع الذى أثرت فيه القدم الشريفة .

بيت :

إن صاحب تلك القدم وَرْد حديقة النبوة

فعجل (يا أحمد) بمسح عينيك بقدم ذلك الورد

وداخل القبة مكسو كله بالقاشانى، ومحلًى بأنواع الخطوط الجميلة لمشهورى الخطاطين ، وللفقير كذلك أثر فيه . وقد خط إبراهيم پاشا على لوحة ذهبية فيه طغراء (طرة) هى سحر مبين، وبالخزائن نفائس ثمينة . وقد نُقش على باب القبة أبيات وفيها التأريخ وهذا معناها :

فى هذا المقام البديع صورة قدم المصطفى، وهى توتيا لعيون الكائنات .

ومن مسح عينه بهذه الصورة مخلصًا أشرق باطنه وسطع ظاهره.

وقد أرخ هاتف الغيب قائلاً : "اولدى حقاكيم مفرح رسم پاى مصطفى" سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦م.

وكتب أيضًا على باب القبة بالخط الفارسى تاريخ سنة ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ م.

وعلى باب القبلة الخارجى لوحة كتب عليها شاعر يُدعى زكى التأريخ الآتى :

يرنده جامع عالى اساس بيهَمْتا سنة ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣م .

وثمة تواريخ على الخزانات ، وللشاعر نقش تاريخ بين النقوش التى على القصر، وهو سنة ١٠٨٣ هـ = ١٦٧٢ م .

وللمسجد منارة رشيقة ذات شرفة واحدة مبنية على الطراز التركى كأنها شجرة سرو سامقة، وللتكية مطبخ كبير ، وشيخ التكية رجل صالح من رجال الطريقة الخلوتية يُدعى محمد چلبى .

وعلى مسافة من هذه التكية حديقة بها أشجار الليمون والنارنج، وسبعة أنواع من العنب . وبها ساقية وشادروان وزاوية كُتب، على محرابها بخط فارسى مُذَهَّب ومحلًى باللازورد على القراحصارى هذا التأريخ:

وُضعت هذه الساقية باسم السلطان محمد-وبُنى بها سبيل.

حتى إذا تم بناؤه قال الهاتف تأريخه :

بو ثواب اولدى روان سلطان محمد أدنه سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦م.

وموجز القول أن هذه التكية مزار للخواص والعوام، وخيرات عظيمة قد أنشئت في موضعها حقا. وبالقاهرة مئات من الزوايا والتكايا، بيد أن التى لها شهرة وأبنية ضخمة هى التى ذكرناها ، ولما كان بها مساجد وكتاتيب لتعليم الصبيان ذكرتها فى خلال الكلام عنها . وكان فى الزمن القديم ثلاثمائة وست وستون تكية عامرة جارية الأوقاف، ومعظمها بالقرافة الكبرى، حتى إذا قدم أحد الدراويش الفقراء إلى مصر وأُريدَ إكرامه أُنزلَ ضيفًا على تكية، وإذا كان الصباح قدَّم له شيخ التكية پارة مصرية حق الحمَّام، وهكذا يقضى كل ليلة فى تكية وينفق عليه هذا المبلغ من جانب الأوقاف ولو بقى سنة ، وإذا اتفق وجوده فى رأس السنة خُلعت عليه أيضًا (خرقة) . وكان بعض الفقراء يقضون السنة دائرين على الثلاثمائة والست والستين تكية التى بالقرافة، على أن يلبثوا كل ليلة فى تكية ويأخذوا المبلغ المعيَّن . وأما التكايا الكثيرة التى كانت داخل المدينة فبقى منها ما ذكرناه آنفًا، أدام الله نعمها .

الفصل الثانى والثلاثون

ذكر ما فى مصر من العمارات التى ينفق منها على الأغنياء والفقراء

كانت فى القاهرة أم الدنيا عمارات[٥١] للخيرات تابعة لسبعمائة جامع من جوامع السلاطين السابقين، فضلاً عما سبق ذكره من عمارات التكايا والخانقاوات . ولكن تعطل كثير منها لضياع أوقافها بضم الأطيان والبلاد الموقوفة عليها إلى الأملاك الأميرية، أو بسبب خراب الأعيان الموقوفة . وكانت فى عصر الچراكسة مطاعم تابعة لستة وخمسين جامعًا، ولكنها لا تقدم الطعام مرتين يوميا كما هو الحال فى مطاعم الخيرات بإستانبول، وإنما تقدم منها بضعة آلاف من صحون الطعام فى ليالى الجمعة وأيام المواسم .

ويُعَدُّ من العمارات المستديمة الخيرات بالقاهرة المطبخ العظيم الذى بقصر الپاشا الوالى، فإنه يقدم فى كل يوم ثلاثة قدور كبيرة صباحًا ومثلها بعد العصر من الحساء للفقير والغنى والصغير والكبير على حد سواء .

عمارة السلطان قلاون

خوان هذه العمارة ممدود للضعفاء والمساكين من الخواص والعوام (صباحًا ومساءً) شهورًا وسنينَ، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ

---

(٥١) العمارة الخيرية كانت دارًا لإيواء وإطعام الفقراء والمساكين والعجَزة، وتُقدِّم فيها المساعدات لعابرى السبيل والمحتاجين من الطعام والكساء، وإن كان التركيز على الطعام .

رِزْقُهَا﴾ (هود١١/٦) . فكم من قصاع وعلب وصحاف تُملأ بحساء العدس والحنطة ، فضلاً عن بضعة آلاف من الصحون التى تُصرف على المرتزقين دائمًا . ويُصرف اللحم والأرز للفقراء، وفى ليالى الجمعة أيضًا، والطعام المقدَّم للفقراء والمساكين أقل جودة مما يُقدم لأئمة المساجد وخطبائها، إلا أنه مستديم ، فقد كُتب على باب المطعم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات٥١/٥٨). ولهذا المطعم أربعون طاهيًا ومثلهم من الخَزَنة . وإذا حضر بعض الأعيان لزيارة المطبخ أُكرموا بمائدة ذات صحون قلاونية أثرية فى صوان وطشوت وأباريق منقوشة ، وإنها لخيرات عظيمة رحمة الله على صاحبها .

وأما خيرات غيره من السلاطين فليست دائمة ، فقد استولى الظالمون على أوقافها، فلا ينفق منها على الفقراء إلا مرة فى كل عام، حين يُقام له مولد . وإلا بعض مبالغ يعطيها النظار لخدم المساجد مضافة إلى مخصصاتهم، "كاللحمية " و"الشمعية " و" الخيرية " وغيرها، وتقيَّد فى حساب الوقف .

الفصل الثالث والثلاثون

فى ذكــر حمامات القاهرة

تشرف القاهرة بمجموعة من الحمامات الموقوف دخلها للصرف على المساجد والجوامع وسائر وجوه الخير، وأهمها:

حمام سليمان باشا الطواشى الذى بالقلعة الداخلية . حمام صغير ذو ثلاث خَلْوَات وحوض شافعى، ولكنه لطيف البناء وماؤه الوارد من بئر يوسف مالح قليلاً . رواده من الجنود، أثوابه نظيفة ومُعَدَّاته معتَنًى بها، كما أن صاحبه والدلاكين فى مظهر نظيف ، وبعد الظهر يُخَصَّص لاستحمام النساء من أمهاتنا وأخواتنا . وفى نصف الليل يُطهَّر الحوض ويُملأ بماء جديد طاهر .

حمام مصطفى باشا : بالقرب من جامع السلطان حسن بسوق السپاهى، وهو حمام كبير ليس بالقاهرة كلها حمام فى حجمه وبهجته، ولا مثيل له فى حرارة الماء وطيب الهواء وجريان الماء فى الأحواض والنافورات . ففيه خمس خَلْوَات، ولكل خَلْوَة صنبور، وقد فُرشت أرضيته بشتَّى أنواع الرخام، ونوافذه مزينة بضروب من الزجاج البلورى والنجف والكريستال، يضىء كل منها كنجوم السماء. ينطلق من فواراته ماء ساخن حتى يلامس قبة الحمام، وخارجه حوض داخل زجاج فيه سَمَك، ويخدم فيه دلاكون (أقوياء) ذوو أيدٍ ناصعة قوية، ووجوه وردية مشرقة، وعيون كعيون المها أو غزال خُتَن، حلوُو اللسان، قد لفوا أجسامهم العارية بمآزر فى زرقة السماء. وكل ما فيه من الأدوات مثل البشاكير الحريرية والفوط القطنية طاهر، فهو حمام نظيف جدا، وحسن الهواء، وبه قسم للنساء ، وهو مزدوج .

كما أن هناك حماماً آخر يدعى (**حمام بُسْتَك**) وهو أيضاً مزدوج ونظيف .

وحمام **الكتخدا إبراهيم القيصرى** بالقرب من مسجد ألتى بارماق . ثم **حمام الدرب الأحمر** ، وهو أيضاً مزدوج إلاَّ أنه صغير . **وحمام الصوباشى** مزدوج ولطيف . **وحمام السكَّرية** أنظف الحمامات كلها، وبموجب شرط صاحب الخيرات لا يدخله اليهود ولا الأقباط ولا اليونان، فلذا يتردد عليه كثير من الصالحين، وهو ظريف جدا طلق الهواء .

وحمام الخرابة صغير ومزدحم بالمرتادين، وهو خاص بالرجال ولا تدخله النساء . ثم **حمام باقيرجى باشا** وهو جيد الهواء صيفاً . **وحمام السقا** خاص للرجال، **وحمام قاضى العسكر** مزدوج . **وحمام مرجوشى** حمام ظريف فى سوق مرجوش . ثم **حمام باب نام**، ثم **حمام باب الشعرية**، وهو مزدوج، ثم **حمام الشعراوى**، وهو أيضاً مزدوج ثم **حمام جسر الموسكى**، **وحمام " چيچى على بك** مزدوج وقريب من حى اليهود وأكثر رواده منهم .

وحمام الكلب مزدحم فى موضع منخفض، يستحم فيه الرجال والنساء مجاناً، وعند البدء فى حفر أساسه للبناء فى الزمن القديم ظهر تمثال نحاسى لكلبين متعاركين تبين بعد ذلك أنه طلسم الكلب، فغيَّر صاحب وقف الخيرات أساس الحمام حفاظاً على التمثال سليماً . ويظن الناس أنه لوجوده سليماً ليس بالقاهرة مرض الكلب، ولا يصيب أحداً ضرر منه وهذا سبب تسميه الحمام بهذا الاسم .

وحمام الحوض النفيس خاص بالرجال وجيد الهواء . **وحمام البندقانى** خاص للرجال ومزدحم بالناس . **وحمام مهدية سلطان** مزدوج . **وحمام باب الخرق** (الخلق) مفرد . **وحمام قنطرة الأمير حسين** ، **وحمام الشيخ البكرى** بالأزبكية، **وحمام الريَّان** ، وكلها حمامات مزدوجة وظريفة مزدانه بأنواع من الزجاج . **وحمام تحت الربع** مفرد . **وحمام عابدين** بحى عابدين بك، مزدوج . **وحمام قنطرة سُنْقُر** مفرد. **وحمام الحبَّانية وحمام درب الجماميز** مفردان . **وحمام مصطفى بك وحمام الدلال صوقود Sokud وحمام مرزوق** وهو بداخل الباب الجديد، وهى حمامات مفرده . وهناك **حمام خاص**

للنساء بالقرب من **سيدى الهندى**، **وحمام صغير** بالقرب من **السلطان خضر**، **وحمام طيلون**، وهى ثلاثة حمامات ظريفة متقاربة، ومعظم روادها من المغاربة . **وحمام الصليبية** قديم ومزدوج ولا يؤثر هواؤه فى رأس مرتاده أبداً . **وحمام الدود**، **وحمام القيصونية** مضىء لطيف جيد التهوية والماء، قد بناه الحكيم قيصونى وفقًا لقواعد الحكمة . **وحمام باب الوزير** مفرد . **وحمام حى الصالحية** يقع بالقرب من مشهد الإمام الحسين وهو خاص بالنساء، **وحمام قنطرة الليمون** مفرد .

ومجموع الحمامات التى دخلناها مرات كثيرة فى القاهرة واحد وأربعون حماماً، وهناك حمامات أخرى لم نتمكن من دخولها وتبلغ أربعة عشر حماماً .

ويكون بالقاهرة هكذا على هذا الحساب خمسة وخمسون حمامًا للخواصً والعوامً . ومما لا شك فيه أن هناك حمامات فى قصور السلف من السلاطين وأمراء الجند الباشوات من الدرجة الثانية، وفى بيوت السادات والمشايخ والعلماء والأغوات السود وأغنياء التجار، وهناك حمام فى كل قصر وبيت على الأقل، وفى بعضها حمامات، وأما قصور رمضان بك أمير الحج وقيطاس بك وعلى بك الجرجاوى وذو الفقار بك وأبو الشوارب بك وقصور كثيرين من خواص الأغوات والمصاحبين ففيها قصور تحتوى على أربعة حمامات وخمسة حمامات، وبهذا الحساب يبلغ عدد حمامات القصور التى بالقاهرة والتى أُحْصِيَت رسميا تسعة آلاف وستين حماماً، هذا ما تم عرضه على السلطان مراد . ولكن العجب أن مياهها جميعًا غير عذبة بل مالحة، إلاَّ ما كانت بالقرب من الخلجان، فمياهها تكون حُلوة حين فيضان النيل مثل حمام قيصون . ولكن الحكماء – أى الأطباء – قالوا إن الماء المالح يُفيد الجسم ويصلحه إذا تم تسخينه . وفى كل حمام فسقية وحوض، لأن المصريين جميعًا شافعية ما عدا الأتراك، والشافعى لا يُطهِّر إلاَّ إذا وضع بالحوض مقدار زيرين من المياه، وهذا عند الشافعية مناسب لماء مصر وهوائها. ولا يوجد مستوقد تحت حمامات مصر، وليس ما حولها فضاء . وحرارة الحمامات المصرية تتأتى من حرارة مائها ، وشادروناتها ذات مياه حارَّة ، وكل ما بها من الأزيار التى فى كل الزوايا والأحواض مملوء بالماء

الساخن . وليست بها مصارف للمياه المستعملة، بل تنساب على رخام الأرضية فتسخن من شدة حرارتها ولا يستطيع المرء أن يضع قدمه على الرخام . ثم إن حمامات مصر لا تُحدث الدُوَار، فمياهها حارةٌ دائمًا ليلاً ونهارًا، ولكل حمام أربع أو خمس طبقات من القدور الرصاصية تفيض المياه من بعضها إلى بعض حتى تنساب إلى الحمام فتسخنها. وهناك خزانات أخرى نُحاسية للماء البارد وخزانات للماء الحارٍ. وتلك القدور المصرية ذات الطبقات المتعددة عجيبة حقا ولا نظير لها في البلاد الأخرى، فهي فن لا يصدقه العقل ويجب مشاهدته .

والمصريون لا يستخدمون الخشب وَقُوداً لتسخين مياه الحمامات، بل يستخدمون روث البهائم المتكون من التبن والنباتات التى تأكلها ويسمونه " جِلَّة ." ولكل حمام عدد من الزبَّالين العاملين وعليهم أن يجمعوا الزبالة وذلك بكنس شوارع القاهرة كنساً تاما بحيث لا يدعون فيها ذرة من الأشواك، وينقلونها إلى الحمامات فتكون وقوداً . فالقمامة رأسمال أصحاب الحمامات يحملها الزبَّالون بالقفف ليلاً ونهارًا .

وأمور الضبط والربط والمراقبة على حمامات القاهرة منوطة برئاسة فرَّاشي الوالي، فكل نزاع أو خلاف ينشب بين أصحاب الحمامات والصبيان الدلاكين والزبَّالة أو العصاة والمشاغبين من رواد الحمامات يتولى حله المهترباشي(٥٢) ويصلح ذات البين فيما بينهم . وجميع مدخولات هذه الحمامات الوقفية تُصْرَف على وجوه الخير المختلفة .

---

(٥٢) المهترباشي Mehterbasi : مُصطلح يُطلق على صنفين مِمَّنْ يعملون في السراى السلطاني، أولهما رئيس للفرقة الموسيقية، والثاني رئيس لخيَّامة السراى . وهذا الأخير هو المنوط به الحفاظ على نظافة المدينة ورفع الزبالة والنفاية من الشوارع والأزقة والأسواق والإشراف على الحمامات ونظافتها .

وكان رئيس فريق الموسيقى يقف بين الشعب لإدارة أفراد الطاقم الموسيقى عند عزف النوبة، وقد تم إلغاء هذا المنصب مع إلغاء معسكرات الإنكشارية عام ١٢٤١هـ = ١٨٢٥ - ١٨٢٦م . (انظر : محمد ذكي پاقالين ، تاريخ ديملرى وتريملرى، جـ٢، صـ٤٤٦) .

الفصل الرابع والثلاثون

فى ذكر خانات السلاطين السابقين والوزراء والوكلاء

القاهرة حافلة بالخانات، وأقوى الخانات وأكثرها عُمْرانًا **خان الخليلى** الذى يطلُّ وكأنه القلعة، فهو خان عظيم مساحته مائة خطوة طولاً وعرضًا . على جوانبه الأربعة مئتا حانوت مبنية بعقود جيرية، فوقها أربعة أدوار من الحُجرات لسُكْنَى النازلين فيها مع أزواجهم ، مُقام بوسطه ميضأة يعلوها مسجد خشبى، جماعته من تجـار الأتراك (الروم)، ينزل به من التجار الأغنياء من يملكون آلاف الأكياس، ليس لهم نظراء إلا فى بولاق . وجميع أموال مصر القارونية فى هذا الخان، وله أبواب حديدية مزدوجة كأبواب القلاع، وليس بالقاهرة سوق خاصَّةٌ لبيع الأمتعة الغالية النفيسة مثله، فالأمتعة الثمينة الواردة من الأقاليم السبعة تُباع فى هذا الخان بكثرة وبأثمان زهيدة .

وخان الحناء متصل بخان الخليلى ، وهو الذى تُصَدَّر منه الحناء إلى بلاد الأتراك والعرب والعجم، فقد كُوِّمت فى فنائه تلال من مئات أكياس الحناء . وهو خان كبير واسع به ثلاثمائة حُجرة متعددة الطبقات والمستويات، وفى هذا الخان يُعقد سوقٌ للنخاسة.

وبالقرب منه **خان الدويدار الكبير** وهو خان كبير حقا. **وخان الدويدار الصغير** عامر بالرواد والتجار. ثم **خان الكتخدا قاسم**، ثم **خان الجاوى** وهو خان عظيم، ثم **خان البندقانى** ، ثم **خان أحمد أغا** القبرصى، ثم **خان آق قاش**، ثم **خان مرتضى أغا**، ثم **خان جعفر أغا** ثم **خان الأسير، وخان الجلابة** ، ثم **خان رجب أغا، وخان الكتخدا**

ذو الفقار، وهو يُشبه قلعة عظيمة حديثة البناء. وعلى جوانبه الأربعة حوانيت وبيوت من ثلاث طبقات مجهزة لسكنى الأُسَر، مساحته مائة وخمسون خطوة طولاً فى ثمانين خطوة عرضًا، وبوسطة زاوية للدراويش . قال كاتب هذه السطور :

" أعجِبَ أوليا حين رآه فأرَّخ قائلاً: بناى عظيم ١٠٨٣ هـ = ١٧٦٩م".

وعلى القرب منه **خان الكتخدا محمد الحبشى**: خان ظريف حديث البناء أيضًا . ويقع بداخل باب النصر خان الناصرية، وبموازاته وكالة الزيت التى يرد إليها الزيتون وزيته من بلاد الشام والقدس وغزة، فهو خان مُزيِّت، وأدوات الساكنين فيه وقلوبهم مثله . وبالقرب منه **خان البكارية**، ويليه **خان الكردية** ثم **خان جعفر** ثم **وكالة البهار** وهى مقر محافظ الپاشا . ويُحَصَّل فى هذه الوكالة الرسوم الجمركية على الأمتعة والبهارات الواردة من الهند واليمن والحبش وعدن، ولذا أُطلق عليها هذا الاسم . وقد تَكَفَّلَ الپاشا الوالى صاحب الجمرك بألفى كيس مُتَحملاً هو المكسب أو الخسارة . ثم **خان الكتخدا الحبشى** وهو بالقرب من جامع الحبشى، **وله خان آخر حديث** البناء متعدد الأدوار بالقرب من جامع شاه مردانية . وعلى مقربة من جامع الداوُدية **خان مسعود أغا**، وتحت باب الوزير **خان حافظ پاشا** .

وتحتوى القاهرة على وكالات كثيرة بقيت فى عطفات وأزقة ضيقة، فلم تعد لها أهمية . وأما الخانات التى أوردنا ذكرها فكلها مبان ضخمة كقلاع ذات طابقين وثلاثة طوابق مشتملة على ثلاثمائة حُجرة، ويعمل فيها عشرات من البوابين والحراس .

وبمصر القاهرة ثمانمائة وخمسون رَبْعًا أى خانًا لإقامة المتزوجين، ولا يُسمح بالإقامة فيها للعزاب الذين لا يرعون إلا أنفسهم ويعيشون بمفردهم .

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر ما فى فسطاط مصر من المستشفيات

اشتهرت القاهرة قديماً بمستشفيات للمجاذيب ولعلاج المرضى ، ولا تزال مبانيها وأطلالها ظاهرة، لكنها غير مستعملة الآن بسبب ضم أوقافها إلى الأمور الأميرية، وفى أثناء هذه الرحلة لم يكن مستخدماً وعامراً منها إلا أربعة هى :

مستشفى مقام موسى (= بيمارخانه)

مستشفى مجانى دون أوقاف بالقرب من "بين القصرين"، ويقدِّم بعض أهل الخير ما يلزم للمرضى من الطعام ، كما يقوم بعض الفقراء بخدمتهم مجاناً، ويقدم بعض الأغنياء زكاة أموالهم لهذا المستشفى .

مستشفى الجامع الأزهر

مستشفى الأزهر مجانى أيضاً وإيراده من النذور والصدقات والطعام أكثر من إيراد المستشفيات ذات الأوقاف الكبيرة، وخدمه يتمتعون برعاية وعناية، وهو ليس بالأزهر بل فى زاوية الشيخ محمد المَطْوِيسى Matvisi .

مستشفى السلطان المؤيد

وهو بناء عالٍ جيد التهوية بجانب تكية الأوزبك تحت باب الوزير، وقد بُنِىَ كله بحجر جيرى بناءً سلطانيا مزخرفاً، به حُجرات وقاعات كثيرة ، وله باب مرتفع داخل

تكية الأوزبك، وبه مقصورات مختلفة ليستروح فيها المرضى ويستمتعوا باستنشاق الهواء الطلق الصحى، وليست له أوقاف، فلذلك يخدم فيه فقراء ودراويش تكية الأوزبك، كما أن سكانه من مريدى تلك التكية .

مستشفى السلطان قلاون (بيمارخانه)

وهو مستشفى عظيم فى وسط القاهرة، يقع فى ركن من حرم جامع السلطان قلاون الذى وصفناه فيما سبق . وهو بناء عظيم لا نظير له فى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم ، شيد لعلاج المختلين عقليا، ويتولى علاجهم الحكماء الذين يرتد المختل عاقلاً على أيديهم بعد العلاج فيه . حرمه العظيم تبلغ مساحته مائة وخمسين خطوة طولاً وعرضًا، ومفروش برخام مجليٍّ، يقع وسطه حوض عظيم يتفجر الماء من نافوراته طول قامة رجلين، وهناك مصلًّى بجانب الحوض، وعلى الحوض قبة منقوشة السقف يحملها اثنا عشر عمودًا سامقًا، وبكل جانب من جوانب الحرم الأربعة قاعة عظيمة تتسع لألف رجل، بجانبيها أروقة ذات أسقف منقوشة معقودة بحجر الجير . والقاعات مفروشة أرضيتها برخام مختلف الألوان يمثل نقش الأرتنك ، وبنهاية كل قاعة سبيل ماء ارتفاعه طول قامة رجلين طويلَيْ القامة، تجرى منه المياه كالفيضان إلى تلك الأروقة، ثم ينحدر إلى الحوض الكبير الذى يتوسط الحرم، وقد بُنِيت القاعات الأربع كلها على هذا النظام . وينام المرضى فى تلك الأروقه تحت ألحفة حريرية، وإذا ما قارب بعض المرضى الشفاء يُسمح لهم بالاستجمام على حافة تلك المياه الجارية، والممرضون حولهم يقومون على خدمتهم ويلتفون حولهم كأنهم فراشات حول الشمع، كما أن بعض إخواننا المجانين يقضون أوقاتهم فى أركان مظلمة، وبعضهم يقضونها فى حُجرات مكشوفة ذات أحواض ونافورات مقيَّدين بالسلاسل مزمجرين كالرعد، على حين يظل بعضهم هادئًا . ولما كانت طبيعة أرض مصر تتسم باليبوسة، فإن جميع

أهلها سوداويون، ذوو شهرة ومكر وحيلة، فما إن يظهر مريض بينهم حتى يعرضه أهل الحى على الباشا ويستصدروا الأمر بوضعه فى المستشفى ومعالجته، لأن المستشفى لا يقبل المريض إلا بأمر منه، حيث يتكلف قرشًا فى كل يوم، وقد كان فيه فى زماننا ثلاثمائة وستة ما بين مريض ومجنون .

وهناك اثنا عشر طبيبًا فى مكان صرف الطعام للمرضى من العمارة مع تلاميذهم، وهم يحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الطعام والدواء . وللحكماء أعوان من الممرضين لهم جرأة وطبع الجلادين، يطعمون بعض الإخوان فاقدى العقل خُشافًا من عصا الشُّوم فيعقلون، وإذا حضر إلى مستشفى قلاون مريض مضى على مرضه ثلاثة أعوام أفاق فى أربعين يومًا بإذن الله، وانقلب لون وجهه الشاحب ورديًا . لأن فيه حكماء كبقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدى وأبى على بن سينا، كل منهم حكيم ويُحيِى الموتى كالمسيح . لكن يبدو أن الحكماء ليسوا من أهل هذه المدينة، فكل الحكماء غرباء وإن كانوا من أبناء العرب، لأن الطب علمهم . والطب ألزم العلوم، فقد قال رسول الله (ﷺ): " العلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان "، ويتضح من هذا الحديث أن الطب نشأ عند العرب . وقد كان الطب موجوداً فى عصر الإسكندر الأكبر وفليقوس وجالينوس، حتى إذا جاء رسول الله (ﷺ) اشتهر حكماء المسلمين بالطب، ثم وصل حكماء اليونان والفرنج إلى دقائق علم الطب فاشتهروا ولكنهم لا يزالون محتاجين إلى حكماء العرب، لأن العربى إن عُنِى بالمريض قلبا وروحًا متمسكًا بالزهد والتقوى وقوة العلم شُفى المريض على يديه بإذن الله . ولا سيما حكماء مستشفى قلاون، فإنهم جميعًا من الأساتذة ومهرة الفصَّادين، فما إن يجس أحدهم نبض المريض ويصف له الدواء الموافق لمزاجه حتى يشفى بإذن الله، وذلك لأن فى بلاد الإقليم الأول بالصعيد والواحات والحبش وبلاد الفُنج وجبل القمر أنواعًا من النبات والأعشاب والحيوان لا يوجد فى الهند أمثالُها ، وترد تلك العقاقير إلى القاهرة

فيستعملها الحكماء فى علاج المرضى فيُشفَون، ولقد اشتهر مستشفى قلاون فى بلاد الترك والعرب والعجم(٥٣) .

وقد خُصِّص جانب من هذا المستشفى لعلاج النساء، وهذا القسم أيضًا صرح طبى عظيم وجميع خدمه من النساء ، وليس به رجال غير الحكماء، وهم من المحارم والمصرح لهم، فلذا يدخلونه بلا خوف ويعالجونهن، ولكن من العجب أن بعض النساء المريضات والمجذوبات يحبلن فى هذا المستشفى، فقد وُلد غلام فى عهد إبراهيم باشا وسمى " شفائى " . قصارى القول أننا ما شاهدنا فى البلاد التى جبناها مستشفى عظيم البناء كهذا المستشفى .

أوصاف عمل معاجين الترياق الفاروقى الأعظم

ليكن معلومًا للرحَّالة ذوى العلوم، أن من أديم الأرض يخرج العديد من أنواع الترياق الفاروقى، ولكن ليس هناك أى احتمال بأن يكون هناك أى ترياق يوازى ذلك الترياق الذى يُصنع فى مصر، ذلك لأن القرص الفاروقى خاص بمصر.

في بيان ماذا يعنى القرص الفاروقى

هذا القرص يتم الحصول عليه من جسم الثعبان . وهذا العمل من أعمال وقف السلطان قلاون ، فهناك أربعون شخصًا للقيام بهذا العمل، ويقومون به مرة واحدة كل عام، وهم يسكنون قرى أبناء خبير ناحية الجيزة، وهم شبه معسكر . وهم يقومون مرة واحدة خلال شهر يونية (= حزيران) بصيد حيات الترياق الفاروقى هذه . ولكن الثعبان

---

(٥٣) كان يفد إليه الطلاب من بلاد الترك ليدرسوا فيه العلوم الطبية، ويكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية، وإذا ما أرادوا الانتشار ترجموها هى نفسها إلى اللغة التركية .

الهارب لا يستطيع أحد صيده، فصيده بعد ذلك مُحَال . ولذلك هم يتجمعون جميعًا في مكان ما ويرتدون أثوابًا من نسيج سميك، وتُرى أعينهم فقط . ويسترون حتى وجوههم، ويربطون قطعًا من القماش، أو من جلد الماعز الأبيض في عصى طويلة .

ويتجهون نحو بهنسة، والفيوم، والجبل الأخضر، ويَصِلُون قبيل انبثاق الشفق إلى الأماكن التي توجد بها هذه الثعابين . وتكون بعض هذه الثعابين كالميتة من شدة الحرارة، وعلى الرغم من ذلك فإن معركة شرسة تدور بين الصيَّاد والثعبان الفاروقي . ويصطادون عدة آلاف منها، ويضعونها في تلك الزنابيل التي يحملونها، ويصيرون ملمَّعين بالفاروق، ويتملكهم الفرح والسرور، وتكون الثعابين كالسكارى داخل الزنابيل ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يخيطون أفواه الزنابيل . وفي بعض الأحيان، وبينما الصيَّاد في حالة حرب مع الثعبان ينتفض الثعبان، ويلقي بنفسه على وجه الصياد، ولو لدغه في عينه لا يكون هناك خلاص على الإطلاق، ويستشهد الصياد على الفور، لأن سم هذه الحيات سم زعاف ، فإذا ما لدغ الجمل من أذنه، أو البغل من ظفره، فإنه يهلك على الفور . فيا لها من حيات قاتلة ! وصيدها حرفة هؤلاء الناس وحدهم، فلا يقدر عليها سواهم من بني آدم، وهم وحدهم القادرون على ذلك بأمر الله. وهم في غاية التقوى والصلاح، وهذه الطائفة لديها من المهارة ما يمكِّنها من صيد الكثير من هذه الثعابين، ويحمِّلونها على حميرهم، بينما هم يحضرونها إلى المدينة، وما إن يقتربوا من مكان يُسمى البساتين وكأنه جنات إرم حتى يجد أحد الثعابين الفرصة والطريقة التي يلدغ بها الحمار الذي يحمل الزنابيل، فيهوي الحمار المسكين على ظهره وينفق الحمار على الفور، وما هي إلا طرفة عين حتى ينتفخ جسم الحمار، ويصير كجثة الفيل، وكل قطعة منه تتحول إلى حجارة عظيمة، فيقوم الصيادون بإبعاد الرجال القريبين من المكان، قائلين لهم: إن جثة الحمار على وشك الانفجار وستؤثِّر الرائحة فيكم . وعلى الفور يأخذون الزنابيل المملوءة بالثعابين من فوق ظهر هذا الحمار، ويحمِّلونها على حمار آخر، وعلى الفور تتشقق جثة الحمار المسموم، ويتحول جلده كالماء، ويسيل على الفور، والحمد لله لا يصاب أحد بسوء . وعلى الفور يقوم الأهالي الذين في هذا المكان بإهالة التراب على جيفة الحمار، ويدفنونها، والحمير

الأخرى يحضرونها إلى مستشفى قلاون بحمولاتها، ويسلمونها إلى الناظر ورئيس الأطباء .

وأنا العبد الفقير كنت قد رجوت رئيس الأطباء في مشاهـدة ومتابعة ذلك، وعلى الفور بعثوا بالأخبار إلى العبد الفقير، وعلى الفور امتطيت صهوة جوادى، وفور وصولى إلى مستشفى قلاون فتحوا على الفور باب دار ثعابين الفاروق، وأخذوا العبد الفقير إلى الداخل، وأغلقوا الباب مرة ثانية على الفور، لأنهم على علم كامل بأن "العين حق"، أى أن الحسد واقع، وإذا ما حدث هذا، فإن الآلاف من هذه الثعابين الفاروقية تهلك على الفور، وهم لا يريدون مخاطـرة من هـذا النوع، ولذلك فهم لا يسمحون لأحد أجنبى بالدخول إلى دار الفاروق هذه . ولكن ما أعظم دار الفاروق هذه! فيا لها من مدرسة! جميع جدرانها وأرضيتها من الرخام المختلف الألوان . ويا لها من مدرسة! لا يُرى ولا يُلمس فيها أى علم سوى علم الطب، وحول حرم هذه المدرسة توجد مجموعة من الصوفات المفروشة، فى مقدمتها صوفة رئيس الأطباء، والأخرى مخصصة لكل من الناظر وكاتب الأوقاف ومرشد الأوقاف ولخلفاء الحكيمباشى العشرة، والدعاة، ولاثنَىْ عشر نفرًا من الصيادين والطهاة والقصَّابين .

وخلاصة القول كنَّا ثلاثين نفرًا ، وكان هناك مَنْ قدموا من الضواحى ويريدون الدخول من الباب إلى الداخل، ولكنهم أحكموا غلق الباب وسده وطمأنونى، وطلبوا منى ألا لا أخاف، فنهضت على ضوء خافت، ووردت المشاهدة . وكان جملة الموجودين قد توضأوا وصلَّوا ركعتين قضاءً ، ثم فردوا جملة آلاتهم على بساط المحبة أولاً، كان هناك ما يقرب من مائة قطعة من جذع الشجر، وكل منها بطول ثلاثة أشبار، وفى وسط كل منها مقدار شبر مجوَّف يتسع لوضع حجر سن مجلىً، وما يقرب من مائة سيف حادٍّ، وسواطير القصاب، وكلها مسنونة وحادة القطع، وكأنها شفرات إفرنجية، ومقدار مائة ماجور مصنوع من الفخار اللامع، بحيث إن كل واحد منها يتسع لرجل، وداخلها مملوء بماء مغلىً، وبعضها فارغ، وصينيات مَجْلِيَّة بالقصدير ومتبقية من زمن قلاون، ونحو إردب من الملح الناعم المتحول، وخمسون إناءً نحاسيًّا عميقًا وكأنها أزيار،

ولكن فوهتها تتسع لرأس إنسان، وما إن يهب الدعاة واقفين، حتى ينهض كل الحاضرين وقوفًا على الأقدام، وفى البداية يُبسْملون ويحمدون، وبعد الترضية والتصلية يذكرون بالشكر والحمد والثناء أولاً آل عثمان، وصاحب الخيرات والحسنات السلطان قلاون، والحكيم لقمان، وفيثاغورس، والتوحيدى، وسلطان الحكماء والأطباء أبا على بن سينا وأرواح سائر الأطباء . ويتمنون السلامة لسائر الحضور، ولرئيس الأطباء، والأغا الناظر والكاتب ورئيس الطباخين، وسائر الخدَّام والخلفاء، ويكبِّرون، ويتلون الفاتحة الشريفة، ثم يمسحون بأيديهم على وجوههم ، ثم يتقدم رئيس الصيادين وثلاثة من قصَّابى الثعابين، وما إن يفكُّوا فوهة واحد من الزنابيل الاثنى عشر الموجودة وسط الحرم، فالعظمة لله "العظمت لله" حتى تنطلق آلاف الحيات التى تنفث سمها الزعاف.

وكنت أنا الفقير أُتابع الفرجة من المكان المرتفع الذى أقف فيه ، ولكن طار عقلى من رأسى، فالثعابين التى يبلغ كل منها قامة الرجل، بعضها ينطلق إلى اليمين، والبعض إلى اليسار، وهى تُصدر فحيحها وصفيرها وتصطدم بالجدران، وهى تتناثر هكذا، ويكون خُدَّام الحكيمباشى وجملة الصيادين قد تجمعوا فى مكان، وهناك المحارم الصفراء الملمعة بالفاروق، وما إن يضعوها داخل هذه الإحرامات حتى تهدأ هذه الثعابين وتكف عن حركاتها . ويكون الصياد الأكبر جالسًا بجوار قطع الجذوع التى ذكرناها، والصيادون الثلاثة جالسون، وفى أيديهم السواطير، ثم يخرجون الثعابين من المحارم واحدًا واحدًا، وكانوا يخشون من أن يكون الصيادون قد وضعوا أى نوع من الثعابين الصغيرة البيضاء، وكانت الرائحة المسْكيِّة التى تنبعث منها قد أَسْكرَتْنِى أنا الفقير . وقد سألت رئيس الأطباء عن الثعبان المسكى فقال إنها لا تصلح للفاروق، نصنع منها أدوية أخرى، وسترى الآن . ورأيت ذلك ، فمهما كانت الكمية الموجودة من هذه الثعابين الصغيرة البيضاء، فإنها تُجمع فى مكان معتم بالمدرسة التى تصنع الفاروق، وتولج فى خيط حريرى من نوع القيطان الأحمر، ثم تُشد هذه الخيوط الحمراء من جدار إلى آخر، وتظل جملة الثعابين هكذا، وما إن تُوضع نُقط زيت الزيتون المخلوط بمسحوق الكوك "البمبى" حتى تموت الثعابين، ويبدأ كل منها فى الانتفاخ، وتبقى

الثـعابين على هذه الحالة أربعـين يومًا وأربعين ليلة، ثم يقطعـونها قطعًا ويخلطونـها بالبهارات، وتصير كالمسك، ومن قوتها تتدفق الدماء من أنف الرجل، ومنها نوع صغير وقصير، ورأس الواحد منها كأنه نصف قشرة جوزة مستديرة، وهى نوع من الثعابين المستديرة الرأس، وهى - كما سألت عنها - نوع آخر، وهى تُسمى الثعبان الصافى، وهو من سلالة الحيات التى سحبت سيدنا آدم من الجنة، وهذا النوع أيضًا لا يصلح للفاروق . وقال رئيس الأطباء إنهم يستخدمونها فى علاج آلام أخرى . وكان منها عشرة زنابيل، والكل يبحث عن الثعبان المسكى، والثعابين ذات الرأس المستدير.

أما الثعبان الصافى فهو سر آخر، حيث إن هذا النوع لا يخرج من بيضة كسائر الثعابين، بل هى تلد كسائر الحيوانات، فهى حكمة إلهية تخالف خلْقة الحيَّة . ولقد حصروا سائر الثعابين الفاروقية، كانت جميعها صغيرها وكبيرها ثمانية آلاف وثلاثمائة ثعبانٍ، وتم تسليمها للمتولى، وقيَّدها وسجَّل الكتبةُ والمرشدون فى السجلات أن قيمتها ثمانمائة قرش، وبعده فإن الصياد الكبير والثلاثة القصابين يجلسون بالقرب من القرمة، ويقولون: "بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله نويت الشفاء". ويُخْرِجون من الإحرام ثعبانًا كبيرًا، وفى الغالب يضعون الثعبان وسط القرمة، ويكون قد أمسك برأس الثعبان وذيله معًا باليد اليسرى، ثم بالساطور الذى فى يده اليمنى يقطعه، ثم يلقى الثعبان الذى أصبح دون رأس ودون ذيل على الرخام، ويبقى الرأس والذيل فى يد القصاب، ويظهر الساطور الذى فى يده، يدفع بالرأس على الرخام وهو يردد: "وحده الله" (= وحدوا الله)، فيتصايح جملة الموجودين فى المجلس قائلين "لا إله إلا الله" . ولكن كلما قطَّع قطعًا من الثعبان الذى يسحبه وهو ممسك ويقطع حتى تكون كل قطعة مقدار ثلاث أصابع، تناول أحد القصابين الثعابين المقطعة، وفتح بطنها بالسكين الذهبى الذى يمسك به، وأخرج البيض والأمعاء، وألقى بها إلى القصاب الآخر، فما يكون منه هو الآخر، إلا أن يُخرج الجلد بأظفره، ويكون قد سلخه من أوله إلى آخره، بينما يكون الجلد قد خرج مسبقًا ويكون اللحم عاريًا تمامًا من الجلد، ويبدو اللحم الأبيض، ويناول القصاب اللحم المسلوخ إلى مساعدى الطبيب،

فيغسلونه جيداً فى "الماجورات" المذكورة، ويملّحونها جيداً ثم يضعونها فى الأزيار الملَمَّعة، وبعدما يملأونها يضعونها على النيران، عندئذ يمسك رئيس الأطباء الساعة، ويوقد حطب خشب السنط، ويضعه تحت الأزيار، ولكن على لسان الجميع تتردد كلمة الذكر، والكل يتملكه الخوف والخشوع، فإذا ما أخرج ثعبان من الإحرام، فهم يبصقون فى فمه، وعندما يضعونه فوق القُرمة يكون الثعبان ثملاً وسكران، ويقطعونه وهو على هذه الحالة.

والحاصل أن الاثنَىْ عشر صياداً والقصابين يقومون على هذا المنوال بتقطيع الثعابين الموجودة فى الزنابيل العشرة، ويقولون إنهم يجمعون الذيول، والرءوس لعمل علاج آخر ، فهناك زجاجات كبيرة للقطرة ، وهم يملأونها. وقد قمت أنا الفقير بالسؤال عن العبرة فى ذلك، ولكنهم لم يجيبونى على الإطلاق، ولكن، والله أعلم، فوفقاً لعقلى القاصر، فإنهم يستخرجون السم الذى فى الرءوس ويرسلونه إلى بلاد الفرنجة، لأنهم ذات مرة قد أرسلوا من مصر بألف رأس ثعبان، تلك التى فى الحبال، إلى ملك دونكارقيز Dunkarkiz هدية، وكان الملك بها يحض على سيئ الأفعال، ويلتهمها من قيطانها.

صنع عظيم يوجب العبرة

ولكن عندما يقوم القصاب بقطع هذه الثعابين، فإنه يمسك بالساطور بشكل جيد، لأنه لو التصقت به قطعة صغيرة ولو بمقدار ذرة من الرأس أو من الذيل أو من البدن، فإن رئيس الأطباء ينتفض فوراً ويصيح عليه بأن يُلقى بالساطور وبالقرمة بعيداً. ويصيح قائلاً: "ارمِ .. ارمِ الحية" . وعلى الفور يقوم القصاب بإلقاء الرأس والذيل والبدن بعيداً عن المكان الذى به البيض والأمعاء، فإذا ما تلامست، فإن هذا الثعبان الذى هو فى الأصل فى سُمك الإصبع، يصير فوراً فى سُمك الذراع، فقد تأثر الجسد وهو يقطع الرأس، وتَسَمَّم الجسد وانتفخ، ولهذا السبب فإن رئيس الأطباء يصيح عليه،

ويجعله يلقى به بعيداً ويجعله أيضًا يلقى بالساطور والقرم بعيدًا، ويغيرونهما فوراً . وفى ذلك اليوم، ولحكمة إلهية، فإن الثعابين الخمسة والسبعين التى أخرجوها من الزنابيل العشرة لم تُقطَّع بشكل جيد آنذاك، فقد ألقوا بكل آلاتها . ولكن هذه الثعابين التى يلقون بها بعيدًا لا تقيَّد فى الوقف، بل تُقَيَّد على الصيادين والقصابين، وتحسب عليهم، وتكون تحت الحساب . كانت فرجة ومشاهدة عجيبة .

عبرة أخرى

إن هذه الثعابين المقتولة، يجمعون جلودها وأمعاءها وبيضها، وتصير كالجبال. وإذا ما استغرق أحد القصابين قليلاً فى النقوش التى على جلود هذه الثعابين وهو يضع عليها الملح الناعم، فإذا ما لمس إصبع أحدهم هذه المحتويات، فإنه يطلق صرخة ألم مدوِّية فوراً . وعلى الفور يتقدم منه رئيس الصيادين ، ويلقم إصبع الرجل بفمه، ويبصق السم الذى فى فمه، وفى الحال يُحضر ثلاثة ثعابين من تلك التى فى المجاور والتى سبق غسلها، ويلفها حول إصبع الرجل، وعلى الفور تنتفخ هذه الثعابين الثلاثة، وتُصبح فى حجم الذراع . فيأخذونها ويلفونها هى أيضًا، ولا تنتفخ زيادة عن ذلك، بل يتغير لونها، ويبعدونها هى الأخرى . وكان رئيس الصيادين عندما وضع إصبع الرجل فى فمه، فإنه قد مص السم من مكان الجرح، ويبصق السم الأصفر على الأرض، ثم يدهنون إصبع الرجل بالفاروق الأعظم ويَسكِّنون الوجع بذلك ، ويتم إنقاذ الرجل المسموم بهذا الشكل، ويكون قد عادت إليه الحياة من جديد . ولقد تم ذلك وشاهدته أمامى، وتم إنقاذ الرجل الذى سها قليلاً .

وخلاصة الكلام أن هؤلاء الرجال من الصيادين والقصابين تكون أرواحهم جامدة وقلوبهم كالحجارة، ولم أرَ مثيلاً لهم فى ذلك . وهم كذلك قد رأونى رجلاً فى ذلك ، ولكن أنا الفقير لم يكن عقلى فى رأسى طوال هذه اللحظات، وسيطر علىَّ الندم لمشاهدتى

ذلك، وسألت رئيس الأطباء مرة أخرى: إنكم تُملحون جلود هذه الثعابين وأحشاءها وأكبادها وبيضها، وتضعونها فى أزيار مملوءة بالماء الملح لحفظها، فماذا تصنعون بها بعد ذلك؟ فعاد رئيس الأطباء وسألنى هو : وأنت لماذا تسأل أنت ؟ فقلت: للعبرة الإلهية . وسألته مرة أخرى فأجاب : إن هناك قواداً ومرخصين إفرنجة، وهم يشترونه منًا، ويحضرونه للأطباء فى بلاد الفرنجة، وهم يداوون به أمراضًا مختلفة، فلكل عضو دواؤه المختلف، ولهذا تأثيره فى طرفة العين .

وبعد ذلك تطهر الجميع وقد وضعوا الثعابين المقطعة قطعًا فى الأزيار الملمَّعة، ثم يضعونها على المواقد الموجودة فى المطبخ القائم فى ركن الحرم، ثم يشعلون النيران فى شجر السنط تحتها. ويكون رئيس الأطباء واقفًا وفى إحدى يديه عصاه، وفى الأخرى ساعته يراقب، وهو كالأستاذ الكامل وسط تلاميذه. ولا بد أن يكون رئيس الأطباء حاضرًا، ويراقب الوقت، وتظل الثعابين تغلى فى هذه الأزيار لمدة ثلاث ساعات، ومن حين إلى آخر يظهر السمن الأصفر كالكهرمان فوق السطح داخل الأزيار، فيتناول رئيس الحكماء بعضًا بالكبشة التى فى يده ويفحصها، وتكون هناك الزجاجات الملمعة والمُعَدة لذلك، فيقوم رئيس الحكماء بملء الكبشة التى فى يده، ويصب فى الزجاجات والقَطَّارات الضخمة الموجودة ، وهكذا يملأ هذه الزجاجات بالسمن المتجمع فى كل الأزيار، ثم يُعيد إضرام النيران تحت الثعابين الموجودة فى الأزيار. وليكن معلومًا لسعادتكم أن الأوانى التى تُطبخ فيها لحوم الثعابين لا تكون من الأوانى النحاسية أو الحلل أو التناجر أو القازانات المعدنية، بل كما سبق القول تكون الأوانى كلها من الفخار المسوَّى، والملمَّع من الداخل والخارج . وبعد ذلك فإن رئيس الأطباء يقوم بوزن كمية من زيت الزيتون العالى الجودة والذى يُشبه ماء الحياة، بكمية السمن الذى أخذها بالكبشة التى فى يده، وهذا الزيت يُستَقْدَم من مدينة صوصة بولاية المغرب. ويضع فى كل زجاجة خمس أوقيات من سمن الثعابين، ومعها خمس أوقيات من الزيت

الخالص النقى، ثم يضع الزجاجات على نار هادئة، ثم تُرفع الحرارة رويداً رويداً ... وبعد ثلاث ساعات ينزلونها ويكون لها رائحة كالعنبر المسكى، وقد تعطرت رءوس كل الموجودين بهذه الرائحة الزكية، ولم يعد لدى أنا الفقير قوة تحمل على الصبر، فسألت رئيس الأطباء وقلت: والله إن بلاد الهند مليئة بالأمراض المتعددة كالجذام والبهاق والبرص، ولا بد أن يكون فى ذلك نفع كبير لهم، فلو أن هؤلاء الذين أصابهم هذا البلاء قد دهنوا منه، فبأمر الله لن تبقى فى أجسادهم علَّة من هذه العلل، ويصيرون كالدر الأبيض ، ولكن هذا لا يجدى فى إقليم مصر، فلو دهنوا به ألف مرة فلا يؤثر ، أما المصابون بالجرب والخفقان فى مصر فلو أُعطوا مثقال درهم واحدة لمدة أربعين يوماً، فإنهم يتخلصون من أمراضهم بأمر الله .

بعده يسوُّون الثعابين داخل هذه الأزيار الفخارية لمدة ثلاث ساعات، ويقل حساؤها إلى أن يصل مقدار شبر، فينزلونها من فوق النيران، وتكون جميعها قد سُوِّيَتْ ونضجت تماماً، فيفرغونها على صَوَانٍ نحاسية كبيرة حتى تبرد، ومن ناحية أخرى فإن حساء الثعابين المتبقى فى الأوانى، يوزعونه طبقًا للأسماء المسجلة لديهم من أعيان مصر منذ ما يزيد عن شهر، فيُخرِجون من الخزانات الكاسات والأباريق والبكارك المكتوب عليها الأسماء وأنواع المرض لكل مريض، وطبقًا لحالة كل مريض يضعون له الكمية اللازمة من حساء الثعابين، ووفقًا لحالة بعض المرضى فإنهم يضعون لهم فوق هذا المسلوق أدوية أخرى، ويسلِّمون لكل شخص كاسه، وهكذا يتم توزيع الكثير من حساء الثعابين على الكثير من الأماكن . وبعد ذلك يقوم الخدم بملء الصحون بحساء الثعبان، ويجلسون ويبدأون فى الأكل . وقد رأيت بنفسى رئيس الأطباء والأغا الناظر والكاتب وسائر الخدم وهم يملأون الفناجين من مسلوق الثعبان هذا ويشربونه . وقد أحضروا فنجانًا لى أنا الفقير فلم أقبله ولكن رئيس الأطباء (= الحكيمباشى) والأغا الناظر أقسموا قائلين إنه مقوٍّ، وإنه يزيد قوة الإبصار، وإنه

يقطع رائحة البواسير، وألحوا عليَّ، وتحت تأثير هذا الإلحاح قلت: الأمر لله . واستحضرت كل قوتى، ولما شربوا جميعًا أمامى، قلت لنفسى أنا أيضًا فلأتشجع . وأغمضت عينى، وشددت على أسنانى، ورفعت الفنجان بعد أن نويت الشفاء وشربته، ولقد شممت رائحة المسك التى تنطلق منه ، فأحضروا فنجانًا آخر، وبطرف السكين ألقوا فيه جزءًا يسيراً من سمن الثعبان المخلوط بزيت الزيتون، وشربته هو أيضًا، ولكن يعلم الله العليم أن رائحته العنبرية لم تخرج من دماغى طوال الأسبوع .

فى بيان منافع مسلوق الحيَّة

قد سبق التسطير أنه عندما تحركنا بحمد الله من مكة المكرمة متجهين نحو بدر حنين ليلاً أن هاجمنا البدو، وأن حربًا طويلة دارت بيننا وبينهم، وتخلصنا منهم . وكنت قد جُرحت فى تلك الأماكن وامتلكت الحرارة بدنى، وبعد أن شربت هذين الفنجانين من مسلوق الثعبان هذا لم يبق فى جسدى بعد أسبوع فقط ذرة ولا شمَّة من المرض أو العلَّة ، وأصبح بدنى كالفضة الخالصة، وصرت معافى الجسد وشهدت بنفسى العديد من نفعه .

مغامرة

ومن فوائدها ما أقص هنا، ذلك أنى كنت معاونًا للإنكشارية حين حاصر بَنْلى Benli مصطفى پاشا سنة ١٠٥٦هـ = ١٦٤٦م قلعة شبنبك من قلاع البنادقة المتاخمة لحدود البوسنة، ودكَّها أربعين يومًا بلياليها بالمدافع، ولكن لم يتيسر فتحها، فرجعنا إلى موضع يُسمى دانيلوڤا، وكان قد أحاط به مائتا ألف من كفار أسكوك uskok ودودشكا Dudoska والإفرنج والكرواتيين، وحاربناهم سبع ساعات حربًا شعواء، لكن انهزم الجيش العثمانى بعدها، فشرع الكفار فى إبادة المسلمين . وقد شاهدت بنفسى

مقتل سبعة من عبيدى وثلاثمائة وثمانين من رفقائى بأبشع صورة، فتركت كل ما معى من الأموال والأرزاق وهربت ممتطيًا جوادًا كان هدية من الوزير الأعظم قرا مصطفى باشا[٥٤] . وقد أرغمت أنا الفقير على قطع تلك البيداء الواسعة، وعجز الكفار عن اللحاق بى والاهتداء إلى مكانى، إذ حفظنى الله عن عيونهم .

ونجوت من المطاردة، ولكن ما إن غربت الشمس حتى ضاقت الدنيا أمامى، فتركت الجواد ودخلت الأدغال حاملاً سيفى وكنانتى وقوسى، وقضيت سبعة أيام وست ليال فى تلك الأدغال لا أنيس لى إلا الوحوش والطيور، مكتفيًا فى طعامى بجذور الحشائش وبعض الفواكه، ولم يكن السير على الأقدام سهلاً مع حمل السيف والقوس والكنانة، فقد انقطع " الحزام " من ثقل ثمانين دينارًا أسَديًّا ومائة وخمسين قطعة ذهبية كنت أخفيها فيه، فصرت ضعيفًا عاجزا عن متابعة السير . ولم يكن أمامى بد من التخلى

---

(٥٤) **الوزير الأعظم قرا مصطفى باشا** : من الوزراء العظام الذين تولوا الصدارة فى عصر كل من السلطان مراد خان الرابع وإبراهيم خان . أرناؤطى الأصل، وفد إلى إستانبول وهو مازال شابًا ، وانتسب إلى الأغا قره حسن الإنكشارى ، ثم صار صبيا بين البكداشية بعد الكثير من التدريب والتعليم . كان ماهرًا فى رمى السهام ولذلك أُنعم عليه برتبة "الجورباجية" ثم صار كتخدا (= معتمد) القول ورئيسًا للسكبان . خلال حرب روان عُيِّن أغًا (= قائدًا) للإنكشارية . سيطر على هذا المعسكر وجعل الأمن والطاعة السمة العامة بينهم .

عندما عاد إلى دار السعادة عام ١٠٤٥ هـ= ١٦٣٥م عُيِّن قبطانًا للبحرية وفرض النظام وأطاح بالعصاة فى هذا المعسكر أيضًا ، نظم أمور الأستانة جنبًا إلى جنب أمور الترسانة البحرية . رافق السلطان فى حربه على بغداد، وعندما استشهد طيار محمد باشا سنة ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م أسندت إليه الصدارة، وعندما عاد السلطان إلى إستانبول بقى هو لعقد الصلح مع شاه إيران . ثم عاد إلى العاصمة عام ١٠٤٩ هـ = ١٦٣٩م. وتولى السلطان إبراهيم العرش خلال هذه السنة ، فأبقى عليه صدرًا أعظم فقام بتأديب الخارجين على الدولة وأعاد إلى العملة ثباتها وقيمتها الحقيقية . وأمَّن دخل الخزينة على الرغم من القيل والقال ، واستطاع القضاء على كل المعارضين لهذه الإصلاحات الضريبية. ولكن بسبب الدسائس والفتن تم إعدامه سنة ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣م، بعد أن قضى فى الصدارة خمس سنوات وثلاثة أشهر ، وتم دفنه بجوار المدرسة التى كان قد أمر بتشييدها فى بارمق قابى، كما اشتهر أيضًا بلقب "كما، نكش مصطفى باشا " بسبب مهارته فى رمى السهام . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٥ صـ (٣٦٤٧ - ٣٦٤٨).

عن تلك المعدات، فأخليت الكنانة من الأسهم وصررت الحزام بمنديل وجعلتهما والسيف والبندقيتين تحت حجر كبير بأسفل صخرة واستودعتها الله . وأخذت القوس بيدى ثم نزلت خفيفًا إلى نهر هناك فتوضأت وصليت ركعتَى الحاجة مستمدًا من أرواح الأولياء والأنبياء قوة لروح " أوليا " المخلص هذا، وبينما أنا فى حيرة ودهشة إذ سمعت صوتًا باللغة البوسنية ولهجتها يقول: "بيره ميو Biremeeu" فأجابه صوت: " إشتووليش ؟ isto Welis ومعناه بالبوسنية "ماذا تقول" ؟ . ورد عليه الأول " خُدامو سنكو خودامو -Hoda mu snko Hodamu أى تعال يا بنى تعال. سُرِرْتُ من سماع اللغة البوسنية واطمأن قلبى، ولو أنى أوجست خيفة، وبينما أفكر هل هؤلاء القوم من الكروات والأسكوف الذين يقتلون العثمانيين حيثما يجدونهم ارتفع صوت بالأذان، واتضح أنه صادر من رجل مسلم جاء مع ابنه محتطبًا، فلما حل وقت الظهر أذّن للصلاة . فلم أكد أسمع الأذان المحمدى حتى أسرعت إليهما مسلما عليهما وتعرفت عليهما . قال الرجل الكبير باللهجة التركية البوسنية : أهلا وسهلا، وكيف حالك ؟ وماذا تفعل فى هذه الجبال ؟ قلت: هذه الجبال نعرفها فقد جئنا مع بعض الرفقاء لنصيد فيها، ونحن من رجال الإنكشارية المقيمة بقلعة هلونة Helone . وقال: هل عندك علم بحال الجنود المهزومين ؟ قلت: انهزموا منذ سبعة أيام وقدموا إلى قلعة هلونة . ثم قال: وكيف أخذوا قلعة كليش؟ وموجز القول أنى صرت صاحبهما وسرنا نحن الثلاثة إلى قلعة غلاموج Glamog، وبينما نحن فى طريق تلك القلعة قابلنا محافظها فى الطريق فحكينا له الحالة المحزنة بالتفصيل . ولم يكد يسمع القصة حتى أنزل أحد أتباعه من حصانه وأمرنى بركوبه، فركبته حامدًا شاكرًا ودخلنا قلعة غلاموج بعد مسير ساعتين ونزلنا ضيوفًا عليه .

وهاك الحكمة : إننا حينما كنا بجانب قلعة الإسلام بقيتُ سبع ليال فى العراء أنيس الثعالب وبنات آوى والأرانب والغزلان، مقابل ساعة خفت فيها من الجن . فلما كان صباح اليوم الثامن قلت لمحافظ القلعة إنى تركت فى الجبل بعض أشياء أريد أن أحضرها . ورجوت منه أن يعطينى عشرة رجال، فخرجنا راكبين وسرنا متتبعين

الطريق الذى جئنا منه، فلما وصلنا إلى الموضع الذى دفنت فيه أشيائى نزلت عن صهوة جوادى وسلمته إلى رفاقى قائلا: إنى أريد أن أغتسل هنا . وذهبت إلى الصخرة واستخرجت الأشياء كاملة إلا جلد الكنانة، فقد أكله حيوان لا أدرى أهو ثعلب أو ابن آوى . ومهما يكن من شيء فإنى علقتها والكَمر على حزامى والتحقت برفاقى وركبت جوادى ورجعنا إلى القلعة التى مكثت فيها ضيفًا سبعة أيام .

ومن العجيب أنى كنت نائما ذات ليلة فوقع أمر شبيه بالاحتلام، بينما كنتُ قلقًا أتقلب من وجع ظهرى، نزل منى دم ممزوج بصديد متقطع نحو ساعة من الزمن فمرضت بعد ذلك سبعة أيام . فلما تماثلت للشفاء أهدى إلىَّ محمد أغا محافظ القلعة حصانًا وكسوة، كما حمَّلَنى إلى سائر رجال الدولة أشياء مختلفة، وعُنُوا بتطييب خاطرى، وأعطونى أيضًا خادمًا خاصا ثم أرسلونى فى رفقة عدد من رجالهم إلى قلعة هلونة للالتحاق ببنلى مصطفى پاشا . حتى إذا التحقنا بالپاشا استرحنا واطمأن بالنا، ولكننا لم نجد أحدًا من رفقائنا، فقد استشهدوا جميعا بيد الأعداء، ووقعت قلعة كليش بأيديهم فقتلوا كل الجنود المنوط بهم المحافظة عليها، حتى إن بنلى مصطفى پاشا اضطر إلى استدعاء أهل الولاية للمحافظة عليها . وقد استقبلنى الپاشا مرحِّبًا وأهدى إلىَّ جوادًا وبذلة للمعرفة القديمة التى بيننا، فهو حمو قريبنا " ملك أحمد پاشا " لزواجه بأم " قيا سلطان " زوجة ملك أحمد پاشا .

والمراد من سرد هذا الحديث، والحديث ذو شجون، أنى منذ الليلة التى حدث لى فيها حادث شبيه بالاحتلام والإصابة بالمرض لم يَصْدُر منى مايدل على الرجولة حتى الاحتلام، وحزنت لذلك خوفًا من انقطاع النسل والذرية ، ومضى على ذلك سبعة وعشرون عامًا . فلما قدمت إلى القاهرة وحضرت تركيب ترياق الفاروق بمستشفى قلاون وشربت فنجانين من مسلوق الحيَّة ودهنها، احتلمت فى تلك الليلة مرتين متواليتين وما إن أصبح الصباح حتى ذهبت إلى المستشفى وقصصت

للحكيمباشى (= رئيس الأطباء) ما حـــدث، فـأعطانى عشـــر أوقيات من مسلوق الحية ممزوجة بأوقية من دهنها . وما إن استعملت المسلوق خمسـة أيام أو سـتـة حتى صـــح جســمي وقوى لحمي وشحمي إلى حد أن كان زمـلائى يكسرون عليه البندق، وكان لها معى منافع أخرى .

مفعول قرص الفاروق

وحـاصل الكلام أن رئيس الأطبـاء الحكيـمبـاشى قـدَّم من مـرق الحـيـات لجـمـيـع الحـاضـرين، حـتى إذا بردت الحـيـات المسلوقة التى وضـعت فى الصـينيات جلس هو وأعوانه من تلاميذه إلى تلك الصينيات، وقد شمروا أيديهم وغسلوا غسلا جيدًا، فأخذوا يستخرجون حبالاً ممدودة بجانِبَىْ سلسلتها الفقرية كأنها مقاط (سجيم) فى سُمك مبراة، وهى ما يسمى بقرص ترياق، فلذا يؤخذ منه الفاروق ينتج مثقالاً من كل حية. وليس كل جسم الحية لصنع الترياق كذلك الجزء . ويوزَّع الباقى على الفقراء أو يُرمى ويُدفَن فى الأرض .

لطيفة محببة للمنهكين فى الجماع

يُعْطى يَخْنِى الثعبان للعاجزين عن الوقاع، فإذا تناوله عاجز واقع زوجه خمس مرات أو عشرًا ولم يستكفِ، فتتأذى زوجه وتصبح مقيمة عليه قضية جماع حتمًا ، وتشكو مستعيذة بالله أنها لا تطيق هذا البلاء، كما أن آكل لحم الحية يعترف بأنه واقعها عشر مرات . ويصلح قاضى العسكر (أفندى) بينهما على عشرين مرة !! ولا يكاد يسمع ذلك حضور هذه الدعوى حتى يشربوا حساءهم داعين " رب يسِّر " . وموجز القول أن ما يُستخلص من ظهور الحيات من الحبال يُدَق فى هاون خشبى ثم

يصنع منه شيء كالمعجون بعد أن يوزن بالميزان وهو ما يسمى قرص الأفعى .
ويكون حينئذ المعجون الأكبر - أبيض اللون - ثم يخلط هذا المعجون بمختلف العقاقير المدقوقة والمنخولة نخلاً دقيقًا ويمزج بالعسل الرومى (التركى) المغلى مرتين .

هكذا يصنعون من ترياق الفاروق ثلاثة مراجل فى كل عام، تُرْسل منها أولا قدران إلى عَظَمة السلطان، وقِدر إلى الوالى، ثم ترسل منه هدايا إلى الوزير الأعظم (الصدر الأعظم) وشيخ الإسلام وكبير الأطباء بإستانبول وإلى القاضى التركى بالقاهرة، ويحتفظ ناظر المستشفى بما تبقى منه فى خزانة المستشفى لاستعماله للمرضى الذين يعالجون فيه . وهكذا يُصَدَّر الترياق من مصر إلى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم والإفرنج وسائر البلاد، ويصنع دائمًا مرة فى كل عام . ولكنه صنع ثلاث مرات فى عام حين كان الفقير (أوليا) فى مصر، وذلك لأن كبير أطباء المستشفى كان من كُمَّل الأساتذة .

خواص الحية الصافية

وأما الحية البيضاء التى تُسمى الصافية، والتى يزيد عددها على ألف حيَّة، فقد فتحوا لها باب المدرسة ونقلوها إلى غرفة صغيرة ذات زجاج، وفيها من ركنها إلى ركنها حبل غليظ . وربط الحكيمباشى كل حيَّة من ذَنَبها بقيطان حرير أحمر وعلَّق بعضها بجانب بعض بذلك الحبل . هاجت الحيات وأخذت تتلوى ويلدغ بعضها بعضًا حتى صارت حيات غليظة من تأثير السم ، ولما تمت عملية الربط والتعليق وأخرجوا مَنْ بالحجرة أغلقوا بابها غلقًا محكمًا، حتى إذا فتحوها بعد أربعين يومًا وجدوا الحيات قد جفت وصارت قديدًا رقيقًا فى بطونها حبات سوداء كحب القاقولة، ذات رائحة زكية تُسْكِر من شمَّها .

وخواص أخرى للحية

وأما الحية الصغيرة الأخرى ذات الرأس الشبيه بنصف قشرة الجوزة فقد قطع الجزَّارون كل حَيَّة منها نصفين ثم وضعوها بجلدها الأبلق فى حقاق رصاصية محافظة عليها من النمل الذى يتهافت عليها ، وذلك لأن لحم الحيَّة ولحم الإنسان من ألذِّ اللحوم، وقد رأيت لذة لحم البشر عند الشعب القلموقى[٥٥] من آكلى لحم البشر الذين يعيشون فى الصحراء .

لطيفة ذات عبرة غريبة

لقد رأيت صحراء هيهات، أكلة لحوم البشر، بين قوم القالمُوق، وهم يشعرون بلذة أكل لحم البشر، فهم يأكلون لحم موتاهم، كما أنهم يخنقون بعض أسراهم من فقراء النوغاى[٥٦] ويأكلونهم ؛ ولكى لا تذهب الدماء سُدًى فإنهم بعد أن يخنقوهم يشوونهم

---

(٥٥) القالموق Kalmuk : فرع من فروع المغول الذين يعيشون فى شمال غربى وجنوب غربى بلاد المغول، وينتشرون حتى حدود الصين والتبت، وهم يعيشون فى حالة تنقل وترحال فى هذه المناطق الشاسعة. ينقسم القالموق إلى أربعة فروع، وقد تتركوا جميعًا، وسماتهم جميعًا مغولية . تتمتع نساؤهم بشىء من الحسن والجمال، يتزاوج بعضهم من بعض ويكونون أفخاذًا جديدة . يعيشون على الحيوانات ومنتجاتها ، يسرفون فى شرب القميز المصنوع من لبن الفرس ، وهم أصحاب قطعان كبيرة من الأغنام والجمال والجياد، ويصنعون الأجبان من ألبان هذه القطعان ، ويصنعون من أصوافها ووبرها ألبستهم وخيامهم وأغطيتهم. يتنازع الصينيون والروس على إدارتهم وتبعيتهم. لغتهم قريبة من المغولية أكثر منها إلى التركية، تعرفوا على حياة الزراعة ، ولكنهم عادوا إلى حياة البداوة، (انظر: ش . سامى ، قاموس الأعلام جـ ٥ صـ ٣٥٥٨) .

(٥٦) النوغاى : قوم من أقوام الترك الشرقيين والذين يطلق عليهم التتار ، يسكنون الوديان الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود . خضعوا لحكم العديد من الأقوام الأخرى ، وبعدما قبلوا الإسلام. اندمجوا مع المغول وكونوا عنصر النوغاى، وعندما تفرقت دولة القپچاق سكنوا أقصى الحدود وانتشروا حتى بلاد المجر ... وظل بعضهم تحت سيطرة الدولة العثمانية وتوطن بعضهم بلاد القرم ، وتوسعوا شمالاً حتى =

ويلتهمونهم فوراً . وحسب قولهم فإن لحم الإنسان ألذ من أى لحم آخر، ولا يعادله فى ذلك سوى لحم الثعبان ولحم الخنزير. وعندهم ليس هناك ما هو ألذ من ذيل الخنزير وإلية بنى البشر ، وفى حقيقة الحال فإن الذين يعلمون لذة هذه اللحوم فى روما كثيرون من أتباع مذهب القالموق. وأنا الفقير أيضًا قد شاهدت ذات مرة لذة لحم بنى البشر، فلو أن الإنسان قبَّل محبوبه مرة، فإنه يجد فى ذلك خلود الحياة، ويشعر بالنشوة، وعندها علمت كم أن لحم الإنسان لذيذ.

ونتيجة الكلام، فإن الذى يصل إلى مصر ولا يرى الكمية المتحصلة فى مصر من هذا الفاروق الأعظم، يكون كمن لم ير أى عبرة على وجه الأرض، والسلام .

ولو أن ثعبانًا قد استولى على برج الحمام، أو دخل منزل إنسان، فيطير الهدوء وتذهب السكينة فى الحال. ولا بد أن يجدوا واحداً من صيادى الأفاعى ليصطاد الثعبان المذكور، ولا بد أن يعطوه بضعة قروش، وما إن يدخل المنزل حتى يطلق نعرة ويمسك بالصفارة أو الناى الذى يعلقه فى خصرة، فيعزف عليه، وأحيانًا يُطلق صفيراً بفمه، وما هى إلاَّ لحظة حتى يسمع الفحيح وكأنه الصفير، وبعدها تبدأ الثعابين فى الظهور، وما إن تُطل برأسها حتى تبدأ الحرب بينها وبين الصياد . وبعد فترة يملأ الصياد بها مخلاته، وتُصبح تلك الدار خالية من الحيات والثعابين وآمنة . ولكن هذه الأنواع لا تصلح للفاروق، فالحيات الخاصة بالفاروق أنواع خاصة بذلك تكون فى البرارى والبرية .

= الفولجا. حاولت روسيا القيصرية القضاء عليهم، وحاربوها حربًا شعواء، ولكن انهارت قوتهم نحو ١٧٧٠م، وانتقلت بلادهم إلى التبعية الروسية ، مما دفع الكثير منهم إلى الهجرة إلى مناطق الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية . كانت هجرتهم الثانية مع الجركس إلى الدولة العثمانية ، وهم أقلية فى روسيا ويتحدثون باللغة التركية الشرقية . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام . حـ ٦ صـ ٤٦٢٢) .

وإن كتابنا، وتحوَّل كلامنا، قد طال مثـل حكايات الثعبان. ولكن "علم الله وشهد الله" أن ما يلى قد حدث : فى سنة ١٠٨٥ كان الإمام أحمد أفندى إمام سيدنا جانپولاد زاده حسين پاشا موجوداً، وكانت حجرته مجمعًا للثعابين، فأخرجوا الإمام من حجرته، وذات يوم، وبينما الفرس الكحيل الخاص بالإمام يأكل من علوفته، لدغته حيَّة فى أنفه، فنفق على الفور، وانتفخ جسمه حتى صار كالفيل ولم يمكن نقله إلى مكان لدفنه، وأخيراً حفروا حفرة فى هذا المكان ودفنوه فيها، ولكن ظللت أنا الفقير لا أقترب من منزل الإمام، ولم يدخله هو أيضًا، حتى صادفت أنا الفقير ذات يوم واحداً من هؤلاء الصيادين، فأحضرته إلى غرفة الإمام، فأطلق نعرة، وما إن بدأ بالعزف على صفارته حتى رأيت أنا عشرة ثعابين فى سُمْك العضد، وكل منها أطول من الذراع، وما إن تطايروا حول رأس الصياد حتى هرب كل الناس، وفررت أنا إلى قصر ديوان سيده، وتفرجت وتابعت ما حدث من الشباك، وربما ظلت الحرب بينها وبين الصياد أكثر من ساعة، وأخيراً وضع فى جواله أحد عشر ثعبانًا منها، وانطلق بها وهو يدعو قائلاً : الله يبارك. وذهب مبتعداً بعد أن خلَّص القصر من الثعابين ، وبعدها عاد الإمام إلى غرفته، ومكث بها .

حكاية غريبة أغرب من الغرائب

بعد عدة أيام وصلنا إلى ميدان الروميلى، بينما كان صيادو الثعابين قد أعطوا لعَّابى الثعابين (= الحواة) أحد عشر ثعبانًا وقفوا بهم فى ميدان الروميلى، فى مقابل أحد عشر قرشاً، ولكن يعلم الله أن كل واحد منها كان مهيباً مهابة جيش كامل، فقد كانت ثعابين متفردة، وكان الحاوى قد درَّب هذه الثعابين لعدة أيام، لدرجة أنها كانت ترقص فى ميدان الروميلى كرقص القرود تمامًا، وكم كان لدى هؤلاء الصيادين من فنون السحر العجيب ومن الألاعيب السحرية ما يحير العقول ! والله أعلم، فقد منحهم كرامة الأولياء، والسلام .

أمَّا الغرابة فى ذلك، فهى أن بها بعض المهازل والمسخريات التى لا يمكن التعبير عنها، فبينما كان لاعب الثعابين (الحاوى) يلعِّبُ الثعبان الأساسى فى ميدان الروميلى ويرقِّصه، فجأة قام واحد من الثعابين الوحشية بالقفز من مكانه، ولدغ واحداً من الأبرياء فى قدمه! وللحكمه الإلهية أن كان يمر واحد من فقراء الطريقة السعدية من هذا الجوار، فقام بمصٍّ السم من قدم هذا البرىء، وألقى بالسم على الأرض. والحاصل أنه تم إنقاذ الرجل من السم القاتل، وأصبح كالأول، ولكن على الفور لم يستقر الفقير السعدى فى مكانه، بل أطلق صيحته قائلاً: "يا حى ياقيوم" و"سلام على نوح فى العالمين" وأمسك بالثعبان الذى لدغ الرجل البرىء، وأخذ يلتهمه! وعلى الجانب الآخر أخذ أحد الرجال يولول قائلاً : إنه ثعبان الإمام پاشا، ولقد أخذته بأحد عشر قرشًا . وتابع صياحه وصراخه. ونهاية المقام جاء حارس أمين الخرده الذى يعتبر قاضى أرباب مهنة الحواة الثعابين، وأحضرهم جميعًا مع الفقير السعدى إلى الپاشا، فما كان من الفقير السعدى إلا أن تناول بقية الثعبان فى حضور الپاشا، وقد أزبد فمه، أما اللاعب فقد كان يصيح، ويصرخ قائلاً: لقد ضاع ثعبانى. وأصبح كالمجنون، فما كان من الشيخ إلاَّ أن قال: لقد خلصت الرجل البرىء من السم على مرأى من الحضور، وهم يشهدون بذلك. فحض الپاشا الشيخ على أن يأكل ثعبانين آخرين فى مجلسه، وما إن انتهى من ذلك حتى منحه الپاشا خمسين دينارًا ذهبيا، وقدَّم إلى الحاوى ملعِّب الثعابين عشرة دنانير، وللغلام الذى لدغه الثعبان خمسة دنانير، وانفضٍّ المجلس، وكانت فرجة غريبة .

ولقد تم فى هذا المجال تحرير أوصاف الترياق الفاروقىٍّ ومناسباته وأوصافه، والعبر المستوحاة من ذلك، كما تم مدح ووصف مستشفى (= بيمارستان) قلاون، وليس هناك داخل مصر مبنى عظيم ولطيف، وأوقاف متينة مثل تلك التى لمستشفى قلاون،

حتى إن بها يوزع المعجون على المرضى ولكلٍ مقره، ويا لها من دار للشفاء ! كان بها مطربون وعازفون يغنون ويعزفون للمرضى وللمجانين، كما كان بها صيدلية نشطة ممتلئة بالأدوية بحيث لا يوجد مثيل لها فى الرَّبع المسكون، وهى فوق كل وصف، ومملوءة بكل الخيرات. إن الذى أوجد الترياق الفاروقى فى بادئ الأمر هو (دنوش بن مناقيوش) وهو من ملوك القبط .

بيان تركيب الترياق الفاروقى الذى يُنتَج من قرص الأفعى المشار إليه سابقًا

فى الحقيقة، إن الأطباء القدماء استحدثوا أنواعًا مختلفة من الترياق، ولكن أكثرها اعتباراً هو الترياق الأكبر، بحيث إنه دواء لمائة وستة وسبعين نوعًا من المرض، وهو يتكون من سبعة وستين دواءً . إن خواص الفاروق الأربعة أنه يقضى على حساسية المعدة، والروائح الغليظة فى الأمعاء، ويقضى على أربعين نوعًا من الأمراض. أما خاصية ترياق الطين المختوم، فلو أن إنسانًا شرب سُمًّا قاتلاً، أو لدغه ثعبان أو أىٍّ من سائر الحشرات القاتلة فلو تناول مثقالاً منه فإنه يشفى بأمر الله. وترياق الطين المختوم حسب قول الحكيم الجرجانى نافع جدا للدغة الثعبان ولمن يريد التنقية التامة . وخاصية الترياق اليابس أنه نافع لجميع الحشرات، وأما ترياق أبانوش فإنه لكل الروائح الكريهة ولسائر لدغات الحشرات، فلو أخذ منه المصاب نصف درهم وسحقه وشربه بالماء فإنه يجد الشفاء بإذن الله . وترياق هرمس الكبير نافع وفيه الشفاء لكل السموم، واللسان يعجز عن وصفة . وترياق الأمير بالبوس هو تركيب عجيب، يجعل الإنسان محبوبًا، ولونه صافيًا . إن جملة هذه الأدوية السامَّة تُصنع فى مستشفى قلاون جميعها ، وهم ما زالوا يصنعونها فى عصرنا .

بيان ترياق الحكيم هاليوشى

هذا ترياق لا مثيل له فى العالم، ومَنْ يملكه يملك الدنيا وما فيها، فهو يشفى جميع الأمراض، مهما اختلفت أنواعها. يشفى البُهاق والجُذام، والبرص وما يشابه ذلك ، فمن يتناول منه مثقالاً واحداً يشفَ بإذن الله من هذه الأمراض المهلكة . وبعد تناول هذا المثقال يتصبب البدن عرقًا، وتتساقط مع العرق كل الأمراض، ويصير البدن سليمًا .

وتركيبه كما يلى : قرص الأفعى يضاف إليه القرنفل والزنجبيل وحبة القامولة والجوز والسادج والحنطايانا والميعى اليابس والقصب المر، والأصل الكسبرة والحناء وعود القهر وحب البلسان والسليما والقرفة والسنبل الهندى وبذر الجزر والفلفل الأسود وحبة القار . من هذه الأشياء ثلاثة دراهم وعليها درهمان من الزعفران والقردمانا ثم يضاف إلى كل ذلك مقدار كافٍ من العسل الخالص وتُعجن جميعًا، وتوضع فى أوانٍ بلورية لمدة ثلاثة أيام، ثم يضاف إليها بعد ذلك ثلاثة دراهم من الأمبون والزعفران والصمغ، ثم تخلط هذه المواد جميعاً بمادة سائلة، وتسحق جميعها جيداً، ثم يخلط بها مثقال من سائل الحمياء خلطًا جيداً، وتُضاف هذه الخلطة إلى الخلطة الأخرى الموجودة فى الإناء البللورى، ثم يجعلونها كحبات الشعير ويحفظونها كالفاروق الآخر، وكسائر المعاجين يحفظونها فى الأماكن المعَدَّة لذلك، حتى يحين وقتها، فيتعاطونها بالمثقال، وليس لنفعها حد أو نهاية، ولا يستطيع إنسان أن يملكها .

الفصل السادس والثلاثون

فى بيان عُيُون ماء الحياة التى تجرى فى مصر

بما هو فى داخل القلعة، فالجملة إحدى وعشرون عينًا، وهى جميعًا وجملة السدود والجسور تبلغ ثلاثمائة وستين عينًا من أعمال البِر والخير للسلطان قانصوه الغورى وكلها تصل إلى داخل القلعة وتأتى إلى الأعماق، فترفعها الدواليب (= النواعير) ليلاً ونهارًا ، وتملأ خزانات المياه ذات القباب العظيمة ، وفى الصباح فإن سقّائى القلعة الخمسمائة يحملون المياه من العيون (= المناهل)، ويسقون بيوت القلعة ويأخذون پارة واحدة لكل أربع قرب. وإحدى هذه العيون المذكورة عبارة عن قبة عظيمة فى أعماق الضربخانة داخل القلعة، ولها خراطيم فى سُمْك ذراعين، وتأتى من السواقى الموجودة بالقرب من قصر الپاشا (= القائد) ، وهناك عين ماء أخرى، وعيون الشيخ صارى كذلك وحوضه وشادروانات، ولها سواقيها، وفى سهل نمكند Nemkind، وخارج قلعة الإنكشارية، وعلى شمال جامع قان باى . وبالقرب من جامع السلطان تنبع مياه ساقية أخرى من بين الصخور الصماء، أو بمعنى أدق من مياه البئر التى تنبع من بين الصخور الملساء . وهناك عين أخرى، فى قلعة الضواحى، وهى تقع أسفل ديوانخانة (= قصر الديوان) للسلطان قلاون ذى الأربعين عمودًا وبين قصور القادة، ولها قبة عظيمة، وبها صنبوران بضخامة الذراع . وهى عين ذات ماء زلال، تبعث الروح والبهجة فى الإنسان . ومن جملة هذه العيون يحمل السُّقاة مياههم إلى قصور وبيوت القادة وعلية القوم . وهذه المياه أيضًا ضمن الماء الزلال الذى يأتى من أحزمة الغورى . وهناك عين أخرى فى ميدان سراى الپاشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة، وهى نبع صافٍ تتدفق مياهه من صنبورين، وهى أيضًا من أحزمة

الغورى . وهناك عين أخرى بالقرب من معمل ناحية الخباز، وهى من العيون ذات الصنابير الستة وذات صنابير للوضوء أيضًا، وكلها تدفع العطش عن العطشى، وهى جميعها ذات ماء طهور، ومياهها جميعًا تأتى من سواقى الغورى . وهناك عين أخرى في مطبخ الپاشا، وهى عين مفرحة، تشرح الصدور، ذات خرطومين فى ضخامة الذراع، وبها صنبوران، وهى أيضًا من مآثر الغورى. كما أن هناك عينًا أخرى فى الإسطبل الخاص بالپاشا، وماؤها زلال، يتدفق من خرطومين، بحيث تشرب منها جميع الخيول من كحيلات وفرسان مهر وجياد أصيلة، وهذا أيضًا من مآثر الغورى. كما أن هناك عينًا أخرى وسط عنابر الغربان، ويتم النزول إليها بسُلَّمٍ مكوَّن من ست درجات، وهى عين الحياة، ذات قبة عالية عظيمة ، ولها خرطومان متجاوران، كل منهما فى سُمْك الذراع، وهذه أيضًا من مآثر الغورى، وبالقرب منها وفى الناحية الداخلية لباب العزب عين أخرى، يستقى منها طائفة الجند المكلفين برعاية حجاج المسلمين، بالإضافة إلى عيون المياه التى تجرى فى منازل الحج لكى يشرب منها الحجيج ودوابِّهم وخيولهم، وهذه أيضًا من مآثر الغورى، ولا مثيل لهذه العيون إلا فى مصر فقط، وداخل القلاع. ولم أر نظيرًا لها فى غير مصر، وإذا ما سأل سائل: هل هذه العيون الإحدى والعشرين تكفى لسقاية السواد الأعظم لسكان القاهرة المُعِزِّية أمِّ الدنيا؟ وهل تُغطى احتياجات بحر البشر المعظَّم الذين يعيشون فيها ؟ فلا بد من أن نذكر له بالإضافة إلى ذلك السواقى والعيون والآبار التى تم تحريرها عند الحديث عن فرمان السلطان مراد الرابع المشار إليه سابقًا، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن البساتين والحدائق والحُدَيِّقات التى فى القاهرة أم الدنيا ليس لمعظمها سواقٍ خاصة بها ، بل هذه تُذكر مع الحدائق، وتُحسب معها .

الفصل السابع والثلاثون

فى بيان الأحواض والسواقى والعيون المالحة والآبار التى بداخل مدينة مصر " القاهرة "

بينما كان بايرام پاشا واليًا على مصر، خلال بداية عصر السلطان مراد الرابع فاتح بغداد، أصدر إليه فرمانًا للقيام بحصر الدكاكين والمساقى السلطانية وجوامع مصر وعماراتها الخيرة، وبناءً على هذا الفرمان تم حصر كل هذه المنشآت، وعُرِضت على مقام الشهريار، وكانت مائتى ألف وأربعًا وسبعين ألفًا، وعُرِضت على جناب السلطان، ذلك لأن كل السلاطين السابقين، والوزراء، والوكلاء، والأعيان، والأشراف الكبار والكُمَّال، كان فى كامل سراياتهم، وقصورهم العالية، بكل واحد منها ما بين خمس آبار وست . وكان فى بيوت كبار الأهالى ما بين بئر وبئرين، هذا بالإضافة إلى الآلاف المؤلَّفة من الجوامع والمساجد والخانات والعمارات الخيرية والمدارس، فقد كان مقررًا أن يكون بكل منها بئر أو بئران، وكان على رأس كل شارع، أو حارة أو زقاق، وربما داخل كل عطفة، أو على الأقل فى بعضها، وفى الأماكن التى يكثر فيها المارة والمسافرون، كانت هناك أحواض كبيرة لسَقْى الدوابٍّ من ثيران وخيول وجمال وحمير المارة، وكان لكل حوض أعمدة مصنَّعة مقام عليها، وأسقفها منقوشة ومزخرفة، وكانت سواقيها كذلك ، لها أعمدة وأسقف منقوشة، وتحتها تدور الدواليب فى الداخل لإخراج المياه من الآبار، وكانت المياه تتدفق فى كل ساقية من أفواه ثلاثة من الثيران وثلاثة من الوحوش، وثلاثة ثعابين، وكانت المياه تنساب منها إلى الأحواض لتملأها حتى حوافها، وكانت تشرب منها الدواب كافةً لدفع العطش، وهكذا كان فى مدينة مصر (= القاهرة) وحدها تسعة آلاف ومائتا ساقية من ذوات الأحواض هذه، بحيث كانت تبدو كل واحدة منها وكأنها من خيرات أحد السلاطين أو الوزراء

أو الأعيان . وكان داخل مدينة مصر ثمانية آلاف وتسعمائة طريق ، ما بين طريق سلطاني أو درب من دروب الأحياء، أو سوق سلطانية، ولم تكن هناك بوابات على سبعة عشر منها، كلها طرق رئيسية، وفي المساء من كل ليلة يقوم الصوباشي (= مدير الأمن) وتحت إمرته ما بين ستمائة أو سبعمائة من رجاله مع الدويدار بالتجول والطواف لحفظ الأمن والقيام بالحراسة الليلية، وعند الصباح تكون كل هذه الطرق العامة قد تم تنظيفها وتطهيرها من قِبَل الحمّالين والزبالين، كما أن أصحاب الحمامات كانوا يقومون بتنظيف وتطهير حمّاماتهم، وكان الاهتمام بالمسح والكنس ملحوظًا ، ومهتمًا به، وبعد ذلك يقوم كل صاحب منزل أو دكان برش الطرق التى أمام المنزل أو الدكان من الآبار التى سبق ذكرها، بحيث تكون الأسواق السلطانية والطرق الرئيسة العامة والخاصة نظيفة، وبحيث من يدخلها لا تطوله ذرّة غبار واحدة، ويكون كل وارد الأسواق فى راحة تامة. وكل الطرق الشاهانية العظيمة هكذا، وحتى فى بعض العُطف، فإن السقائين يقومون برش العطفة، وكنسها . وينثرون الراحة فيها وفى مصر، ما عدا القسم الخاص بالنيل، ففى داخل مصر وضواحيها فإن النيل المبارك يجرى فى أربعين مكانًا، وهى ما يمثل الخلجان، ويحمل منها السقاءون مياههم، والكل يتقاضى پارة مصرية لكل حمل جمل من الماء، أما قربة الماعز فثمنها "منقران" "Mankira" . وإن شعب مصر ما إن يشرب هذا الماء العذب حتى تدب فيه الحياة والنشوة .

الفصل الثامن والثلاثون

فى بيان الخلجان التى تروى جملة المدينة وتسقى جميع ذوات الروح، والتى تجرى من داخل مصر المعظمة

جرت مشيئة الله أن تنزل المياه إلى جميع الدنيا فى خلال شهر تموز (= يوليو)[٥٧]، وفى مصر فإن شهر تموز (= يوليو) هذا هو بداية السنة القبطية، وهو بداية تدفق نهر النيل المبارك . وفى اليوم الذى يطلقون عليه تعبير توت فإن النيل يأتى فائضًا هائجًا، وتكون موجاته وكأنها البحر المتلاطم، وبعد توت بسبعين يومًا[٥٨] يصل منسوب المياه فى النيل عند أم القياس عشرين ذراعًا ، وما إن يكون كذلك حتى يهب كل أعيان مصر من الأشراف والعلماء والصلحاء والوزراء والقادة (= الميراميران) للتوجُّه إلى ناحية ساقية الغورى، ويكون قد تجمع فى معيتهم ما بين أربعين وخمسين ألفًا من الرجال عند رأس الجسر المسمَّى " أبو المنجا " فيتوجهون جميعًا بالدعاء والثناء، ويقومون جميعًا بالمشاركة فى رفع الأتربة التى تسد الخليج الذى بناه المقوقس (أحد ملوك القبط)، وهو الخليج الأول . وبعظمة الله وقدرته يفيض النيل المبارك كالبحر الهائج، وكأنه سهم قد انطلق من قوسه، وما هى إلاَّ ثلاث ساعات حتى يكون قد غمر المدينة جارفًا أمامه الصخور التى كانت تعوق حركته، وما إن يصل حتى قصر الغورية فى غضون هذه الساعات الثلاث حتى تكون جميع الخلجان التى فى المدينة قد غطتها المياه، بل تصل إلى المبانى المقامة على الخلجان، وتكون جميع الحجرات المتعددة

---

(٥٧) يقصد المؤلف هنا بداية فيضان النيل .

(٥٨) أول شهر توت القبطى يوافق ١١ سبتمبر، وليس يولية .

والأحــواض والشـادروانات، والقـصـور ذات الشـادروانات، قـد تحـولت إلى سـرايات عامرة، وتدب الحياة وتحل البركة على كل الحدائق والبسـاتين التى على ساحل الخليج الذى تَحَـوَّل إلى باغ إرم، ويعـيش كل سكان هذه الأمـاكن عـيـشـة الذوق والصـفـاء، ويرتعون فى حلل النعم والعيش الرغيد. وليلاً ونهاراً يرتع الجميع، وتصدح الأصـوات بالطرب والغناء، وتتـحـول هذه المجالس كـمـا لو كـانت مـجـالس حـسـين بايـقرا[٥٩]، ويستمر جريان الخليج ثلاثة أشهر كاملة، يكون أهالى مصر فيها مكتفين بالماء، وعلى شــواطئ هذا الخليج يعـيش أهالى مـصـر خـمـسـة أشـهر بالكمال والتمـام فى بهـجة وسرور، لياليهم كليلة القدر ، ونهارهم كنهار العيد، وكل إنسان يسعد بصحبة أحبابه فى جلساتهم المبهجة، ويصطادون السمك بشباكهم، وجميع حسناوات مصر يذهبن إلى هذا الخليج مع أحـبـابهن بلا حـجـاب، وينزلن إلى الخليج عـرايا بلا فـوط، وتكون أجسادهن المنيرة كالزجاج الصافى عندما ينزلن إلى البحر، وكأنهن أسماك فضية من ذوات المهارات والمعارف، وبينما هن يغطسن كملكات النيل (= كعرائس النيل)، كان هناك من العـشـاق من يحـاول أن يصطاد واحـدة من هذه البلطيات القـمـرية، وهم يتلصصون عليهن من زوايا بعيدة. إن أيام الخليج هذه بالنسبة إلى مصر أيام لا مثيل

---

(٥٩) **حسين بايقرا** هو ميرزا سلطان حسين بايقرا حفيد الشيخ معز الدين عمر من أبناء تيمور لنگ ، وحفيد ميرزا بايقرا ، جلس على عرش هرات عام ٨٧٥هـ = ١٤٧٠م عقب قتل حاكمها بايسنقر بن شاهرخ، وأصبح سلطانًا على خراسان . كان سلطانًا عالمًا وأديبًا ومحبًا لأهل العلم والأدب. تقدمت العلوم والمعارف فى عهده أيما تقدم ورقى. حوَّل هرات إلى مجلس للعلماء والأدباء، ويروى أنه كان يَرْعى اثنى عشر ألف طالب وجعلهم موظفين . خيراته ومبرَّاته لا حصر لها ، كان الشاعر علىشير نوائى من وزرائه والشاعر عبد الرحمن جامى من مُدَّاحه ومناظريه . بعد أن ظل على عرش السلطنة ٣٦ عامًا فى كامل الرفاهية والعدل لقى وجه ربه سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م، وقد دُفن فى ضريح أقامه تحت القبة العالية المقامة فى هرات . اشتهر بمجالس العلم والأدب وبمناظرة الشعراء ومناقشة الفقهاء. له "مجالس العشاق" إلى جانب أشعار بالعربية والفارسية والتركية . تخلص فى أشعاره بـ" حسينى". (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام حـ٢ صـ ١٢٣٧) .

لها، أو هى أيام مشهودة بالنسبة إلى مصر والمصريين، فالجميع في صحبة ومودة، وجميع جميلات مصر ينزلن إلى هذا الخليج، أو يذهبن إليه مع عشاقهن دون واسطة (= دون محارم) ، ودون ستائر، ويحتضنَّ محبيهن بلا خجل ولا مواربة. وداخل هذا الخليج ترى الآلاف من القوارب فى غدوها ورواحها، كما أنك ترى العديد من السفن المزخرفة بالأعلام، وهى راسية أو متجولة عند المقياس يومياً، وعند مؤخرة القوارب ترى الشباب العرب وقد جلسوا إلى جوار محبوباتهم، وقد عقدوا مجالس اللهو والسمر، وكأنهم يقولون (مصراع) :

بينما القدح في يديك ، فلا تدعنا بلا شراب

فهم يشربون شربات الناب من الكئوس الزجاجية.

أما مَنْ هم فى خاناتهم فهم فى وصال العشاق وقبلات السجاة وكأنهم مع الرصد يرددون (مصراع) :

لنهنأ، فلن تحين فرصة كهذه للذوق والصفاء

كان الجميع يُغنى، والبعض يصغى إلى الأنغام اللطيفة، التى تمنح روحًا طازجة للعشاق، وكان البعض منهم يربط قاربين بعضهما إلى جوار بعض، وقد بُسطت عليهما الأبسطة، وتراصَّت فوقهما المعازف أو اصطف فوقهما عازفو الرق والدف والطنبور والسانطور والرباب والناى ، وكان كل موسيقىٍّ يعزف فاصلاً ، أو يعزفون جميعًا فاصلاً يُشجِى الروح، ويبعث البهجة فى النفس . وكان البعض الآخر يعزف على القانون ربْع التُّون والاثنى عشر مقامًا، ويعزفون الأربعة والعشرين نمطًا "أصولاً"، ولم يكن يشذ منهم أحد، أو يعزف عزفًا نشازًا قط، أو يخرج عن السياق، وقد تكون أشهر الفواصل التى كانوا يعزفونها فاصل "فريابى" وفاصل " غلام شادى "،

وبهذا النمط كانوا يَصِلُون الليل بالنهار ، ويحولون الليل إلى نهار بالقناديل المضاءة التى تُزيِّن القياس، كما أن القوارب قد تحولت إلى " مهترخانة "، وتردد جنبات الخليج وشواطئ النيل رجع الصدى، وتتجول وتدور وهى تعزف نوبات الحب والجوى، ولم يكن يُعتبر هذا عيبًا فى هذه الأيام، ولم يكن جميع المصريين يعتبرون هذه المخايل عيبًا أو قبحًا يسترونه، بل كانت جميع مشاعرهم ظاهرة وباهرة .

أما الخليج الثانى فهو عند أعماق قصر العينى، ويطلق عليه المصريون "خليج السلطان أوزبك"، وهو خليج واسع، ومنه تجرى الخلجان لتروى بساتين المدينة وحدائقها، وتدخل ضمن نطاقه بركة الأزبكية، ويجرى من أعماقه خلجان حديقة عجم، وما إن يصل إلى جسر الليمون حتى يسقى ويروى الآلاف من البساتين والغيطان . وعند قنطرة الظاهر بيبرس يتفرع إلى فرع آخر، يروى أراضى قليوب (= قاليوب)، ويختفى فيها، ولكن من داخل مصر (= القاهرة) فإن هناك خليجًا آخر ، ينطلق من شمال المدينة مارًا بالقنطرة الجديدة لإبراهيم باشا جميز العبد، ويصل بعد ثلاث مراحل حتى بلبيس ويروى هذه المناطق. إنه لخليج عظيم، وهو يُجرى مياهه تقريبًا إلى البساتين والمروج والرياض والحدائق، مثله مثل خليج الأوزبكية، تجرى فيه وعلى شواطئه أنواع عديدة لا حصر لها من الذوق والصفاء، ولكنه مكان الأراذل والحشرات، فهو ليس كالخليج الواقع داخل المدينة الذى يُعَدُّ مكان أهل الشرف والعرض .

والخليج الثالث يقع بالقرب من بولاق عند دار البارود (= بارودخانه) يسمونه خليج السلطان برقوق، وهو أيضًا يجرى فى غيطان وحدائق وبساتين مدينة بولاق، فيرويها متجهًا إلى أراضى قليوب، وعلى مياهه وشواطئه أيضًا يجرى العديد من أنواع الذوق والصفاء واللهو والاستمتاع .

أما الخليج الرابع فيقع ما بين خليج بولاق وقصر السبتية ، وهو خليج السلطان قايتباى Kayitbay . وهذا أيضًا خليج عظيم ، يروى أراضى قليوب والشرقية .

والخليج العظيم الخامس هو الخليج الواقع ما بين بولاق وبلدة شبرا، وهو خليج السلطان ناصر الدين ، وهو يجرى حتى الشرقية، ويرويها .

وهذه الخلجان قد شقها المهندسون السابقون، وتروى جميع الولايات . وتسير السفن وتتجول فى هذه الخلجان لمدة ستة أشهر كاملة لتُحضر وتنقل الغلال فيما بين الولايات، ولكن فيما بعد قام ملوك مصر بتحويل كبرى هذه الخلجان إلى تُرع ثلاث من جوانب مصر الثلاثة، وقسموها فيما بين الغيطان المحيطة، وبهذه الترع تسير السفن والقوارب لمدة خمسة شهور، وتتفرع عنها أربعون ترعة، بحيث إن مدينة القاهرة قد شُقَّت من خمسة وأربعين موضعًا، وهذه الخلجان والترع تُحوِّل مدينة القاهرة فى موسم الرى إلى جنة غنيَّة بالمياه ، وكتخدا والى مصر مُكلَّف بتطهير هذه الخلجان كل سنة . وكل صاحب منزل ملزَم بتطهير المسافة التى أمام داره، وما بعد ذلك من مسافات يتولاه رجال ورعايا من قبِل حكام (= ولاة) الشرقية والقليوبية والجيزة ، حيث يتوافدون فى شكل جماعات ويتولون تطهيرها ، وتبلغ مصاريف التطهير السنوية سبع كيسات، ويقوم على هذا العمل واحد من القاپوجى باشية، ويتم التطهير (= التنظيف) والتزيين كل ثلاثة شهور ، وتكون الزخرفات بلا حساب .

الفصل التاسع والثلاثون

فى بيان تتمة الجسور والقناطر التى فوق الخلجان التى تجرى داخل مدينة مصر

أولاً : هناك عين جسر أبو المنهجى عند ساقية الغورى التى تقع عند تقاطع النيل ، وهذا الجسر متين وقوى جداً، لأنه عندما كان ينقطع فيضان النيل كان الجسر هو الحد الفاصل للنيل.

الجسر الثاني يقع على طريق قصر العينى، ويُسمى جسر السلطان ، وتاريخه سنة ٨٤١ هـ = ١٤٣٧م، وهو قنطرة قوية ذات فتحة واحدة .

أما الجسر الثالث، فيقع عند البوابة الجديدة، ويطلق عليها الأهالى قنطرة السبوع، وهو جسر قوى البناء، له سنَّادات، وشدَّات وثلاث فتحات . وقد بُنى فى نفس السنة التى بُنى فيها جسر السلطان، وسمى بقنطرة السُبوع لأنه من ناحية بولاق، يوجد فى مقدمته تمثالان من الرخام الأبيض لأسدين " سَبْعَين " الواحد منهما فى حجم الفرس، ومَنْ يرَهما يظن أنهما حيَّان . وهو جسر واسع، وأسكلة الخليج تقع فى هذا المكان، وجميع القوارب ترسو بجواره، وأشرعتها معَدَّة لكى تتجه حيثما تشاء . وحرم جامع الـ " ينى قاپى" أى الباب الجديد متصل به .

أما الجسر الرابع، أو القنطرة الرابعة، فهى قنطرة السلطان أينال[٦٠] Inal، وهى قنطرة خشبية، مقامة من أعمدة من صوارى وأشرعة السفن. يعبر منها المشاة، وقد تم بناء هذه القنطرة لعبور جموع المشاة والجماعة إلى الطرف الآخر من الخليج لصلاة الجماعة، ولكنه تحول الآن إلى طريق عام .

والقنطرة الخامسة ذات فتحة واحدة، وهى جسر قوى.

والقنطرة السادسة هى قنطرة الجماميز، وهى عبارة عن جسر عظيم له فتحة واسعة، وعلى جانبيه عشرون دكانًا ومقاهٍ ذات حجرتين ومجالس فاخرة ملوكية، والجالسون على المقاهى يمكنهم صيد السمك بالسِّنَّارات .

القنطرة السابعة، هى قنطرة صونگور Sungur لها فتحة واحدة، ولكنها فى غاية الاتساع، ذات كمرات كتلك التى توجد فى قصور كسرى . فوقها وعلى الجانبين ما بين أربعين وخمسين دكانًا، وعليها مقاهٍ مزخرفة ومنقوشة بنقوش مفرحة، وجل شبابيكها تطل على الخليج، وجميع أرباب المعارف فى مصر (= القاهرة) من رواد، بل سكان، هذه المقاهى، وهى طريق رئيسى عظيم .

أما الجسر الثامن فهو جسر إسكندر پاشا[٦١] وزير سليمان خان، ويسمى جسر باب الخرق (= الخلق)، ومن ناحية النحاسين يوجد جامع سلطانى رائع، له روحانية

---

(٦٠) **السلطان أينال** : الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال، من ملوك دولة الچراكسة بمصر. بويع بالسلطنة بعد وفاة الظاهر چقمق سنة ٨٥٧هـ، وظل سلطانًا حتى توفى بالقاهرة، بعد أن تنازل عن السلطنة لابنه أحمد . (ش . سامى . قاموس الأعلام . جـ٢ صـ ٣٥) .

(٦١) **إسكندر پاشا** : هناك شخصان بهذا الاسم وكلاهما صار واليًا على مصر : (١) الأول هو إسكندر پاشا من وزراء سليمان القانونى ، عندما كان رئيسًا للبستابخية تولى ولاية مصر ، وظلَّ بها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، ثم عُزل سنة ٩٦٦هـ = ١٥٥٨م و عاد إلى إستانبول . ثم صار بيلربگى (= أمير الأمراء) قائد قواد الأناضول . بعد فتح قلعة ماغوسة فى عهد سليم خان الثانى بيومين لقى ربَّه سنة ٩٧٨ هـ = ١٥٧١م . =

فيَّاضة، بحيث إن جموع جماعة المصلين يُشاهدون الخليج، إنه حقا جامع يتمتع بتهوية رائعة . والجسر ذو فتحة واحدة، ولكن كمراته كلها قوية ومتينة البنيان، واستحكاماته منخفضة ومتينة . وفوق الجسر يوجد أربعون دكانًا رائعًا ، أما المقاهى فعلى الطرف الآخر ناحية بولاق، وهو جسر يستخدمه المصريون طريقًا عاما .

أما القنطرة التاسعة فهى قنطرة الأمير حسين، ذات عين واحدة، ولكنها أيضًا جسر واسع، وعليها كذلك مقاهٍ فاخرة تطل مقصوراتها على النيل، وعليها ما يزيد عن ثلاثين دكانًا لبائعى الزبد والعطارة، وتطل على الخليج بطريق رئيسىٍّ عظيم .

أما العاشرة فهى قنطرة الموسكى، لها عين واحدة واسعة، وهى صراط مرتفع، على جابنيها تنتشر الدكاكين المزركشة، وعليه ثلاثة مقاهٍ ذات بواكٍ نظيفة، ولها مقصورات، ويُقال إنها من مآثر وبنايات مِيثقالى شرف زاده أحد عازفى السلطان الحاكم بأمر الله، ومن هنا يطلقون عليها قنطرة، ولكن حقيقة الحال أنه جسر مفتوح لطيف، يرتاد مقاهيه كل أرباب المعازف والعلوم الموسيقية، وكل من له دور فى هذا الفن له روحانية عالية، يكتظ بالصحبة صباحًا ومساءً.

أما الحادى عشر فهو قنطرة الليث، ليس طريقًا عاما ولكنه جسر عليه خان (= نُزل) شاهانى، وكأنه قصر عالٍ .

وبالقرب منه القنطرة الثانية عشرة، وهى قنطرة البيوت، وهى بناء حديث، ولكنه هو الآخر ليس طريقًا عاما، بل خاصٌّ، ولكن الحاصل أنه مطلب من يطلب الذوق

= (٢) الثانى هو أيضًا من الوزراء فى عهد سليمان القانونى ، چركسى الأصل ، شخصية عالمة ومدبر جيد لأمور الدولة، كما اتصف بالشجاعة . انتصر على إسماعيل ميرزا بن الشاه طهماسب عندما كان أميرًا لأمراء أرضروم . عُيِّن واليًا على مصر عام ٩٧٧ هـ = ١٥٦٩م عقب توجه سنان پاشا بحملته إلى اليمن . وبعد أن ظل فى هذا المقام ٢٢ شهراً عُزل، وكان ذلك عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١م، وبقية سيرته غير معروفة . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام ج٢ صـ٩٢٨) .

والصفاء، ومسعى لذوق القلوب المرهفة، فعليه نُزُل ظريف لأصحاب الصفاء، ورواده من الأعيان وأصحاب النعم المبذولة، وهو من النعم المبذولة لـ "كاتب چلبى"[٦٢] الذى يبذل دون منَّة.

والجسر الثالث عشر هو جسر باب الشعرية ، له فتحة واحدة، جسر عظيم، فيه شغل جسيم ، وهو أوسع الجميع، طريق عامٌ مزدحم جدا، معبر مهم لكل أرباب الحاجات، تتراص الدكاكين على جانبيه، ولكن مقاهيه بعيدة .

القنطرة الرابعة عشرة، هى قنطرة الحذوب Huzub، جسرها فيه فتحة واحدة مُتْقَنة الصنع، فوقها مقهى، والجسر له ممر سفلى وممر علوى، الممر السفلى على شاطئ النيل ، مَمْشًى مريح، وممر يبعث فى النفس البهجة والسرور . البعض أحياناً يجلسون على شاطئه ويمددون أرجلهم فى المياه، والبعض يصطاد السمك بالشباك، ومَنْ يُرِدْ يمكنه النزول إلى المياه والعوم فيها ، وعليه مقهى مزيَّن. وعدا ذلك لا توجد عليه أيُّ دكاكين .

أما القنطرة الخامسة عشرة فهى قنطرة الحاشحاش Hashas ، وهى جسر بفتحة واحدة، وليس عليها دكاكين، وليست عامرة لأنها ليست معبراً ، ولكن يمكن المرور من تحتها بالقارب .

---

(٦٢) كاتب چلبى : من كبار ومشاهير العلماء فى الدولة العثمانية، اشتهر عند الأوروبيين بـ " حاجى خليفة "، ينتمى إلى واحد من السپاهية ، وقد وُلد فى إستانبول عام ١٠٠٠ هـ = ١٥١٩م، وعلى الرغم من أنه لم يكن من أصحاب المناصب العلمية الرسمية فقد كان مصاحبًا ومدارسًا لمشاهير عصره من العلماء والكتاب والأدباء . درس إلى جانب العلوم الشرعية اللغات الإسلامية والشرقية ، درس مختلف العلوم الأخرى وصنف فيها العديد من كتب الفهارس ، صَاحَب الجيش العثمانى فى زمن السلطان مراد خان الرابع عند توجهه إلى همدان وبغداد ، وعندما كان الجيش معسكرًا فى حلب توجَّه لأداء فريضة الحج، كما وجد فى حرب روان . بعد أن عاد إلى إستانبول وقف حياته على التأليف والبحث، له "جهانما " و " كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون" الذى طبع فى إستانبول والقاهرة وليبزج بالحروف اللاتينية . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٥ صـ ٣٨٠٦).

وبعدها تأتى القنطرة السادسة عشرة، وهى قنطرة "أبو الخير إبراهيم باشا"، وتم بناؤها حديثًا فى سنة ١٠٨٣ هـ = ١٦٧٢م من أجل عبور مهمات اليمن، وكذلك عبور أخشاب السويس. وهو جسر قوى له فتحة واحدة، خارج المدينة قريب من جامع الظاهر بيبرس، ولكنه مُصنَّع وجميل.

وقنطرة الوِز هى القنطرة السابعة عشرة، وهى ذات عين واحدة، وهى فى ضواحى المدينة .

وأما القنطرة الثامنة عشرة فهى قنطرة جميز العبد، فى الجهة الشمالية وخارج المدينة ، ذات فتحة واحدة، وهى من خيرات الملك الظاهر المعتبرة، ويُطلق عليه من تلك الناحية " جميز العبد " حيث توجد أشجار عظيمة للجميز، بحيث لا يوجد مثيل لها فى ديار مصر. ويُقال إن عبداً أسودً هو الذى غرسها، وكان يعبد الله تحت كل واحدة منها على حدة، ومن هنا أطلقوا عليها "جميز العبد"، وبعض أعيان مصر يأتون إليها بالقوارب، ويقضون تحتها وقتًا لطيفًا فى اللهو والمرح، ثم يعودون أدراجهم. وهو مكان استراحة وهدوء وتنزُّه، ومسيرته لطيفة ، وفى هذا الحى وعنده تنتهى الكبارى والجسور التى تقع داخل مدينة مصر " القاهرة ".

وخلاصة الكلام أن مجموع الكبارى والجسور المقامة على الترع الواقعة داخل، وخارج مدينة مصر والخلجان الواقعة فى جهاتها الأربع تبلغ ثلاثمائة وستة وأربعين جسراً ، وذلك لأن مدينة مصر تقع بين الحدائق والبساتين والجناين التى توجد فى جهاتها الأربع ، والنيل يجرى خلالها ، فتُقام عليه الجسور ، ولما كانت هذه الترع والخلجان تجرى منه، فهذا يجعل داخل مصر وخارجها يموج بالخلجان .

الفصل الأربعون

فى بيـــان البرك العظيمة التى كالبحر، و الموجودة فى بطن أم الدنيا وخارجها

أولا بركة الأزبكية

إن بركة الأزبكية التى توجد داخل مدينة مصر (= القاهرة) هى كبرى البرك الموجودة فعلاً، وهى كالبحر العظيم، مكان يمكن الإحاطة به والسير بجوانبه الأربعة دائرًا ما دار فى ساعتين. هى كالبحر المتلاطم، تكون أمواجها موجة فوق موجة عندما يفيض النيل ، يجرى فيها المئات من المعديات والقوارب التى تنقل الناس من بيت إلى بيت، ومن قصر إلى قصر، كما يُصاد فيها أنواع مختلفة من الأسماك، وبها العديد من مراكب " أبو الخير "، وهى مراكب كبيرة، بحيث إن بداخلها، وبخاصة البعض منها، دكاكين للبيع والشراء ، وبها أماكن تُقدم المأكولات والمشروبات، بحيث يجد فيها المتسامرون كل ما يرغبونه، وتجد فيها من كل الثمـــرات، ولذلك يسمونها مراكب " أبو الخير "، وهى تطوف بين البيوت والقصور، وتبيع لهم ما يريدونه .

بركة الأزبكية هذه محاطة من جميع جوانبها ببيوت متعددة الطوابق، ومقصورات وخمريات ومبانٍ مخيمة متنوعة، وشوارعها ذات جناين، وحدائقها ذات شوارع، وبها بنايات عالية مزخرفة بالنقوش الصينية (= القاشانى)، والخزف الصينى، فهى بركة معظمة ومزينة ومزخرفة، وجوانبها الأربعة مزدانة بالمروج، وبها جوامع ذات صُفَّات، بحيث إن كل واحد منها هو من الحسنات الجاريات لكل من الملوك السابقين، ويعجز اللسان عن وصف حسنات وجمال كل واحد منها. إنها بركة تمنح الفخر والعظمة لكل الألسنة، وعلى ضفاف البركة سرايات عالية وكلها عامرة ، منها سراى

رمضان أغا أمين المخازن، وسراى با قلاجى محمد بك أمير جدة، وسراى حسام زادة. هذا عدا مئات السرايات الأخرى الموجودة، ولكن أعظمها جميعًا هو سراى عزيز محمد أفندى بن حضرة الشيخ البكرى، وقد انتقل إليه ميراثًا عن أجداده العظام، أى أنه من الممتلكات الموروثة، بحيث إن الذى يقف فى الزاوية على الطرف الجنوبى للبركة يستطيع أن يُشاهده عن بعد. إنه حقا سراى عظيم يبدو كالقلعة، أدوارًا تعلو أدوارًا، وخانات ديوانية ومقصورات مختلفة، به أحواض ونوافير وفسقيات وشادورانات، وما به من حجرات يتجاوز الثلاثمائة والستين حجرة، كما أن به العديد من بيوت المسافرين (= الضيوف) والمجاورين، لدرجة أن هناك مَنْ بقى فى هذه البيوت لمدة سنتين، يتناولون من سماطه الأطعمة المختلفة، ويُغدَق عليهم مع بداية كل سنة طقم من الملابس، وذلك فى مقابل الدعاء بالخير.

ولحضرة العزيز أخوان من المريدين، أحدهما مخدوم المكرم صاحب المواهب وذوى الحاجات، ولا يفوقه سوى الذات الشريفة زين العابدين چلبى، وهو من ذوى المعارف وأصحاب الكرم، وهو من الأولياء الراشدين أصحاب القلوب والنجابة والرشد، وله عدا البيوت الشاهقة محارم وعتبات بكل منها حمام منيف، ولكن العتبات التى توجد فى خانات العزيز من ذوات الحمَّامين، وكلها حمامات مزينة ومكلَّفة (= مزركشة) من الداخل والخارج، وهو من المنتسبين إلى عِرْق الحسيب النسيب أبى بكر رضى الله عنه، وقد جاء أجداده العظام إلى مصر فى أثناء خلافة حضرة عمر، وفى معيَّة عمرو بن العاص، وسكنوها، ومنذ تلك العهود لم تخمد النيران فى مطابخهم، وتُبذلُ النعم من هذه المطابخ فى الصباح والمساء للخواص والعوام، وهم يفتخرون بأن نيران مطابخهم دائمة الاشتعال، ولهم فى مصر آلاف الأوقاف والبلدات والأفدنة والأروقة .

ومن أعيان مصر أيضًا أولاد الشيخ البكرى، أو البكرية، وهم يشابهون السلطان فى معيشتهم، وهم منذ حياة الشيخ البكرى القديم يحتفلون بمولد النبى (ﷺ)، فى ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول من كل سنة، ويقصر اللسان عن وصف ما يُبذل من كرم وسخاء بهذه المناسبة .

وبسبب شدة الحرارة فإن المياه تجفُ فى هذه المناطق لمدة ستة أشهر، وتقلُ مياه البركة فتتحول إلى رياض يانعة ، وخلال الاحتفال بالمولد النبوى هذا ينصب مائة وأربعون من مشايخ الطرق خيامهم فى هذه الرياض طوال مدة المولد، ويفد إلى هذه الخيام صبيانهم وصحابتهم والمريدون، ويقيمون ما لا يقل عن خمسمائة شادر واسع أو ستمائة ، يتسع كل شادر للكثير من العلماء والصلحاء والمشايخ والدراويش وآلاف الفقراء الذين يضربون الدفوف، ويقيمون الذكر على نغمات هذه الدفوف لمدة ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام متواصلة، وخلال هذه المدة يقوم أصحاب المنازل والبيوت والدور والخانات التى تلتف حول البركة دائرة ما دارت بإنارة المسافة الممتدة حول منازلهم بالقناديل والفوانيس والمشاعل التى لا تحُصى ولا تُعد، كما تزدان الجوامع والمساجد التى تطل على البركة من جميع نواحيها، وتنعكس المآذن على مياه البركة بشكلها المزدان، بحيث يعجز اللسان عن وصفها، وعن الحديث عما تحدثه فى الروح من مآثر طيبة، بحيث تشمل رحمة البارى، وبحق الرسول المصطفى (ﷺ) هذا المكان طوال الليل والنهار، وبحيث تشمل الرحمة الإلهية أرض مصر خلال تلك الليلة المباركة، وتكون هذه البركة العظيمة لمحة أو شعاعًا من هذه الرحمة المهداة .

البركة الثانية بركة الفيل

هذه البركة أسهل وأصغر من بركة الأزبكية، ولكنها عامرة، وكذا مزدانة من جوانبها الأربعة، بحيث لا يوجد مكان بها خالٍ من الزراعة والمزارع، كما أن بها دورًا مزدانة بالأحواض والفسقيات وكذلك بالسلسبيلات، وتحولت وكأنها با غ إرم . هواؤها لطيف ومنعش، وتمتد من الناحية الجنوبية وإلى الناحية الشمالية بركة عظيمة، تجرى فيها القوارب الخاصة بالأعيان والعظماء، وبحيث لا يخلو منها مكان فى هذه البركة اللطيفة، وتُغطى مياه النيل المسافة الممتدة نحو الباب الجديد، وتوجد بداخل البركة، وبخاصة لأصحاب البيوت الممتدة حولها، العديد من الفرقاطات والفلوكات والقوارب، ويتم الوصول والاتصال بين هذه الدور والقصور بالقوارب التى تجوب البركة ذهابًا

وإياباً، وهذه البرك هى المفضلة من قِبَل أهل العِرْض والشرف، فكل مَنْ يهرب من ازدحام مدينة مصر (= القاهرة) يفد إليها، ويقيم بها. وجملة البيوت الموجودة بها تعود إلى الأشراف ونقيب الأشراف وبيت الشيخ الحسينى برهان الدين أكرى ديرى المنتسب إلى الهاشميين، وهو ولى من أولياء الله، ومنذ تسعين عاماً ومنزله محط أنظار أصحاب النعم، وتُبذل فيه النعم التى لا تُحصى ولا تُعد، كما يوجد قصر شاهين أحمد أغا مصاحب الخزنة دار، ودار مطاق عباس أغا المُطَلق من أغوية القيزلر (= قيزلر أغاليغى)[٦٣] ودار رئيس المتفرقة (= المتفرقة أغاسى)[٦٤] شعبان أغا، ودور بعض السادات وقصر سراى بكير أفندى كاتب الإنكشارية ، وسراى قانصوه بك، وقد كان سرايا سلطانياً، ويقصر اللسان ويعجز عن وصفه، كما توجد دار المصاحب صالح أغا، وقصر خليفة بلطجى محمد، وقصر قايطاس بك، وسراى ناظر أغا المعزول من أغوية

---

(٦٣) **قيزلر أغاليق أو قيزلر أغاسى** : لقب لواحد من كبار موظفى القصر، وكان يسمى أغا دار السعادة، وكان يوجد أغوات سود فى القصور فى روما وفى الشرق فى العصور القديمة، وفى قصور المماليك والعباسيين فى العصور الوسطى، وكان قيزلر أغاسى واحداً من هؤلاء الخدم السود وكان هذا القسم يُعد أكبر أقسام الأندرون فى القصر العثمانى، وكانت درجة هذاالأغا تأتى بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وكانت وظيفته حماية وحراسة قسم الحريم السلطانى الخاص بالنساء فى القصر العثمانى، وكان يوجد تحت إمرته أغوات خدم سود فى خدمة الحريم السلطانى . (پاقالين ج٢ صـ ٢٧٩) .

(٦٤) **المتفرقة** Müteferrika : مصطلح يُطلق على أرباب الخدمة الذين كانوا يعملون فى خدمة السلطان والوزراء ورجال الدولة ، وكان يُطلق على رئيسهم الذى يعمل فى السراى " متفرقة باشى " أى رئيس المتفرقة . أول ما نصادفه عن هذه القوات أنها كانت فى " قانوننامه " محمد الفاتح ، وهم الذين يعملون فى خدمة الصدر الأعظم والوزراء ، كما كان أولاد القواد والنيشانجية يؤخذون للعمل فى خدمة السلطان تحت هذا الاسم .

وكان أبناء الصدر الأعظم الذين يلتحقون بهذا العمل يتقاضى الواحد منهم ستين أقچة ، بينما الواحد من أبناء الوزراء يتقاضى خمسين أقچة ، ومن أبناء الأمراء يتقاضى خمساً وأربعين أقچة. وكان يُطلق عليهم أحياناً "واجب الرعاية أغالر " أى أغوات تجب رعايتهم .

وكانوا فى الجيش الإنكشارى يمثلون الميسرة " متفرقة صولقان " ، كما كانوا فى أوقات السلم يعملون فى خدمة أغوات الإنكشارية فى سائر بلوكاتهم . (انظر : پاقالين) .

القيزلر ، وقصر المصاحب خليل أغا ، وقصر مصطفى أفندى، (أفندى الإنكشارية)، وقصر الداماد، وقصر سليمان أغا، وقصر محمد أغا البوشناقى، وقصر أمير الحاج ، وقصر أبو المواهب مهتدى حضرة السادات، وقصر مصطفى أغا، (أغا التُفنكچية)[٦٥] وقصر أحمد أغا باشجاويش الإنكشارية، وقصر سليمان بك، ودار الجاويش سليمان.

والخلاصة : كان على سواحل بركة الفيل سبعون قصراً للسلاطين السابقين، وما يزيد عن مائتى منزل كبير، وكانت مركبة واحدة مما يطلق عليه المصريون "أبو الخير" تجوب بركة الفيل، وكانت تطوف بين القصور، وتبيعها المأكولات والمشروبات، ويقولون إن سبب تسمية هذه البركة بـ " بركة الفيل " أن واحداً من سحرة فرعون مصر أراد أن يبرز مقدرته على السحر، فأظهر فيلاً فى هذه الأراضى، وجعله يرعى فيها، ومن هنا أطلق الشعب على هذه المنطقة "بركة الفيل" . وفى رواية أخرى أن الخليفة المأمون عند مجيئه من بغداد إلى مصر أحضر معه مائتين من الفيلة، وقد وضعها فى هذا المكان لطراوته، ولذلك سموها " بركة الفيل " .

ويقوم بعض أصحاب الخانات بإضاءة النواحى الأربع لبيوتهم وتزيينها بالمشاعل والقناديل والفوانيس فى ليلة المولد، كما تُزيَّن المراكب والفرقاطات بالأعلام والزينات، ويضعون عليها البنادق والمدافع التى تُطلق آلاف الطلقات من الفشنك، فتدوى الطلقات فى سماء البركة، وتنزل من أعلى على سطح الماء وكأنها نجوم تهوى فوق سطح مياه

---

(٦٥) التفنكچيان : تفكچى Tüfekçi مصطلح يُطلق على حملة البنادق الذين يعملون فى حراسة السراى، وكان هذا المصطلح يُستخدم بدلاً من " سلاحشور " = Silahsor . وكانت هذه القوات تتشكل من الأرناءوط والبوشناق والأتراك والچركس، كانوا قسمين : مدنيين وعسكريين ، وكان الأرناءوط يمثلون الأغلبية ، وكان يرأسهم " تُفنكچباشى "، وكان رئيس التفنكچيان من الشخصيات ذات الاعتبار فى السراى مثل رئيس الحلاقين ورئيس القهوجية، وكانوا يُختارون من صفوة رجالات السراى. انظر : محمد زكى پاقالين ، جـ٢ ، صـ٢٥٢ .

البـركـة، وتتـوالى آلاف الفشنكات بعـضـهـا وراء بعض، وعلـى ضـوئها يغـوص بعض الغواصة، ويمسكون بالأسماك الكبيرة .

مياه هذه البركة تظل على فيضانها عشرة أشهر كاملة، وأماكنها اليابسة تتحول إلى بسـاتين ورياض، وتنتج نوعًا من الشـمـام اللذيذ الطعم، والبطيخ من المحـاصـيل المباركة لهذه البركة .

البركة الثالثة بركة الرطل

وهـى بركة دائرية الشكل، يمكن الدوران حولها خلال ساعة، مياهها كماء الحياة، نواحيها الشمالية والغربية ساحلية، تصطف عليها الحدائق . أما على الجانب الشرقى والقبلى فتنتشـر القصور والدور المتعددة الأدوار، ومن جـملتـها سـراى مـحـمـد چلبى الضـربخانى(٦٦) الذى يبدو وكأنه باغ إرم، به شـادروان عظيم، وفرقـاطة "عوّامة"، كمـا يوجد قـصـر سـيـد أحـمـد غـازى وقـصـر حسن بكرى، كـمـا يوجد العـديد من القـصـور العامرة ، فمياهها، وهواؤها غاية فى اللطف، وتتـجول بها قوارب الأعياد غـادية ورائحة فوق سطح مياهها وهـى قريبة من بولاق .

البركة الرابعة بركة الكيراميتانة

وهـى بركة مربعة الشكل، مياهها زلالية المذاق .

---

(٦٦) الضربخانة : التعبير المستخدم للدلالة على المكان الذى كانت تُسَكُّ فيه النقود، وقد أُعطى لقب أمين الضربخانة لمن كان يوجد على رأس هذا العمل، ويعد ذلك لقب هذا الرجل باسم أمير الضربخانة، وأخيرًا سُمى باسم مدير المسكوكات الشاهانية. وقد أنشئت أول ضربخانة فى إستانبول فى زمن البيزنطيين فى حى بايزيد، وفى عصر الفاتح أنشئت ضربخانة بجانب مسجد يعقوب بك فى نواحى أق سراى . (پاقالين جـ١ صـ ٣٩٤) .

البركة الخامسة بركة الغسّال

وهى بركة ذات ماء زلال، مياهها رائعة، لذلك يغسل معظم سكان المدينة جملة متاعهم فيها، ولما كانت مياهها طاهرة أطلقوا عليها بركة الغسّال، ويمتد طريقها إلى الفيوم مسيرة يوم وليلة، تُصطاد فيها الأسماك ويحضرونها إلى القاهرة فى الزنابيل، لا يقترب منها أحد لروائحها الكريهة، جملة الحمير التى تأتى إليها محملة بزنابيل السمك، تغسل أسماكها فيها، وما إن تغسل فيها الأسماك مرة حتى تعود إليها الروح بأمر الله، وتتدفق الدماء من خياشيمها. حقا أسماكها لذيذة الطعم، ولا يمل أى مصرى من صيده وأكله . إنه سمك يوسف، والبعض يُطلق عليه "حوت يوسف"، وهو سمك منقوش ومزخرف، والفقير إلى ربه عندما كنا فى الفيوم تطبيقًا للقول المشهور (أكلت السمكة حتى رأسها) قد أكلت سمك يوسف، وقد تم غسله فى بركة الغسّال هذه، وتناولناه ولم تكن به أىٌّ من روائح السمك المعتادة، بل كانت رائحته كرائحة المسك . فبأمر الله، ما إن يُغسل السمك فى هذه البركة حتى تزول عنه رائحة السمك. ومن خواص مياهها أنه ما إن يغسل المجذوم فى مياهها لمدة أربعين يومًا حتى يزول عنه الجذام، وإذا ما شرب من مائها الزلال يتحول جسده كالدر المكنون .

البركة السادسة بركة الدباغين

شكلها دائرى، تقع فى حى عابدين بك، وتتناثر على جوانبها الأربعة دور من ذوات الطوابق الثلاثة أو الأربعة، وهى فى جملتها معمورة، وعلى جانبها ورشة لدبغ الجلود. ولما كانت مياهها عذبة فإن أسماكها لذيذة الطعم، ولهذه البركة قوارب صغيرة من "قرع" مخصوص، وتُستخدم هذه القوارب فى صيد السمك ، وذلك بفرد الشباك . ولمياه هذه البركة خاصية ، وهى أنه إذا ما أصيب أحد المصريين بالصفراء، أى

تحـول لون وجـهه وعينيه، بل كل جسـده، إلى لون الكهرمان الأصفـر، فما إن يغتسل من مياهـها ثلاث مرات فى صباح أيام السبت ويشرب من ميـاهـها فى كل مرة حتى يرتوى، فـيـذهب عنه المرض بأمر الله وتبـعد الصـفرة عن جـسـده، ويتـحول كالفضة اللامعة .

البركة السابعة بركة القارون (= بحيرة قارون)

وهى بناء قارون، بركة خماسية الشكل، جوانبها الأربعة عامرة بالحدائق، لها خاصية، إذا ما دخلها المرء أربعين يومًا يتخلص من النحس ، وتتدفق الأمـوال إلى يديه . بركة ما زالت طلاسمها تدور حول هذا المفهوم، مياهها مُسْهِلَة، أصلها من النيل، ولكنها مالحة .

البركة الثامنة بركة أبى الشوارب

وقد تكونت من العصور القديمة، ولكن أميرًا مصريا يُسمى " أبا الشوارب " قد أقام قصرًا منيفًا يطل على هذه البركة، ولهذا أطلقوا عليها بركة أبى الشوارب. ولها خاصية أنها إذا ما دخلها إنسان مصاب بالصرع لمدة سبعة أيام ساعة اشتداد الحر، أى فى ساعة الظهر، واغتسل من مياهها وشرب منه، فإنه يشفى بأمر الله ويتخلص من الصرَّع. وما زالت لها هذه الطلاسم، وهى مجرَّبة .

البركة التاسعة بركة الحبش

وهى بحيرة شكلها مربع، مياهها عذبة ، ومن خواصها أنها إذا ما دخلتها سيدة نفساء فـإنها تشفـــى من النفاس . وأكثر النسوة الفواحش المقيدات فى دفاتر

الصوباشى (= مدير الأمن) إذا ما دخلنها، فإنهن يُشْفَيْنَ من الداء ، وقد قمت أنا العبد الفقير بسؤال بضع سيدات منهن، فأكدن ذلك، وقلن إن ذلك قد تحقق . إنها حكمة عجيبة !

البركة العاشرة بركة بيبرس

تقع فى شمال القاهرة بالقرب من جامع بيبرس، وهى بركة صغيرة، ومن خواصها أنها إذا ما غُسِلت فيها الخضراوات الطازجة مثل السبانخ والخيار والملوخية والبامية والفجل، فإنها تظل طازجة وكأنها مخلوعة على الفور من تربتها، وإذا ما غُسِلت فيها النباتات المخلوعة منذ ثلاثة أيام فإنها تعود إلى طراوتها. ولها تأثير عجيب .

البركة الحادية عشرة بركة الكبش

وهى تقع فى حضن جبل الكبش داخل القاهرة، ذات شكل مثلث، ولها خاصية منذ أيام الكُهَّان، فقد صنعوا من صخرة مستخرجة منها قاربًا عن طريق الحفر، ويمكن أن يركبه أربعة رجال، ويذهبوا به من هذه البركة إلى النيل ويعودوا، وما زال هذا القارب مدفونًا بجوار قلعة الكبش .

البركة الثانية عشرة بركة عين شمس

وهى بركة لا تعيش فيها الضفادع أو الثعابين أو الفئران أو الحشرات .

البركة الثالثة عشرة بركة الحاج

وهى ما زالت ذات طلاسم ، لها خواص كثيرة، منها أنها لو ملأ الحاج زمزمية أو قربة منها وأحضرها معه وهو متجه إلى الحج ، ولو احتفظ بهذا الماء لمدة سنة فإن طعمه أو مذاقه لا يتغير .

البركة الرابعة عشرة بركة مسلة عين شمس

مطلسماتها منذ القدم، فى مكان هذه البركة مسلَّة مربعة الأضلاع، جوانبها الأربعة منقوشة بالرسوم العجيبة، والخطوط المختلفة، ولكن فى ذروة هذه المسلة (= العمود) خط إدريسى، يستطيع الأقباط أن يقرأوه ولا يقرؤه غيرهم، ونتيجة رموز هذه الخطوط تقول : " انظر إلى وجهى، احفر تحت أساسى، إن كنت عاقلاً، وفى الوقت المناسب ستجد مالاً هناك" . وكثيرون هؤلاء الذين حاولوا نزع هذه المسلة من مكانها، فأصابهم الموت والهلاك . وأخيراً خرج الماء من تحت أساس هذا العامود، ويزداد منهم من يحفر حتى الآن. والسلام .

***

وحاصل الكلام أن فى مدينة مصر (= القاهرة) أربع عشرة بركة ، ولكل منها خاصيَّة خاصة بها، وقد أنشأها منذ القدم أستاذ قدير وعظيم، ووضع لكل منها طلسمًا، وما زال حكم الطلسم ومفعوله ساريًا، وهذه البرك تمنح القاهرة رونقًا وروعة، ويتطهر أهل مصر بمياهها، ولذلك فإن أهل مصر يتصفون بالحيوية والطلاوة .

الفصل الحادى والأربعون

أوصاف المدينة العامرة، بندر بولاق
المشهور فى الآفاق . والذى لا يضاهيه بندر على الإطلاق

الوصول إليها فى ساعة، يقضيها السائر وسط الغيطان والحدائق، وهى تقع فى غرب مصر (= القاهرة)، تقع على ساحل النيل المبارك . وهى مدينة عظيمة، منتظمة البنيان، ينطقونها بولاق فى اللسان العربى . مدينة مَعْمُورَة تمتد من القبلة إلى ناحية الجنوب طولاً بألفين وخمسمائة خطوة ، وعرضها فى بعض المناطق سبعمائة، والبعض الآخر بثمانمائة خطوة . ومع أنها تقع على ساحل النيل فإنها مرفأ عامـــر، وتنتشر من مدينة مصر حتى هذا البندر الحدائق والبساتين البُسْتَانية والمَحْصُوليَّة، والرياض والفدادين والغيطان العامرة، ويعيِّن عليها وعلى مائة وأربعين من توابعها أغا مراسل، وهو يقدِّم سنويا للباشا عشرين كيسة مرسالية، ويُحصِّل أيضًا لنفسه عشرين كيسة مصرية . ومقيد فى دفاتر الأغا المراسل هذا مايزيد عن عشرة آلاف قطعة من السفن الكبيرة والصغيرة التى تصل إلى دمياط ورشيد وإســنا وأسوان، وجملــة ربابنتها (= ريِّسها)، تحت سيطرته وإدارته. وهى تحمل الغلال الأميرية من الصعيد الأعلى، وتنزلها فى عنابر يوسف . إن أغا الرسالة هذا هو المسيطر على كل هذه الأعمال فى مدينة بولاق ، وحسب دفاتره فإن السفن تذهب إلى الصعيد العالى، وتُحضِر الغلال . ومن الناحية الشرعية فإن مُلاَّ مصر (= قاضى مصر) يشرف ويتحكم فى ثلاثمائة نيابة شرعية، وله نواب فيها . كما أن دفتردار (= صاحب دفاتر) مصر يشرف على مائتى رجل من رجال مالية السلطان الذين يعملون على تحصيل الأموال السلطانية، كما أنه يسيطر على أمين جمارك مصر، وهو ملتزم بتقديم

كيسة مصرية يوميا عن كل منها، كما أنه من معسكر إنكشارية مصـــر، يُعيِّن أوضـة يكيـچرى (= ضـابطًا ومـعاونًا له) للإشـراف على دخـول الجمـارك ومدخـولاتها، وهـما يسيطران على تكية الإنكشـارية، والأعتاب المكلفـة بالخـدمة وجـدرانها كلهـا دائرة ما دارت، مزينة بالأسلحة وآلات الحرب، وهى عتبة البكداشى حاجى بكداش ولى(٦٧) . ومن المقـرر قانونًا أن يكون بمصـر أمـير (= قـائد) وتحت إمرته مـائة من توابعه، وهم يتولون الخدمة فى مصر ، وبها ثلاثمائة وستون محرابًا، وستة وخمسون جامعًا تُقْرأ فيها الخطبة . وفى جميع أحيائها أسواق سلطانية عامرة، ومعتنًى بها بشكل كامل ، وتجرى فيها تجارة كثيرة.

جامع السلطان الملك الطاهر

هو جـامـع كـبـيـر، يقـام سـقـفـه المزخـرَف على اثنين وثلاثين عـمـودًا من الرخـام الخـالص ! بحيث لا يوجد له مثـيل فى مدينة بولاق . فـزجاجـيـاته وأسقـفه منقوشـة ومـزخـرفـة بشكل رائع وكـأنـه نقش أدرنك، ويمـتلك منبـرًا مـحلًّى بالصَّدَف، وأعمـاله الصـدفية رائعـة، ولا مثـيل له إلا فى جامع سينان، وله مـحراب فريد ورائع فـى نقوشه،

---

(٦٧) **حاجى بكتاش ولى** Haci Bektas Veli : من كبار أولياء الله الصالحين ، كان من السادات الفاطمية فى مدينة نيشابور ، وبعد أن اقتبس الأنوار الباطنية عمن يُسمى الشيخ لقمان فى خراسان هاجر إلى الأناضول فى أوائل القرن الثامن الهجرى، وانشغل بالإرشاد هنالك، وبينما هو كذلك زاره السلطان أورخان العثمانى ونال منه الدعاء ، وأردف ذلك بالدعاء لعساكر الإنكشارية الذين كانوا فى طور التشكيل . ومما يُقال أن حاجى بكتاش هو الذى أطلق عليهم هذا الاسم "يكى چرى" الجندى الجديد. وهو مشهور بالمقامات والكرامات ، ضريحه فى المكان الذى يدعى (حاجى بكداش) بالقرب من مدينة قيرشهير . كان ضريحه مزارًا ويجواره تكية وزاوية ودائرة لمحبيه وأتباعه ، ويُعتبر شيخ ورائد الطريقة البكتاشية ، وإن لم يكن هو واضع مراسم وعادات الطريقة البكتاشية ، بل دوَّنها آخر يسمى (باليم سلطان) وهو الذى أسس الدركاه التى تُعتبر مركز الطريقة المذكورة . (انظر : ش . سامى قاموس الأعلام ، جـ٢ صـ١٣٢٢) .

وداخله لوحة مذهَّبة بالخط الجلى، ومكتوبة عليها الآية الكريمة باللون اللازوردى. ونص الآية : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا ربَّكُمْ وافْعَلُوا الْخَيْر لعلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ (الحج ٢٢/٧٧).

وقد حُرِّرت الآية الكريمة فوق لوحة من الرخام المستعصمى وكأنه ماء الحياة، وتحت الآية، وأيضًا بالخط الجلى وفوق الرخام ، كُتبت هذه اللوحة : " أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف مولانا السلطان الملك الطاهر بن محمد چقمق بن سعيد فقير رحمة الله عليه" .

وحرم هذا الجامع من الرخام الصافى، له ثلاثة أبواب ومنارة واحدة ذات ثلاث شرفات .

وبعد هذا الجامع، وعلى شاطئ النيل :

جامع سنان باشا

جامع منير، طرازه رومى، له قبة قطعة واحدة مدوَّرة مشغولة ومغطاة بالرصاص، محرابه ومنبره غاية فى الصنعة، طوله وعرضه مائه خطوة وخمسون ، وصُفَّاته الملحقة به من خارج الجامع متناثرة وذات قباب مغطاة هى الأخرى بالرصاص. وفى الحقيقة هو جامع ينبع جماله من بساطته، ولا مبالغة فى زخارفه كسائر ما يحدث فى جوامع مصر التى تزدان بالزخارف المتنوعة، وهو بناء لطيف، وهو مفخرة بين كل ما رأيت من الآثار المعمارية فى مصر، وكل مَنْ رآه يمتدحه قائلاً متعجبًا: "كيف تمكن أستاذ الروم من إقامه هذه العظمة كلها وهذه القبة الواحدة الفريدة ؟!" لأن كل قباب مصر تقريبًا مقامة كبناء دائرى من شجر السنط، أو أنها مسقفة، أو أنها ذات قباب صغيرة من الحجارة المزينة مثل قبة جامع الجانبولاديه، ولكن قبة جامع سنان هذه هى قبة دائرية مبنية طوليا، رائعة البنيان، وكأنها خرجت من الفلك الدوَّار .

ولما كان مُقامًا فوق ساحل النيل فليس له حرم كبير، ولكن بجواره ميضأة ذات صنابير، وله منارة ذات طابق واحد من الطراز الرومى، وأمام محرابه توجد حديقة ورد دائمة الورود، وما زال جامعًا رائع التصميم، وما زالت له أوقافه القوية .

وأمام تكية الكَلشنية جامع "زرقداس" التحتانى، ولا حرم له، ولكن جماعته كثيرة، وله منارة ليست مرتفعة . وكذلك هناك جامع الأُوستدارية[٦٨] Üstüdariyye وماعدا هذه الجوامع فالباقى مساجد .

وبمدينة بولاق إحدى عشرة مدرسة، وست من دور القرّاء، وثلاث من دور الحديث، وأربعون من مكاتب الصبيان التى تدرّس الأبجدية والقراءة والكتابة، وست من تكايا الدراويش . ومن جملتها على ساحل النيل تكية إبراهيم الكَلشنى[٦٩] ، وبها ثلاثون من

---

(٦٨) الأوستدارية Üstldar أوست + دار : مصطلح يُطلق على مَنْ يهتم بإعداد المعاطف السَّمُّورية المغطاة بالتطريز والتقصيب ذات الأكمام الأربعة التى كان يرتديها الصدر الأعظم وكبار رجال الدولة . ولكن كان هناك فروق واضحة بين ما يرتديه الصدر الأعظم ورجال الدولة ، وعندما كان يُعزل رجل الدولة كان يُسترد منه هذا المعطف، كما كان يُقدم ضمن الخلع الرسمية . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، جـ٢ صـ٥٦١) .

(٦٩) إبراهيم الكَلشنى (= إبراهيم گلشنى) : من كبار المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية ، ولد فى أذربيجان فى أواسط القرن التاسع الهجرى . يرجع نسبه إلى أغوز أتا واضع اللغة التركية ، وينتهى نسب والدته إلى حضرة الإمام علىٌ كرّم الله وجهه . وبعد أن تلقى العلم والتربية بجوار والده توجه إلى تبريز ودخل فى خدمة الشيخ عمر الروشنى من خلفاء سيد يحيى الخلوتى، وبعد أن تلقى العلوم الباطنية على يد هذا الشيخ أصبح من أصحاب الكرامات ، و" سجادة نشين " . وعندما ساد الحكم الصفوى الشيعى على البلاد تركها وتوجه نحو مصر، واختار الإقامة فى المكان المسمى قبة المصطفى بالقاهرة . وعندما دخل السلطان سليم الأول إلى مصر عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م أسبغ على الشيخ الكلشى الكثير من عطفه واحترامه، ووهبه هو وأتباعه المكان الذى كانوا يقيمون فيه ، فقام بمباشرة بناء التكية فى هذا المكان عام ٩٢٦هـ وأتموها عام ٩٣١هـ . وقد لاقت الطريقة الكلشنية رواجًا فى مصر ، وكان يحضر مجالس علمه من لا حصر لهم من رجال الفضل والأدب . التمس السلطان القانونى حضوره إلى إستانبول فجاء إليها عام ٩٣٥ هـ ، ودخل ضمن مجلس السلطان الخاص، ونال من الإعزاز والإكرام =

أرباب المعارف يقومون بتكميل العلوم، ومن الكَلشنية مَن يصلون إلى النورانية، ويصيرون سعداء. ويوجد بها محبون عارفون بالله، بحيث إن كل واحد منهم عاشق صاحب جلال . وحتى إن الكثيرين من أعيان مصر يقيمون الولائم فى عتبة الكَلشنية هذه المقامة فى أيام مولد السيد أحمد البدوى لمدة يومين وليلتين، وخلال المولد النبوى يقوم كل العشاق بخدمة الكبار والصغار بشكل كله احترام وتواضع، وفى الصباح يعومون بفوج عظيم من السفن البدوية نسبة إلى السيد أحمد البدوى .

إن الكَلشنية عتبة عظيمة، ويوجد فى مدينة بولاق ثلاثة وسبعون خانًا ما بين كبير وصغير ، وكل منها وكأنه كالقلعة ذات بوابات من الحديد . فى بعضها أجنحة ذات غرفتين أو ثلاث غرف، وفى حرم بعضها منازل ذات زوايا، ومنها وكالات زيت كبيرة، ووكالة النطرون، ووكالة سنان باشا، ووكالة القرامانلى، ووكالة الأرز، ووكالة الياميش ووكالة الكتخدا ذى الفقار، ووكالة الكتخدا إبراهيم القيصرية لى، ووكالة قولقيران والخانات الكبيرة التى تُشبه القلعة، ومنها " الأفاق " المشهور.

وغير هذه توجد خانات كل منها ذات مائة وخمسين غرفة، وكل منها يحتوى على واحد من البازركَانات (= كبار تجار اليهود) يمتلك خزائن مصر، ولكل منهم شريك من الهند أو اليمن أو السند أو عدن، ولهم شركاء فى بلاد الروم وبلاد الفرنجة. وفى هذه الخانات كان يسكن هؤلاء التجار، وعدا هؤلاء يُوجد مائتان من المخازن الكاملة ، اثنا عشر منها عنابر أميرية ، وتحفظ فيها الغلال التى تُرسل إلى مكة والمدينة . أولها الشونة الصغرى والشونة الكبرى، ثم شونة الدشيشة الكبرى، وشونة الدشيشة الصغرى، وعنبر المحمدية، والشونة المرادية، ومخزن الخاصكية، ولقد أنشأوا حالاً فى

= ما يستحقه . عاد إلى مصر عام ٩٤٠ هـ حيث وافته المنية ودفن فى تربته الخاصة المقامة بجوار زواياه . كان من أصحاب اليد الطولى فى العلوم النقلية وبخاصة التفسير والحديث والتصوف وعلم الكلام ، له كرامات كثيرة . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ١ صـ٥٨٠) .

مكة المكرمة دار الشفاء ودار الضعفاء باسم "خاصكية سلطان " السلطان محمد خان الرابع[٧٠] الذى فتح قاندية Kandiye فى الوقت الحاضر، وفتح قامانيچة Kamaniçcse، ولكى يتم حفظ الظهيرة الخاصة بها فقد أنشأ مصطفى أفندى أمين الشعير فى مدينة بولاق هذه شونة وكأنها القلعة . وحتى المدافع العشرة لا تتمكن من حصارها فى أقل من شهر، محيطها دائرًا مادار ستمائة خطوة .

وفى مدينة بولاق ستة حمامات على ضفاف النيل : حمام سنان پاشا، ويُصعد إليه بسلالم مكونة من ست درجات، على الطراز الرومى، وهو حمام مفرح ومضىء، وداخل السوق مبنى الحمام الجديد وهو حمام لطيف . وبها ألف وستمائة دكان، ولكن ليس بها تُجَّار أقمشة، وفى سوق سنان پاشا توجد مائتان من الدكاكين ذات البوابات الحديدية من ذوات الضلفتين، وفى وسطها ساحة رئيسة، وجميعها تبيع الأشياء ذات القيمة بلا قيمة، أى أن الأسعار فى هذه الدكاكين رخيصة . وبها عشرون مقهى كبيرًا مزينًا ومزخرفًا ملوكيا، وهى مستراح لكل كبار التجار (= البازيركَان) . وجميع أسواقها مزدحمة إلى حد كبير بحيث يفتح السائر فيها طريقه بصعوبة، وتتلاصق الأكتاف عند السير فيها من شدة الزحام، لأن كل منتجات الأقاليم السبعة وأناسهم فى هذا البندر . ويمكنك مشاهدة كل متاع وإنتاج الأقاليم السبعة هنا، وكلها تُباع وتشترى هنا، وسنويا تأتى إليها بالنيل إحدى عشرة قطعة من السفن الكبيرة، وأنواع

---

(٧٠) السلطان محمد خان الرابع : هو السلطان الغازى محمد خان بن إبراهيم خان بن أحمد خان الثالث ، وهو السلطان التاسع عشر بين السلاطين العثمانيين العظام ، اشتهر بلقب (أوجى) أى القناص . ولد عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١ م وجلس على عرش السلطنة عقب مقتل والده وهو فى السابعة من عمره، مما أتاح الفرصة لأرباب الفساد أن يلعبوا بالدولة العثمانية اقتصاديا وعسكريا وسياسيا، وكانت الفرصة مواتية للأعداء . ولكن بمناسبة عيد جلوسه الثامن عُيِّن كوبريلى محمد پاشا على مقام الصدارة فأعاد إلى الدولة هيبتها ونظامها واستردَّ العديد من القلاع والبلاد التى فقدتها . كان ولعًا بالصيد والقنص ، عُزل سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧م، وتوفى سنة ١١٠٤هـ = ١٦٩٢م، فتولى بعده ابنه مصطفى خان الثانى . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٦ . صـ٤٢١١) .

عديدة من سفن الروم تفد إلى هنا لتشترى من البضائع التى تأخذها إلى بلاد الفرنجة وتحضر إليها الأمتعة من البلاد الإفرنجية، وهى بندر كل الولاية، وجميع أهلها تُجار ونجارون ممن يبنون السفن، وجميع المأكولات والمشروبات والغلال والأخشاب موجودة فى بولاق هذه، التى تُعد بندر الغنائم .

وفى مقدمة المرفأ مباشرة توجد :

الترسانة السلطانية

الترسانة السلطانية توجد فى مدينة بولاق، وجدرانها الأربعة كجدار القلعة، والجدران دون دهانات، ومحيطها دائرًا ما دار ألفا خطوة، وفيها مئات الآلاف من أخشاب الكرستة التى تملأ داخلها، فالمهمات اليمنية التى تأتى من بلاد الروم أموال سلطانية، ولها أمين تحت سيطرة وإشراف قبطان السويس، وأربعون شخصًا وكلاء له، وناظر، ومحولجية، وأمين مخازن، وديدابانات (= خفر)، وبوابون. وهو بناء عظيم طولىٌّ ومكشوف السقف ، داخله مملوء بمهمات بلا حصر أو عد، مختلفة الأنواع والأحجام، وبها مخازن تحتوى على العديد من المصنوعات والمنتجات المصرية، وكأنها خزينة مصر كلها ، فيها النحاس والرصاص والقصدير والحديد والمسامير، والمدافع والقذائف، وغيرها الكثير من آلات القتال التى تمتلئ بها خزائن مصر، ولها بوابتان عاليتان، إحداهما فى الجنوب تُسيطر على الجهة المكشوفة، والأخرى على ساحل النيل، ولكن لما كُلِّف إبراهيم باشا بفتح اليمن، ولكى يكون على علم يقين بهذه اللوازم والمهمات، كان فى كل مرة يأتى إلى هذه الترسانة، ويقوم بالتفتيش والاستراحة بها، لهذا السبب أقام بجوار البوابة المطلة على النيل هذه استراحة وكأنها قصر "الخَوَرْنَق"، ولم يعد فى مدينة بولاق مثيل له إلا القصر المسمى بقصر السبتية ، وكان به حجرات متعددة، ومخازن مؤن ومطابخ، بحيث أصبح مبنى يليق بذوق وصفاء

السلاطين، وكانت المهمات الحربية تُقيَّد به، وأسفله وأسفل مدينة بولاق ناحية الشمال يقع قصر السبتية، وهو قصر عالٍ مكوَّن من عدة طوابق من القصور المنيفة. به حوض وشادروان، وبه مجالس راقية وشرفات مطلة على النيل، وبه متنزَّهات وأماكن للسير مطلة على النيل . ويأتى إليه جميع الوزراء مرة أسبوعيا للراحة وكسب التلطف ، لأن مياه وهواء مدينة بولاق هذه فى غاية اللَّطافة والطراوة، وهذا مما يجعل لون وجوه ساكنيها محمرا. وأولادها فراعنة ، وهم بأمر الله يلدون دائمًا توائم . وأهلها من أهل الذوق والتمتع، وأهل العشق والتوحيد، وبها الكثير من العارفين بالله، وبها حدائق على كل الجنبات، وفى كل الجهات . وسوف يتم تحرير الأولياء وأماكن زياراتهم فى محله .

الفصل الثانى والأربعون

فى أوصاف
مصيف السلطان قايتباى

سلطان يجمع بين الإمارة والسطوة والقوة، ومع أنه جَمِىُّ(٧١) الطباع فقد كان صاحب ميل إلى الركض والصيد، أى أنه كان معروفًا بالفروسية ورحلات الصيد، ولذا فقد استفاد من هواء هذه المدينة، وقام بإعمارها، لأن فى بلاد مصر ستة أيام يسمونها بأيام الخماسين (اللهم عافنا) . فإنها تُنزل على أهالى مصر (= القاهرة) السفلى كثافة ونحوسة لا مثيل لها، وتجعلهم معرَّضين لأمراض مختلفة، ويظل أهالى القاهرة لمدة خمسين يومًا يتقلبون، ويتدحرجون فى متاهاتها، وهم كالسكارى، ويصيبهم السأم والهمُّ من الطاعون خلال هذه الأيام، وتكون أحوالهم مدعاة للهم والغم، وينهكون من الأمراض، وطوال أربعة أو خمسة أشهر يظل حال المساكين على هذا المنوال، فمنهم من يصيبه انفجار فى المخ أو يموت، والمسنون منهم تتساقط أسنانهم وتنحدر صحتهم حتى يرقدوا ويلازموا الفراش، وبعضهم يتوفاه الله ، والبعض يجد

---

(٧١) جم = جمشيد : المقصود هنا جمشيد، من سلالة البيشداديين الذين ساد حكمهم على إيران فى الأزمنة القديمة، كان الشاه الرابع فيها ومن أقواهم . تتسم حياته بالأساطير، فيقال إن حكمه استمر ٧٠٠ عام، وهو الذى أسس مدينة أصطخر وزيَّنها بالعمارة والعمران، ويُعتقد أنه هو الذى اتخذ من النيروز عيدًا وجعله بداية السنة الإيرانية . وهو الذى أوجد أيضًا مذهب عبادة الشمس قبل ظهور الزرادشتية ، وما زال " تخت جمشيد " يُذكر فى التاريخ دليلاً على العظمة والبهرجة . كان يقسم بالعدل والشجاعة ، ومن هنا يُضرب به المثل . (للمزيد عن سيرته انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٣ صـ ١٨٣٤) .

الخلاص بعون من الله، فسيدنا موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) قد دعا فرعون وقومه، وأنزل الله عليهم البلاء فى أيام الخماسين هذه، ويُصيب أهل مصر الخوف والهلع فى أيام الخماسين هذه، ويقولون إنها " تمسك الخناق "، ويصيب ولاة مصر الضرر من جراء ذلك، لأن الكثير من القرى تُعفى من الضرائب وملتزماتها، ويترتب على ذلك هلاك الآلاف الكثيرة من النقود، وينزل الضرر من جراء ذلك، ولكن من حكمة الله أن أيام الخماسين هذه يُصادفها ويُقَابلها فى بلاد الروم فصل الربيع بآياته اللطيفة، وإنها حكمة الله . وللتخلص من أيام الخماسين هذه وكثافتها وأمراضها كان السلطان قايتباى يسكن فى هذا المكان لمدة ستة أشهر، ومن أجل هذا قام بإعمار وتعمير هذا المصيف، وإلى الآن يطلقون عليه مصيف قايتباى . وهو مكان هاوٍ مريح ومفرح ويشرح الصدور وينعش الروح، هو (أى هذا المكان) بولاق، والقاهرة يُمثلان مثلث مصيف قايتباى . يبعد مسيرة ساعة من مقارٍّ السلطنة والسلطان، فهو مكان عامر بالحدائق والبساتين والرياض المتناثرة . ومن شرق مصر، أى من باب ناصر حتى ضاحية العدلية، يوجد طريق إسلامبول وطريق الحج، وأقام قايتباى على هذا الطريق الرئيسى، عن يمينه ويساره عشرة آلاف من القصور والسرايات العامرة والمعمورة، ومنذ أن دخلت مصر فى قبضة آل عثمان، أصاب الانقراض آل الچراكسة، وتخربت أيضًا سرايات وقصور قايتباى، ولكن من القصور عشرة الآلاف بقى فقط أحد عشر قصرًا وألف دار للفقراء، وسبعون دكانًا، وحمام واحد، وسبعون محرابًا وسبعة عشر جامعًا من الجوامع السلطانية (= الكبيرة)، ولكن كلاً منها بناء عظيم وجوامع سلطانية قديمة، وسيتم تحريرها كما يلى :

جامع السلطان قايتباى

وهو أكثر الجوامع عمرانًا وازدهارًا وازدحامًا وزخرفة، يُصعد إليه بسلم ذى سبع درجات من الحجارة، له طابع روحانى عظيم، يخلو تمامًا من الأعمدة، ذو سقف مذهَّب

ومنقوش ومُقام على إيوانات أربعة، وهو جامع ذو زجاج منير. جوانبه الأربعة ذات أبواب وجدران من أحجار اليشم الترابي والأزرق الفاتح المغطاة بالرخام المصقول والمصنَّع، وكذا الرخام السماقى المتنوع، له منبر مكسوٌّ بالصَّدَف، ويبدو إلى الآن كأنه قد خرج من تحت أيدى أساتذة المصدِّفين، ومحرابه قد تم وفق الأعمال الهندية، مما جعله محرابًا مضيئًا لا يدركه حتى الخيال . وله محفل أيضًا مزركش، وله مقصورة يعجز أمامها السحر والسحرة، وفُرشَ الجامع أى الأرضية، وقد فرشت بأحجار عين الطير التى تُعجز كل مراتب السحر. وبه ثريات ونجف مختلف وقناديل معلقة، من المعادن ذات القيمة التى تجعلها تحفة مزيَّنة . والسلطان قايتباى مدفون داخل قبة مبنية من الحجارة التى تضاهى الفلك، والضريح متصل بالجامع، والقبة منيرة والمدفن مفروش هو والجامع بمختلف أنواع السجاد ذى القيمة العالية .

مناقب رسم أثر قدم النبى

فى هذه العتبة السعيدة أثر القدم الشريف الذى وضعه(ﷺ) فوق الحجر . وحتى أقام السلطان أحمد خان[٧٢] من سلاطين آل عثمان الجامع الجديد، فغمز إليه واحد من الغامزين قائلاً : "يا سلطانى ، هناك فى مصر، فى ضريح السلطان قايتباى،

(٧٢) **السلطان أحمد خان** : هو ابن السلطان محمد خان الثالث والسلطان الرابع عشر بين السلاطين العثمانيين . وُلد عام ٩٩٨هـ = ١٥٨٩م، عقب وفاة والده سنة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣م، تولى العرش فى الرابعة عشرة من العمر ، وظل على عرش السلطنة أربعة عشر عامًا ، وتوفى سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧م . اشتدت فى عصره الحروب مع النمسا من جهة ومع إيران من جهة أخرى ، وقضى على عصيان الجلاليين وأعاد الأمن والأمان إلى البلاد . أجزل العطاء على العمران فى كل مناحى الدولة العثمانية وخص الحرمين الشريفين بالعمارات والخدمات الجليلة . له أشعار عربية وفارسية وتركية ، كما كان محبا لأهل الفضل والأدب . (انظر: ش سامى . قاموس الأعلام ، جـ١ صـ٧٨٤).

يوجد أثر قدم النبى المصطفى(ﷺ) ، ولقد بقى حتى الآن عند العرب، وجامع سلطاننا هذا يليق به" . وعلى الفور أصدر السلطان أحمد خان فرمانًا شريفًا، وبعث به إلى وزير مصر الريِّس مراد . وقاموا هم بدورهم بخلع أثر قدم النبى من قايتباى، وفى أثناء الخلع هبَّت ريح صرصر، وأبرق البرق، وأرعَدَ الرعد. وقد وقعت هذه الأحداث وهم يخلعون هذا الأثر الشريف، فَعُرِض الأمر على عتبة الدولة العثمانية، ومرة أخرى أصدر السلطان أحمد خطا شريفًا وأرسل به إلى رئيس بوابى الأعتاب العثمانية، ووصل إلى قُبَّة قايتباى، وأمر بتلاوة الأنعام الشريفة فى القبة . وأخيرًا ، تم نقل أثر القدم الشريف من الإسكندرية بواسطة سفينة حربية من ذلك النوع الذى يُسمى " قاديرغة " تحت قيادة القبطان مراد، وبعد آلاف المرات من المعاناة والشدائد والصعاب تمكن بعد سبعة أشهر من إيصال الخبر إلى السلطان أحمد خان، وفى هذه الليلة أصدر السلطان أحمد أوامره باستقبال أثر القدم الشريف فى جامع أبى أيوب الأنصارى وسط موكب عظيم، فهبَّ أهالى إسلامبول شيوخًا وشبابًا، رجالاً ونساءً، لاستقبال أثر النبى الشريف، وعند الصباح كانوا جميعًا فى استقبال أثر القدم الشريف .

وفقًا للقانون السلطانى فإن السلطان أحمد خان، وسط موكب عظيم، وصل إلى جامع أبى أيوب الأنصارى ، فقبَّل أثر القدم الشريف، ووضعه فوق رأسه ، وبديهيا، والأثر الشريف يتجول بين الأيدى والرءوس، جاشت نفس السلطان، وأورد نطقًا (أى خطابًا) عظيمًا، جعل بين ثناياه كثيرًا من الأبيات التى نختار من بينها الأبيات التالية :

ما أروع أن أضعه على رأسى كتاجى

و أن يستقر أثر قدم النبوة السلطانى

إن وردة روضة النبوة هو صاحب القدم

فلا تهدأ يا أحمد، ومرغ وجهك فى قدم هذه الوردة

جاشت نفس السلطان أحمد خان بهذه المعانى وغيرها، وقد قام بعد ذلك أستاذنا الموسيقى، أبو العالم وسلطان المطربين، درويش غُتمرى الكلشنى، بتلاوتها والتطريب بها في ليالى شهر رمضان على مقام پنچ گاه (= پنچگاه) وربطها بتسابيح شهر رمضان، وقد كان ذلك شيئًا فنيا رائعًا.

وبعد ذلك قام السلطان أحمد خان بنفسه بوضع أثر القدم النبوى الشريف، وسط احتفال وزحام، وكأنه البحر الهادر فى يَدَىْ نقيب الأشراف الذى ينتسب إلى النسل النبوى الطاهر، فاحتضنه نقيب الأشراف ووضع الأثر فى أحضانه ، واتجه به وسط مدينة إسلامبول، وكانت الحشود المحتشدة تهتف قائلة الشفاعة يا رسول الله . ويردد البعض: آمين آمين. وحاول الكثير من الأهالى لمس الأثر الشريف مما سبب إرهاقًا ورَهَقًا شديداً لنقيب الأشراف الذى كان يجد صعوبة جمّة فى شق طريقه وسط الجموع المحتشدة. وفى النهاية صدرت الأوامر إلى محافظى موكب السلطان ورئيس العسس ورئيس الأمن بالتصرف على الفور، فما كان منهم إلاَّ أن أصدروا أوامرهم للجلادين بمنع الناس من الزحام والزيارة . وهكذا استمرت رحلة أثر القدم النبوى الشريف من جامع أبى أيوب الأنصارى إلى الجامع الجديد : يكى جامع (ينى جامع) حتى حلول المساء وسط زحام ومشقة بالغَيْن .

فى بيان وقائع السلطان أحمد خان من أجل قدم النبى (ﷺ)

فى هذه الليلة يرى السلطان أحمد فى منامه وفى رؤياه أن جميع ملوك المسلمين قد اجتمعوا فى ديوان عالٍ ، وأن سيدنا رسول الله (ﷺ) هو قاضى الديوان، وبعد أن انعقد الديوان، هب السلطان قايتباى واقفًا ... وقال: يا رسول الله، إن عبدك أحمد من آل عثمان ما زال قائمًا على شرعك الشريف ، فادعه إلى شرعك المبين. فقال الرسول

على الفور: إن أحمد من أتباعي، وقد خدمني وخدم البيت الشريف، وأنا أدعوه أمراً إياه قائلاً : أقدم يا أحمد . فما إن صدر الأمر حتى قال أحمد: لبيك يا رسول الله، ومَثُل أمام سيد الكونين وبين يديه قائلاً: السلام عليك يا رسول الله. فتفضل الرسول بالرد: وعليكم السلام يا أحمد. وتفضل قائلاً : يا أحمد هناك من يشكو منك ومن عشقك. فترافع مرافعة شرعية مع خصمك. فتقدم السلطان أحمد ووقف أسفل السلطان قايتباى ، فأمره حضرة المصطفى قائلاً: يا أحمد ، أنت على قيد الحياة، قف في الجانب الأعلى. فيتحرك السلطان أحمد إلى ما فوق ويقف، وعلى الفور يفتح حضرته الدعوى، ويقول: يا قايتباى تحدث.

فينبرى قايتباى على الفور قائلاً : يا رسول الله، كنت مجاهداً فى سبيل الله من أجل دين الله المبين، وبأموال الغزو بنيت ثمانمائة جامعٍ، وهذا معلوم لسعادتكم، وأنشأت جامعًا آخر، وجعلت فيه مأوى لنفسى فى الدار الباقية، ولكى أجعل فيه رسماً من أثر قدمكم الشريف، فبادلت أثر القدم الشريف بأربعين ألف دينار ذهبى من السيد على إبراهيم من نسلكم الطاهر، وأحضرته إلى تربتى فى صناديق من الذهب طبقة فوق طبقة، وبمناسبة زيارته سيزوروننى، وسوف أحوز على ثواب مئات الآلاف من الفاتحة الشريفة، وكنت سأغرق في بحار الرحمة المهداة، والآن منذ أن قام هذا الظالم بسرقة الرسم الشريف لأثر الحبيب، أصبحتُ لا ترى الرحمة وجهى، ولا أرى أنا نعمة الرحمة، فالفرمان فرمانكم، وكذا الأمر أمركم يا رسول الله.

وما إن صمت قايتباى بعد أن قدَّم إجابته حتى وجَّه حضرته الكلام إلى أحمد متفضلاً : يا أحمد ماذا تقول ؟

فقال: نعم يا رسول الله ، أنا الآن الوكيل المطلق للحرمين الشريفين وخادمهما، ولقد أصغيت، وأصابنى الغم لعبدك وأخى قايتباى، فقد قام بإنشاء العديد من الجوامع،

ولكن بمرور الزمان تحولت جميعها إلى خرابات مزرية، ومع ذلك بقى رسم أثر القدم الشريف لسيدنا وسط الخراب غير الطاهر للفلاحين. ولما وقفت على حالته، وما يُحيط به من خراب، وحسب ولايتى، ومن فرط محبتى، أحضرته إلى الروم، بالتكريم والتعظيم، ووضعته فى جامعى، والأمر والفرمان لسيد الكونين.

وصمت اللسان، وعلى الفور قال قايتباى: هكذا كنت أنت المتولى بلا منافس وكان لى الكثير من الأوقاف ولكم الحق فى التفتيش عليها وفحصها، ولم تقم بترميم وتعمير أوقافى، بل أخذت الفائدة، ووضعتها فى خزينتك، وإلا فإن مدخلات أوقافى كافية لإعمار عشرات الأوقاف.

وعلى الفور قال جميع سلاطين السلف متوسلين: يا رسول الله، منذ أن دخلت دولة مصر إلى آل عثمان وجملة أوقافنا أصبحت خربة، وأضاف أموالنا وأموالها إلى الأمور الأميرية ، فخذ دولة مصر من أيديهم، وامنحها لدولة أخرى.

وتوسلوا فى ذلك، وعلى الفور تفضل حضرته بالقول: لا، فهم بأمر الله، وحتى ظهور المهدى المنتظر وإلى أن يحين أمر الله الوارد فى آية الكرسى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة ٢/٢٥٤) فبعدد الحروف الموجودة فى هذه الآية الكريمة يكون هناك بنفس العدد ملوك من آل عثمان، سيأتون إلى مصر ويمتلكونها هى وجميع بلاد الكفر، ولن يبقى على وجه هذه الأرض كفَّار، بل سيذهبون إلى أرض الدنيا الجديدة، ويكون فى ذلك ساعة الإشارة، ولكن فى ذلك حكمة يا أحمد ، فهناك عشاقى المساكين، وقد كانوا متعطشين لكى يمرغوا وجوههم فى تراب قدمى، ولتقريب ذلك مرغوا وجوههم فى رسم أثر قدمى، ونالوا بذلك مقصدهم ومرادهم، وأنت أيضاً (الدال على الخير كفاعلة)

حصلت على الثواب، ولكن على الفور أعد إلى مصر وإلى تربة تابعى قايتباى، رسم أثر قدمى المأخوذ بمال الغزو، وإلا فإنك تعلم .

وبعد أن أصدر حضرته هذا الفرمان فضَّ المجلس . فى هذه اللحظة يستيقظ السلطان أحمد خان من النوم، وعلى الفور يستدعى كلاً من شيخ الإسلام زكريا أفندى ونقيب الأشراف قدسى، وقره سنبل على أفندى وأوليا أفندى أستاذنا ومحمود أفندى الأُسكدارى ووالدنا درويش محمد ظلِّى ودرويش عُمر كَلشنى، للحضور إلى مجلسه، والمثول إلى حضرته . ويقرر أمامهم الوقائع التى حدثت، ويخبرهم بها واحدة تلو الأخرى ، فما كان منهم أيضًا إلاَّ أن أقروا ضرورة إرسال وقف الله إلى مكانه، وعقب ذلك على الفور أُخرج قنطار من الذهب الخالص، وكان والدنا، نحن الفقير، آنذاك وفى ذلك العصر، هو رئيس جواهرجية أعتاب آل عثمان، فقام على مدار أربعين يومًا وأربعين ليلة بتصميم وتنفيذ كتابات ولوحات لرسم أثر قدم النبى بالذهب الخالص، وزخرفه بالذهب والفضة والمينا، وصنع له من كل ذلك دولابًا، بحيث لم يُرَ فى مصر حتى ذلك الحين مثيل له من الأعمال الذهبية. وعلى الفور صدرت الأوامر أيضًا إلى الريِّس مراد، وسلِّم إليه رسم أثر القدم النبوى الشريف، وتحرك فى ساعته ويومه ، وشاءت حكمة البارى إذا كان الأثر قد وصل إلى إسلامبول من الإسكندرية فى سبعة شهور مع آلاف من المتاعب، والمصاعب فإنه أُعيد إلى الإسكندرية من إسلامبول فى سبعة أيام فقط، ودون أى تعب، أو إرهاق، ووصل فى ظرف يوم واحد من الإسكندرية حتى مصر، ودخلها وسط موكب عظيم من أعيان مصر وظل فى هذا الموكب حتى أُحضر إلى قايتباى، ووضعوه كالأول فى موضعه .

وحمدًا لله أن قمت أنا الفقير أوليا الضعيف بتمريغ وجهى وعفَّرته، ورأيت الخط الذى كان من أعمال والدى، وحقا كان دولابًا مصنعًا، ونموذجًا فنيا رائعًا، وكان على هذا الدولاب تأريخ حسن الخط، محرر بالفضة المذهبة، وهو ما يلى :

بشوق حضرت سلطان أحمد ،

زيارة موطئ القدم المكرَّم .

محرِّكًا بجاذبية المشتاق ،

على أقدام قدَّام مقدَّم ،

وسيَّره إلى القسطنطينية ،

فقال له تقدَّم خير مقدَم ،

وأدخل داره باليمن حبًّا ،

وتعظيماً لصاحبه المعظم .

حبيب الله سيدنا محمد ،

عليه ربُّنا صلى وسلم ،

وأرجعه بإعزاز عظيم .

إلى تلقاء موضعه المقدَّم ،

إلهى عمِّر سلطان أحمد .

وقدِّمه على تَقَدُّم من تَقَدَّم ،

بحرمة صاحب القدم المعلا .

له الدرجات العلا فى الأفلاك سلَّم (٧٣)

---

(٧٣) نقلت هذه الأبيات كما هى فى الأصل .

وجملة هذه الأبيات من كتابة والدنا، وقد كتبها بالفضة الخالصة، وفى مقابل هذا الرسم لأثر قدم رسولنا، وأيضًا داخل دولاب هو عبارة عن لوحة، يوجد أثر القدم الشريف لحضرة المصطفى (ﷺ)، وهو أيضًا بطول قدمين، وعلى هذا يكون هناك أثران للقدم، وداخل الدولاب مليء بالكافور والمسك العنبرى الخام، كما توجد سجادة قد فُردت على جدار هذه القبة . وقد قام فنان أستاذ كامل ونسج فيها أبياتًا من الشعر، بحيث من يراها يعتبرها كرامة من الكرامات، داخلها تفوح رائحة الكافور والمسك العنبرى الخام، وشذى ماء الورد وعطره يعبق المكان، موجة فى إثر موجة، وجملة الزوار يمرغون وجهوههم ويزورونه، ويطلبون الرحمة والغفران للسلطان قايتباى. وهى تربة مزدانة ومصنعة، والجامع جامع منير، ولكن ليس له حرم، وله مئذنة من ثلاثة طوابق ، كما يوجد سبيل وكتَّاب صبيان ومدرسة ودار للقراء، وعمارة للطعام والإطعام للعامٍ والخاص . وهناك خان للمسافرين والضيوف وخان للمجاورين، وهو خان عالٍ وكأنه القلعة ، وجملة حجراته مائتا حجرة، ولكن من الخوف لا يسكن هذه الغرف أصحاب الشرف، مجمل ساكنيه من الفقراء، وكذلك يوجد نحو أربعين دكانًا. أوقافه عامرة، وثرية جدا.

لقد كان قايتباى سلطانًا عظيمًا، عظيم الشأن والرفق. ومرة قد رأيت وتقابلت مع ناظر الوقف ومحاسبه ، ومدخلات هذا الوقف السنوية ما يزيد على عشر كيسات مصرية، وتحصلٌ من القرى التابعة له، وله ثلاثمائة من الخدَّام، وكان كلما فتح ولاية من الولايات أقام بها جامعًا على الفور أو جامعين، وما زالت خطبته تُتْلى حتى اليوم فى سبعمائة جامع، كما يوجد باسمه الكثير من آلاف الحسنات والخير، وفى داخل مكة المكرمة وحدها ثلاثمائة من أعماله الخيرية . رحمة الله عليه رحمة واسعة.

وبالقرب من هذا الجامع، يوجد :

جامع السلطان فرج بن برقوق

طوله مائة وثمانون قدمًا، وعرضه مائة وعشرون قدمًا، وسقفه المزخرف والرائع مقام فوق ثمانية وثلاثين عمودًا مصنعًا. نقوش السقف مبهرة تدفع إلى العبرة والاعتبار، وهى مذهَّبة ، ووسط حرم الجامع حُدَيِّقة مزدانة، بها العديد من نخل البلح وشجر النبق وشجر الخشب. وفى الحرم أيضًا ميضأة بها حنفيات.

جامع عظيم غاية فى الروعة والفن، ولكن مما يؤسف له أن جماعته قليلة . وبه منارتان سامقتان يعجز صنَّاع المرمر والرخام عن إبداع مثيل لهما فى عصرنا الحاضر ، كلتاهما قد شُيِّدت بيد واحدة، وهما من ذوات الطوابق الثلاثة. وعلى الباب الواقع على الطرف الشمالى للجامع توجد العبارة التالية، والتى هى عبارة عن آية كريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ (الحِجْر١٥/٤٦) .

ومذكور معها هذا التأريخ :

"أمر بإنشاء هذه التربة المباركة بفضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان برقوق الشهيد تَغَمَّده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جناته يا رب العالمين، وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى سنة ستمائة (= ١٢٠٣م)".

وعلى جانبَىْ هذا الجامع، قبتان متشابهتان فى الشكل والرسم، ومبنيتان من حجر منقوش، مدفون فيهما أبناء وعيال السلطان برقوق . أما الكلام القديم المكتوب بخط حسن على عتبته فلا يوجد شبيه له فى مسجد آخر . حتى إن هناك خطأ كبيرًا من تسطير (كلام عزت)، وكانوا يطلقون هذا اللقب على ابنته العفيفة، وقد اشتهرت

بحسن خطها وهى فى الثانية عشرة من عمرها، وكانت تخطُّ وكأن الملائكة هى التى تكتب لها، كانت لها كتابات من الخطوط تتمتع بسحر معجز، وهى آية من آيات الله . ومع أنها كريمة السلاطين فإنها مدفونة معه .

والحاصل أنه جامع يستحق المدح والوصف والثناء، ومهما قيل عنه فإنه أقل مما يوصف به . خلاصة القول أنه جامع عامر منير بضياء العبادة .

وبالقرب منه :

جامع السلطان أشرف

وهو أيضًا جامع فوقاني، وعمل فني نادر، ليس فيه شيء من الأخشاب قط، على بابه منارة هى بالضبط المختصر المفيد، وقد صُنعت جميع نوافذه من البرونز والنحاس الأصفر . جامع منير، ملحق به سبيل، وسواقيه عامرة، وبه تكيَّة، ومكتب صبيان، وموقوف عليه ما يقرب من مائه بيت .

وبالقرب منه:

جامع الأمير الكبير

هو أيضًا جامع فوقانى دون حرم، له منارة ثلاثية الطوابق، هو وجامع قايتباى رسم واحد، كلا الجامعين من عمل أستاذ واحد . وعلى واحد من أبوابه هـذا التأريخ عشرين تسعمائة (= ١٥١٤م).

وتحت قبة متصلة بهذا الجامع مدفونٌ الأمير الكبير، ولكن الله أعلم . وهو مبنى من الحجارة، داخله وخارجه منمق، وله قبة عالية مرتفعة إلى عنان السماء ، ولا يعادلها

فى ديار مصر قبة أخرى . وجدران الجامع كلها مغطاة بأحجار ذات قيمة، صافية الألوان، وإلى جواره سبيل وفوقه كُتَّاب صِبْية، وفى مقابله يوجد عشرون دكانًا، وخان به مائة حجرة تقريبًا، وكلها مأهولة بالأهالى.

ومتصل بجدران هذا الجامع وبجواره :

جامع السلطان إينال

هو أيضًا جامع فوقانى دون حرم، ولا يوجد بداخله أى عمدان قط، سقفه منقوش بالذهب، طبقة فوق طبقة، والسقف مقام على أربع حمالات، وبه رخام من أغرب ما رأيت من الرخام، ومنبره مصنَّع من الخشب، وفرش أرضيته من الرخام الساحر، وفوق نوافذه زجاج بلورى، وإذا ما تم تعميره وترميمه يصير كالقصر المنيف، أو كأنه قصر الخلد ، جدرانه من الداخل والخارج منقوشة ومزخرفة، وعلى الباب منارة سامقة ورائعة البناء، ومن يراها كأنما يرى شجرة سرو سامقة وسط كلستان . ولكنه كسائر الجوامع الأخرى، ليس كبيرًا، ولكنه يمنح العبرة بزخارفه.

وعلى بابه اليسارى الواقع فوق الطريق العامِّ حُفرت على لوحة من الرخام الأبيض هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ (آل عمران٣/٢٦) .

وبعدها نرى هذه اللوحة :

"أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر إينال عز نصره . تاريخ ربيع الأول عام ستين وثمانماية (= ١٤٥٥م)".

وفى مقابله، وعلى الطريق العامِّ أيضًا يوجد:

جامع السلطان الغورى

وقد كان بناءً عظيماً بحيث لم يكن فوق الفلك الدوَّار ولا على الكرة الأرضية عمل يضاهيه، ولكن الغورى حارب سليم الأول، وخلال الحرب اختفى الغورى ولم يظهر، ولهذا بقى هذا الجامع غير مكتمل، ولو كان قد تيسر إتمامه لما كان له شبيه، فكأنه جنة فسيحة ، ولما كان هناك جامع ألطف منه .

أوصاف جامع السلطان فرج

جامع سلطانى بديع البناء، يقع على الطريق العام، لا شبيه له فى البناء . ليس كبيراً إلى هذا الحد، ولكنه لطيف جدا، وكأنه قصر فى إرم ذات العماد، داخله وخارجه مزدان بالنقوش الصافية، ومحرابه ومنبره تحفة فنية رائعة ؛ المحراب من قطع الرخام وكأنه حفر فخرى لا نظير له، أما المنبر فمن الأخشاب المصنَّعة، وهو الآخر سحر مبين، كل نوافذه تطل على الطريق العام، وهى نوافذ ذات قفص من النحاس الأصفر، له منارتان رقيقتان وبديعتان غاية فى الإتقان، وهما من المنارات التى تمنح الإعجاز، ولا شبيه أو نظير لهما. له باب، ويا له من باب! مطل على الناحية الشرقية، غاية فى الإتقان ، وصُنع له حزام وكأنه باب مدرع، وبجواره دار بديعة، يستخدمها بعض أعيان مصر (= القاهرة) استراحة، وفى مقابل هذا الجامع وفى منتهى الطريق يوجد قصر عالٍ يسترعى الانتباه والمشاهدة، له قاعات متعددة، يأتيها كبار المصريين مرتين فى الأسبوع من أجل اللهو والسمر، ويرمون الرماح، ويطلقون البنادق، ويلعبون بالجريد والمزراق . ويوجد حوض عظيم " عشرٌ فى عشرٍ "، ويتصل بهذه المصطبة وكالة عظيمة للبهارات ، ومنذ عصر مقصود باشا كانوا يأخذون فيها الجمارك على البهارات

الواردة من الهند واليمن. ويا لها من وكالة، فهى ذات مائتى غرفة، وأدوار متعددة، من يرَها من بعيد يظن أنها قلعة.

ومن بعدها :

أوصاف جامع السلطان طومان باى

وهو جامع علوى، يُصعد إليه بسلالم ذات عشر درجات، ليس بداخله أو خارجه أعمدة، وله سقف منقوش مقام على حمالات رباعية، جميع جدرانه مغطاة بأحجار مختلفة، المحراب رخامى، والمنبر من أخشاب الصنوبر المنقوش، وله مقصورة لطيفة للمؤذن مقامة على عمودين، فرش الأرضية مختلف ومتنوع الخامات . جملة نوافذه من البرونز والنحاس الأحمر، وله بابان مقرنصان، أحدهما فى جدار المحراب والآخر خلف القبلة، ليس له حرم، وله منارة عالية جدا ذات ثلاثة طوابق، ناظر أوقافه يقوم بترميم وإصلاح هذا الجامع، وأصبح كقصر الخلد.

وعلى الجانب الأيمن من هذا الجامع يوجد السلطان طومان باى مدفونًا داخل تابوت من الرخام والمرمر داخل قبة سرمدية تُطاول السماء . وحول صندوق الدفن نقشت آية الكرسى الشريفة، وبعدها حرر هذا التاريخ (سنة ست وتسعماية)، ولقد تولى طومان باى هذا السلطنة بعد حروب سليم خان والغورى، وظل يحارب سليم خان تسعة أشهر، وأخيراً تمكن سليم خان من القبض على طومان باى، وصلبه بعد شنقه على باب زويلة .

وسليم خان هو الذى أقام الصلاة وصلى عليه، وأمر بدفنه فى هذه القبة المزدانة بالزخارف من الداخل والخارج، وجملتها من حجر الأرشين، أعلاها غير مغطى بالجير

والرصاص. ولهذا الضريح فناء، وجوانبه الأربعة لها جدران تذكِّر بجدران القلعة .
داخله ما يزيد عن مائه حجرة، وقاعة ومضيفات متعددة وزوايا، وقصر عالٍ لاستراحة القادة والأمراء والباشوات، ومخازن متعددة للمواد الغذائية، ومطبخ ومقهى وساقية وحوض، وثلاثة أسبلة متناثرة في أماكن متعددة . وفي ضاحيته، وفي القصر العالي الذي يسمونه العادلية، في ميدان المحبة، كان طومان باي يقضي يومًا، بعد أن يكون قد وصله من مصر المحروسة ، وكان يُقيم فيه ديوان العدل من أجل الحكم بين الرعية، وفي مكان كهذا يكون الجامع هو عمارة العدل وعلامته.

وبالقرب من قايتباي:

أوصَاف جامع السلطان الطويل

وهو جامع تحتاني، له منارة، ولكن الفقير دخله، ولم أرَها، والحمد لله أن دخلته، وعبدت الله فيه وصليت.

وقد التزمت بتحرير ما شاهدته ورأيته عين اليقين ، وعلمته علم اليقين من عماراته ومنشآته. وفي هذا المصيف كم يوجد من المساجد والجوامع والمنارات والمدارس والتكايا والخانات والأسبلة والحمامات والسواقي والخيرات! ولكنها مع الأسف خراب يباب، بحيث كان هذا المصيف في الزمن القديم يُعادل مدينة مصر (= القاهرة) في عمرانها وعماراتها. فليعمرها الله سبحان وتعالى وليعد إليها النماء. حقا إن مصيف قايتباي هذا خراب، ولكن هواءه في غاية اللطافة والطراوة ، وما زال مُحِبُّو الطبيعة من أهالي مصر يتجهون إليه خلال رياح الخماسين التي تقلب أجواء مصر رأسًا على عقب، ويقضون به مع عيالهم وأطفالهم شهرين أو ثلاثة أشهر، وخلال رياح الخماسين وتحت تأثيرها، تُسقط الحوامل أجنتها، ولهذا السبب يفضل بعض

الناس أن تُرْضِع الأمهات أبناءهن هنالك فى هذا المصيف، ومَنْ يعيشون فيه عيونهم جميلة جذابة. ولكن مَنْ يلدن فى مدينة مصر فإن أعين أولادهن بأمر الله تكون كعينَى كور أوغلى[٧٤] ، وهذا يسير فى مصر كمضرب المثل، يعنى أعينهم تكون كعينى الأعمى Cimroz . وإذا ما تم جماع فى الخماسين بين المصريين وحملت الزوجة، فالمعصوم فى رحم أمه يُصاب بأمراض عدة بقدر الله، ويولد بهذا الشكل، وما إن يمضى عليه خمسة أشهر أو ستة حتى يُصاب المعصوم بانفجار فى مخه ويتدفق كالخل فى رائحته، ويموت البرىء من هذا الصدد . أما الذين يشاء قدرهم أن يولدوا فى مصيف قايتباى فهم مبرأون من هذا الداء، ولهذا يؤمه الكثيرون، فهو مصيف لطيف الهواء، طيب النسائم يُهاجر إليه الكثير من الناس .

---

(٧٤) **كور أوغلى** Kör Oglu : شخصية تراثية معروفة فى الأدب الشعبى التركى بعامة ، يصعب تحديد مكان ظهوره ، بل يوجد فى أغلب التراث الشعبى التركى فى كل فروعه . اشتهر رغم فقده لبصره بالشجاعة ومواجهة الظالم ، ويدور حوله الكثير من الأساطير والمناقب فى هذا الصدد .

الفصل الثالث والأربعون

أوصاف مدينة الفسطاط القديمة ، يعنى أم الدنيا العظيمة

إن أوصاف مصر أم الدنيا تستوعب مئات الآلاف من المجلدات وآلاف الآلاف من الكتب المعتبرة منذ أن عُمرت حتى الآن، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الفقير حاول أن يُبيِّن الأحياء التى رآها، وما بها من عمران .

كانت قد عُمِّرت بعد الطوفان، بحيث كان الذى يبدأ مسيرته من الغرب إلى الجنوب يقطع ثلاث مراحل حتى الوصول لنهايتها كانت مدينة عظيمة ، حتى قام بختنصر(٧٥)

---

(٧٥) بختنصر = بُخت نصر : هناك اثنان من الحكام الأشوريين يتسمَّيان بهذا الاسم ، الأول ساد حكمه على بلاد نينوى من عام ٦٦٧ إلى ٦٤٧ ق.م ، وقد انتصر على حاكم ميديا (يعنى العراق وأذربيجان) وقتله بيديه . وإذا كان قد أمر أحد وزرائه بفتح سوريا وفلسطين فإن هذا الوزير قد قُتل على يدى مَنْ تُسمى (يوديت) اليهودية . وبعد قتل هذا الوزير اختفت كل فتوحات بختنصر، بل يُقال إنه هو أيضًا قد قُتل عندما كان يُدافع عن نينوى .

أما الثانى فهو أيضًا المشهور بهذا اللقب، وهو الذى نجح فى توحيد كل من أشور وبابل، وأصبح حاكمًا لهما . وإذا كان قد دفع بعساكره نحو فلسطين سنة ٦٠٦ ق. م، فإنه لم يستطع أن يقضى تمامًا على "يهوياقيم" حاكم بنى إسرائيل، بل أدخله فى طاعته فقط وأبقاه فى السلطة . وبعد ثلاث سنوات أعلن يهوياقيم العصيان ، فأرسل بختنصر بجيش استطاع أن يقبض عليه نفسه . ومات يهوياقيم فى الطريق من الخوف، فنصَّب بختنصر ابنه مكانه على بنى إسرائيل . ولكن بعد مائة يوم قُبض عليه هو ومجموعة من رجالاته كان من بينهم دانيال وحزقال، وأخذهم أسرى ، فعين صدقيا حاكمًا على بنى إسرائيل. وعندما أعلن صدقيا راية العصيان ضد بختنصر بعد تسع سنوات من الطاعة بعث الأخير بجيش جرار على فلسطين ، وتمكن من السيطرة على القدس بعد حصار دام لمدة تجاوزت السنتين، وخرَّب بيت المقدس ، وساق بنى إسرائيل أسرى إلى بابل، وبعدها حاصر "صور" =

بتخريب الشام (= دمشق) والقدس ونابلس فى أرض حسًان، وقام كذلك بتخريب مدينة الفسطاط (= هذه القاهرة)، وبعده أيضًا تم إعمارها، وحتى عصر النبوة كان قيصر الروم المسمَّى هَرْكَلْ[٧٦] من اليونانيين وملك إسبانيا من الفرنجة يدًا واحدة وقلبًا واحدًا، وجعلوها وجهتهم الواحدة، حيث جاءوا من دمياط ورشيد وقت فيضان النيل بألف سفينة وامتلكوا مصر بالقوة من يدَى المقوقس[٧٧] ملك مصر، وتحولت إلى اليونانيين، ووقفوها على الأياصوفيا[٧٨] فى إسلامبول . ولكن بانى مصر القديمة هذه

= وفتحها، حتى إنه بعث بجيشه إلى مصر ، واستولى على مصر السفلى ، وأخذ غنائم وفيرة من المناطق التى استولى عليها، وزيَّن بابل بالآثار المصرية التى استولى عليها، وادعى الألوهية . ولكن الله أنزل عليه عقابه، ففقد عقله وظن نفسه ثورًا، وظل هائمًا فى الغابات سبع سنوات، وكانت زوجته هى التى تدير دفة الحكم خلال هذه المدة، ولكنه استرد عقله وحكمه وصرف النظر عن دعوى الألوهية . توفى سنة ٥٦٢ ق. م . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام . جـ٢ صـ١٢٥١-١٢٥٢).

(٧٦) **هرْكَلْ (= هركول)** Hercule : بطل مُتَخَيَّل فى الأساطير اليونانية ، كان صاحب قوة وشجاعة خارقة، مثله فى ذلك مثل رستم زال فى الشاهنامة الفارسية . كان يمكنه القضاء على الكثير من الحيوانات والأفاعى الخرافية ، وقد انتصر على الكثير من الجبابرة . هناك الكثير من الأماكن والقلاع تنسب إليه، أو يُقال إنه فتحها بقوته وسطوته. (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام . جـ٦ صـ ٤٧٣٦) .

(٧٧) **المقوقس** : كان واليًا على مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى فى بداية عصر النبوة، وهو الذى أهدى إلى النبى (ﷺ) مارية القبطية مع جارية أخرى وهدايا. وهناك مَنْ يعتبرونه من الصحابة حتى وإن لم يشهر إسلامه . فتحت مصر فى عهده ، وما زالت الرسالة التى بعث بها النبى (ﷺ) إليه يدعوه فيها إلى الإسلام معروضة فى متحف طوپ قاپى سراى فى مدينة إستانبول. (انظر : ش. سامى قاموس الأعلام جـ٦ صـ ٤٣٦٥) .

وقيل : المقوقس هو صاحب الإسكندرية الذى أهدى إلى رسول الله (ﷺ) مارية أم إبراهيم وأختها سيرين والبغلة . ذكره ابن مندور وأبو نعيم فى كتاب الصحابة، وغلطا فى ذلك ، فإنه لم يسلم وما زال نصرانيا، وقد فتح المسلمون مصر فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. قال ابن ماكولا: اسم المقوقس جريج يعنى بجيمين أولاهما مضمومة . (تهذيب الأسماء ٤٥١/٢ ، لمحمد بن شرف النووى، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ط١ ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات) .

(٧٨) **الأياصوفيا** Sainte Sophie : كانت كنيسة ثم حولت إلى جامع عظيم بعد فتح إستانبول عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م. وهى قائمة فى النطاق الخارجى لسراى طوپ قاپو الهمايونى، وكان فى مقابل واجهتها الشرقية وزارة العدلية . =

منذ البداية هو مصرام بن ناقراوش من أبناء سيدنا آدم، ومن بعده جاء طوفان نوح، فأخذ ابن نوح بايزار بن حسام ابنة الكاهن قاليمون، وبإذن من سيدنا نوح جاءوا إلى العريش ومنها إلى بلبيس مصر وعمَّروها، وقد تم تحرير ذلك مسبقًا . ولكن والحالة هذه، فما علينا إلا التعريف بما هو معمور وموجود أمامنا. فإذا ما اتجهنا جنوبيًا من مدينة مصر لمدة ساعة، وميلاً نحو النيل، وعلى البعد من ساقية الغورى الموجودة على ساحل النيل، وسيرًا حتى الوصول إلى الجمرك، ومن الجنوب حتى الشمال مسافة ألف وثمانمائة خطوة طولانية، وسط هذه الحدود تقع المدينة القديمة، وبها قصور وبيوت عالية مكون بعضها من ثمانية طوابق وبعضها الآخر من خمسة . وعرض هذه المدينة من بعض الجهات ثلاثمائة ومن جهات أخرى أربعمائة، وبعض أماكنها تصل إلى خمسمائة خطوة عرضًا، كما أن عرض بعض جهاتها ستمائة خطوة، فهى مدينة دون عرض أى طولانية، بها الكثير من الأماكن المعمورة والمزينة، والتى تقع على ساحل النيل، وجملة أعيان مصـــر يتنزهون ويتفسحون فى القسم الواقع على ساحل النيل ، ولذلك أقاموا القاعات المتعددة الطوابق، والمفروشة بالمجالس السلطانية ، والغرف المتعددة، والحدائق والبساتين والمتنزهات ذات النوافير والفسقيات والأحواض، مما جعل هذه المنطقة وكأنها إرم ذات العماد، والتى لا يوجد مثيل لها فى البلاد، وتبدو كالقصور التى يعجز اللسان عن وصفها ، وعدد المنازل والبيوت التى تخصُّ الأهالى

= بنيت فى أول الأمر من الأخشاب، وقد أمر ببنائها قسطنطين العظيم عام ٣٢٥م ، وهو الذى أطلق على هذه الكنيسة اسم "آيا صوفيا" أى الحكمة المقدمة. وظلت تُستخدم كنسية مع تطويرات متعددة فى طرازها المعمارى، حتى تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح مدينة القسطنطينية، فحوُل الكنيسة إلى جامع، وأقام بها منارة ومدرسة ، ثم أضاف السلطان بايزيد الولى إليها منارة أخرى .

وكان كل سلطان يضيف إليها إضافات عظيمة، وقد رأى المترجم مكتبتها العظيمة، والتى نُقلت فيما بعد إلى مكتبة السلمانية . وبعد قيام الجمهورية صدر قرار بتحويلها إلى مُتْحَف تحت الضغوط المسيحية الغربية . (انظر للمترجم : إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ، دار الآفاق العربية ، القاهرة، ١٤١٩هـ =١٩٩٩م) .

من فقراء وأغنياء أربعة آلاف وستمائة دار سكنى . ولما كانت على ساحل النيل فهى بندر ذو مرفأ ، حتى إنه تأتى السفن المحملة بالبضائع والغلال من بلاد الفرنجة، ومن ولاية النوبة، وولاية الصاى Say والواحات والصعيد بحيث إن عدد السفن الصغيرة والكبيرة المحملة بالغلال والتى تصلها تزيد عن عشرة آلاف قطعة، وترسو على شاطئ مصر القديمة هذه، وتسلم حمولتها إلى السلطة المختصة .

وفى مصر القديمة بتاريخ ٤٣٢ هـ = ١٠١٤م كان يوجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع تدب بالحركة والنشاط، وألف ومائة وسبعون حمامًا خاصا وعاما، ومائة ألف مضاعفة من دكاكين الحرفيين. وبعده فى سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م قام المستنصر بالله من الفاطميين بحرب عظيمة داخل مدينة مصر، ولم يبق فيها أحد قط من طائفة العسكر . وفى هذه السنة حدث قحط وغلاء فاحش فى الأسعار، وظهر طاعون عظيم مهلك، وعلى الفور هَبَّ كل أهالى الفسطاط وذهبوا إلى المستنصر بالله فى معيَّة من هم محطُّ أنظار الخلفاء الفاطميين، وقدموا شكوى للمستنصر . فاختار المستنصر عشرة رجال من أهالى الفسطاط وبعث بهم إلى القسطنطينية، وهؤلاء الرجال العشرة أيضًا أُمروا بالتوجه إلى أرطغرل أمير طائفة من آل السلاجقة، وذلك لطلب الظهيرة، وتوجه الرجال إلى مدينة أياصولوق Ayasuluk من أجل طلب هذه الظهيرة. ولكن عقب وصولهم إلى القسطنطينية وبينما تحركت السفن بالظهيرة إلى مصر شاءت الأقدار أن يُتوفى بأمر الله المستنصر بالله، فتعود الظهيرة إلى بلاد الروم، مما زاد من القحط والخراب بأرض مصر، واشتد الغلاء، فأُرسل وفد من الرجال ثانية إلى أرطغرل فقام أرطغرل بدوره بطلب الظهيرة لأهل مصر من تكفور Tekfur ورجاه فى ذلك . وما كان من السفير المرسل إلا أن طلب الصلاة والدعاء، وإقامة صلاة جماعة فى دير أياصوفيا من أجل أهالى مصر، فالتقى السفير مع ثلاثمائة من العلماء، وقابلوا طلبه بالقبول والاستحسان، وأقاموا صلاة جماعية فى

كنيسة الأياصوفيا، وقُرئت الخطبة باسم القائم بالله من الفاطميين، ولكن قبل أن تصل المؤن إلى مصر قام القائم بأمر الله بإعلان الحرب، والزحف بعساكره المصرية على النصارى القائمين فى القدس، والذين كانوا قد استولوا على الكثير من خزائن مصر وخزائنها الفرعونية وحوّلوها إلى خزائن القياصرة. وتَمَلَّكَ منهم القلاع واحدة تلو الأخرى حتى تمكن من استرداد الشام وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا والرملة، والتى كانت قلاعًا إسلامية واستولى عليها ملك قيصرية بعد أن تحرك من سيلفكه وفى معيته ألف سفينة .

ولكى يحمى المدينة من عودة استيلاء الكفار عليها أقام جوهر القائد وزير المعز لدين الله الفاطمى مدينة جديدة على بعد مسيرة ساعة من النيل حتى حوافٍ جبل المقطم . وكان جوهر هذا قد قدم من المغرب، وكان هو فى البداية الذى بنى مدينة القاهرة الجديدة هذه، وكان جوهر القائد عبدًا أو مملوكًا لوالد المعز، ولُقب بأبى الحسن، وفى الأصل هو غلام رومى، ثم أصبح الطواشى جوهر.

وبعد أن تلقى تدريبه وتعليمه، فى سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩م عيَّنه المعز وزيرًا وقائدًا. ونجح فى أن يفتح فى المغرب مدينة فاس، وتلمسان، ومرانكش Merankesi وطنجة، والسودان، وأسوان، والحبشة، وصال وجال طوال ستة أعوام كاملة فى اليمن والعراق وإيران والهند، حتى وصل إلى الصين، واحتل أماكن وأراضٍ تتبع لعشرين سلطانًا، وعاد إلى المغرب، ومنها توجه إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨م، وهو الذى بنى مصر التى يطلقون عليها القاهرة، وفى هذا عدة روايات، ولكن أصحها هو أن جوهر القائد بينما كان يضع أساس مصر القاهرة، علَّق المنجمون جرسًا فى حبل لكى يستطلعوا ساعة الطالع الميمون، وبينما الجميع يراقبون الطالع الميمون، كان عُمال البناء ممسكين فى أيديهم الأحجار لكى يضعوا الأساس، ولكن العبد يدبر والله يقدر، فقد شاء القدر أن يلمس طائر غراب جرس المنجمين، وما إن دق الجرس، حتى هب العمال على الفور،

ووضعوا أحجار أساس البناء، فصاح المنجمون ظنا منهم أنهم فى طالع القاهر أى المريخ، أى أنه جلاد الفلك، ولهذا فإن الصراع والجدال والفساد والفتنة والحرب وسفك الدماء ليس بقليل في مصر، وإن كان لهذا السبب يطلقون على مصر القاهرة، فإن المصريين يسمونها أيضًا القاهرة المُعِزِّيَّة .

وقبلهم كان البود بن قافاط بن مصر بن حسام بن حضرة سيدنا نوح عليهم جميعًا آلاف الصلوات والسلام "، كان البود هذا هو الذى وضع أسس الفسطاط القديمة، وكانوا فى البداية يطلقون على النيل الذى يمر من أمام هذه المدينة "أبو البود"، بينما كان قبل ذلك يطلقون عليه (بلون) . وما زالوا فى ولاية النوبة وأهلها يطلقون على نهر النيل (جربلون) .

فى بيان حكام مصر العتيقة

كان فى مصر القديمة سبعة حكام، فى البداية كان أمير من أُمراء مصر من الغفافرة المختارين أصحاب الدبدبة والطنطنة والمظهرية والكر والفر، وكان يضع شروطًا ويفرضها على الأمراء، فى معيته ثلاثمائة من جنده المدجَّجين بالسلاح، وكان صاحب قصر عالٍ، يسكنه ويحكم منه، وكانت موسيقاه تُعزف لمدة شهر كامل، ويفرد سماطه المحمدى، ويبذل الكرم ويجزل فى العطاء . وكان يقدم إليه قائد الحرس عدا البواب، ويعرض عليه القانون ومجريات الأمور، وعندما تكون النوبة، فمن يتولَّ قيادة الحرس يتولَّ العرض عليه عما إذا كان قد حدث فساد أو سرقة أو خلل فى الداخل ... فيلزم القائد بضرورة البحث والإثبات، وبعد التحرى وبعد الإثبات لا بد من صدور الحكم بأى وجه كان . وعلى قائد الحرس إما أن يجد السارق وإما أن يدفع هو الغرامة، ويتم بذلك ترضية صاحب المال والبضاعة المسروقة .

والثاني هو الحاكم (= القاضي) الشرعي، وهو يحكم بالشرع المبين، وهو نائب عن مُولاً[٧٩] (= شيخ) قضاة مصر، بمعاش قدره مائة وخمسون أقچة، ومن طرف الباشا الوالي، ويُعيِّن ويكلِّف قيوجي باشي[٨٠] (= رئيس) حرس البوابة ومعه مائة نفر بالسيطرة والحراسة، كما يُعيِّن أغا ناظرًا على عنبر (= مخزن) سيدنا يوسف، وهو يشرف ويخوِّف الكاتب والأمين والتَّراص والسيَّال. إنها أغوية مختارة ومنتخَبة، ولكنها مكانة يتسم صاحبها بعلم الكتابة والاستقامة والشفافية، ولو ظهر عليه ولو مقدار ذرة من الخيانة تُسلب وتُنزع كل ممتلكاته، ويعود كمَنْ لا يملكون نقيرًا . وأمين العنبر (= أمين المخازن) هو قاضٍ آخر، وهذه أيضًا أغوية كبيرة من عبيد مصر، وهو ومعه مائة من الأنفار يشرف على عدة آلاف من العنابر، وهو يسيطر ويشرف على كل الحراس والنوباتچية والخدَّام .

كما أن هناك حاكمًا (= قاضيًا) من الإنكشارية ، وهو چورباجي[٨١] (= ضابط) يسيطر على أربعين أو خمسين من أتباعه، كما أن هناك ستة آخرين من حُكَّام الجمرك، أو أمناء الجمارك، وهم يتقاضون الجمارك على كل ما يطير في السماء، أو يسير على الأرض، أو يسبح في الماء .

---

(٧٩) **مولاً = مونلاً** : لقب استخدم بخصوص العلماء الذين حصلوا على درجة المولويت، ومن له مكانة اجتماعية وعلمية عالية وكانت تكتب بشكل مثلا . ومع الوقت استخدم لقب أفندي للدلالة على العلماء والمفكرين. وبعد ظهور طبقة الأعيان والأشراف أضيف لقب بك إلى لقب مولاً وأصبح يستخدم مولا بك. والمعنى اللغوي لكلمة مولاً الكلي العالم والفاصل والقضية، كما صار يخاطب به كبار المدرسين . (پاقالين جـ ٢ صـ ٥٤٩) .

(٨٠) **قيوجي باشي** : تعبير يستخدم بشأن الضابط الكبير وأمير بوابي القصر، وكان بوابو القصر ينقسمون إلى قسمين، الدركاه العالي و الباب الهمايون . وليس من المقطوع به معرفة متى بدأ إحداث ذلك المنصب، إلا أنه يعتقد أن هذا المنصب قديم في الدولة إذ إنه ذُكر في قانون الفاتح .

(٨١) **الچورباجية** : اصطلاح عسكري عثماني يُطلق على ضباط البلوك الذين يكونون جنود المشاة في الجيش العثماني، وعلى ضباط معسكر الجند الجدد المكون من واحد وثلاثين بلوكا ، والذين كانوا بمثابة =

والحاكم السابع هو صوباشى (= مدير بلدية وأمن) مصر القديمة، وهو يتولى حفظ الأمن والحراسة ليلاً ونهاراً مع ستين نفراً من مباشريه .

والثامن هو قاضى أو حاكم العسكر الإنكشارية، ومعه ضابط ومائتان من المسلحين الإنكشارية، وهمُ مكلَّفون بالحراسة، والمحافظة على الوضع العام . ولكن على شاطئ النيل، توجد تكايا رائعة لكل عتبة من الأعتاب المباركة، واللسان يعجز عن وصفها، ولا تؤثر عليها الشمس أبداً بسبب ظلال الأشجار الساقطة التى تطوقها، ويسمونها تكية الجزيرة، وجميع السقَّائين يملأون ليلاً ونهاراً من النيل . ويرشُّون الأرض بحيث يتم تلطيف الجوِّ .

والحاكم التاسع هو أمين ساقية الغورى، وهو من الإنكشارية برتبة ضابط (= چورباجى) . ويقوم على رعاية وصيانة الساقية مع سبعين أو ثمانين من أنفاره، وهو الذى يقوم على سقاية مصر .

أوصاف قلعة مصر العتيقة وذكر تخليص المصريين لمصر من أيدى الكفار، وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار

إن جميع المؤرخين الذين ذكروا مصر قد قصدوا بها هذه المدينة التى هى مصر العتيقة، والتى تم تعميرها وإصلاحها ثمان عشرة مرة، ولهذا فإن لها ثمانية عشر

= مخرج لمعسكر القابى قولى، وهو موازٍ للبلوك باشى أى رئيس البلوك . وكانوا يُلقبون أحياناً بـ " صوباشى "، ويطلق على أقدمهم فى الجماعات " باباباشى " قائد المشاة . وكانت لهم خيولهم الخاصة بهم ، وكانوا يرتدون جبة طويلة الأكمام من المخمل وقفطاناً رقيقاً وشلواراً قرمزيا ويابوجاً نعلاً أصفر فى أقدامهم .

أما القدامى الذين يُلَقَّبون " چورباجى كتخداسى " فقد كانوا يرتدون فرواً مُقصباً ، وهم الذين يقومون بتنفيذ الجزاءات التى توقع على الجند وينظمون أمورهم ، أى أنهم كانوا بمثابة البوليس الحربى فى العصر الحديث . غُيِّر هذا اللقب إلى " أورطة أغاسى " بعد إلغاء الإنكشارية .

اسمًا : الاسم الأول هو اسم أمسوس، والاسم الثانى هو قصر الشمع ، فقد رأوا فى البرج العالى مصباحًا مطلسمًا، وظلوا يرونه من طوفان نوح حتى مجيء سيدنا موسى، ولما كانت هذه الشمعة دائمة الاشتعال فوق هذه المدينة فقد سمَّوها مدينة الشمع أى قصر الشمع، أو مدينة قصر الشمع، وما زال هذا البرج العالى دائم الظهور. وبعد ذلك، وخارج مدينة الفسطاط بنيت مدينة عظيمة، أسموها "مقر العسكر"، وفى سنة ٢٢ هـ = ٦٤٢ م كان الذى أقام هذه المدينة وعمَّرها فى السنة المذكورة، وجعلها مقرًا للعسكر هو السلطان أبو عون ، وكان والده هو عبد الملك .

وبعده جاء من بلاد العراق أحمد بن طولون، وزاد من إعمار مصر واتساعها، وسكن فى السراى الذى بناه أبو عون، وبنى مدينة أخرى عامرة وسماها "القطايع"،(٨٢) وكانت مدينة مزدانة بالعمران ومكونة من مائة ألف دار عامرة وعظيمة، وظلت هذه المدينة مقر حكم أحمد بن طولون، وبعد أن أتمَّت دولة أحمد بن طولون دورها، تخربت أيضًا مدينة القطايع هذه، ثم جاء جوهر القائد بجند لا حصر لهم إلى مصر من بلاد المغرب، وشيَّد مدينة القاهرة، وبعد أن أقامها أقام فيها، وقام عليها ستة عشر سلطانًا من بلاد المغرب وديار العجم ، البعض جعلها مقرا لعساكره، والبعض استقر فى الفسطاط، والبعض فى القطايع. أول هؤلاء الحكام كان محمد بن سليمان الذى كان أحمد بن طولون مملوكه وكاتبه . وكان الأخير يُلقب بـ"الكاتب اللورد" ، وعُرِف بهذا اللقب لأن اسمه يعنى اللورد، وكان يتولى الكتابة فعُرف بالكاتب اللورد، أو اللورد الكاتب . وما زال جامعه موجودًا داخل مصر.

وفى سنة ٢٩٢ هـ = ٩٠٤م كان محمد بن سليمان المذكور، وآخر شخص منهم هو الملك أحمد الإخشيد، بحيث تمكن جوهر القائد المذكور والقادم من المغرب من أخذ

---

(٨٢) أنشئت مدينة "القطايع" (= القطائع) فى عهد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية قبل مدينة "العسكر" التى أنشأها الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية .

مصـر من أيديهم، وأقـام معـز الدين سلطانًا على مصـر . وكان قد مر على دولة بنى العباس فى مصر ٢٢٥ مائتان وخمس وعشرون سنة . وبعدهم مر أربعة وثلاثون عامًا وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يومًا . وكان بناء أحمد بن على من الإخشيديين لها سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨م، وحسب قول البعض فإن مكان الفسطاط هذه كان هناك قصـر منيف لملك يسمى "بن آرسلاوش" . وقد بنى هذا الملك القصر بحيث إنه كلما انتقلت الشمس من برج إلى آخر أول كل شهر، فى هذه الليلة التى تصادف انتقال الشمس، كانت تُوقد نار فوق هذا القصر، ويعرِّفونها بأن الشمس الساطعة تنتقل من برج إلى برج . ولذلك سموا هذه المدينة مدينة " أرسلاوش " التى تعنى باللسان العبرى " منزل الشمس " .

وبعده قام بختنصر بن فيروز الكلدانى بتخريب هذه المدينة، وظلت على هذا المنوال السيئ مدة خمسمائة سنة . ثم أُضيفت إليها مدينة أُخرى، فى مكان السوق المسمى يشكى قودا Yeski Koda" . وبالقرب منها مدينة أخرى عظيمة وأسموها (حمراى قصوى) قصوى الحمراء .

وبعدها فى سنة ٣٥٨ هـ جاء إلى مصر جوهر القائد، وهو غلام المعز لدين الله الفاطمى، وقد جاءها من بلاد المغرب . وبنى " مصر الجديدة " وأطلق عليها اسم "قاهرة المعز" أو القاهرة المُعِزِّيَّة .

وبعدها وبالقرب منها فى المكان المسمى القطايع أقام أحمد بن طولون مدينة مزدانة . وبعده جاء ملك من ملوك القبابطة هو " أرجالس بن مقراطس Ercalis bin Mikratis وحكم مصر وأقام مدينة مكان الفسطاط . وكان اسمها فسطة أرجاليس Fosta Ercalis . وحسب قول بعض المؤرخين فبعد بُختنصر كانت مصر فى أيدى الشاهات الفرس عبدة النار، ومنهم سلطان يُسمى " حصنى كسرى جوش " قد أضاف إلى مصر مدينة أخرى سمُّوها قبة الدخان، لأن الكثير من معابد النار قد أُقيمت فيها، وكان يتصاعد منها الكثير من الدخان . وما زال إلى الآن آثار قديمة من آثار معابد

النار موجودة خارج مصر القديمة . وما زال حتى الآن مَنْ يحكم مصر القديمة يسكن بالقرب من هذه القبة .

ولكن حاكم مصر القديمة " أشمون بن قبطيم " قد أقام مدينة على حواف جبل المقطم، وسماها "أوطى طيس" Oti Tis. وأيضًا تم بناء مدينة أُخرى ناحية الجيزة وهى مدينة " أتريب" Etrib وهى من مآثر الملك أتريب . وبالقرب من مصر أقام الوزير هيرون Hirun مدينة قاندومة Kandume من أجل الملك خاروبة Haruba . ولكن لم يكن أى من هؤلاء الحكام يحكم مصر من داخل قلعة مصر القديمة أو يُسيطر عليها، فمنذ سيدنا عمر (رضى الله عنه) وللقبط الذين يعيشون فيها أوامر وفرمانات تصدر لهم بالعهود التى تعطيهم الأمان، ولا يستطيع أى إنسان أن يضع يده عليها أو يدخلها، لأن كل ساكنيها من الرهبان الأقباط، ولهم أديرتهم القديمة . ويسكن داخلها نحو ألف من الأقباط، قائلين: إن هذه مساكننا القديمة "مساكننا العتيقة" . وداخل أديرتهم يرقد من ملوكهم قبطيم Kibtim، وفيلباتن Filbatin، وميخائيل Mihayil ، وميكائيل Mikayil وطوطيس Totis ، ولم يبقَ من قلعتها إلاَّ أطلال قديمة تدل على الاسم فقط، ولكن خوفًا من الاندثار تم ترميمها وتعميرها، وجعلوا لها بابًا صغيرًا منخفضًا يطل على ناحية الغرب ، لا يدخل منه الحصان، ولكن يدخله الحمار والمترجل، ومحيط هذه القلعة دائرًا ما دار ألفا خطوة، فيها دير عالٍ وكأنه برج سلطان عظيم، ولها برج كبير . وحول هذه القلعة ومن الجوانب الأربعة توجد خنادق عميقة، وما زالت تُطهَّر سنويا من المخلفات التى تقع فيها . حراسها وبوابها منهم أنفسهم ، لا يوجد داخلها غير الرجال فقط، والنساء لا يدخلنها. وكانت هذه القلعة فى الزمن القديم قلعة عظيمة ما زالت جدرانها قائمة، وخنادق أبراجها ظاهرة وباهرة، ولكن الأقباط كانوا يسكنون القلعة الداخلية، وكانت تقع ناحية القبلة فى المدينة . على جوانبها الأربعة توجد المدافن والأطلال الخربة، ولكن وجودها فى مصر العتيقة كان مزدهرًا . ومدينة مصر القديمة موجودة وعامرة، وبها مائتان وسبعون محرابًا، وجامعان رئيسيَّان عامران ومعموران بالمصلِّين، وكلاهما كالقلعة الكبيرة .

جوامع كبيرة مستجاب فيها الدعاء هى قبلة الفقراء

جامع عمرو بن العاص

سبق أن تم التعريف بالجامع بالتفصيل، ولكن ليس فى مصر كلها جامع يكبره أو بأربع منارات مثله ، فالجوامع الأخرى إما أحادية وإما ثنائية المنارات .

وبعده، بالقرب من ساقية الغورى يوجد :

جامع السلطان محمد بن السلطان قلاون Kiavan

جامع غريب بالقرب من ساحل النيل، طوله وعرضه مائة وعشر خطوات ، ولكنه مهدوم من ناحية القبلة، آخر أعمدته راقد على الأرض، والجوانب الأربعة لحرمه تحتوى على ثمانية وستين عموداً مختلفًا، ومقام فوقها سقف قديم متهالك ، له ثلاثة أبواب، ومنارتان، وعلى جانبى باب القبلة حُرِّر تاريخ بطول قامة الإنسان أعلاه، وهو :

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين بن قلاون أعز الله أنصار محمَّد وآله . وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعماية (= ١٥١٥م)".

وبالقرب من الجمرك، وفى المقابل لأم القياس :

جامع الأمير عابدين

جامع لطيف بالقرب من أم القياس، على ساحل النيل، بناء مدوَّر مبنىٌّ من الطوب والحجارة ثُمَانِىُّ الشكل، مقام فوق أربعة عمدان، له مئذنة لطيفة ووسط مكشوف،

أحاطوه بالقضبان، غُطِّيت جدرانه من الداخل بالقاشانى الصينى، وكذلك محرابه مغطى بمثل هذا القاشانى المنقوش . وعلى باب المنبر يوجد تاريخ (سنة ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠م) .

وله منارة عالية من الطراز الرومى (= التركى)، ذات شرفة واحدة، وجملة نوافذه الحديدية التى تطل على الطريق العامِّ قد استُجلبت من إسلامبول، وليس فى مصر نوافذ تناظر هذه النوافذ. وتميل منارته داخل السوق .

أوصاف جامع محمد بن حسين الكوفى

تخربت ناحية من نواحيه، له منارة عالية محرَّفة لا نظير لها، والله أعلم كيف بنيت هذه المنارة الغريبة العجيبة ، إنها لا تنهدم أبدًا . على خلف بابه الشمالى الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ (التوبة ٩/١٨).

وبعد الآية تم تحرير: "محمد بن حسن الكوفى سنة ستين وسبعمائة هـ = ١٣٥٨ م" .

وبعده وداخل السوق الطويلة:

جامع السلطان چقمق

يسمونه جامع الحسنات . جامع صغير، سقفه منقوش مبنىٌّ فوق ثمانية وثلاثين عمودًا مختلفًا . وبعد أن سُطرت لوحة آية الكرسى بجانب بابه وداخل الجامع بشكل فنى رائع، كُتب التاريخ التالى :

" أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر محمد بن أبى سعيد چقمق عز نصره بحمد الله، وصحبه أجمعين". له منارة غير عالية عند الباب.

ويتلوه :

جامع الملك الظاهر

له منارة، وجماعته قليلة، ولما كان بابه مغلقًا دائمًا لم يتيسر لنا دخوله . ولكن غير هذه الجوامع التى سجلناها هناك جملة من الزوايا.

ولكن :

جامع الشيخ حسن السويدى

كان زاوية، فلما كثرت جماعته أصبح جامعًا . جامع منير فنِّىُّ البناء داخل أعلى السوق ، وداخل هذه المدينة ثلاث مدارس وعشرون مكتبًا للصبيان وخمس تكايا . ولكن بالقرب من الجمرك تكية الشيخ على باحى، وهى مزار . وإن لم يكن بها أبنية عظيمة فإن بها أشجار جميز مهيبة الطلعة تمنح العبر، وهى مزار للعام والخاص ولكن لها أوقاف.

وعلى شاطئ النيل يوجد أيضًا خمس تكايا ليس لها مبانٍ أو أوقاف، فجميعها مستراح ومكان لعبادة الغادين والرائحين والضيوف والمجاورين، يؤمُّها الجميع لما تتمتع به من أشجار، وكأنها شارع من شوارع الجنة . وقد قام أصحاب الخيرات ببناء محراب، وصومعات، ويعمل بها خدَّام. ومكان هذه التكية، يأخذ ضباط الإنكشارية

خراجًا من أصحاب الأمتعة فى الذهاب والإياب، هى دار ظلم ظليم! فليرفع الله الظلم هذا، فإذا لم يدفع المسكين والفقير نصف ماله فلا خلاص له! كان هذا مكان جباية الضرائب فى زمن الفراعنة فى مصر القديمة، وكان القبط عند عبورهم من هذا المحل يُسمح لهم بالعبور بعد تقديم مراسم الآداب. كان مكانًا مشهورًا بالإفك، ومن سيئات فرعون اللعين، وما زال هذا الظلم سائدًا، وكان فى هذه المدينة منذ القدم سبعمائة حمام ، وإلى الآن هناك حمام فى نهاية السوق، وبها إحدى عشرة وكالة وعشرة مقاهٍ، ولكن فى موسم انحسار النيل يتم تزيين هذه المقاهى المعطلة ويُقام فيها الطرب والعزف والغناء ، ويُقام بها لحظات حسين بايقرا . كما أن بها - أى بمدينة مصر القديمة - ما جملته ثمانون دكانًا مفتوحًا، عدا الكثير المغلق، ولكن ليس بها محلات أو وكالات للأقمشة .

وحتى منتصف هذه المدينة وعلى شاطئ النيل :

أوصاف عنابر (= صوامع) الغلال التى بناها حضرة يوسف

حكاية هذه العنابر اليوسفية مسطورة فى كل كتب التاريخ، ولكن لما كان الحديث عنها من ألزم اللزوم، فلسوف أُراعى الاختصار فى تحريرها .

كان ذلك فى زمن الملك الريَّان الذى كان سلطانًا على مصر، وقع سيدنا يوسف فى الأسر وبيع لعزيز مصر ، ومن شدة عشق زليخة لسيدنا يوسف افترت عليه كذبًا، ووضعوه فى السجن، وتصادف أن كان معه بطلان آخران فى السجن الآية: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف١٢ / ٣٦) :

فقام سيدنا يوسف بتفسيرهما لهما على الفور، وأخبر أحدهما أنهم سيصلبونه، وشاعت قدرة الله أن دخل الحُجَّاب، وأخرجوا هذا الفتى من السجن فى هذه الساعة، وشنقوه . وخلاصة الكلام : وبينما سيدنا يوسف فى السجن اشتهر بتفسيره للأحلام. ورأى الملك الريَّان رؤيا الآية: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف١٢ / ٤٣) .

فأخرجوا سيدنا يوسف من السجن، وفسَّر رؤيا الملك الريَّان، وبرأى وتدبير من سيدنا يوسف بدأ الملك الريَّان فى إقامة الصوامع، ولما مات الملك المذكور بتمام أجلة، وبمرور الأيام وبأمر الله، كانت الخلافة فى سيدنا يوسف، وأقام هذه الصوامع، ووقع بالفعل سبع سنوات من القحط والغلاء ، وما أنقذ مصر هو صوامع يوسف هذه. ولكن مرت عليها العصور والملوك وتغيرت طرزها، ولكن أساس البناء الأول هو المستمر، وشكلها الحاضر هو الشكل المربع، ويقابل بعضها بعضًا وكأنهما قلعتان. مكان يستحق الزيارة ويبعث على العبرة، هى ملحمة على الألسنة، طول جدرانها أربعون ذراعًا لكل واحد، وكأنها سد الإسكندرية، مبنية بالطوب الأحمر، وقد نُسِجت فوقها أسقف من البوص والغاب والقصب البرى، وإذا ما دخلها المرء والله تتملكه الحيرة، ولكن لما كانت الأسقف مفتوحة فإن أفواج العصافير والطيور وكأنها غيوم تحجب نور الشمس تلتقط منها الحبوب، وتتوالى الأفواج فوجًا فى إثر فوج ، ولحكمة إلهية، فإن مئات الآلاف من أفواج الطيور تطير وتحط فى اليوم الواحد آلاف المرات، ولكن الحبوب لا تنقص أبدًا! فإن هذا من الإحسان الربانى، لدرجة أنه فى سنة من السنوات قاموا بستر سطوحها بالأسقف خوفًا من نقص الحبوب عقب ما تلتقطه الطيور، وشاءت قدرة الله أن تُصاب مصر فى هذه السنة بقحط شديد، بحيث كان قحط يوسف بجواره غنيمة عظيمة، وبعدها فتحوا الصوامع المسقوفة ووجدوا أنه لم تبق حبَّة واحدة من

الغلال التى حفظوها، فقد تحولت كلها إلى رماد أسود، مئات الآلاف، بل آلاف الآلاف من الطيور قد ماتت فوق الأسطح! إنها قدرة الله وعظمته . ووصل أهالى مصر إلى حالة أنهم كانوا على وشك أن يأكل بعضهم بعضاً من الجوع .

فتجمع العلماء والعارفون بالله وتشاوروا فى الأمر، وقاموا بهدم الأسقف، والسطوح التى بُنيت فوق عنابر وصوامع سيدنا يوسف، وما زالت منذ ذلك العصر وهى مكشوفة، ولكن عند بداية كل سنة يأتى وزير مصر مع جميع الأمناء وأغوات البلوكات السبعة والدفتردار ويحضرون إلى صوامع يوسف، وبعد فحص الدفاتر، ومحاسبة الأمين والناظر، وجدوا أن هناك نقصاً مقداره اثنا عشر ألف أردب بين الحرق والفقد وتناول الطير، فما كان منهم إلاَّ أن جعلوا كل ذلك من حساب مال السلطان.

ويتسع داخل هذا العنبر إلى عدة مئات الآلاف من أرادب الغلال، وعدة مئات الآلاف من أرادب الفول، ومئات الآلاف من أرادب الشعير. وجملة هذه الغلال والحبوب تأتى من الصعيد العالى، يعنى من ناحية جرجا، أما من مصر السفلى، يعنى من دمياط ورشيد، فلا يأتى إلى مصر (= القاهرة = مصر القديمة) إلى عنابر يوسف، حبة واحدة ، كما أنهم لا يعطونها محاصيلهم، لأن محاصيلهم عبارة عن سكر وحناء وكتان وأرز، والغلال عندهم قليلة .

وخلاصة الكلام أن أم الدنيا مصر هى ولاية الصعيد الأعلى، فهى أم مصر، هى التى تغذيها، وهذه الغلال المذكورة تحسب خزينتين على السلطان، من خزائن مصر، إحداهما أيضاً وهى عنابر يوسف هذه، كما أن مخازن وعنابر مكة والمدينة والدشيشة والمحمدية والمرادية، فكل هذه المخازن فى مدينة بولاق . ولها كاتبها ونُظَّارها وأمناء مخازنها وكيَّالوها، يختلفون بعضهم عن بعض، وأقلام وإدارات مختلفة. فكانت فى البداية أقلام هذه الدشيشة فى أيدى الأغوات السود، ولما خربت نِظاراتها وأوقافها،

قام صاحب السعادة الكتخدا إبراهيم باشا بعرض الأمر على السلطان، وما زالت إلى الآن مشروطة على معسكر الإنكشارية بالخط الهمايونى الشريف، وأصبح أغا الإنكشارية هو ناظرها . وكانت جملة غِلال الحرمين الشريفين اثنين وأربعين ألف إردب .

وفى الصعيد العالى قرى لمكة والمدينة، ونظار أوقافها يحصلون هذه الغلال من القرى، وتوضع فى الشُّوَن فى بولاق، ومن بولاق يقوم بدو الدشيشة بإحضارها إلى مرفأ السويس بعشرة آلاف جمل . وهناك فى السويس توجد سفن المحمدية والمرادية والخاصكية، وتُسلم جملة الغلال بدفاترها إلى ربابنة هذه السفن، وهم بدورهم يحضرونها إلى جدة وينبع، ثم يسلمونها مكة والمدينة، وفى الواقع، فإن غلال مكة والمدينة هذه لا يدخل منها شىء مطلقًا إلى صوامع يوسف . وقد كانت قبلاً وفى زمن الچراكسة تدخل غلال مكة والمدينة هذه إلى مخازن يوسف، ولما فتح سليم خان مصر أصبحت مصر كلها ملك سلطاننا، وتم خلط جراياتنا وكل ما نأخذه مع غلال مكة والمدينة ، وقد التمس أهالى المدينتين قائلين: لقد أصبحنا أرضًا من وقف الله، وإن مالنا ورزقنا ونعمتنا قد ولَّت ، فليعدها ويرجعها سلطاننا . فرفعها سليم خان فى أول الأمر، ثم أحدث المخازن التى فى بولاق لهذا الغرض وخصص لها الكثير من الخيرات. وكانت هذه العنابر أيضًا مكشوفة . ولكن كانت فى مصر العتيقة عدة مئات من العنابر، وكان لأعيان مصر وأشرافها شُوَن خاصة بهم، وجميعها كانت مسقوفة، ولكن لم تكن مباركًا فيها أيضًا .

وفى مصر إذا كان هناك قحط فى الغلال مرات ومرات ، فما هو فى العنابر المغلقة لا بد وأن يصيبه الضرر، ومَنْ يُغلق غلاله فلا بد وأن يصيبه الضرر فى ماله أو عياله أو أولاده، أو فى نفسه. ولكن جناب البارى قد أحلَّ البركات فى عنابر يوسف ، بحيث إن طوائف العساكر والجند الذين فى داخل مصر سبعون قلمًا من

(٨٣) **الإنكشارية:** لغويا يعنى جرى ، ويطلق عليهم الأوروبيون Janiser ، أما عسكريا فهو اسم يطلق على فرق المشاه النظاميين التى كونها الترك العثمانيون فى القرن الرابع عشر الميلادى = الثامن الهجرى ، وأصبحت أكبر قوة عسكرية عندهم ، وقد مكنتهم من الفتوح الواسعة التى قاموا بها.

ويطلق عليهم أحيانًا اسم الـ " قابى قولى " أى عبيد الباب السلطانى أو الرقيق السلطانى ، نظراً إلى ارتباطهم بالسلطان شخصيا، وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاچقة والمماليك... ولكن العثمانيين أدخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط ، خصوصًا فى عهد السلطان مراد الأول (سنة ١٣٦٠ - ١٣٨٩ م = ٧٦٢ - ٧٩٢ هـ) وكان تدريبهم وتعليمهم العسكرى مركزًا على الطاعة وتحمل الجوع والعطش وجميع الصعاب . وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة ، ولذلك أثبتت الإنكشارية وجودها فى كل الفتوحات العثمانية سواء فى آسيا أو فى أوروبا أو فى شـمال إفريقيا.

أما لباس الرأس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الأبيض، وتتدلى من خلفها قطعة من القماش رمزًا للبركة التى منحهم إياها مرشدهم الشيخ حاجى بكداش كما يعتقدون، وعلى لباس الرأس شارة عبارة عن ملعقة من الخشب. وكانت ألقاب الضباط بمختلف مرافق المطبخ كالچورباجى پاشا (رئيس طهاة الحساء) وأشجى پاشا (رئيس الطباخين)، وأهم الأشياء فى الكتيبة هو القدر الكبير (القازان). وكانوا يجتمعون حوله لا للأكل فقط ، بل للتشاور ، وكان قلب القدر دلالة على العصيان والثورة.

وكانت الفرقة منهم تسمى أوجاف، أى المعسكر أو الموقد ، وتنقسم إلى وحدات حربية تسمى كل منها " أورطة " أى فرقة، وهى ثابتة العدد ، مختلفة القوة ، تتراوح بين ١٠٠ و٥٠٠ و ٣٠٠٠ جندى . وهذه الفرقة تقيم فى ثكنات تسمى أوضة (= غرفة = عنبر) أما فى ميدان الحرب فكانت الفرق تقيم فى ثكنات عبارة عن خيام واسعة مستديرة ، وقد نقشت عليها شاراتهم المميزة لكل منهم. وكان يرأس الفرقة قائد رتبته (يكجرى أغاسى) أى أغا الإنكشارية ، وهو يتولى فوق عمله الخاص أمر الشرطة وحفظ النظام فى المدينة.

تنوعت أسلحتهم الحربية فى الدفاع والهجوم تبعًا للزمن الذى يعيشونه، ولكن كثرت مشكلاتهم وعصيانهم فى فترات ضعف السلاطين ، السلطة المركزية ، ومعارضتهم لكل ما هو جـديد أو أى تطوير فى الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضـلالة، عندما أرادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد ، مما دفع السلطان محمود الثانى إلى القضاء عليهم فى ٩ ذى الحجة ١٢٤١ هـ = ١٠ يونيـة سنة ١٨٢٦ فى آت ميدانى ، فى مذبحة شبيهة بتلك التى نفذها محمد على الكبير ضد المماليك فى القلعة. وكانت معسكراتهم تنتشر فى كل الولايات العثمانية ، وتسمى باسم الولاية الموجودة فيها، فهناك إنكشارية الشام ، وإنكشارية مصر وإنكشارية اليمن ، إلخ. (انظر : پاقالين) .

(= المتطوعة) والسپاهية[٨٦] والتفنكچيان[٨٧] والجبجى[٨٨] والطوبجية[٨٩] (= المدفعيــة)

---

(٨٤) **العزبان** : تعبير استعمل بخصوص الجنود الذين كانوا يستخدمون فى الأعمال المختلفة، وعزب تعنى من لا زوجة له، وكانت تستخدم فى التشكيلات بلفظ الجمع " عزبان " . وقد وظف العزبان فى خدمات السفن فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، وكانوا يشكلون من مجموعات من ٧ أو ٨ أشخاص، ويحصل الواحد منهم على أربع أقچات، وقد استمرت تشكيلات العزبان البحرية والقلعة حتى ألغيت الإنكشارية فى عهد محمود الثانى (انظر : پاقالين) .

(٨٥) **الجاويشية** = جاوشلر Çacuslar : مفردها جاوش ، وهو اسم كان يُطلق على أحد الموظفين الذين يستخدمون فى الأعمال المختلفة، وهو مصطلح إدارى فى بادئ الأمر ، وكان يطلق عليهم " جاوشان أركان عالى ".

هذه وظيفة قديمة فى التاريخ العثمانى ، وكانت مهمة الجاويشية موجودة لدى البيزنطيين والسلاچقة، وفى بداية الدولة العثمانية كان الجاويشية هم الذين يكلفون بالمراسلات والمباحثات السياسية من قبل سفراء الدولة ، كما كانوا يكلفون بالتفتيش وكتابة التقارير عن أمور الدولة . ثم انتقلت هذه المهام فيما بعد إلى رؤساء الحجاب ، وأسندت المراسلات إلى وظائف أخرى . وأصبحت مهمة الجاويشية فيما بعد مقصورة على الخدمة فى ديوان السلطان فقط ، بحيث كانوا يتقدمون ركب السلطان وموكبه وهو يتفقد شئون المدينة ، ويقومون بالوقوف أمام خيمة السلطان عند الخروج إلى الحرب وفى أثنائها، أو يقفون فى احترام بالغ عند عزف النوبة أمام معسكر السلطان .

كان الجاويشية يحتلون المرتبة الثانية بعد التشريفات فى قانون محمد الفاتح، وكان يطلق على رئيسهم "جاويش باشى "، أى الباشجاويش، أى رئيس الجاويش . وقد أُلغى هذا اللقب سنة ١٢٥٢ هـ = ١٨٣٦م وحل محله لقب " ناظر دعاوى الديوان " ، وكانوا ضمن تشكيلات السراى العثمانى .

(٨٦) **الكنُليان (= گونوليان)** Gönullüyan : قوات من المتطوعين الذين ينضمون إلى الجيش خلال الحروب، ولم يكن أى منهم ينتسب إلى الإنكشارية أو إلى القوات النظامية فيما بعد ، وكان رئيسهم يُطلق عليه " گونللو آغاسى " أى الأغا أو الضابط المتطوع . وكان يحق لأبنائهم الانضمام إلى الإنكشارية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يُقيدون فى دفاتر الإنكشارية ولهم علوفة .

(٨٧) **السپاهية** : اسم أطلق على الفرسان الخيَّالة الذين كانوا يشتركون فى الحروب العثمانية مع حاملى السلاح الذين يُجبرون على تأمين الاحتياجات من الحيوانات فى زمن الحرب، مقابل الأراضى التى يأخذون عشورها ورسومها، والمسماة بـ"التيمار" فى التشكيلات العسكرية العثمانية. وكانوا يقومون بأعمال الهجوم والحراسة فى مواجهة العدو ، وقد تم استحداث نظام السپاهية منذ زمن السلطان أورخان . (انظر: پاقالين ، جـ٣ ص٢٣٠).

والكشـــــيدة[٩٠] والمتقـاعـدين[٩١] والجــــوالى[٩٢] والأيتـام والطواشـــيان[٩٣]

---

(٨٨) **الجبجي** Cebe ---- Cebeci / Cebeci Ocagi = Cebeci : مصطلح عسكرى يعنى مدرَّع أو مصفَّح ، وكان يُستخدم في العصر المملوكي للدلالة على الشخص الذى يرتدى الزرد . وكان يُطلق عليه فى العصر العثمانى bekter (= بكتر). وقد شمل أيضًا قوات البيادة (= المشاة الإنكشارية) المسئولة عن إعداد السلاح وكل لوازمه وصيانتها وتقديمها من جديد إلى القوات المقاتلة ، وكان يطلق عليه معسكر الجباجية، وكان لهم جاويشيتهم وكَتَبَتُهم ومعسكراتهم الخاصـــة بهـم . وكان بينهـم أيضًا فرق خاصة بالألغام والبارود والمفرقعات، وكان يرأسهـم "جبه جـى باشـى" أى قائد أو رئيس الجبجية . وكانت لهم جبخانات خاصة بهم ، أى دور لحفظ المهمات العسكرية والمفرقعات والألغـام، إلخ . (انـظر : پافالين) .

(٨٩) **الطوبچية** Topçuluk مصطلح عسكرى كان يُطلق فى العصر العثمانى على معسكر المدفعية، وكان يُطلق على قائد طوچوپاشى = Topçubas? . ثم تحول هذا اللقب إلى مشير (= فريق) الطوبخانة عام ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م، وكان هو القائد المسئول عن صناعة المدافع وإعداد وتدريب أطقم المدفعية على مسـتوى الجيش العثـمـانى . ليس بين أيدى البـاحـثـين سجـلات تحدد تاريخ ظهور منصب الطوبچيپاشى العسكرى بالضبط، وإن كان قد ورد ذكره فى قانون محمد الفاتح، حيث كان الطوبچى باشى من أغوات (= قواد) القوات العسكرية ، وإن كـان مكانه فى التشريفات يأتى فـــى المؤخرة . (انظر پافالين ج٢ صـ ٥١٢) .

(٩٠) **الكشيدة** Keside مُصطلَح فَنى يُطلق على امتدادات الحروف العربية فى الخطوط التى تُكتب بالعربية ، وهى كلمة فارسية بمعنى " سحب " أو مسحوب . انظر : پافالين ج٢ صـ ٢٥٠).

(٩١) **المتقاعدون** (= إمكدار) Emektar مصطلح عسكرى ومدنى كان يُطلق على المحالين إلى التقاعد أو المعاش ، كذلك كان يُستخدم للدلالة على قدامى قوات الإنكشارية ، كما كان يُستخدم بين الشعب للدلالة على مَنْ كانوا فى معية أغوات الإنكشارية . وكان هذا المعسكر أو العنبر الخاص بالمتقاعدين مرتبطًا بأغا حرس السراى. (انظر: پاقالين ج١ صـ ٥٢٥) .

(٩٢) **الجوالى** Cevalî : مصطلح مالي كان يُستخدم فى سوريا والعراق ومصر بدلاً من مصطلح الضرائب ، كما كان يُطلق على الرسوم التى تُحصَّل من الجماعات الأجنبية التى كانت تُقيم هنالك . (انظر : پاقالين ج١ صـ ٢٨٤) .

(٩٣) **الطواشية** Tavasi: مصطلح يستخدم فى السرايات والقصور بدلا من الخادم، وكانت هذه الطائفة تختار من الذكور الذين يخصون لكى يحال دون قدرتهم على التناسل، فالخدمة فى القصور معـروفة =

(= الطواشية) والنسوان ، وأقلام الأئمة، والخطباء، والمشايخ، والسادات. والحاصل أن

= منذ أقدم العصور ، وقد شاعت بين المصريين والبابليين والآشوريين القدماء، ثم راجت عند اليونانيين ، ثم انتقلت الطواشية منهم إلى الرومان والإفرنجة ، ويقال إن أول من قام بهذا العمل سميراميس الملكة الآشورية فى الألف الثانى قبل الميلاد .

ويسجل التاريخ أسماء العديدين منهم الذين اشتهروا – إلى جانب الخدمة – بالقيام بأعمال جليلة ، وكانت لهم دراية وخبرة بكثير من الأمور ، وأن البعض منهم قام بأعمال فدائية وبطولية كبيرة . منهم مرمس Mermes الرومانى ، وكان منهم من تولوا المناصب العليا فى الهند وفارس والصين، وكانوا من أصحاب النفوذ فى أواخر عهد الدولة الرومانية .

ويسجل التاريخ أيضًا أن بعض الخصيان " الطواشية " قد تولى المناصب العالية كالصدارة والوزارة فى العهد العثمانى أمثال على باشا الخادم وسليمان باشا الخادم . وقد استمرت هذه العادة فى العالم الإسلامى لعدة أسباب، كالخوف والغيرة فى الحرم السلطانى ، وعلى الرغم من تحريم ذلك، بل تحريم عملية الخصي هذه، فإن بعض الحكام قد غضوا الطرف عنها. وكان يزيد بن معاوية أول من استخدم الطواشية فى الإسلام، فلقد استخدم طواشيا يدعى " فتح " ياوراً، ثم تبعه الخلفاء الذين جاءوا بعده فى هذه السُنَّة، مما أدى إلى كثرة استخدامهم فى العالم الإسلامى.

ولما زادت الرغبة فى استخدامهم زاد تجار الرقيق من اليهود فى أسعارهم ، وبالغوا فى ذلك ، وكان هؤلاء بهذا الشكل. وقد لاقت رواجًا كبيراً على أيدى هؤلاء التجار اليهود، وأسسوا مجموعة كبيرة من المستشفيات للقيام بهذه المهمة ، وكان أشهرها ذلك الذى تأسس فى مدينة ويردن Ver-dun، وقد اكتسب شهرته خلال سنوات الحرب الفرنسية الألمانية. ولقد نشط تجار الرقيق خلال هذه الحرب، وجمعوا أطفالاً لا حصر لهم، وقاموا بخصيهم ، وقد مات الآلاف منهم من جراء هذه العمليات الوحشية، ومن بقى منهم على قيد الحياة كانوا يرسلون بهم إلى إسبانيا حيث يباعون للعظماء، والأثرياء بثمن باهظ، ثم رويداً رويداً راجت عمليات تبادلهم فى صورة هدايا مثل الخيول وأدوات الصيد وما شابه ذلك.

فمثلاً كان حكام الفرنجة لكى يداهنوا الحكام العرب المسلمين فى الأندلس كانوا يبعثون لهم مجموعة من الطواشية ضمن الهدايا التى يبعثون بها إليهم. فعندما أراد حاكم برشلونة وطارغونة تجديد الصلح مع الخليفة المستنصر فى الأندلس أرسل إليه عشرين طواشيا من أطفال السلاو ، وعشرين قنطاراً من الفراء الثمين ، وكان الخلفاء يشكلون منهم فرقًا خاصة لخدمتهم والعناية بأمور القصر والخدمة داخله. وكانت طوابير الطواشية تحتل مكانها بين الطوابير الأخرى فى الاحتفال بالجلوس على العرش ، أو تعيين ولىٍّ للعهد أو سائر المناسبات الأخرى. =

المقيدين فى هؤلاء السبعين قلمًا المذكورين، والذين يبلغ عددهم سبعة وأربعين ألفًا

= كان أكثر الطواشية الذين جُلبوا إلى العالم الإسلامى من الأندلس، حيث كانت عملية الخصى تجرى فى الأماكن القريبة منها، أو من ناحية خراسان حيث كان بعض تجارها يشترون العبيد من بلاد السلاو ويقومون بإجراء هذه العملية لهم، ثم يبيعونهم . ولا بد من الإشارة أيضًا إلى أنهم كانوا يتدخلون فى شئون الحكم والإدارة لما يملكونه من نفوذ بسبب حساسية الأماكن التى كانوا يخدمون فيها.

كما يقال إن بعض المتعصبين المسيحيين كانوا يقومون بإجراء هذه العمليات لأنفسهم لقتل الرغبة الجنسية والشهوة فى داخلهم، ولكى يقفوا حياتهم للحياة الأخروية، ومن أشهر هؤلاء أوريجان Origen الإسكندرانى، وكان عالمًا كبيرًا فى العقائد المسيحية. بل شهدت العصور الوسطى بعضًا من المذاهب الدينية المسيحية التى كانت تقوم بهذه العمليات لوقف حياتهم على العبادة فقط، وكان لهم صوتهم المسموع فى إيطاليا.

أما فى الدولة العثمانية فقد كان هناك الأغوات البيض (= الطواشية) الذين يُجلبون من البلدان الأوروبية، ويطلق عليهم آق أغا (= الأغا الأبيض) ، أما الطواشية السود فقد كان يطلق عليهم "خادم أغا"، أى الأغا الخادم، وكانوا يجلبون من الحبشة أو من إفريقيا عمومًا.

كان مراد الثانى هو أول من استخدم الطواشية البيض للخدمة فى السراى . قاموا بالخدمة فى أول الأمر ، ثم رويدًا رويدًا بدأوا يكلفون بأعمال إدارية داخل السراى ، وفى أجنحة الحريم. وقد وصل البعض من هؤلاء الخدم البيض إلى الوزارة والصدارة العظمى.

أما الطواشية الزنوج فقد كانوا فى أدنى المراتب فى الخدمة، وكان يطلق عليهم "الأدنى"، وكان الخادم الجديد يمثل فى بادئ الأمر بين يدى أغا دار السعادة، أى بين يدى خادم العتبة السلطانية. ثم يسلم إلى مربى الأوضة (= أوضه لاله سى)، وبعدها يصبح من الخواص، ثم يرسل أقدمهم تباعًا إلى الأغا غلام الباب الرئيسى لقيده فى سجلات السراى.

وكان جميع هؤلاء من الطواشية أى من الخصيان، ثم يربُّون على الطاعة، والخضوع، وأول دروسهم تقبيل يد من هم أقدم منهم من المربِّين ، وهم أيضا من الطواشية . وكان يطلق على الحديث منهم الأغا الأعجمى، أى الذى لم يعرف شيئًا بعد.

وكان خمسة منهم يمسكون نوبة الخدمة على باب الحريم فى السراى السلطانى، أو على باب الحريم فى أى قصر. ويطلق على أقدامهم " قلفة" النوبة . وكان أغا عتبة السعادة هو الذى يسلمهم المفاتيح ويتسلمها منهم عند تجديد النوبة.

يتلو فى المرتبة "الأوسط" ، وهم بدورهم أربع درجات، أقدمهم يتولى تنظيم النوبتچيات، أى النوبات أمام الأبواب، ويشرف عليهم، وهم المسئولون عن فتح وإغلاق الأبواب. ثم يتدرج الأقدم فيعين غلامًا على الباب الرئيسى إلى أن يصل إلى أن يكون هو المسئول عن بوابة السراى الرئيسة. ثم يحصل صاحب الحظ الوفير منهم على لقب "أغا عتبة السعادة" . وهذه أعلى منزلة فى السراى السلطانى. وفى سنة ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م لما تولى داماد على پاشا والى مصر الصدارة فى عصر السلطان أحمد الثالث أصدر أوامره بإلغاء نظام الطواشية، لكى يتخلص من لقب الطواشى الذى كان يلازمه، خصوصًا وأن الطواشية الزنوج أى السود كانوا يُجلبون من السودان إلى مصر، ومنها إلى بقية ولايات الإمبراطورية بعد أن يتم خصيهم فى مصر. وعلى الرغم من هذا المنع فإن هذا لم يمنع وجودهم فى الدولة العثمانية ، وإن كان بشكل أقل.

وكان أغا دار السعادة أى أغا عتبة السعادة، عند تغيير السلطان أو كبر سن الأغا، يُبعث به للعمل والخدمة فى الحرمين الشريفين.

وثلاثمائة وسبعين، في يدهم براءة سلطانية بأنهم عبيد السلطان، وتُصرف لهم جراية، وهم يأخذون الجراية والعلوفة من عنابر يوسف سنويا وشهريا بالغدو والآصال . وعدا هؤلاء، وحسب محررات وسجلات بايرام باشا، ففى داخل مدينة مصر كان هناك مائة ألف، مضروبة ست عشرة مرة (أى مليون وستمائة ألف) من بنى آدم . وهم مقيدون، ويتقاضون احتياجاتهم من مخازن وصوامع يوسف، لأنها كانت تقدم للغنى والفقير، والشباب والعجائز ، كل ما يحتاجونه من حبة القمح، كما كان قمح الله مبذولاً لكل المخلوقات التى خلقها الله، ولا يمكن لكل العقول الذين هم على شاكلة أرسطو أن تصل إلى أسرار هذا الصنيع الإلهى ، فكل الألسنة عاجزة عن التعبير، فما أعظمها من أقاليم ! وأيضًا، وبينما نعم الله هكذا مبذولة ، فإن صوامع وعنابر سيدنا يوسف التى شيَّدها على الرغم من كل ما يُبذل منها فهى بخزائن الغيب مملوءة ، وكأن ذلك جاء وفقًا للآية الكريمة ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود٦/١١). حقًا إن رب العزة والجلال قد كفل الرزق لكل المخلوقات، أوليس هذا شاهداً على أن لهذه المخلوقات أيضًا صاحبًا لا بد وأنه هناك ولابد وأن سائر المخلوقات تُسبحه وتعبده :

اى كريميكى ازخزاين عنيب	أيها الكريم الذى يمنح من خزائن الغيب
كبرترسا وظيفة خورداری	وأنت صاحب إطعام الخائف والمتكبر
دوستانر الجاكنى محروم	وكلاهما من ستائر فضلك غير محروم
توكه بادشمنن نظر داری	أنت يا من ترعى حتى عدوك

حقا ، وخلاصة الكلام أن فى مصر مئات الآلاف من المشاهد ذات العبر ، ومن بين هذه المشاهد التى هى من صنع الله المتعالى عنابر حضرة سيدنا يوسف ، وأنا الفقير لى متابعاتى الكثيرة لدولة آل عثمان ، ولكن يقصر عقلى والله أمام هذه الأمور

الأربعة ، واحد منها الترسانة العامرة فى إسلامبول، ومنها مطبخ آل عثمان، ومنها مصروفات الحجاج فى مكة والمدينة، ورابعها صوامع حضرة سيدنا يوسف هذه. فجميع العقول تقف حائرة أمام إيراد مصاريف هذه الأمور الأربعة وتتملكها الحيرة أمامها.

فى بيان سواقى مصر العتيقة

وهذه أيضًا، مشاهد عظيمة في مصر العتيقة، ففى جانب الشمال الأدنى لمصر العتيقة توجد ساقية السلطان الغُورى، وهى كالقلعة متينة على شكل مثمن، طولها ثمانون ذراعًا مكيًا ، وفى ذروتها مطلع، تصعد منه الخيول والثيران إلى أعلى، بها دواليب فى ثمانية أماكن، فما إن تدور حتى تُملأ بالمياه التى تسحبها من النيل، وتدفع بها إلى الأسوار التى تحمل المياه إلى داخل القلعة. وهناك سواقٍ غيرها، لكل منها أمين يخضع لإشرافه أحد عشر حيًا، جملتها ستة وثلاثون دولابًا، مخصص لها ثلاثمائة ثور ومائتا خادم ، ومخصص لها مصاريف من قبل السلطان تقدر بمائة وخمسين كيسه مصرية ، تُقدم خدمات كبيرة وخيرات عظيمة، وإلى قلعة مصر القديمة تؤدى ثلاثمائة وستون قنطرةً المياه من هذه السواقى إلى داخل القلعة، لدفع العطش عن عباد الله الذين يعيشون داخلها. وهم جميعًا يدعون لحضرة السلطان الغورى عليه رحمة البارى . ولمدة ثمانى سنوات شربت أنا الفقير إلى ربه من نبع هذه الخيرات والحسنات، فلتكن الفاتحة على روحه.

وعند أعماقه وبجوار ساقية الغورى هذه فى مصر العتيقة كان الملك المقوقس قد أنشأ خليجًا، بحيث يجرى داخل مدينة مصر العتيقة، وهو يجرى من تحت قنطرة أبى المنجى عند تقاطع النيل، وسيتم بيانه عند الحديث عن النيل المبارك .

الفصل الرابع والأربعون

بيان النيل وما يهبه لديار مصر
من حياة وثراء حقيقى

إقليم النيل والتزامه

إقليم النيل هو ذلك الإقليم الذى يزيِّن الدنيا ويزخرفها ، وقد جرت قدرة الله ومشيئته فى أقاليم مصر على هذا، وهو يكفيها سواء أمطرت السماء أو لم تمطر . ولهذا السبب فإن من معجزات سيدنا إدريس الهندسية أن استعان بِكَهَانة الكُهَّان القدامى فى الأماكن المرتفعة من النيل المبارك، وقسَّم النيل وإقليمه إلى ترع وخلجان، وأجراها فى جميع الولايات، ولاية ولاية . وبعد أن تَرْوِى كل أراضى مصر وتغمرها فإن جميع الأهالى يقومون بالزراعة على الطمى والغرين الذى يأتى مع النيل، ويحصدون حصادها فى سبعين يوماً، ويزدادون قوة، وجرت حكمة الله على هذا المنوال بناءً على نقصان المياه فى شهر تموز (= يولية) فى كل الدنيا، إلا أنها تجرى فى هذا النيل المبارك فى أول أغسطس الذى يُعْتَبر أول السنة القبطية فى شهر توت[٩٤]، وهى أيام بدايته، وفيها يتمنطقون أحزمتهم، ويشعلون نيرانهم، ويحتفلون احتفالاً سعيداً . وجرت حكمة الله أن يجرى فيضان النيل فى أيام تموز (= يولية) تلك، وتسقط مياهه فى بدايات النيل، وتكون مياه النيل حمراء، وكأنه بحر من الوحل والطين، يجرى فى مجرى النيل، ولكنه لا يأتى فجأة أو مرة واحدة، بل يأتى

---

(٩٤) بداية شهر توت القبطى ١١ سبتمبر الميلادى .

على مدار سبعين يومًا، وبعدها يكون انقطاع النيل ، ويسمونها أيام نقطة الفيضان التى تسبقه بسبعين يومًا .

أوصاف نقطة النيل المبارك

قبل أول توت القبطى بسبعين يومًا، يمثل باشجاويش الإنكشارية إلى مجلس وزير مصر، ويعرض جميع الأمور المتعلقة بالإنكشارية، ولما كانت أيام النقطة المذكورة قد اقتربت، فيستأذن الباشجاويش من الپاشا، ويتجهون لتطهير أم القياس، لأنهم هم المكلفون بتطهيره منذ أن صدر قانون سليم خان بهذا الصدد، لأنهم لو لم يقوموا بتطهيره فمن المعلوم أن النيل يفيض بعد عدة أذرع، ولا بد من تطهير أم القياس. وفى ذلك اليوم يتجمعون، ويقومون بتنظيف وتطهير أم القياس وحوضه، وكما لم تبق فيه أى قطرة ماء فإن جاويشية الإنكشارية فى مصر، ومهما كان فى الأوجاقات (= المعسكرات) السبعة للإنكشارية فى مصر من أغوات وعجائز، فإنهم يدعون فى كل يوم عساكر بلوك من البلوكات السبعة، يبسطون السماط المحمدى لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ .

وتُقام وليمة الپاشا العظيمة بإقامة أربعين سماطًا فى اليوم السابع من دعوته إلى أم القياس، وبعد الطعام يقوم الپاشا بإلباس الخلع الفاخرة لأغوات البلوكات السبعة، ولأصحاب الولائم من باشجاويشية الإنكشارية، وجملتهم اثنتا عشرة خلعة فاخرة، ويحسن الپاشا على خدَّام الباشجاويش بمائه قرش . ولكن حسين پاشا الجانبولاط زاده لم يكن يخلع على أحد غير الأغوات، ويحسن على الباشجاويش بكيسة من القروش . وهم بدورهم لم يكونوا يقدمون هدايا إلى الپاشا سوى فرس واحد، وبعدها يركب الپاشا سفينة متينة، ويجرى مع النيل، مشاهداً كلا الجانبين، ويذهب إلى

قصر العَيْنى، وهناك يـفـد كل أعيـان وأشـراف معسـكر الإنكشـارية ومعتمدوه (= كتخداه)، وجاويشيته، ويقيم الپاشا وليمة عظيمة فى أم القياس، وتُبْسَط الأسمطة المحمدية فى أربعين مكانًا، وعلى كل سماط مائتا صحنٍ، وبعد هدِّ الرمَّة يكون الدعاء والثناء. وبعده يُقدم الشربات ويُنثر البخور، وينصرف الجميع . وبعدهم وبعد العصر يفد كل علماء مصر (= القاهرة)، وصلحائها والأئمة والخطباء والمشايخ الكبار، وتُقام لهم ضيافة ووليمة عظيمة بحيث لا يمكن وصفها .

وما إن يصل العلماء حتى يكون الجامع الموجود فى أم القياس قد اكتظ بالعوام من الناس ، فيطلق جميع الإنكشارية دفعة من الطلقات النارية ابتهاجًا، ويقوم الباشچاويش بالإحسان بكيستين مصريتين عليهم، وبعدها ينصرف نحو ألفين من "رؤساء الغرف" (= أوضه باشى) والدايات[٩٥] ، ولكن فى تلك الليلة التى تكون فى الغالب ليلة الجمعة، يبقى العلماء، ولا ينصرف أى أحد منهم حتى الصباح، يحيون الليلة، ويتلون مع القرآن المولد النبوى الشريف، وخلال قراءة المولد الشريف يقوم الباشچاويش بعمل الشربات والحلويات والسكر نبات، والعقيدة الحموى والنباتى . وينثرونها على مَنْ تبقى من الحضور، ثم يحرقون العود المواردى (= عود الورد)، ويظلون على هذا المنوال حتى بزوغ الصباح.

وفى صباح يوم الجمعة يُبْسَط سماط طعام الصباح، ويكون هو كالمختصر المفيد، ويسمونه تحت القهوة، أو سماط الخليل . وبعد الإفطار يتجه العلماء والصلحاء كافة حتى حافة أم القياس، ويقوم شيخ أم القياس الشيخ ابن الرداد بالدعاء، ويُؤمِّن وراءه

---

(٩٥) الدايات Dayikar (داى - دايات / خال - أخوال) كلمة تركية بمعنى الخال، وقد اكتسبت معنًى اصطلاحيا فى ولايات الدولة فى شمال إفريقيا وطرابلس الغرب وتونس إثر قدوم ولاة الدولة الذين كانوا يُرْسَلون إلى تلك المناطق، وكان تعيين الأشخاص من ذوى النفوذ فى تلك الولايات بطريق الانتخاب . وكان الداى المنتخب والذى يعد رئيسًا للتشكيلات المحلية هنا لا يباشر كل شئون الولاية ويديرها معترفًا بتبعيته للإدارت العثمانية المركزية . (انظر: سيد محمد السيد . نفس المرجع ص ١١٩) .

كل الأمة المحمدية، ثم يتجه كل واحد حيث مصلحة الموانئ، وفي غضون ثمانية أيام وثمان ليالٍ تتم عملية تطهير وزيارات أُم القياس . ويكون قد تم صرف عشرة كيسات مصرية، وهذه داهية عظيمة لأنه طوال هذه الأيام والليالى الثمانى لا تنقطع هذه الولائم التى يخدم فيها مائتا طباخ، ويكون قد ذُبح ألف رأس من الغنم، وخمسون ألف دجاجة، وخمسون ألف حمامة، ومائة ألف رغيف من الخبز، ومائة ألف فطيرة بالزبد، وإلى جوار ذلك سائر المأكولات والمشروبات، وحساب ذلك يعلمه المولى.

ولما كان الكتخدا سليم باشجاويشًا فقد صرف هذا المبلغ المذكور ، لأنه فى كل يوم كان يقدِّم لكل فرد صحنان من الطعام، فى حدائق الروضة، وفى مدينة مصر، وأُم القياس، وكانت تعطى النعم لكل رؤساء الغرف دون منَّة .

وبعد الدعاء والثناء فى هذه الولائم كان النيل المبارك يبدأ فى "الخرران" من الجوانب الأربعة لحوض أم القياس، ثم يفيض النيل الأساسى فى الضواحى، وكلما زاد جريان النيل، فإنه بنفس المنوال يأتى إلى حوض أم القياس، وبعد التطهير بعشرين يومًا بالكمال والتمام تسقط النقطة فى هذه الليلة . ويخبرون الباشا الوالى بذلك، وما يكون من حضرته هو الآخر إلاَّ أن يقوم بالتنبيه على وكيل خرجه، إظهارًا للسرور والسعادة، بإقامة الولائم العظيمة لمدة يومين وليلتين . ويُدْعَى إلى هذه الولائم العلماء والصلحاء والسادات الكرام والمشايخ العظام، ولا يدعى سواهم أحد من العسكر أبدًا إلا ناظر أم القياس، وكتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة، وأغوات البلوكات السبعة، ورئيس المترجمين (= باشترجمان) ، ثم ينصرف الجميع، ويبقى الأغوات مع الباشا .

وبعد العصر وحتى الصباح تختتم الوليمة، وخلال هذه الليلة، يُنشد المولد النبوى الشريف، وتُضاء القناديل والشموع الكافورية التى لا تُحصى ولا تعد، وتُزين بها أم القياس، ويُحييها العلماء حتى الصباح.

وتشاء حكمة الخالق أن تسقط النقطة إلى النيل خلال هذه الليلة، أو خلال هذا النهار، ومن هنا جاء مصطلح وتعبير النقطة . وبعد أن يتم تطهير حوض أُم القياس يبقى الماء الذى فيه رائقًا، وما إن يتحول اللون إلى لون الدماء الحمراء، بسبب تدفق الطمى، وتظهر للعيان المياه الطمية، يتيقن الجميع من سقوط النقطة ، فيرفع جميع العلماء الأكف بالحمد والثناء، ويظل حُفَّاظ القرآن والمقرئون يتلونه لمدة يومين وليلتين ، وعندما تظهر النقطة عند تمام ختم القرآن للمرة المائتين يجلس القراء والحفاظ على جوانب حوض أم القياس الأربعة، ويتلون دعاء ختم القرآن الكريم، كما يقدم السادات الكرام دعاءً وثناءً بهذه المناسبة، بحيث يبهت المنكر والذى كفر.

ويقدم وكيل خرج الباشا الوالى مائة أضحية، وتبذل لكل العلماء والصلحاء والمشايخ، كما يقوم وكيل الخرج بتلبيس بعض المشايخ والسادات وشيخ البكرية خلعةً من الصوف الأبيض، ويسجلون فى السجل الشريف وقت نزول النقطة، ويصدقون على ذلك من قبل المحكمة، ويقوم شيخ مُسِنٌّ بنقل البُشْرَى إلى الباشا، فيقوم حضرته بدوره بإلباسه خلعة من الصوف الأبيض، ويحسن عليه بسبعين أو ثمانين ديناراً ذهبيا، فيقوم جملة العلماء بالحمد والثناء ، ثم ينصرف كلٌ إلى داره .

مناقب حضرة الشيخ السادات

خلال سنة جاء الشيخ السادات من المغرب إلى مصر، وبينما كان منزويًا ومعتكفًا على عبادته شاءت قدرة الله أن لا يفيض النيل ذات سنة فحدث القحط والغلاء واضطربت أحوال أهالى مصر ، فرجوا الدعاء من الشيخ السادات، فقام حضرته برفع كفيه بالدعاء ، وما إن فرغ من الدعاء حتى فاض النيل بشكل لم يحدث منذ سنتين، وحدث وفاء النيل، ومنذ ذلك الحين والنيل يفى ويفيض فى هذه الأيام، ومنذ ذلك الحين أيضًا والناس تزور الشيخ السادات فى المقام الذى كان يُقيم فيه، ويقيمون الولائم

للسلطان السـادات فى ذلك المكان . وملَّكوا له نصف مـصـر، ولذلك مـا زال أولاد السادات يأتون إلى ذلك المكان، ويرفعون الدعاء، وتُقام لهم الولائم . وحقا إنهم نسل عظيم ويقطن فى أم القياس مشايخها، وثلاثمائة نفر من أبناء الشيخ الرداد ، فـهم جميعًا يسكنونها ويتابعون المقياس كل ليلة، وكلما فاض ووصل إلى مقياس معيَّن، فإن جميع خدَّام أم القياس ومشايخه يتفرقون كلٌّ إلى مكان، بعد أن يكونوا قد تجمعوا وسجلوا فى طبقة من الورق الأبيض، والزعفران الأصفر كم فاض النيل وكم إصبعًا ارتفع ، ويكون هذا الخط :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، أدام الله تعالى نعمه على سيدنا ومولانا المقام العالى أعظم مولانا الوزير كافل المالكة الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والأقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظفر أعز الله العالى أنصاره، بجاه محمد عليه السلام . الفقير إلى الله تعالى كبير أولاد أبى السادات الأمناء على قياس النيل المبارك، ويبتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة فى صحايف سيدنا ومولانا ما يجب الدعاء سرًا وينهون أن الله تعالى قد زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وألف الموافق الثالث عشر مسرَّة أربعة أصابع، وصار ثمان عشرة ذراعًا وتسع أصابع، أنهى ذلك، كذلك اللهم أتمم لنا خيرًا ..." .

ويقوم شيخ أم القياس بتوقيع هذا الخط وختمه بخاتمه، وبعد ذلك يقوم الشيخ بإحضار هذا الخط إلى عزيز مصر . وفى كل يوم يُقدَّم من خزينة الباشا دينار ذهبىٌّ ، وهكذا منذ اليوم الذى سقطت فيه النقطة إلى النيل المبارك، وكلما زاد وفاض زادت السعادة، وعم الفرح والسرور فى كل مصر ، ويقوم الجميع أمثال الملتزمين والكشاف والنظار والأعيان ووزير مصر ببذل الصدقات . ويحسنون، ويقدمون النظارة، لأن أكثرية أهالى مصر تابعون للأمناء والملتزمين، وهم فى انتظار فيضان

النيل المبارك، " فاللهم عافنا " فلو لم يَفِض النيل المبارك لظهر القحط والغلاء، وعندما يصل الفيضان فى النيل المبارك إلى المرتبة المعلومة، فإن فى حوض أم القياس عموداً مقسماً ومنتهاه ثلاثون ذراعًا ، وهو مقسم إلى أصابع ، ويقوم شيخ أم القياس بالنظر إلى هذا العمود كل صباح، ثم يصدر حجة بذلك، وفى البداية، وذات مساء، كان يذهب إلى الپاشا ويدخل عليه حرمه، فلا يُمنع من الدخول عليه، ومهما كان الأمر فإنه يدخل ويقدم :

"السلام عليكم يا وكيل السلطان الوالى، حفظك الله وسلمك الله . جاء النيل المبارك هذا الليل بأمر الله تعالى واحد پارمق (= إصبع) على بر أرشندر = إصبع واحدة على ذراع واحدة"، وينادى بعده على أن الفيضان " واحد ذراع واحد پارمق = إصبع واحدة" فيحسن عليه بدينار، ويظل الأمر على هذا المنوال أربعة وثمانين يومًا كاملة، ويُعلم الپاشا الوالى بذلك.

ولكن فى معية هذا المنادى الذى مثل بين يدى الپاشا ثلاثمائة وستون نفراً، وكل واحد منهم يصل إلى مكان أو اثنين، ويتوزع هؤلاء المنادون داخل مصر، لكل منادٍ حدوده التى ينادى داخلها، ولا يدخل أو ينادى فى أماكن أُخرى، لأن فى كل دار وفى كل يوم عوائد يسمونها Haliye (= خالية) ، ولا يأخذها إلا المنادى الذى ينادى فى هذا المحل، ولو جاء منادٍ آخر فإن صاحب الدار لا يسلمها له، لأن صاحب الدار يعرف المنادى الذى سيحسن إليه، كما يعرف العوائد والفوائد، ويجب ألا يحدث تشويش فى ذلك، ولذلك فكل منادٍ ينادى فى حدوده فقط . وكل هؤلاء المنادين يتصفون بالرضا والوجوه النورانية والأفواه العفيفة. وعيونهم كحيلة، ويمسك كل منهم فى يده عصا، ولا يُختارون من بين العجائز، بل يشترط أن يكون المنادى شابا، وإذا لم يكن قَشَيْخًا ولا بد أن يكون فى يده عصاه . وهذه من الأمور المقررة ، وفى معيَّة كل منادٍ ثلاثة أو أربعة من الفتيان العرب Arab Oglancik اللطفاء، وعلى أعناقهم شيلان مختلفة الألوان

ما بين الأصفر والأخضر والأحمر، وكلما وصلوا إلى باب من أبواب الدور يقولون "السلام عليكم يا أمير"، أو "السلام عليكم يا أمير أحمد"، أو "يا شريف أحمد" ، أو "السلام عليكم يا سيد على"، أو "يا أمير الأمراء الكرام" . ولا بد أن ينادوا كل صاحب دار باسمه ، ثم يقولون :" بأمر الله جاء النيل المبارك ، وهو الآن ذراع وست أصابع" أو "ذراعان وثلاث أصابع"، وكلما وصل القياس إلى مرتبة يذكرونها مع بشرى ذلك اليوم، ويشيعون فى داخل كل مصر هذه الأخبار السعيدة .

وكل شخص على حسب استعداده وإمكاناته يُقدم إنعامه وإحسانه، وحقا كان منهم مَنْ يأخذ يوميا من أعيان مصر ومن الباشا ديناراً عن كل يوم، وهم بذلك يتحصلون على أموال كثيرة، ولكن بالإضافة إلى ذلك، فإن لهؤلاء الثلاثمائة والستين منادياً (= رداداً)، ولمشايخ أم القياس مبالغ نقدية ميرية وهى ما يسمى الكشوفية، وتمنح من أموال السلطان .

وفى كل إقليم مصر ما يصل إلى مائتين وست وسبعين قصبة، ومدينة ومرفأ (= بندر)، ويذهب المنادون الرداون إلى كل مدن مصر . وبعد أن يأخذ هؤلاء الإذن من باشا مصر ويقدمون أموال الكشوفية وهم لم يأخذوا ورقة، فإنهم يذهبون إلى ولايات مصر ولاية ولاية ، ويخبرونه بالمستوى الذى وصل إليه فيضان النيل.

وهم ليسوا بقادرين على النداء فى كل نواحى مصر ، ففى أرض مصر أكثر من ألفَىْ حديقة وبستان، وهى فى أيدى أبناء هؤلاء الردادين ، وهم أيضًا الذين يبشرون حرّاس حدائق النيل، لأن كل هذه الحدائق فى حاجة إلى النيل المبارك. ولذلك فإن جملة الحدائق والغيطان تحت إشرافهم، ولو كان الورد والسنبل والبنفسج وغيرها من الأشجار المثمرة والشمام والعجور لازمًا للباشا ولأعيان مصر فإن كل ذلك تحت سيطرتهم .

وهم ينادون على فيضان النيل هكذا لمدة أربعة وثمانين يومًا ... وأخيرًا إذا ما وصل ماء النيل المبارك إلى عشرين ذراعًا فإنهم يبدأون فى النداء : "استوى الماء والخشب"، وتكون هذه قاعدة كقواعد النحويين . وقد استوحوا هذا النداء من المصنعين المصريين . "فاستوى الماء والخشب" تعنى أن العمود القائم بتقسيماته داخل حوض أم القياس، قد وصلت المياه فيه إلى مستوى العشرين ذراعًا وغطت الخشبة .

وما إن تتجاوز المياه هذا الرقم حتى ينادوا قائلين: "من الجبل إلى الجبل" إذا ما وصل القياس إلى أربعة وعشرين ذراعًا، بمعنى أن الماء قد وصل من الجبل إلى الجبل، والمقصود بالجبل هو الجبل الموجود فى غرب القاهرة، وفى طرف الجيزة حيث توجد جبال الأهرام، فهناك يوجد جبلان كبيران، وجبلان صغيران صناعيان، أى أنهما مُنشآن، ويسمونها بين الناس جبال الأهرام . ولكن فى أفواه العامة يُطلق عليها "جبال فرعون "، وإذا ما فاض النيل حتى وصل إلى حوض هذه الجبال فالمنادون ينادون قائلين : "من الجبل إلى الجبل" ويقول المصريون: "الحمد الله ، يكفى يا رب يكفى". حيث إن المياه ما إن تصل إلى أربعة وعشرين ذراعًا، فإنها تأتى حتى هذه الجبال، وفى القصر بوابة ضخمة من الحديد، وكأنها بوابه قلعة ، وهى كالحد الفاصل بين عمران مصر وغيرها من المناطق ، وما إن تصل مياه النيل إليها وتبدو من أعتابها، وتكون قد وصلت إلى خمسة وعشرين أو ستة وعشرين ذراعًا فاللهم عافنا حتى يكون النيل قد أغرق مصر.

ومن منطلق هذا الخوف ما إن يبدأ المرددون ينادون قائلين "من الجبل إلى الجبل" حتى يتوسل الخلق إلى الله قائلين " يكفى يا رب يكفى ، الحمد لله " فيكون مرد ذلك إلى خوفهم، لأن جبال الأهرام هى من معجزات سيدنا إدريس، وبتعليماته فإن الملك سوريد هو الذى بناها ، فمن " العلم اللدنى " لسيدنا إدريس أن عرف أن النيل يمكن أن يغرق مصر، فأمر الملك سوريد ببناء هذه الأهرام، وطلسمها ، ولهذا فإن النيل فى

بعض السنوات يأتى إلى حواف هذه الجبال، ولكن فى ساعة اقتراب الخطر وسيادة قانون العشيرة، يأتى سلطان، ويضرب هذه الجبال بالبارود الأسود، وإذا ما هدمها يكون الخراب والدمار .

وقد كان الخراب التاسع الذى حلَّ بمصر خراب بختنصر أما الخراب العاشر فكان عندما حلّت وفسدت طلسمات النيل فعبرت المياه هذه الأهرام وأغرق النيل مصر، ولوجب أن تغرق الشام عن طريق نهر مِزة "Mize" ولغرقت بغداد وخرب شط العرب . ولكن لو وصل النيل المبارك إلى مستوى ست عشرة ذراعًا يتم تحصيل أموال السلطان، ولكن ينكسر من جراء ذلك الأمناء والملتزمون والكُشَّاف، ولو وصل إلى ثمان عشرة ذراعًا، فيُستر جميع الكُشاف والأمناء، أما لو وصل إلى عشرين ذراعًا فلا يبقى فى جميع أراضى إقليم مصر، أىُّ أراضٍ "شراقى"، أى لا تبقى أرض عطشى، وتروى الأراضى كلها ، ولا يبقى جفاف ويغمر النيل كل الأراضى، وإذا ما زاد عن ذلك فهو ضرر" اللهم عافنا "، ولكن أيضًا لو ظل فى مستوى الخمس عشرة ذراعًا "فاللهم عافنا" يعم الضرر . ويكون القحط والغلاء، ولا يُحصِّل مال السلطان أو الأمناء أو الكشاف، ويعتبرون الوالى القائم نذير شؤم فيسقطونه عن حكم الولاية، ويحبسونه فى قصر يوسف، وجملة الناس تُقدم الشكوى والعروض على الأستانة العامرة لعزله، ويظل الباشا فى الحبس إلى أن يأتى الوزير الآخر، ويكون واحدًا من أمراء مصر (= قوادها) قد َعيَّن قائم مقام ، فيقوم بالقبض على الأمناء والكُشَّاف والملتزمين ويذيقهم ألوان العذاب، ثم يصعد إلى الديوان، ويصادر كل أموالهم ويبيعها، ويجمع كل أموال السلطان، ولا يطلق سراحهم إلاَّ بعد أن يتم هذا التحصيل، ولكن إذا ما طغى النيل وفاض، فإن جميع المحتكرين والمستبدين والمسببين يخرجون الغلال التى كانت فى شونهم ومخازنهم، ويعرضونها للبيع فى ميدان المحبة، ويكون فى القاهرة الكثير من الغنائم والغنم، بحيث تُباع الأوقيات الأربع من الخبز العثمانى بپارة واحدة . والقصة

أن مجيء النيل المبارك حكمة إلهية عجيبة ، فهو فى كل سنة يختلف عن السنة السابقة، والسنة التالية تختلف ، فلا بد أن يسير على العادة التى اعتادها، وقدرها الله، فإنه يفيض فى أول شهر توت القبطى ، ولكن زيادته ونقصانه ليست على منـوال ثابت ، فإن ذلك فى قبضة القدرة الإلهية ، وهذه الكرامة العالية من مآثر سيدنا عمر رضى الله عنه ، وهم يحكون الحكاية التالية :

الحكاية أن حضرة سيدنا عمر رضى الله عنه عندما كان على عرش الخلافة فى السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية ، وفى السنة التى فتح فيها حضرة سيدنا عمرو بن العاص بلاد مصر، وحسب عادة الله الجارية جرى النيل، ولكنه لم يَفِضْ، فقدم عليه أهالى مصر وقالوا له: يا حضرة عمرو، إن من عاداتنا إذا لم يجر النيل ويفِضْ فإننا نجهز فتاة بكرًا ونزينها بالذهب والياقوت وشتى الجواهر، ونلقى بها إلى النيل ومعها القناطير المقنطرة من رءوس السُكَّر، وآلاف الأرادب من الغلال، ومئات آلاف الآلاف من الخبز والبقسماط، وبعد أن نلقى بهذه الأشياء مع الفتاة إلى النيل فى اليوم التالى، أو فى يوم النقطة المعهود تسقط النقطة ويفيض النيل . فأخبرهم سيدنا عمرو بن العاص أن هذه عادات كافرة، وحاشا لله أن يحدث ذلك ، فليس من ديننا أن نريق الدماء من أجل فيضان النيل، أو نسرف كل هذا الإسراف فى نعم الله. والحاصل أن مر أربعون يومًا على هذا المنوال والنيل لا يفيض، وانتشر فى بلاد الله المفتوحة حديثًا القيل والقال والشائعات والجدال بهذا الخصوص، وبدأوا يرددون أن قدم العرب قدم شؤم . وتردد هذا على أفواه الناس مع الكثير من الأقوال والشائعات المختلفة ، فحفظ الناس الغلال وأخفوها، وانتشرت عدوى الغلاء والقحط فى داخل كل مصر، وأخيرًا اضطر عمرو بن العاص أن يبعث مع نجاب عرضًا كاملاً لما حدث من المصريين، وأمْرالفتاة بالتفصيل إلى حضرة سيدنا عمر بن الخطاب، وخلال عشرة أيام كان النجاب بعروضه فى مكة المكرمة، ودخل فى التو على حضرة عمر ، ولما علِم حضرته بمآل العرض والغرض، أملى حضرة عمر بن الخطاب فورًا

رسالة إلى عمرو بن العاص ينسخ فيها مراسم وعادات الكفار، ومنع إلقاء الفتاة إلى النيل، وأمره أن يلقى بهذه الورقة فى النيل بعد أن يقرأها على الملأ ، وكان نص الرسالة المكتوبة فى الورقة هو ما يلى :

"من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر ، يا نيل إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك، وإن كنت تجرى بأمر الله وقدرته فاجر صاعداً" وبعد هذا الكلام كتب هذه الآية : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (هود١١/٤١) . ووصلت الرسالة إلى عمرو بن العاص فى عشرة أيام ، وكان اليأس قد نال من الناس كل منال، وهاجر الكثير إلى خارج مصر، وعلى الفور قام حضرة عمرو بن العاص بتلاوة رسالة عمر بن الخطاب، وكانت جموع غفيرة من أعيان مصر وأهليها قد تجمعوا فى المكان المسمَّى أُم القياس حتى يومنا الحاضر، وأبلغ عمرو بنُ العاص سلام حضرة سيدنا عمر إلى النيل وعقب ذلك ألقى بالمرسوم الذى بعث به إلى النيل فى مياه النيل، وبقدرة الخالق سبحانه وتعالى ما إن سقط هذا المرسوم فى النيل حتى فاض وغاض النيل وأضحى كالبحر المائج ، بحق الآية الكريمة، لحضرة سيدنا عمر، وعمَّ الفرح والسعادة والسرور جملة أهالى مصر . وحمداً للخالق فمنذ ذلك اليوم لم يتخلف النيل عن فيضانه يوماً واحداً ، فلا بد من سقوط النقطة، ولا بد من التعريف بالحوض الذى تسقط فيه النقطة، وأم القياس ، وداره التى ما زال مبناها قائماً .

أوصاف جزيرة الروضة وأم القياس

هو المكان المقابل لمصر القديمة، ويسمونه الروضة، وهو عبارة عن جزيرة، وفى جهته الجنوبية وفى إحدى الزوايا قصر منيف ترتفع طوابقه ، طابقًا يعلو طابقًا، وهناك قاعات متعددة وحجرات مختلفة ومخازن للمؤن ومطبخ وخانات لأبناء شيخ أم القياس، وهى دور عالية متعددة الطوابق، وتتجاوز المائتين .

وفى زاوية أخرى جامع فوقانى (= علوى)، هو جامع السلطان قايتباى، ومقام فوق أربعين عموداً من الرخام، وله منارة منخفضـــة ذات طابق واحـــد . وهو جامـــع واسع الحرم، وهذه المبانى المسقوفة وكأنها قصر عــالٍ، وحرمه الخارجى ميـــدان فسيـــح ، وجوانبه الأربعـــة مزدانة بأشـــجار الجوز ذات الظلال الوارفة، ومتنزه فسيح .

وأول مَنْ بدأ فى بناء أم القياس هذا هم الأقباط، وفى دولتهم كان هناك كاهن يُسمى الحكيم قَالِيمون ، وهذا المبنى من تشييده وبنائه ، وقد تم البناء بعد طوفان نوح. ومِنْ بعده جاء كاهن آخر يسمونه حِصَيْلم . ولم يكن له مثيل فى علم الهندسة، وهو أستاذ كامل فريد عصره، أضاف بعض الأشياء من اختراعه على المقياس وأجرى تجارب متنوعة ، وهو الذى أوصل أُم القياس إلى وضعه الراهن ، وهو الذى أحياه ، وجميع الخلجان والترع التى فى ربوع مصر هى من طرحه هو، وهو الذى أجرى مياه النيل إلى الولايات ولاية ولاية.

وبعده وبمرور الأيام تخربت أُم القياس، وفى سنة ١٩٨ هـ =٨١٣ م جاء الخليفة العباسى المأمون من بغداد إلى مصر، وأخرج الكثير من الدفائن والكتابات المختلفة من جبال الأهرام، وبأموال هذا الكنز أمر بتعمير وترميم أُم القياس هذا ، وبعده فى سنة ٧٨٥ هـ =١٣٨٣م وأيضًا من الخلفاء العباسيين قام المتوكل على الله محمد بن المقتصد بالله بإصدار فرمان إلى السلطان برقوق الذى كان قائمقامًا حينذاك، فضم إليه هو الآخر ضميمة ، ولكنهم يحكون أن الخليفة المأمون لم يبق فى مصر، ولكنه بالأموال التى أخرجها من جبال الأهرام، قام بالهجوم والحرب ضد قياصرة أنطاكية، وضيق عليهم الخناق فى ديارهم ولم يُبْقِ لهم دِيْرًا قائمًا. واتخذ الكثيرون منهم قرار الفرار ، وجاء وحاصر قلعة طرسوس، ولم يمنحهم الأمان وفتحها ، وبعدها عندما

وصل المأمون ثمانية وأربعين عامًا من عمره استشهد على يدَىْ أخيه، وكان ذلك فى سنة ١٩٩ هـ = ٨١٤ م. وما زال حتى الوقت الحاضر فى طرسوس، وبالقرب من جامع النور، وفى زاوية مظلمة نجده مدفونًا داخل تابوت من الرخام . وقد عاينه الفقير، وضبطه على تاريخه، وقمنا بزيارته ، ولكن ليس للمرحوم الخليفة المأمون من خيرات فى مصر غير ما قام به فى أُم القياس .

أوصاف حوض أُم القياس

أُم القياس غلط، وصحيحها فى المعجم اللغوى العربى " المقياس " بمعنى قياس الماء . والحوض هو تعبير حسن، ولكن فى أفواه الناس يسمونه " أم القياس " والغلط المشهور أَوْلى بالاستخدام .

وحوض المقياس هذا فى طرف جزيرة الروضة ، وهو عبارة عن قبة منقوشة وداخلها عمود خشبى سداسى مدرج، ومثبَّت على عمود ثمانى الشكل من الرخام الأبيض، وفى ركن من أركان الحرم الكائن أسفل قصر الخليفة المأمون . وتحت هذه القبة يوجد حوض عظيم مبنى بالرخام الأبيض الصافى، وهو مربع الشكل ، عمقه بالكامل ثلاثون ذراعًا، وعلى جوانبه الأربعة سلالم مكونة من ثمانين درجة ، وفى كل سنة، ولمدة أسبوع، يقوم معسكر الإنكشارية بتطهيره، وقد تم تحرير ذلك . وفى وسط هذا الحوض تمامًا عمود من الرخام الأبيض، وفى نهاية هذا العمود عمود خشبى بطول خمس وعشرين ذراعًا كاملة، وبهذا يصبح الرخام والعمود ثلاثين ذراعًا، ولا يميل هذا العمود إلى أى جهة، بل هو عمود قائم ، وقد أقاموا على طرف من هذا الحوض إلى طرف آخر جسرًا من الخشب، يرتكز على هذا العمود القائم، والعمود قائم به . ولذلك لما ذكر المصنفون أن " استوى الماء والخشب " فالمقصود هو هذا الخشب .

وهذا العمود السداسى، وحتى نهاية الخمس والعشرين ذراعًا، مقسَّم إلى عشرة أقسام فى كل ذراع ، وكل قسم يعتبر إصبعًا ، وهذا هو المقصود فى المثل القائل: "أعطنى بحساب الأصابع المصرى "، ومماثل لذلك قال واحد من الشعراء هذا البيت :

انتظارى جبر ايله أولدى هلال اطعام ناس

پنجه بر پارمق حسابك گوسترر أم القياس

ومعناه :

انتظار هلال إطعام الناس تم بالجبر

وتظهر أم القياس حسابها بإصبع القبضة

وقد قُسِّمت كل ذراع إلى مائة قِسمٍ، وكل قسم منها يسمى پارمق (= إصبعًا)، وقد أنشأه الأستاذ المهندس هكذا ، ولكى يتم حساب هذه الأصابع ومراقبتها، وُضعت سلالم من الرخام على الجانب الداخلى من الحوض، وللنزول إلى قاع الحوض حتى نهايته يوجد ثمانٍ وأربعون درجة بالكامل ، وفى كل صباح يقوم شيخ المقياس بالنزول إلى أسفل الحوض من هذه السلالم، ويعلم مدى ارتفاع مياه النيل من العلامات الموجودة على العمود ، ويكتب شيخ المقياس بسن حاد على ورقة ذات زعفران القياس الذى وصلت إليه مياه النيل، ثم يقوم بإعلام الپاشا بها ، ويوجد على حافة الحوض، وعلى الرخام تأريخ مسجل بالخط الكوفى، ولقد شاهد هذا الخطَّ جملة الرحَّالة العرب والعجم، ولم يتمكن أى واحد منهم من قراءة هذا الخط، ولكنه – والله أعلم – تاريخ الخليفة المأمون، ومَنْ ينظر نحو حافة الخشب التى تمسك العمود الرخامى يقرأ آية الكرسى وفى نهايتها قد كُتِب هذا التأريخ : "وذلك فى جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ومائتين".

وأعلى العمود المرمرى طبقة من الذهب تغلفه، ومسجل تأريخ بالخط الجلىّ المذهّب على الحافة المرمرية للحوض، ونص التاريخ ما يلى :

"مولانا الملك عز نصره سلطان محمد خان بن إبراهيم خان دام منصورًا وعاش للمقياس، قد أرخت أحيا بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠هـ = ١٦٦٩م" .

وعلى حوافٍّ هذا الحوض الخاص بأم القياس يوجد ثمانية أعمدة من الرخام الأبيض، ومقام فوقها قبة مشبكة ومقرنصة ومنقوشة نقش بوقالمون، وهى نموذج رائع للفن الراقى، وعلى براويز العمود المذكور وعلى أرضية زرقاء، وبخط رومانى أبيض، قد خُطِّت هذه الآية الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (الروم٣٠/٥٠).

وإلى آخر الآية، تم تحرير هذا التاريخ :"بتجديد ملوك سلاطين المصرية الملك الأشرف ظاهر بيبرس الصالحى".

وبعد هذا الخط وعلى حافة القبة :

"مولانا مالك ممالك رقاب الأمم ملوك العرب والعجم صاحب العِراقَيْن وديار الديلم واليمن السلطان مراد خان خلد الله ملكه ، وصلى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبعماية (= ١٣٥٦ م)" .

وبعده، وفى وسط القبة العليا، كُتب بالخط الجلىّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ ﴾ (الزمر٣٩/٢١) . وبعده، كُتِب بالخط الأبيض: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ (الحج٢٢/٦٣).

وقد كتبت هذه الآية إلى أخرها بخط مدوّر ، وبعده وحتى منتصف القبة بخط مدوّر ومزخرف وأبيض : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ (الإسراء١٧/ ٨٤).

قد تم تحريرها...

وعلى جوانب الحوض الأربعة زوايا ، وعلى زاوية يقام فيها الصلوات اليومية الخمس، على محرابها وبخط جلى مذهب نرى هذه الآية :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الحج٢٢/ ٦٣).

وبعد الآية تم تحرير هذا التأريخ التالى :

"إنشاء هذا الجامع المبارك فى زمان سلطان البرّين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو من بناء أمير الديار المصرية داود باشا جعله الله من الفائزين مسجداً سنة أربع وخمسين وتسعماية (= ١٥٤٧ م)" .

ومَنْ ينظر على الواجهة الداخلية للباب الموجود على جدار قبلة هذا المحراب وإلى الجهة اليسارية توجد لوحة رباعية من الرخام الخام، وقد كُتبت بالخط الكوفى اللطيف هذه الآية الكريمة: بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة ٩/ ١٨). وبعدها: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف ٦١ / ١٣).

و بعدها : "... بإنشاء هذا الجامع المبارك قبلة المسلمين".

وهو مكان مستجاب فيه الدعاء ، ومع أن هذه القبة المزخرفة من الخشب، فجوانبها الأربعة شبكة من الأسلاك (= القضبان) النحاسية ، كما أن جوانب الحوض الأربعة ذات قضبان، ولا يتمكن أو يجرؤ الإنسان على النظر إلى أسفل . والسلام .

وتقع فى ضواحى هذا الحوض قاعة عظيمة ، تنظر نوافذها كلها على النيل ، يُصعد فوقها بأربعين درجة رخامية ، ويوجد قصر خَوَرْنَقىٌّ ، وكان محل فرجة وتنزه سائر السلاطين المصريين، وما زال وجهاء مصر ووزراؤها يأتون إليه للاستراحة والاستجمام ، وكانت مغامرات سليم خان الأول قد جرت فى قصر أم القياس، ولكن لما كان فاتح مصر السلطان سليم خان وخلال وجوده فى مدينة مصر هذه، نام ذات ليلة فى هذا القصر وخلد للراحة ، ولكن الجركسى لما حاول قتله قد ارتكب جريمة، وجرى نحو النيل ، وأقترب من أسفل المقياس، وصعد الفدائى فوق العمود متسلقًا، وصعد إلى قبة القصر من السندرة عن قرب، ونزل إلى منامة (= غرفة نوم) سليم خان ، واستل سيفه، وكاد يقتل سليم خان وهو نائم ، إلا أن سيدنا محمداً النبى الأمين أيقظ سليم خان من نومه ، وكاد يمسك بالفدائى إلا أن الأخير ألقى بنفسه إلى النيل بطوله الذى كالمنارة ، فاندفع سليم خان وخواصُّه من الغوَّاصين ، ولكنه أفلت ، ولكن سليم لشجاعة الفدائى عفا عنه ، وأحسن إليه وأعطاه العهد والأمان، بل أحضر سليم الفدائى الذى قصد حياته معه إلى إسلامبول وأعزه وأكرمه، وقد تم تحرير ذلك سابقًا .

وهكذا فإن لقصر أم القياس هذا نوافذ على جوانبه الأربعة وله قُبة سامقة، مدهونة بالجير والجبس الأبيض ، وهو قصر عالٍ خالد، ولسوف نبيِّن الجزيرة التى بها أم القياس هذا .

أوصاف جزيرة الروضة

هى جزيرة تقع بين فرعَى النيل حيث يجرى النيل الكبير ناحية الجيزة، بينما يجرى الفرع الصغير بمحاذاة مصر العتيقة، وفى بعض السنين تكون يابسة بالكامل

وذلك عندما تقل مياه النيل وتجف الأرض، ويستطيع الإنسان أن يسير عليها، ولا يمكن لسفن الغلال أن تمر.

وفي سنة ١٠٨٦ هـ =١٦٧٥م تمكن أفندينا جانبولاط زاده حسين باشا – بعد أن صرف مائتي كيسة مصرية ، واستخدم طوال ثلاثة أشهر ما بين أربعين وخمسين ألف عامل، وآلاف آلاف الجاروفات – أن يطهِّر وينظف الممرات المائية الموصلة إلى عنابر وصوامع سيدنا يوسف وحالاً، ما زالت جميع متفرعات النيل الأساسي تجري من هذه الناحية، ولهذا سموها جزيرة الروضة، وهي جزيرة كبيرة نتجت عن تيبُّس أجزاء من مجرى النيل .

وفي بداية الأمر كان نجم الدين صالح قد أقام على جوانب هذه الجزيرة الأربعة قلعة عالية عظيمة ، وما زالت تطل حتى وقتنا الحاضر على بعض أحياء الجيزة ، أبراجها وجدرانها تُذكِّر بسد الإسكندرية العظيم، ولكنها كانت حصنًا حصينًا، وسدًا متينًا ، وبناء مصَنَّعًا، بحيث استطاعت أن تُقاوم طغيان النيل منذ ما يزيد عن مائة سنة، وهذه الجزيرة ممتدة من زاوية المقياس حتى تصل إلى بولاق، ممتدة مسيرة ساعة ونصف بين الزهور والورود اليانعة ، فهي عامرة بكل أنواع الزهور والورود الفوَّاحة ، وبحيث كانت مخصصة للسلاطين، وما زالت حتى الآن وكأنها باغ إرم ذات العماد، ولا يوجد مثيل لها في سائر البلاد . مياهها وهواؤها في غاية اللَّطافة والطراوة ، ومن قدرة الخالق أن أرضها لا تحوي الثعابين أو الحشرات المضرة أو الفئران ، فهي جزيرة مطلسمة ، وما زالت تربتها خصبة ، فيجود فيها الليمون النارَنج وغير ذلك من النباتات والزهور الفوَّاحة الرائحة .

ومَنْ يَسِرْ فيها لمدة ساعة يخرجْ منها ودماغه معطر بشتى أنواع الروائح الطيبة ، وما زال بها لأعيان مصر مائة وستون شارعًا، وبها غيطان متعددة، وفي هذه الشوارع والغيطان قصور ومبانٍ رائعة وقمريات مختلفة ، وقاعات وسلسبيلات وشادروانات، وحمامات وشاليهات وأماكن لخلع الملابس (= جامه كان) ، وبحيث يتمكن

مَنْ ليس له بها مكان دائم، أن يجد بها مكانًا، وما زال بها حتى الوقت الحاضر سبع سرايات وثلاثة جوامع ، أحدها من أوقاف السلطان المؤيد، وإذا ما قيل عن الجزيرة "إنها روضة من رياض الجنة" فإنها تستحق هذا القول وهذا الوصف، وفيها يجد العليل صباه إذا ما تنزه فيها أو بقي فيها ضيفًا ولو لليلة واحدة .

الفصل الخامس والأربعون

أوصاف آلايى : احتفال الموكب الثانى لفيضان النيل

عندما تَسْقط النقطة فى يوم توت فى شهر تموز (= يولية) تصدر الأوامر والتنبيهات إلى كل من كتخدا جاويشية الپاشا، ورئيس المتفرقة، والأغا الترجمان، وأغوات البلوكات السبعة، وإلى سائر جنود الخدمة، ويُوكد عليهم بأنه بعد مرور الأربعة والثمانين يومًا إن شاء الله بأننا سنحتفل بفيضان النيل، وليحضره كل أعيان مصر وفقًا للقانون القديم، يجب أن يكون احتفالاً بهيجًا ... ومفرحًا بفيضان النيل.

ويقوم الپاشا بالتنبيه والأمر بذلك، وما إن يتم ذلك، فالعظمة لله، حتى يعم الفرح والسرور كل أهالى مصر، ويكون ذلك وسيلة لاستئجار بيوت الناس، فقد كانوا يدفعون مائة أو مائتين أو ثلاثمائة أو خمسمائة قرش لكل منزل فى مصر العتيقة قبيل الاحتفال. ويحددون تاريخًا مسبقًا لآلاف السفن من جرجا ورشيد وبولاق، ويدفعون لكل سفينة كبيرة مائة أو مائتى قرش إيجار.. وعلى كل فرد أن يُضىء فى منزله أو مركبه أو سفينته القناديل الكثيرة، بحيث تصير القناديل المضاءة بلا حصر أو عدٍّ ، ويبدأ الجميع فى تزيين السفن والخانات، ويزخرفون النوافذ والمجالس، ويدهنون منازلهم بالجير الأبيض، وتصير مصر أمُّ الدنيا كالعروس فى الجلوة، أو عروس الدنيا الجديدة. وبعدهم يكون جمع الأمراء والملتزمين والكُشَّاف والميرميران، وكل القواد، وكل أمراء مصر ، وفقًا لقانون

التشريفات القديمة[٩٥] حيث يكون كل الأعيان قد أحضروا هداياهم إلى الباشا. ويقوم الباشا بتكليف واحد من الأغوات بتطهير الخليج كاحتفال بفيضان النيل، ويقوم ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف من العمال والفلاحين وحيوانات الجر بتطهير الخليج فى غضون أربعين أو خمسين يومًا، ويتم صرف عشر كيسات مصرية لتطهير وتنظيف هذا الخليج سنويًا، ثم يُقدم للأغا ألف بارة أُجرة قدم، ويتم تجميع كيستين من القرى ومن أصحاب البيوت للمصروف، ويقدم الكتخدا للباشا نفسه خمس كيسات، وقد كان فى زمن الحصيلم وملك القبط (= أو الحصيلم ملك القبط) الخليج يجرى فى الصيف وفى الشتاء، وكان جميع المصريين يشربون ويدفعون العطش منه، وكانت أرضيته بالكامل

(٩٥) **التشريفات القديمة :**

تشريفات Tesrifat = مراسم = بروتوكول .

تشريفاتجى Tesrifatçi = من يقوم بالمراسم .

تشريفات دائرة سى Tesrifat Dairesi = دائرة المراسم .

تشريفات دفترى Tesrifat Defteri = دفتر المراسم .

تشريفات خرجى Tesrifat Harci . مصاريف المراسم .

تشريفاتى Tesrifatiمراسمى .

تشريفاتى ديوان همايون Tesrifati Divani Hümayün = مراسم ديوان السلطان .

تشريفات ملوكانه Tesrifati Mülükane = مراسم ملوكية .

تشريفات ناظرى Tesrifat - Naziri = ناظر التشريفات = ناظر المراسم .

مصطلح يُستخدم للدلالة على مراسم تقديم أو تأخير أصحاب الرتب والمقامات خلال مراسم الاستقبال والبروتوكول، ويمصطلح بسيط هو ترتيب رجالات الدولة فى الدخول أو الخروج فى أثناء المراسم الرسمية . والتشريفات جمع تشريف باللغة العربية، والتشريف هو منح الشرف . وتعنى أيضًا الخلعة الجميلة التى تُمنح بهذا المعنى .

التشريفاتچى ، هو الموظف المسئول عن المراسم، ودائرة التشريفات هى الجهة المسئولة عن المراسم، ودفتر التشريفات هو الدفتر الذى تسجل فيه الزيارات . ومصاريف التشريفات هى المبالغ التى تُحصلً فى مقابل إعداد الفرمانات السلطانية مقابل منح رتب أو نياشين ... (انظر : يافالين) .

مغطاة بالرخام. وبمرور الأيام غُطى بالتراب والطين، وأصبح الآن يجف ستة أشهر، وستة أشهر أخرى تجرى فيه المياه بعد فيضان النيل. وهذا الأغا الذى قام بتطهير الخليج وتنظيفة يُعطى ألف پارة مصاريف قدم وكُلْفَة ، وعند إتمام العمل يُقيد ذلك ويُسجل فى محكمة باب النصر ، ويتسلم الأغا المنوط به هذا العمل حُجَّة شرعية فى يده ، ويسلمها للپاشا. وبعدها يَتم اتخاذ إجراءات مواكب فيضان النيل ، ويُعلن فى الأحياء والمناطق أن فيضان النيل المبارك قد وصل ست عشرة ذراعًا أو سبع عشرة، وفى المكان الذى سيفيض فيه النيل، والمسمى جسر أبى المنجى، يُقيم الأغا الذى قام بتطهير الخليج سدا ترابيًا تحت هذا الجسر حتى لا يجرى النيل، وفوق السد يقف الصوباشى (= مدير أمن المدينة) بقارب مزيَّن ومزخرف فى حالة استعداد تامٍّ ، ويقوم الأغا المحتسب آنذاك بتوزيع ألفى رأس من السُّكَّر، وألفى عبوة من سُكَّر النبات، وآلاف الأرطال من الفواكه، وحمولة سبعين جملاً أو ثمانين من الخبز الخاص الأبيض وتُكَوَّم كالجبل، ويعلم الله وحده أنواع الأطعمة والأشربة ، وكل هذه النعم، يعدُّها الأغا المحتسب من أموال الپاشا .

ويقوم مدير الأمن والبلدية (= الصوباشى) ومعه ستمائة من أتباعه بالمحافظة على هذه المأكولات والمشروبات، ومن المكان الذى سيفيض منه النيل حتى بولاق مسير ساعة كاملة، وعلى الجهة المقابلة وهى جزيرة الروضة المسافة نفسها، وعلى الجانبين تحتشد الجموع بحيث لا يكون هناك مكان للإبرة التى تُلقى ، وعلى الشاطئين بحر من البشر والخيام والاستراحات والمطابخ .

وقبل فيضان النيل بخمسة أيام أو ستة يكون الكل مستعداً فى المكان، وفى السبتية بمدينة بولاق يتجمع كتخدا الپاشا، ومعتمدو نواحى المدينة وأفندى الديوان، والبوَّابون (= قابوجيلر) ومعتمدوهم، وأغا الرسالة وأمين الجمارك، وأمين المخزن والنظار . الكل فى سفنهم المختلفة والمزينة، كما يفد أُمراء ولايات مصر العشرين، وأغوات البلوكات السبعة، وقواد الچراكسة وأمراؤهم، وقاضى العسكر ونقيب

الأشراف، والروزنامجي والدفتردار والربابنة، والحاصل كل أعيان مصر وأشرافها ومعهم ألف ألف ومائتا قطعة مختلفة من السفن، كالعقبة والفرقاطة والقوارب وسفن السجن والسنابك والصنادل، وكلها مزدانة بالحرير الأخضر المطرز بالقصب . جميع السفن غارقة فى الزخارف والأعلام والرايات والبيارق والطوغات، والحاصل لم يكن فى أى من هذه المراكب والسفن والمواخر شبر فارغ من الزخارف والزينات، كما أن جميع السفن قد اكتظت بأنواع الأسلحة، ومزدانة بها وكأنها متوجهة إلى ساحة الحرب والوغى.

فى ذلك اليوم كانت السفن شاغلة المساحة الممتدة من قصر السبتية ومن بولاق ومن قصر العينى ومن مصر العتيقة حتى قدم النبى، هذه المسافة مسيرة ثلاث ساعات. كان سطح النيل مغطى بالمواخر، وكأنه غابة مزدانة بالسفن النائمة على سطح النيل ، والتصقت السفن بعضها ببعض، لدرجة أنه يمكن العبور من سفينة إلى أخرى بسهولة. إلى هذا الحد كان سطح النيل مزدحمًا بالمواخر، وعندما يسمع الپاشا أن جميع أهل مصر على أهبة الاستعداد للاحتفال بفيضان النيل تبدأ مسيرة المواكب.

أوصاف احتفال موكب فيضـان النيـل

هذا الموكب هو أيضًا كموكب دخول الپاشا إلى مصر الذى تحدثنا عنه سابقًا، ولكن فى هذا الموكب يحضر العلماء والصلحاء والشرفاء والأغوات الطواشية .

فى البداية ، وقبل أن يتحرك الموكب، صباحًا أو قبل يوم أو يومين ، يتجمع كل الأعيان والأشراف، والشباب والعجائز، والرجال والنساء، والبعض يستأجر الدكاكين والمحلات، ويقفون بها على جانبى الطريق ، ويمتد ذلك من القلعة الداخلية حتى بولاق، وتكون جموعٌ حاشدةٌ وأمواج متلاطمة، وكأنها بحر هادر على امتداد ساعتين على شواطئ النيل، والجميع فى انتظار وصول الپاشا.

في البداية يكون على رأس الجموع الصوباشي (= مدير البلدية والأمن)، ومعه مائتان وخمسون من أتباعه وقد تسلحوا بالنبابيت، ومعهم عشرة من جلاّديه، ويقوم هؤلاء بتطهير الطريق، ويمر بالدور والتتابع جميع الأئمة والخطباء وهم في قيافاتهم وملابسهم التقليدية، وخلفهم آلاف المشايخ الكرام، وبعدهم علماء المذاهب الأربعة وهم في ملابسهم المعبرة عنهم، ويعبرون فوجًا فوجًا، وبعدهم الملالي الذين هم داخل مصر، والذين تصل مولوياتهم إلى ما يزيد عن مائتين وخمس وستين أقچة، أي ما يقرب من ست وعشرين وخمسمائة أقچة، وقد ساروا ومن أمامهم رؤساء سُيَّاسهم وقد وضعوا شاراتهم الحريرية التي تتدلى وكأنها الذوائب الحريرية. ثم يأتي بعدهم مُفْتو المذاهب الشافعية والمالكية والحنابلة، وشيخ الإسلام مطصفى أفندى البُولَوى الذى هو على مذهب الإمام الأعظم، ومعه القاضى عسكر أفندى ، ويعدهم موكب سادات ميران مصر، والذين يزيد عددهم في مصر عن ست وأربعين ألفًا، ويسير أمامهم مُلَبِّسُوهم وهم على صهوات جيادهم، وفي النهاية يأتي نقيب الأشراف حضرة مولانا برهان الدين أفندى، وهو يسير تحت البيرق النبوى الأخضر بكامل الوقار والاحترام والأدب، كلما مر يُلقى بالسلام والتحية على الجانبين .

ويأتي بعدهم موكب رؤساء الجاويشية، وفي مقدمته مفرزة أو كوكبة من ثمانية من الفرسان، وفي مقدمة كل مفرزة اثنان من الفرسان المُطَهَّمَة، وقد ارتدوا الشلوار الأحمر، وفي أيديهم الصقور البيضاء والحمراء، يمرون وهم في كامل الأبهة والعظمة .

ويأتي بعدهم موكب الگوكليان (= المتطوعين) وفي أيديهم أعلامهم العسكرية، وأعلام كل فرق الجيش، يسيرون وهم على صهوة جيادهم الكحيلة وهُجُنهم الصغيرة وملابسهم الحمراء، ويسير على رأسهم سائسهم الرئيس وأغواتهم، ويسيرون وهم ينقرون على طبولهم الكبيرة .

ثم يكون موكب التوغنكچيان (= حَمَلة البنادق)، وهم أيضًا يمرون وقد حملوا رايات فرقهم ورايات فرق الجيش، وقد ارتدوا شلواراتهم الحمراء، وبجيادهم الكحيلانية وهجنهم الصغيرة ، وأغواتهم الذين غرقوا فى قلانسهم ودروعهم ، يمرون وهم يعزفون على طبولهم الكبيرة، وقد بسطوا أعلامهم وبيارقهم .

ثم ياتى بعدهم موكب المتفرقه كان (= قوات المتفرقة) ، يمرون وقد ارتدوا معاطفهم السمُورية، ومن أمامهم هجَّانتهم وقد أمسكوا فى أيديهم بمقود الهُجُن، ومن أمامهم أغواتهم حَمَلة طبولهم، وهم يعزفون عليها .

ويتبع هؤلاء موكب الچراكسة ، يمرون هم أيضًا وفى أيديهم بيارقهم، وأعلامهم الحمراء التى تجسد أعلام الجيش ، وفى أعقابهم يسير هجَّانتهم وهم يعزفون على طبولهم الفخمة، ويسير خلف هؤلاء نحو أربعين أو خمسين من قواد وأمراء المماليك (= الچراكسة)، وكأنهم يمثلون أمراء مصر وقاداتها، ويمرون وهم فى كامل أُبهتهم وحشمتهم المعهودة ، وليس لهؤلاء هجَّانة .

يأتى بعد هؤلاء موكب العزبان، وهم نحو خمسة آلاف من جنود البيادة (= المشاة)، وهم بكامل زيِّهم خلال احتفال الفيضان هذا[٩٦] ، فقد كان به عشرة آلاف بيادة فى أيديهم سيوفهم المقوَّسة، يسيرون وهم يلوِّحون بها، ويحمل بعضهم بنادق ويسيرون على هيئة ثنائية ، أى أن كل بطلين يسيران وهما يلوحان ببندقيتيهما. يعقب هؤلاء موكب الإنكشارية ، وهم نحو ثمانية آلاف إنكشارى ، ولكن فى ذلك اليوم قد مر فى موكب الإنكشارية ما لا يقل عن عشرين ألف إنكشارى وهم مجهزون بالبنادق ذات الدبشك ، وقد ارتَدَوْا جلود الفهود المعهودة . وهناك مائتان من الفرسان الذين يمتطون صهوات جيادهم الكحيلانية يعبرون فى صَفَّيْن متلاصقَين، وبشكل ثنائى، وبعدهم يمر

---

(٩٦) يقصد الرحالة أوليا السنة التى كان فيها فى مصر المحروسة وشاهد الاحتفال بالفيضان، وهى ١٠٨٣هـ = ١٦٧٢م.

موكب رباعى من المتطوعين فى صفوف تبلغ أربعمائة صف وقد ارتدوا جلود النمور، وعلى رءوسهم طواقيهم الشراعية وتيجانهم اللامعة، ويسير من أمامهم بهلواناتهم، وهجَّانتهم يسيرون بشكل ثنائى، وعلى كتفَى كل منهم صقران مختاران .

وفى الصفوف التى تأتى بعدهم موكب الفتية (= الدليلر) يمرون وفى أيديهم جلود الذئاب، وفى راحاتهم شاراتهم، وعلى رءوسهم تيجان سمُّورية مزدانة بريش البجع والعقبان والشاهين، وعلى رءوس خيولهم كوكبات، والحنَّاء الحُسَيْنية والحَسَنِية، والخيول المطهَّمة والمدرَّعة، والمزدانة رءوسها بشتى أنواع الزينة ، كما كانت فى مقدمتهم مفرزة من الخيَّالة والهجانة .

يأتى بعد هؤلاء موكب المهترانة (= الفرقة الموسيقية) وفى أيديهم مزارقهم وآلاتهم ، ويمرون بين الجموع الحاشدة . ومن بعده يأتى موكب الچشنگيران (= الذواقة) ويمرون هم أيضًا بخيولهم الكُحيلانية وفى أيديهم شاراتهم وأعلامهم.

ثم يأتى موكب الكيلارجيان (= ملتزمى المؤن) الذين أتوا من الضواحى، يمرون هم أيضًا وفى أيديهم أعلامهم المميزة لهم، ومن بعدهم يأتى موكب السراجين الخواص، ويمرون هم أيضًا وهم مدججون بالسلاح وفى أيديهم أعلامهم الخاصة بهم ، ثم يعقبهم موكب " المتفرقة كان " وفى أيديهم أعلامهم، وهم على صهوة جيادهم المطهَّمة ، ويمرون ، ولا يكون فى موكب پاشا مصر أعلام السكبان الصاريجية ، بل جميعهم ينضوون تحت أعلام المتفرقة والچاشنة گير والكيلارجية، ثم يعقب هؤلاء موكب أغوات واجب الرعايا ، ويمرون وهم فى غاية الاحتشام والبهرجة، وهم على صهوة جيادهم ، ومن خلفهم خمسة أو عشرة من الهجَّانة المدجَّجين، ثم يأتى من بعدهم موكب القاپوجيباشى (= رئيس الحرس)، وهم جميعًا مدجَّجون بالسلاح وغارقون فى معاطفهم الفرائية، خيولهم مطهمة، وتعلو رءوسها أعراف البجع والعقبان والنسور ومختلف الزينات ، وأمام كل منهم فارس كُحَيْلانِى، وخلفهم طوابير من خمسة عشر

من الـ "إيچ أوغـلانلر"[٩٧] (= غلمـان الداخل) أو عشـرين أو ثلاثين المدجـجين بـالسـلاح، وفي مقدمتهم سانسهم في ذروة زينته .

احتفال موكب أمـراء مصـر

هـم ستـة وعشرون أميراً وكلـهم في أزياء مطرزة، ومتدثرون في العبـاءات المزدانة بالقشيب والقصب، ويتخطرون وهم على صـهوة جيادهم العربية الأصيلة ، وأمـام كل منهم أربعة من الشطار المُلَبَّسين بالملابس المزدانة، وفي أيديهم بُلَطُهم المسلمـية، ومن خلفهم سبـعون أو ثمانون من الإيچ أوغلانلر (= خدم القصـور) وركاب كل اثنين منهما متجاوران .

ثم يأتي من بعدهم :

(٩٧) إيچ أو غلانلر Ig Agalari : مصطلح يُطلق على الذين يعملون في خدمة السلاطين العثمانيين داخل قصورهم وسراياتهم ، وهم أنفسهم من يُطلق عليهم (أغوات الأندرون) أي أغوات الداخل .

وهم أربعة أنواع : رئيس الأغوات ، وكان بمثابة رئيس الحرس المكلف بحراسة بوابات السراي، وهو أعلى رتبة بين ضباط السراي ، كان يُختار في بادئ الأمر من الطواشية البيض ، ويوجد تحت إمـرته ما بين ٣٠ و ٤٠ غلامًا من الذين يُطلق عليهم " غلمان الباب " . وهم يتلقون الأوامر من رئيس أغوات الأبواب الأربعة . وكان يُطلق عليهم أيضًا أغوات المفتاح . ثم أغا البشكير ، وأغا الشربات ، وأغا الإبريق .

وهؤلاء أعلى الرتب داخل السراي ، وأغا الباب يكون في رفقة السلطان دائمًا، ولا يتخلف عن مرافقة السلطان إلا إذا توجه إلى الصيد ، أو في النزهات البحرية ، فيظل هو في السراي للحراسة .

ثم يتلوه في المرتبة رئيس خزينة السلطان، وهو المكلف بوضوء السلطان ، وبَسْط سجادة الصلاة ونظافة المكان وأمنه قبل بسط السجادة ، والهدف من ذلك هو توقي وضع السم للسلطان . وفي نفس الوقت هو رئيس خدم الخزينة السلطانية .

أما ثالث أغوات السراي فهو الكيلار باشي، أي رئيس طباخي السراي . وهو المكلف بوضع الأطباق وأدوات المائدة للسلطان ويشرف على المجموعة التي تعمل على خدمة السلطان عند تناول الطعام .

موكب مصاحبى السلطان من الأغوات الطواشية

هؤلاء من العبيد عتقاء السلطان ، وهم موجودون فى مصر فى مقابل علوفة تبلغ ما بين أربعمائة وخمسمائة آقچة لكل منهم، بعضهم من عتقاء أغوية باب السعادة، وبعضهم من عتقاء رئاسة الخزينة دار ، وبعضهم من مشيخة الحرم، وبعضهم من طلقاء المصاحبزاده، وبعضهم قد وصل إلى كرسى الوزارة . وهم تقريبًا ألف أغا من الأغوات المحترمين، وكل منهم كان مستغرقًا فى خدمة سلطانه، وهم موكب أو هم فى موكبهم ، سواء هنا فى مصر، أو فى إسلامبول، موكب محتشم يتسم بالفخامة والبهرجة ، وليس هناك من يفوقهم فى هذا ، لأن كل واحد منهم قد خدم ما يزيد عن ثلاثين سنة أو أربعين فى عتبة السعادة "قصر السلطان فى إسلامبول" . وقد أُطلقوا، وأُعتقوا، بآلاف آلاف الكيسات والجواهر التى لا تُحصى أو تعد . وهم فى أيام المواكب هذه فى مصر يمرون وهم فى كامل عظمتهم وطنطتهم . ومَنْ يقفون على الطريق للفرجة تتعطر أنوفهم وأدمغتهم من الروائح العنبرية التى تفوح من هؤلاء الأغوات عند عبورهم ومرورهم. ويسير من خلفهم سبعون أو ثمانون من الغلمان الذين يُعد كل واحد منهم وكأنه بدر منير ، يسيرون خلف أغواتهم وهم فى كامل الزينة والديباج . إنه موكب فى غاية العظمة .

ومن بعدهم يأتى :

موكب الپاشا

بعد الأغوات السود يأتى الستة والعشرون أغا من أصحاب الرتب والإقطاعات، وقد ارتدوا قفاطينهم ومن تحتها الملابس المطرزة ومن فوقها العباءات الفخمة، ومن خلفهم أربعون أو خمسون من الغلمان المدججين بالأسلحة اللامعة، ومن بعدهم يأتى

حَمَلة أطواغ (= شارات) الباشا وأعلامه . ثم يحين الدور على الباشا وسيَّاسه التسعة ، وكل منهم في كامل زينته ، وقد أمسك كل منهم بلجام فرس كحيلاني مطهَّم، وكانت الخيول هي الأخرى في كامل أُبهتها، ويعبرون وهم يسيرون الهويني، وعلى جانبَيْ هؤلاء السُّيَّاس يسير الملازمون الإنكشاريون، وهم في كامل أُبهتهم، وأيديهم خالية من البنادق، وفي خصورهم سيوفهم، وعلى الجانبين يسير السُّيَّاس بجوارهم .

يأتي الباشا نفسه، وقد ارتدى المعطف السَّمُّوري الرائع، وهو في كامل الأبهة والعظمة ، وفوق المعطف السموري تتراصُّ الجواهر، ويبدو شلواره القطيفي، وقد وضع على رأسه العمامة السليمية[٩٨]، وقد أبدى عُرفَين من الجواهر ، ويبدو وهو يسير الهويني وينزل من سلالم ديوان قايتباي على مهل، ويمتطي صهوة جواده المطهَّم ذي اللجام المكوَّن من سلسة ذهبية، والمطعَّم بالجواهر . ويسير ثم ينزل في مقام الشاه سليم الموجود في ساحة السراي، ويؤدي ركعتين ، ويؤديها معه كل العلماء والصلحاء والمشايخ والخطباء الذين كانوا موجودين، وأتْبعَوا ذلك بالدعاء والتضرع إلى الله بنَيل الغنائم وأن تعم الرفاهية ، ويكون كتخدا الجاويشية عن يسار الباشا وكتخدا الباشا نفسه عن يمينه، ويمسكان بإبطيه، ووسط الدعاء الخَيِّر من جاويشية الديوان والتصفيق المنطلق من الجميع يُركِبانه على صهوة جواده ، ومن حوله ثمانية من الشطار المدجَّجين بالبلط المسلميَّة ، ويتقدمون مسيرة الباشا بعد أن يستقر فوق صهوة

---

(٩٨) العمامة السليمية (سليمى = Selimi / سليمية = Selimiye) : مصطلح يُطلق على عمامة تُلبس على الرأس وتُنسب إلى السلطان سليم الأول، وهي أطول من " المجاوزة "، طولها نحو ستين سنتيمترًا، أعلاها أوسع من فوهتها، قمتها وذروتها ليست مشقوقة بل مسطحة . يُلف فوقها التُّلُّ أي الشاش الأبيض، كان السلاطين أيضًا يرتدونها حتى إلغاء الإنكشارية .

واشتق عنها الـ " سليمية " وهي مصنوعة من القماش الظريف ، وكانت تُصنع في إسكدار، وهذه تُنسب إلى سليم الثالث . ومنها أنواع مختلفة . (انظر : پافالين ج٣ صـ ١٦١) .

جواده . ويمر الپاشا وسط الجموع المحتشدة، ومن خلف الپاشا يأتى السلحدار والچوخة دار، وعلى رءوسهم الطرابيش الحمراء، وفى خصورهم السيوف القاطعة، وفى يد السلحدار سيف الپاشا نفسه . وفى الصف الخلفى يأتى أغوات الداخل وهم على صهوات جيادهم الكحيلة، وهى فى زينتها المتدلية، وهم متدثرون فى الديباج. وهؤلاء جميعهم من ذوى المرتبة الرابعة والعشرين، وتحت إمرتهم مائتان من الجبجية ومن ذوى الدروع، ومعهم خمسون من المهتران[٩٩] وقد علَّقوا بنادقهم على أكتافهم ، ومن خلفهم يأتى أفندى ديوان الپاشا والأفندى الإمام ورئيس المؤذنين، ثم يأتى من بعدهم حَمَلة الأعلام والرايات ، ويعدهم المهتر التُّسَاعِيَّة تمر وهى تعزف فاصلاً من الموسيقى، ومن بعدهم يأتى غلمان السَّراجين الداخليين، ومَنْ بعدهم السقاءون، ثم يجىء العكَّامة والمشعليَّان وفى أيديهم مشاعلهم، وقد تدثروا هم الآخرون فى زينتهم.

وسط هذا الحشد المعظم والزينات المبهرة يسير الپاشا من باب العزبان حتى يخرج إلى الضواحى، وما إن يخرج حتى تُطلق المدفعية ستين طلقةً، أو سبعين فرحةً وابتهاجًا وتهتز مصر (= القاهرة) كلها من هذه الطلقات. وما إن يحدث هذا الصوت والصدى حتى تنطلق من الإنكشاريين الذين يسيرون فى الأمام صيحة: الله ، الله . وما هى إلا برهة حتى تهتز مصر كلها بالترنيمة المحمدية ، وتتردد هذه النوبات ثلاث مرات وتتكرر صيحات الإنكشارية ، ويسيرون على هذا المنوال، ويكون الجمع الحاشد من البشر على كلا الجانبين فى استقبال وتحية الپاشا الذى يقوم هو بدوره بتحية المحتشدين على الجانبين، فيردون عليه التحية بالتحية . وتستمر هذه المسيرة لمدة ثلاث ساعات حتى يصل إلى مدينة بولاق، وهو فى هذا الموكب المهيب فيدخلها ، وما إن ينزل إلى قصر السبتية، والعظمة لله، حتى تُطلق القطع الألفان من السفن الرابضة

(٩٩) المهتران : الـ مهتر اصطلاح موسيقى، يعنى الموسيقار الذى يقوم بعزف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار، وتُجمع على مهتران .

على سطح مياه النيل دفعة من طلقات البنادق ودفعة من طلقات المدافع ، ومن صدى البنادق والمدافع ونيرانها يصير النيل وكأنه وسط نيران النمرود. وبعدها يتناول الپاشا طعامه من ضيافة ووليمة الأمير المقامة على أبواب قصر السبتية، وبعده يقبل هدايا الأمير التي كانت عبارة عن خمس كيسات وخمسة طواشية وخمسة جياد كحيلانية .

مديح سفينة وزير مصر

عقب الپاشا يكون الإمام والمؤذن والأفندى قاضى العسكر وبعض من العلماء الظرفاء، يدخلون جميعًا إلى عتبة الپاشا، وعلى الفور يقوم الريَّان والملاَّحون بفتح أشرعة العقبة، وتنطلق طلقة مدفع، وما إن تعوم، والعظمة لله، حتى تنطلق آلاف الطلقات من قطع السفن الألف أو الألفين الرابضة على سطح النيل، وتدوى طلقات البنادق والمدافع ، ويرتفع الدخان والبارود إلى وجه السماء ويُغطى على نور الشمس .

إن أشرعة عقبة الپاشا من الحرير المشغول بخيوط الذهب والفضة، وعلى مقدمتها وعقبها مئات من البنادق والأعلام المشغولة والمقصَّبة بالذهب والفضة، والمزيَّنة من جميع النواحى، وحبال جميع آلاتها منقوشة ومزخرفة بنمارق مختلفة.

أما المكان الذى يجلس فيه الپاشا، فهو فى مؤخرة السفينة، والمكان عبارة عن قاعة فسيحة مبطنة ومكسوة بالحرير الأخضر ، وجوانبها الأربعة مفروشة بالمخدات طبقة فوق طبقة، ومزدانة بالمراتب، وعلى جوانب الپاشا الأربعة مائتان من الغلمان الخاصة، وجملة الملاَّحين أيضًا مائتان من الملاَّحين ذوى الملابس البيضاء الناصعة، وعلى عمود الشراع قد شُدَّ علمان مذهَّبان من شغل الجزائر، طول كل منهما مائة

ذراع، بحيث يلمس أحد طرفيهما سطح النيل، وعلى قمة أعمدة الصوارى ترفرف الأعلام، وبجانبها البيارق المختلفة الألوان.

وعلى هذا المنوال يسير الموكب فوق سطح النيل، وجميع أعيان مصر وأشرافها مكتظون فوق عقباتهم المزدانة يضربون الدفوف، ويسعدون بفاصل من الغناء والطرب على الأنغام المنبعثة ، ويضحكون ويمرحون ويسعدون . وعدا الفرقة الموسيقية الخاصة بالپاشا، والمكونة من تسعة أطقم، فإن هناك فى خمسة وأربعين مكانًا " طبل آل عثمانيان"، وفى ألف مكان زخرف المعازف الخاقانية .

ذلك اليوم وكأنه يوم إحياء الموتى، فالعالم كله نشوان، وتكون هناك طنطنات مصر، ودبدباتها وولولات مصر وضحكاتها. وسط هذه المراسم الفخمة يسير الپاشا لمدة ثلاث ساعات ، وتكون جنبات النيل على الناحيتين مكتظة بالخيام وخلق الله الذين انحشروا لكى يلوِّحوا للپاشا بالسلام ، وما يكون من الپاشا بدوره إلاَّ أن يحيىٍّ المكتظين على الجانبين .

ويكون صبيته الـ٦١٧٦ مكتبيا من مكاتب الصبيان قد اصطفُّوا، وهم يهتفون ويرددون دعاء " الله ينصر السلطان ". وعلى هذا الترتيب والمنوال وفى الساعة الثالثة تكون عقبة (= سفينة) الپاشا قد وصلت إلى فم الخليج الذى سيكون منه فيضان النيل المذكور، وتُلقى المراسى وترسو على حافته .

فى وصف قطع سبيل النيل الأحمر

قد تجمَّع آلاف العلماء والصلحاء والمشايخ والسادات وأرباب الحاجات، فى هذا المكان، وقد فتحوا جميعًا أياديهم مهللين بالدعاء، والثناء على نعم الله، ويمسحون بأيديهم على وجوههم ، ففى أوائل توت، فى شهر تموز (= يولية)، يكون مدير البلدية والأمن قد وقف بقاربه فوق التراب الذى أقيم به السد فى فم الخليج، وعلى الفور ينطلق

آلاف العربان العرايا من بنى البشر، وما إن ينحروا السد الترابى المقام، والعظمة لله وحده، حتى يفتح النيل الذى هدر كالبحر الهائج لنفسه طريقًا، وعلى الفور يدور الرعد من داخل الخليج، فجميع المشايخ يتصايحون طالبين: الفاتحة، الفاتحة. وعقب ذلك تنطلق طلقات البنادق والمدافع من جميع السفن والمراكب والمواخر، وكأن ساعة القيامة قد أزفت ، وكان قطع النيل وكأنه السهم قد انطلق من قوسه داخل مصر، وعلى الفور يقوم المحتسب بذبح الأضاحى والقرابين التى أعدًّها على شاطئ النيل، والتى بلغت مائتين من الغنم وخمسة من الجمال. ويقوم الأعراب بنهبها وأخذها وهم يتصايحون، كما يكون المحتسب ووكيل خرج الپاشا، كما ذكر سابقًا، قد قاما بإعداد ألفين من أقماع السُكَّر، وألفى قنطار نباتى حموى وآلاف الأرطال وحمولة ثمانية أحمال من الخبز الأبيض، وخمسين قنطارًا من البقسماط، وتُلقى كل هذه الكميات فى النيل، والعظمة لله وحده، فهذه أيضًا تكون علامة من علامات يوم المحشر، فآلاف العربان العرايا يلقون بأنفسهم فى النيل خلف هذه المأكولات. وما يحدث هو أن مياه النيل الهادرة تخلط كل هذا، وتُدَحْرِج الجميع، ولكن ما هى إلا فترات وجيزة حتى لا يبقى شىء من هذه المأكولات الملقاة فى النيل ولا يضيع منها شىء ، فقد أخرجها العربان جميعها من النيل، والحمد لله، فلم يحدث أى ضرر لأى واحد من بنى الإنسان، وقد شاهدت أنا الفقير بنفسى ما حدث فى ذلك اليوم، وكان العربان العرايا وكأنهم قد بُعث بهم من جديد فى يوم المحشر، وكأنه قد نُفِخ فى صور إسرافيل وهبُّوا من قبورهم.

ويوم فيضان النيل هذا، يا له من يوم عظيم! وبهذا الذى يحدث كأنهم يجسِّدون ذلك الذى كان يحدث فى الجاهلية ، ولكنهم لم يسمحوا بكل هذه النعم أن تُهدر، فإن كانوا فى زمن الجاهلية يلقون بفتاة جميلة، فها هم الآن يجسدون هذا بشىء من النعم .

وما إن يُقطع النيل من فم الخليج هذا، وتندفع المياه إلى داخل مصر جارية حتى منتصفها ، حتى تتجه نحو قليوب والمنصورة والشرقية، وتروى أراضى هذه المحافظات، فيزرع الأهالى الأراضى والبرارى، ويعم الخير، والنعم . والسلام .

هذا هو قَطْــع النيل، وفـيضـانه، ومـواكبـه التى تحـدث، حسب الترتيب الذى أوضـحناه ، وهذا غير مـخصـوص أو موجود بأرض أخـرى على وجـه الأرض، ويستـحق بحق الرؤية والتفرج والمشاهدة.

وكمـا هو مسطَّر فى جـميع التـواريخ فإن البـاشـا يتفـرج على كل هذه العـجائب والغـرائب، ومـا يكون منه إلاَّ أن يَخْلَـعَ الخلَـعَ الفـاخـرة على الأغـا الذى طَهَّـر الخليج، وأمين السـاقيـة ومدير الأمن والبلدية (= الصـوباشى)، والأغا المحـتسب ووكيـل خرج الپاشا، وما إن يلبس هؤلاء الشخصيات الست الخلع الفاخرة حتى يُرفع الهلْب ، وتبدأ رحلة العودة، وسط مظاهر الفرح والبهجة، ويسير وهو يحيِّى ويسلم على الواقـفين على الجانبين ، ثم يُلقى بمراسيه فى قصر أم القياس، ثم يخرج إلى البر مـع كل عسـاكره، وأعيان مصر، وأمير أمرائها، ويؤدون جميعًا صلاة الظهر ويسجدون سجدة شكر على فيضـان النيل . ويثنون ويحمدون الله حمداً كثيراً، وبعد ذلك يتناول الجميع من أعيـان مصر وأمرائها الطعام بدعوة من پاشا مصر، ويمتد السـماط المحمدى ، بحيث يعجز اللسـان عن وصفـه . وعلى الصبـاح يدعو أغا الإنكشارية البـاشا على وليمـة فى أثر النبى، ويقبل البـاشـا الدعـوة ، ويذهب هو وجـملة أعضـاء الديوان والعلمـاء والشرفـاء والأعيان . وبعد الطعام يستأذنون من الپاشـا، ويتجه كل منهم إلى مقر إقامته ودائرته، ويتم الذوق والصفـاء على أنغام عـالم الموسـيقى فى الدائرة . ولكنهم لا يخـرجـون عن الأصول ، ففى تلك الليلة التى يقضيها الپاشا فى قصر أم القياس يقضيها فى المرح والسرور والذوق والصفاء ، ففى مصر العتيقة، وعلى سطح النيل، الله وحده هو الذى يعلم عـدد السـفن والبـواخـر والمراكــب والفـلوكـات، وكل المواخــر الموجـودة تزدان بالفوانيس والقناديل والمشاعل ، فتحـول ظلمة الليل إلى ضوء النهـار، ويقوم وكيـل خرج

الباشا بتزيين قصر أم القياس بالقناديل ، ومَنْ يره يظنه قد تحول فانوس باغ الجنان، ومن كل ناحية تصدح الطبول، وتعزف المعازف والدفوف، ويظل الأمر على هذا المنوال حتى وقت الصباح ، وفى كل ساعة تنطلق آلاف من طلقات البنادق والمدافع برا وبحراً، ويهتز وجه الأرض والسماء من رعد الطلقات . ومن كل مصر القديمة ومصر الجديدة، تنطلق من كل بيوتات مصر، وفى جميع السفن، والمراكب والمواخر، ومن الأوطاقات (= السرادقات)، والخيام أصوات المطربين، وغناء المغنين، وتتداخل أصوات الرباب مع تغاريد المطربين، وكل هذه تذكِّر بمجالس حسين بايقرا، بحيث إذا ما نظرت فى أى اتجاه فلا ترى إلا ما يسرُّ العين ويسعد الروح، ولا تجد العيش والعشيرة إلاَّ الجميع سعداء والكل نشوان، وفى كل المراكب ترى العشاق وقد وصل كل خليل إلى خليله .

فى وصف ضاربى الفشنك ولاعبى النار المهرة

يأتى كل أصناف لاعبى النيران المهرة، يعنى فريق أبى على بن سينا، بالقوارب أمام قصر أم القياس، ويَمْثلون بين يدى الباشا، ويطلقون فاصلاً من طلقات الفشنك إلى الهواء ، بحيث تصل كل منها إلى أوج السماء . وبينما تنزل فشنكات من السماء ينطلق منها ومن كل واحد مئات الآلاف من القناديل والفوانيس النُّجْمِيَّة التى تضىء الأرض، ثم تكون دانة تنطلق على ثلاث مراحل إلى السماء فتخرج منها أولاً فشنكة، واثنان من البارود . وكلها تصعد نحو السماء، تظهر كأنها نجم صغير . ويكونون معًا على خط متصل مع الفشنك الأصلى ، فيتحول هذا إلى نيران، وينزل إلى المرحلة الأولى للانطلاق ، وترتدُّ جميعًا نحو السماء ، وبينما هذه المجموعة على وشك الأفول فالفشنكة الثالثة المتصلة بها تشتعل وتسقط هى الأخرى على الأرض بينما البقية تكون قد اختفت خلف السحاب .

وغير ذلك الكثير من الألعاب النارية، والتى لا يملك من يشاهدها نفسه عن ترديد: "اللهم احفظنا من آفات الإنس" .

وتتوالى الفشنكات، ويتصاعد بعضها خلف بعض بشكل ثلاثى، وتصل إلى أوج السماء . ويا لها من ألعاب عجيبة وفنون غريبة!

ونوع آخر من الفشنك الهوائى، فهو يصعد إلى أوج السماء، وما إن يتم هذا حتى تنطلق منه أربعون أو خمسون دانة وتنتشر فى الجهات الأربع فى اتجاه السماء، وكأنها يطارد بعضها بعضًا ، ثم تتلاشى رويدًا رويدًا. وهذا أيضًا مشهد غريب، جلّة أخرى تنطلق وتعلو ، ثم يخرج منها أربعون أو خمسون فشنكة ... وتنطلق عائدة نحو الأرض فى حدّة ، وما إن تلامس الأرض وهى ترتطم بها حتى تشتعل وسط الخلق ، فينتابهم الفزع ويتشتتون، وما هى إلا برهة حتى يهدأ كل شىء . وفى هذه الليلة يظل الأهالى فى حضور الباشا يلهون ويلعبون حتى الصباح، ويُطلق أمامهم مئات الآلاف من ألوان الفشنك وأنواعه التالية :

١ – الـ"طرقى" = Tarki (= الطارق) .

٢ – والـ خابوچقة = Habuçka .

٣ – والـ "أسومانى" = Asümani (= السمائى) .

٤ – والـ "الهوايى" = Havayi (= الهوائى).

٥ – والـ "سمايى" = Semayi (= السجالى).

٦ – والـ "أوجى" = Avci (= الصيّاد).

٧ – والـ "پريشانى" = Perisani (= المتفرق).

٨ – والـ "بحرى" = Bahri (= البحرى).

٩ – والـ "طاوسى" = Tavusi (= الطاوس).

١٠ – والـ "هوروسى" = Horosi (= الدِّيكى).

١١ – والـ "سورخابى" = Sürhabi .

١٢ – والـ " كستانه " = Kestan (= الكستانى).

١٣ – الـ "شازروانى" = Sazirvani (= الشادروانى).

١٤ – والـ "رَدِى " = Radi (= الرُّعْدى) .

١٥ – والـ "كَلَبَكْ" = Kelebek (= الفراشة) .

١٦ – والـ "سمكى" = Semeki (= السَّمَكى).

وهذا النوع الأخير من الفشنك، والذى يُسمى السمكى، ينزل إلى المياه سبع مرات أو ثمانٍ، ويخرج من مكان آخر ، أى أنه ينزل إلى مكان ويخرج من مكان آخر .

كما يوجد فى النيل غوَّاصون، يغوصون إلى أعماق النيل ، وواضح من طريقة غوصهم أنهم يعرفون أعماق النيل جيداً ، وعارفون به يغوصون، ويصعدون، والجميع يشاهدون ألعابهم البهلوانية هذه .

كما يصنعون قلاعًا من الورق ، تُطلق النيران الفشنكية بعضها على بعض لمدة ساعة كاملة، وهم يحارب بعضهم بعضًا ، ويصنعون من الفشنك أشكالاً، فما هى إلا أشكال القساوسة والفرنجة واليهود ، والشيعة القيزيلباش[١٠٠] ، وهؤلاء بدورهم يحارب بعضهم بعضًا حربًا ضروسًا .

(١٠٠) القيزيلباش : أحد المراكز المهمة فى داخل القصر السلطانى ، وقد ورثه العثمانيون عن العباسيين والمماليك، وكانت مهمته الإشراف على الحرم السلطانى ، وفى العادة كان من المستخدمين السود . وكان مكانه فى التشريفات بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام مباشرة . وفى عهد السلطان عبد الحميد تولى الإشراف على المخابرات والتحكم فيمن يدخل قصر بلديز سراى حيث يقيم السلطان . (انظر: پاقالين).

ويصنعون كذلك أشكالاً حيوانية وغيرها، وها هو الجواد والحمار والخنزير والحورية والعمالقة . ويتزين أصحاب الحمير والكلاب بألوان مختلفة من الفشنك، ويطلقون النار بعضهم على بعض . ومن الطريف أن هذه الحيوانات تدخل بين الناس الذين أتوا للفرجة، وتجرى بينهم، فيختلط الناس بعضهم ببعض، وينغمسون فى الضحك . إنها فرجة لطيفة !

وخلاصة الكلام أنه بينما كانت الألعاب النارية هذه وفنونها وقفًا على الفرنجة، فإن هؤلاء الأساتذة المصريين المهرة قد أقاموا وقدّموا فى مهرجان فيضان النيل هذا فنونًا من الألعاب النارية، وكأنها نوع من السحر، وعرضوا مهاراتهم بشكل مبهر، وحوّلوا بالفشنك ظلمة الليل البهيم إلى نور النهار الوضّاح ، وجعلوا الأيام والليالى وكأنها عيد .

وتستمر أيام العيد هذه سبعة أيام وسبع ليالٍ فى مصر العتيقة هذه، وجميع المصريين فى ذوق وصفاء ومرح وهناء ، وبعضهم يستأجر القصور على الشاطئ والسرايات بمائة قرش فى اليوم ، وأحيانًا يطلقون نيران الفشنك قصداً على بعض المنازل لتخويف الأهالى، ويتفرجون عليهم وهم فى حالاتهم تلك .

وخلاصة الكلام أنه بينما كان علم صناعة الألعاب النارية ولعبها علمًا وفنًّا إفرنجيًّا، فإن هؤلاء المصريين قد فاقوهم وبزُّوهم، وجعلوا من أساتذة الفرنجة أُلعوبة فى هذا الصدد ، ولم يعد هناك على أديم الأرض من يجاريهم فى هذا المضمار .

إن هذا الفن الذى رأيته فى مصر هذه (= القاهرة) لم أره فى أى بقعة أُخرى من بقاع الأرض التى زرتها، لأنهم قد أبدوا وأظهروا ليلاً ونهاراً مئات الآلاف من الرخّات النيرانية المتعددة والمختلفة ، وأظهروا مئات الفنون والمهارات فى هذه اللعبة، وجعلوا سطح النيل وكأنه طائر السمندر الذى يبخ النيران، ويجعل مصر وكأنها وسط نيران النمرود، ويقال إنهم يطلقون ما قيمته مائة ألف قرش من الفشنك.

وحقيقة الحال أننا لو افترضنا أن كم مائة عقبة، والجاريات المائتين وغيرها من السفن والقلاع أطلقت كل منها ألفين أو ثلاثة آلاف فشنكٍ، فهـذا يكلف مبالغ طائلة من القروش، ولو تم حساب هذا على أنه يكلف خمسمائة قرشٍ أو ستمائة ، فـإن جملة كل هذا من المحقق أنها تتجاوز مائة ألف القرش التى صُرفت على ألعاب نيران الفشنك .

كما أن هذه السفن الكثيرة، وهى تمر أمام الپاشا، تُدير حربًا عظيمة فيما بينها وهى تمر ، كما أن جميع البكوات قد زيَّنوا عقباتهم من جوانبها الأربعة بكل ما هو ذو قيمة من أدوات الزينة والزخارف المطرزة بالذهب والفضة . ويطلقون بنادقهم ومدافعهم وهم يمرون ، ويمرون جميعًا وأطقمهم الموسيقية تعزف مُنْشَداتهم ، وخلال العبور يقدمون السلام والتحية إلى الپاشا .

ويتجهون ناحية الجيزة ، وخلال هذا الموكب الذى يشمل كل أنواع السفن فإن الپاشا أيضًا يقوم بالفرجة والمشاهدة والإمعان حسب الشخص الذى يمر . وكان الجميع قد تفننوا فى زخرفة سفنهم ، وقد تحول بعضها إلى كوكبة من النور بما يُضاء فيها من قناديل ، وحتى الصباح كانت هذه السفن أيضًا قد أطلقت الكثير من المدافع، وما لا يحصى أو يُعد من طلقات البنادق والفشنك، وتحول المكان إلى نار الجحيم. وفى اليوم التالى فى الصباح، يُرسل الپاشا بالدعوات لوليمة إلى ما يقرب من مائتين أو ثلاثمائة من الأغوات ، ومع كل منهم واحد من أمراء (= قواد) مصر، وإلى أغوات البلوكات السبعة ، وكذا إلى جميع رؤساء الحرف والأعمال وأعيان الدولة، كما أن الپاشا يُحسن إلى كل قادم من الأغوات بمائة قرش، وقطعة من الجوخ، وقطعة من القماش . وعندما يصل قاضى العسكر ونقيب الأشراف، والمفتى الشافعى والحنبلى والمالكى ، وكل العلماء والصلحاء والمشايخ والأئمة والخطباء، عندما يتم وصولهم هم وأغوات البلوكات السبعة وأعيانهم، يحضر كذلك كل أرباب الديوان من ذوى الألقاب،

ويكون الجميع قد تجمعوا فى قصر أم القياس، وتُقام الوليمة النفيسة، ويكفى القول إن مائة كيسة تُصرف على أفواه الناس . ويستمر تناول الطعام فى هذه الوليمة ثلاث ساعات كاملة . وبعد الطعام يأتى الشربات المصنوع من ماء الورد، ويُبذل البخور ، ويُحسن على جميع أهل المناصب بسبعين حزامًا وسبعين ثوبًا، وسبعين خلْعَة تحتية . وتُلَبَّس الخلع الفاخرة لكل أهل المراتب، ويُبقون فى مناصبهم، ويتقرر ذلك . وهم بدورهم يُقدِّمون إلى الپاشا كُشوفاتهم، لأن فيضان النيل هو بداية السنة . ويتم الإحسان إلى عساكر البلوكات السبعة التى أُحضرت مع آلاى (= موكب) الپاشا بخمس كيسات مصرية . ويبقى الپاشا أيضًا هذه الليلة فى قصر أم القياس. وبسبب رأس السنة وبدايتها، يتم الإحسان إلى الأغوات بأَغَوِيَّة تدر لكل منهم، ويُخلع عليهم بالخلع الفاخرة، وتكون ضيافة هذا اليوم هى ضيافة كتخدا الپاشا. ويقوم كل أصحاب الجدِك بإقامة الولائم للأغوات ، وبعد الطعام يرتدى كتخدا الپاشا معطفًا من فراء السمور ، ويَحصل الپاشا أموال كشوفيته، وفى هذه الليلة أيضًا تكون القناديل والفوانيس مضاءة فى القياس كالأول، وتُزيِّن مصر العتيقة والمقياس والبواخر، وتهتز الأرض والسماء من دوى المدافع والبنادق التى تُطلق .

وعند الصباح يتم إكرام وإعزاز الدفتردار پاشا أصفى مصر فى حديقة وبستان كنعان بك فى جزيرة الروضة . وتُقام وليمة فخمة ، وبعد الطعام يتم الإنعام على أصحاب المراتب بعشرة كيسات وعشرة طواشية وسفينة مزدانة، وكذلك يُقدَّم لكل منهم فرسٌ كحيلانىٌّ، وتُقدم بعض الهدايا . ويخلع من الپاشا على الدفتردار بمعطف من فراء السمور، وعند الظهر يحين وقت ذهاب الپاشا فيمتطى صهوة جواده، وعند انصرافه يمسك الپاشا أمير الحج بركاب الپاشا . وفى حدائق وبساتين الروضة أيضًا وفى سراى على بك يتم دعوة الپاشا وتُقام وليمة رائعة ويكون فى هذه الليلة طرب، وغناء وهرج ومرح، فيحضر العديد من المطربين والمغنين، والبهلوانات .

وكذلك والحُقّه باز Hokkabaz (= لاعب الحُقّة) ، والصوراحى باز Surahibaz (= لاعب الدّورق) ، والكوزه باز Gözebaz (= لاعب الجمرات) ، والزار باز Zarbaz (= لاعبُ الزّار) ، والآتشباز Atesbaz (= لاعبُ النّار) ، والكاسه باز Kasebas (= لاعب الكّاسات) ، والقوقله باز Kuklabez (= لاعب العرائس) ، والبرانده باز Perende-baz (= لاعبُ الطيور) ، والگورز باز Gürzbaz (= لاعب الجورز) .

والخلاصة أن مائة وسبعين من أصحاب الحرف اللُّعبيَّة، يكونون فى وليمة أمير الحج هذا، ويظهرون مهاراتهم فى شتى أنواع الألعاب ، وكل منهم يكون فخوراً، ومبهوراً بإحسان الوزير ، وبعد ذلك يخلع الپاشا على أمير الحج هذا بخلعة سمُّورية ، ثم يمتطى حصانه . وبينما هو على وشك الانصراف يكون الوقت قد قارب الغروب، فتكون الوليمة آنذاك هى وليمة القائمقام، وهى أيضًا تكون كوليمة أمير الحج، وتقدم هداياه، وهى بدورها كهدايا أمير الحج، خمس كيسات، وجواد مطهم ومزدان بالجواهر وخمس فلوكات، والعديد من التحف والهدايا المتفرقة . ويُهدى جواد إلى كل من أغوات الداخل من أصحاب المراتب الاثنى عشر ، وبعد ذلك يتلقى القائمقام خلعة من فراء السمور من الپاشا .

وبعد الليل يأتى أيضًا إلى قصر أُم القياس ، ويتم أيضًا الاحتفال والمرح هذه الليلة حتى الصباح . وبعد ذلك، وعند الصباح، يقدم أيضًا الأمير الذى هو شاهبندر أمير الكلام وسردار الأمراء الكرام، ويقيم وليمة عظيمة للپاشا أيضًا فى أحد بساتين الروضة ، فتقدم أيضًا الكيسات الخمس، والطواشية الخمسة، والفرس الملجم بسلسلة ذهبية، والمطهَّم ، وغير ذلك من الهدايا ذات القيمة المعقولة، ويتلقى من الپاشا الخلعة الفاخرة ويرتديها، ويشمله السرور.

والحاصل أن الأمراء (= القواد) يظلون فى ولائم لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ويقدمون الهدايا ويتقبلونها، ويُخلع على كل منهم بالخلعة السمُّورية، وبعد ذلك، وأيضًا

فى اليوم نفسه، يقوم أغا الإنكشارية بركوب عقبة الپاشا، وجميع الأمراء والأعيان وأصحاب الألقاب يركبون أيضًا مراكبهم، ويتقدمون الپاشا وهم يطلقون مدافعهم وبنادقهم وهم يمرحون، وجميع فرقهم الموسيقية تعزف المعازف اللطيفة . ويصلون إلى المقياس على هذا المنوال فى مدة ساعتين، ويتناولون الطعام على مائدة أغا الإنكشارية، ويقدم كيسة مصرية، وخمسة طواشية، وبندقية مرصَّعة بالجواهر، وفرسًا مطهمًا كُحَيْلانيًا، فيُلبِسه الپاشا بدوره الخلعة السمُّورية، ويقدم أغا الإنكشارية كذلك إلى كتخدا الپاشا ومِحْوالى المدينة وأفندى الديوان ، وإلى الخزينة دار (= صاحب الخزينة)، والمهردار (= حامل الأختام)، فرسًا مطهَّمًا لكل منهما، وبعد ذلك يركب الپاشوات سفنهم، ويفردون أشرعتهم وهم يطلقون بنادقهم ومدافعهم ، ويتناولون الطعام فى وليمة مِحْوالىٍ المدينة فى المقياس، ويقدم ثلاث كيسات وثلاثة طواشية وثلاثة جياد إلى الباشا، وفرسًا إلى كتخدا الپاشا، ويرتدى خلعة من الپاشا، ويتم تكرار تعيينه فى منصبه.

نتيجة الكلام: فى اليوم السابع يقوم بعض الوزراء، حتى لا يتأخروا عن أداء أمور الشعب، ولا يتأذوا من كثرة المصاريف، يظلون لمدة ثلاثة أيام فى ذوق وصفاء ومرح وبهجة، وفى اليوم الثالث يركبون سفنهم، ويمخرون عباب النيل حتى يصلوا إلى قصر العينى . وفى هذه الأثناء يقوم أغا العزبان وكتخداه بالتوجه بمركب إلى الپاشا، حيث يدعونه إلى الوليمة المقامة فى قصر العينى، وتُقام وليمة فاخرة يقصر اللسان عن وصفها، وبعد الطعام يُقدَّم إلى الپاشا ثلاث كيسات وثلاثة جياد، وجواد إلى الكتخدا، ويرتدى خلعة فاخرة من الپاشا، ويُثبت هو الآخر فى منصبه.

ومرة أخرى يركب الپاشا وسط موكبه العتيق ويسيرون فى مياه النيل وسط السعادة الغامرة، حيث تكون الوليمة العظيمة التى أقامها الجاويشية فى حديقة رمضان بك، ويُقدم إلى الپاشا ثلاث كيسات وثلاثة جياد وثلاثة طواشية، ويقوم الپاشا

بإلباسه الخلعة الفاخرة، ويُبقيه فى منصبه، وبعد ذلك يكون رئيس المتفرقة (= متفرقة باشى) قد أقام مئات الخيام والسرادقات فى جزيرة الروضة، ويكون قد فرد سماطه فى الخيمة المزدانة بكل أنواع الزخارف والزينات . وبعد الطعام، يُقدم ثلاث كيسات، وثلاثة طواشية، وثلاثة جياد ، ويُحْسَن إليه بخلعة فاخرة من الپاشا، ويُبقَى فى منصبه .

وبعد ذلك يركب الپاشا زورقًا، وكما هو الحال تُدق الطبول وتعزف المزامير وتُطلق المدافع والبنادق طلقاتها حتى يصل إلى قصر السبتية، وبعد ذلك تقوم آلاف السفن الكائنة على سطح النيل، وجنود الإسلام المقيمون فى الخيام، والسرادقات المقامة على ضفتى النيل، بإطلاق وابل من الطلقات، ويعزفون ويرتلون الدعاء المعتاد ثلاث مرات . ولإتمام الفرحة يُقام عرض لخيال الظل(١٠١) يُسمى "تفرق السعداء"، وبعده يتفرق الخلق، ويبدأ موكب عودة الپاشا إلى السراى.

---

(١٠١) **خيال الظل** (خيال باز = Hayalbaz / خيالجى = Hayakci / خيالى = Hayalî): مصطلح فنى يُطلق بصفة عامة على لاعبى خيال الظل، أى القره كوز . كما يُطلق عليه أيضًا مصطلح خيَّالى .

تختلف الآراء حول بداية ظهور هذا الفن ؛ البعض يرجعه إلى الصين والبعض إلى العجم والبعض إلى العرب . المهم هنا أنه انتقل من المصريين إلى الأتراك العثمانيين ، فقد شاهد السلطان سليم الأول عقب دخوله القاهرة تمثيلية خيالية تجسد عملية شنق طومانباى على باب زويلة عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م . وعند عودته إلى إستانبول اصطحب معه فريقًا من الخيَّالة لكى يقدموا هذا الفن فى العاصمة وأمام ولى عهده سليمان . ومن هنا اشتهر هذا الفن الشعبى بين الأتراك العثمانيين أيضًا، وعنهم انتقل إلى شبه جزيرة البلقان ورآه رحَّالة أوروبيون فى إستانبول .

يعتمد هذا الفن على تحريك الشخوص المصنوعة من جلود الحيوانات أو الورق المقوَّى أمام مصدر ضوء فتنعكس الشخوص على ستارة بيضاء فتظهر خيالاتها وهى تتحرك على الستارة . تناول بها الفنان التركى أنماطًا مختلفة من الشخصيات والحكايات، وما زالت تمثيليات وعروض القره كوز قائمة ومشتهرة بين الأتراك المعاصرين . وهناك مقطوعة شعرية تجسد هذا الفن :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن هو فى علم الحقيقة راقِ

شخوص وأشباح تمر وتنقضى ... سريعًا وأشكالاً بغير وفاقِ=

وهناك وفى قصر السبتية يتناول الطعام على ضيافة الروزنامجى[١٠٢] أفندى . ويُقدم إلى الپاشا ثلاث كيسات، وثلاثة جياد، ودواة فضية، وعشرة من الكتب النفيسة ... ويقوم الپاشا بإلباسه فراء القاقوم ، ويُثبته فى منصبه ، وبعد الطعام، وحسب القاعدة القديمة ، يركب هو وكل الفرسان المصريون الذين فى معيته الخيول للانصراف، ويكون ذلك هو الموكب الثالث، فينصرف العساكر الإسلامية فوجًا فوجًا، وموجة بعد موجة، وبلوكًا فى إثر بلوك . ويسيرون حسب الترتيب المعهود زوجين زوجين مع رئيس السُّيَّاس ، ويعبرون بكامل الحشمة والوقار بين الصفوف المتراصَّة من الجموع الحاشدة من الرجال والنساء والشباب والكبار والصبية الذين اصطفوا لاستقبالهم .

ويكون الپاشا هو الآخر بكامل زينته وعمامته السليمية يمر وسط كوكبته بين الجموع، وهو يحيِّى ذات اليمين وذات الشمال، وتقوم النسوة بالزغردة وإطلاق الزغاريد المُوَلْوِلة، ويردد الشيوخ والشباب: "حفظك الله، سلمك الله، يا عزيز مصر، ويا متولى مصر، يا وكيل سلطان مصر" . ويرفعون أيديهم بالدعاء على هذا المنوال، وبينما الپاشا يدخل من باب العزب، يقوم بالإحسان أيضًا إلى البوابين ، والثناء بالألقاب والدعوات الخيِّرة . ويسير على جانبى الپاشا المطارجى باشى (= رئيس السقائين)، وعلى الجانب الآخر رئيس الشطار (= الشطارجى باشى) وخدمه الخواص وفى يد كل

= شخوص وأشباح تمر وتنقضى وتفنى جميعًا والمحرك باقِ

وكانت حفلات الخيالة (= القرة كوز) تقدم فى حفلات ختان الأمراء ومعهم العديدمن أبناء الشعب الفقراء . وتحدث عن هذا الفن العديد من المصادر والمراجع العثمانية والتركية . (انظر للمترجم: خيال الظل وأثره فى القره كوز التركى ، القرة كوز تراث إسلامى مشترك. محمد ذكى پاقالين ، عثمانلى ديملرى وتريملرى جـ١ . صـ٧٧٣-٧٧٩).

(١٠٢) الروزنامجى : هو التعبير الخاص بالموظفين الذين كانوا يمسكون الدفاتر الخاصة بقيد الواردات اليومية والمصروفات، وقد حمل هذا الموظف ذلك الاسم نسبة إلى دفتر الروزنامة الخاص بقيد تلك الأمور، وبعد التنظيمات تحول الاسم إلى كاتب اليومية أو كاتب الوقوعات . (پاقالين جـ٣ صـ ٦٠) .

منهم كيسة مصرية، ويقومون ببذل ونثر ما تيسر منها على الفقراء الذين قد اصطفوا للدعاء للباشا وسط هذا الدعاء والبهجة الغامرة، ويكون صبية المدارس والكتاتيب قد اصطفُّوا على جانبي الطريق العامِّ، وهم يرددون: "الله ينصر السلطان ..."، فيتم الإحسان إليهم هم أيضًا . وإلى أن يصل إلى السراى الذى فى القلعة، تقوم المدافع الموجودة داخل القلعة، والتى تبلغ سبعين أو ثمانين مدفعًا، بإطلاق طلقاتها المدوِّية ، ويقوم جميع الجنود والعساكر، والذين يتجاوزون أربعة الآلاف بتناول الطعام على السماط المحمدى المبسوط فى ديوان الغورى . وبهذه الوليمة يكون مجموع الولائم التى أُقيمت خلال الأيام السبعة، والليالى السبع مدة فيضان النيل سبعين وليمة بالتمام والكمال ، وبهذه الوليمة الأخيرة يكون الاحتفال قد وصل إلى ختامه ونهايته .

وهكذا كان الفيضان وكانت المواكب، وكانت الاحتفالات والابتهاجات التى شاهدها العبد الفقير، ووقف على أسرارها وحررها على هذا النمط المسرود. ولكن فيضان النيل يأتى أيضًا للباشا بالحاليات الحسناوات والخير العميم ، ولسوف يتم تحرير ذلك إن شاء الله فى القسم المتعلق بقوانين تشريفات مصر .

ولكن فى عصر جانبولاط زاده حسين باشا كانت أحوال مصر فى غاية التدهور، فلم يحدث فيضان النيل، إلاَّ أنهم على الرغم من ذلك قدَّموا الهدايا التى يسمونها "حالية الحلايا" ولكنها كانت بالشىء القليل، وقدَّموا كذلك إلى الكتخدا والأغوات هدايا قليلة ، أو لنقُلْ النزر القليل من النعم ، وذلك لأن الشعب المصرى فى عصر الكتخدا إبراهيم باشا كان قد أفلس، ولم يكن النيل قد فاض .

ولكن القوانين المصرية، منذ عصر ملوك السلف، وهى تجعل " فيضان النيل " عيدًا ضمن أعيادهم الاثنَىْ عشر، ذلك هو عيد فيضان النيل، أو عيد وفاء النيل . وفاقت شهرته فى كل الآثار العربية والفارسية والرومية (= التركية)، كل الأعياد، وتخطَّت كل الآفاق ، وتحدَّث عنه وقرض فيه الشعر آلاف الشعراء والفصحاء والبلغاء ، ووصفوه وصفًا ضافيًا .

وخلاصة الكلام: " ليس من سمع كمن رأى".

الفصل السادس والأربعون

أوصاف نهر النيل المبارك ماء الرحمة ونهيراته العظيمة وجنة مائه الزلال

ليكن معلومًا للإخوان ذوى العقل الرصين والرحَّالة ذوى الاقتدار، أن هناك اختلافات كثيرة بصدد الأنهار التى تجرى على سطح الأرض، ولكن يُرْوَى عن ابن عباس رضى الله عنه، أنه بقدر ما فى جسم الإنسان من عروق، فإنه على وجه الأرض عيون كبيرة وصغيرة بنفس القدر، وأن المياه التى تجرى على سطح الأرض هكذا . وحسب قول الحكيم بطلميوس يوجد على سطح الأرض مائتا نهر عظيم، وأربعة وأربعون ألف عين جارية صغيرة، وتتفاوت أطوال الأنهار المائتين بين خمسين وألف فرسخ، ولا يزيد عن ألف فرسخ، ولا يقل عن خمسين فرسخًا . ومن جملة الأنهار المائتين العظيمة يوجد أربعة أنهار كبيرة ، وهذه الأنهار ممدوحة من قِبَل الحق، ومعتبرة عند الخلق ... وأعظمها جميعًا هو النيل المبارك .

وقد ذكره المولى عز وجل فى قرآنه المعظم، وفرقانه المجيد تلميحًا وتصريحًا ست عشرة مرة، منها: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الدخان ٤٤/ ٢٥ - ٢٦). وقد فسرها المفسرون على أن المقصود هو نهر النيل وأرض مصر.

وفى آية شريفة أخرى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ ﴾ (المؤمنون ٢٣/ ١٨).

فالمراد هنا هو أرض مصر، والماء ماء النيل . وهناك أيات عديدة بهذا الصدد، كما أن هناك أحاديث عديدة عن أنهار [منها] النيل ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيْحون وجَيْحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجنة". وقد أخرجه مسلم متفردًا، وهناك أحاديث كثيرة ولكن اكتفينا بهذا .

ولكن نهر النيل المبارك بتقدير الحق جلَّ وعلا وتبارك فى ملكوته، وعلى القول الأرجح للفيلسوف بطلميوس فى تحريراته، يخرج من جبل القمر على مسيرة سبعة أشهر من بداية النيل فى مصر جنوبًا، ومنابعه اثنتا عشرة عينًا عظيمة . ومن خط الاستواء إلى الجنوب تصب هذه العيون العظيمة فى البحيرة الكبرى ، وبهم تتحول هذه البحيرة العظمى إلى بحر متلاطم . ويخرج فرع للنيل من هذه البحيرة ، فى الشمال، عند الإقليم الأول، وفى الإقليم الثالث عند ولاية قِرْمَانَقَة، وولاية قغَّان، وولاية بلاد الفونج وولاية بلاد البربر وولاية النوبة وولاية صاى، وحيث توجد فى نهاية حدود مصر قلعة عظيمة، يوجد فيها محافظون من قوات البلوكات السبعة المصرية . وهى على مسافة مسيرة شهرين من مدينة مصر ، وبعبور هذه المسافة يتم الوصول إلى ولاية إسنا وولاية أسْوان وولاية الصعيد العالى التى تمر إلى جرْجا.

ويجرى النيل لمدة شهر حتى يصل إلى مدينة المنشأة تحته، ومدينة أبو تيج، ومدينة أسيوط، ومدينة منفلوط، ومدينة صانبو، ومدينة ملَّوى، ومدينة المنيا، ومدينة الفشن، ومدينة بنى سيف (= بنى سويف)، ومنها يصل إلى أُم الدنيا مصر .

وعلى بعد خمسة أميال أسفل مدينة مصر، وعند المكان المسمَّى بطن البقر، يتفرع النيل إلى فرعين، الفرع المتجه إلى مدينة دمياط يمر ويعبر إلى المدن المعتبرة التالية، والتى سنبينها كما يلى : مدينة ميت غمر ، وهى ضمن أراضى كاشف المنصورة، وفى مقابلها، وفى أراضى الغربية قصبة زفتة، ومدينة المنصورة على الضفة الشرقية، ومركز (= قصبة) سمنُّود، وهى فى أراضى الغربية، ومدينة فرس كور (= فارسكور)، وهى على الضفة الشرقية وتابعة لأراضى المنصورة، وبعدها يصل إلى بندر دمياط العظيم ،

ومدينة دمياط أيضًا على الجانب الشرقى للنيل، وعندها يكون النيل المبارك فى منطقة مجمع البحرين مختلطًا مع البحر الأبيض العظيم .

والفرع الآخر للنيل المبارك ، يتفرع أيضًا من عند المكان المسمى بطن البقر، ويتجه نحو رشيد، وعندما يتجه النيل من بطن البقر إلى رشيد يمر بالمدن الرئيسة التالية : محلة طَنُّوب، ومحلة بَشير، ومحلة أبو على، وهذه فى حيازة أراضى الغربية، وفى مقابلها على الجانب الآخر محلة الرحمانية، وهى فى أراضى البحيرة، وفى مقابلها محلة إبراهيم الدسوقى، وهى ضمن أراضى الغربية، ومحلة مالك، ومحلة مطوبس، وهما فى أراضى الغربية، ومحلة أمير على وهى غربية، ومدينة بندر رشيد، وهى فى أراضى البحيرة، وما إن يعبر النيل مدينة رشيد حتى يلتقى بالبحر الأبيض فى مرج البحرين ويختلط بمياه البحر .

وهذه المدن التى تحررت أعلاه، والتى تقع على ضفتى النيل المبارك، تبلغ مائة وستين مدينة، وحتى الوصول إلى قلعة صاى يستغرق الطريق ثلاثة أشهر، ويوجد على ضفتيه ألف وثمانمائة قرية معمورة ومزدانة بالخيرات، وما عدا ضَفَّتَى النيل، فإن القرى التى تقع بعيداً عنها حسابها عند الله وحده، هو الذى يعرفها. وحسب حساب الفراسخ فمن بداية منبع النيل وحتى مصبه فى البحر الأبيض ثلاثة آلاف فرسخ، ومن منبع النيل الذى يخرج من البحيرة التى سبق الحديث عنها يتشعب النيل المبارك إلى تسع شعب، يتجه إلى بلاد السودان وفس (= فاس)، ومرانكش (= مراكش) وهى من الضفة الغربية، وكانت تجرى فروعه فرعًا فرعًا إلى هذه النواحى، لم أصل أنا الفقير إلى هذه النواحى . ولكن لما كنت قد وصلت إلى ما بعد خط الاستواء، وعلى الطرف الجنوبى للنيل فإننى سوف أتناول هذه الأماكن بالحديث عند حديثنا عن الرحلة التى قمنا بها فى بلاد الفونج بشكل مفصل .

ومن العجيب أن مغامرة رحلتنا قد انتهت عند هذا الحد، وقد سمعت من بعض الرحالة الذين قد وصلوا إلى بلاد الفونج أن الأنهار التى كانت تتجه نحـو نواحـى

فس (= فاس)، ومرانكش (مراكش) كانت تسعة أنهار، وتجرى ناحية الغرب، وجملتها ألف فرسخ تصب فى البحر المحيط، وتختلط مياهها بمياه المحيط . ولما سألتهم عما إذا كانت التماسيح تجرى فى هذه الأنهار، كانت إجاباتهم بالنفى، وأن التماسيح لم تكن تجرى فى هذه الفروع من النيل .

وخلال خلافة السلطان المؤيد كان مجموعة من الرجال قد توجهوا إلى منابع النيل وبدايته عدة مرات، وكانوا يصلون فى ثمانية أشهر، ويعودون فى ثمانية أشهر وهم محملون ببضائعهم . وكان رجال بلاد الفونج يصلون دائمًا فى أربعة أو خمسة أشهر، وكانوا يبيعون أمتعتهم فى الطرف الآخر لفرنجة البرتغال، ثم يعودون فى خمسة أشهر أيضًا إلى بلاد الفونج .

وسلطان بلاد الفونج هذه مالكىُّ المذهب، وعلى الرغم من ذلك فهو من المعتقدين فى كرامات الشيخ البكرى فى مصر، وكثيرًا ما يتردد عليه رجاله، كما أنه فى وقت قريب قد أرسل بالسفراء من قبله إلى باشا مصر، وهم محمَّلون بسن الفيل، والتروس المصنوعة من جلود الأفيال ، وقرون الكركدان، والجلود الثمينة، وأشجار الأبنوس، وغير ذلك من الهدايا القيمة، وهم من الأقوام التى تسكن على شاطئ النيل، ولكن فى هذه الولايات لا ترى العمران سائدًا أو مزدهرًا مثل الولايات الأخرى الواقعة على ضفتى النيل، لأنهم أُناس طيبون ومتواكلون، ولكن أماكن وأراضى النيل المعمورة هى قلعة صاى ومدينة در وقلعة إبريم وولاية الشلال ومدن أسوان وإسنا ومدينة قوص، ومدينة قنا، وفوة، ومن جرجا حتى المدن التى سبق تحريرها سابقًا، وإلى أن نصل إلى دمياط ورشيد، فعمران النيل يزداد نماءً وازدهارًا على جانبيه، وقد سجل فى الخطط وتواريخها وكتب الهيئة (= الفلك)، وهيئة پاپامونطة، والأطالس الكبير والصغير، وكتب الجغرافية، أن مصر برا وبحرًا، كانت وما زالت عامرة بكل أشكال العمران .

فى بيـان أحـوال حسنات مصر

وقد حررت ما رأيته رأى العين وخبرته عين اليقين فى سياحتى أنا الفقير، وما حصَّلته يقينًا، فإذا ما فاض النيل المبارك فيصير فى كل ولايات مصر سبعة آلاف خليج وإحدى عشرة ترعة، ولسوف يتم تحرير كل ذلك فى محله إن شاء الله . وكل هذه التـرع تجرى ميـاهها من النيل المبـارك، وتروى كل أراضى مـصـر ، ومـا لم ترويها مـا زُرعت أرض مـصر، لأن المطر لا يهطل فى مصـر كثـيراً، فـأمطار الرحـمة تسـقط فى مصر مرة أو مرتين سنويًا . وإذا لم يفِضْ نيل مصر المبارك لا قدر الله، والعياذ بالله، عمَّ القحط، وساد الغلاء . ومن هنا فالمصريون يعتبرون فيضان النيل جدا ويبجِّلونه، ويبتـهجون له أيَّما ابتـهاج . وإلا فمصر بلد وكأنه جزيرة وإذا ما جاء فيضان النيل حسب المراد، فـإن جـميع ولايات مـصـر تتـحـول إلى بُحـيرة عذبة. إن جملة الكفـور والمحلات، والقصبـات، والبُلَيْدات، وقُرى الأوقـاف وغير الأوقـاف، وأوقـاف مكة والمدينة، والملتزمين، والكُشـَّاف، والأمناء، لا تحـصى ولا تُعد . وجملة القرى والبُلَيْدات، حيـثما توجـد، قـد بُنـيت على مكان مـرتفع يطل علـى الناحـيـة إن وُجـد، وداخل النيل الذى كالبحر ، ترى القرى وكأنها جزر، فرءوس نخيلها عالية تُطاول عنان السماء، ومزارع النخيل على النيل وكأنها جنات إرم .

وقـد تـأسـست مملكة مـصـر وبلادها وفـقًـا لعلم الهندسـة، حيـث إن بين القـرية والأخرى مكانًا يسمونه "ملاقة" أى ملتقى القريتين، وأحيانًا ينحدر النيل أو الوادى من قرية إلى أخرى فيقيمون فى هذا الملتقى سداً، أو جسراً ، حتى لا يُغرق النيل القرى المنخفضة . وتكون هذه السدود عبارة عن كومات من التراب، وبعض هذه السدود فى قامـة عشـرة رجال وفى ارتفـاعهم ، وإذا مـا فاض النيل فإن الأهالى أنفسـهم، وبكل خـيولهم ودوابهم، يعبـرون من فـوق هذه السـدود التـرابيـة، وبعضـهم يَعبـر من فـوق شـمندارات أو مـعديَّات فى أمـاكن مـعينـة، وبعد أن يمـتلئ النيل المبـارك أمـام هذه السدود، فإنه يروى الأماكن التى أمامه فى غضون عشرة أيام ، وبعدها يفتحون فتحة

فى هذا السد، فتنحدر المياه إلى الوادى الجديد ، ويصبح بحراً عذباً متلاطماً ويروى أراضى بلدة أخرى .

وحتى لا تكون هناك حرب أو جدال أو عراك، فإن هناك رجالاً مدجَّجين بالسلاح ومعتمدين من طرف الحاكم وقواته العسكرية يقومون على هذه العملية، وهم يحمون النيل فى تدفقه من قرية إلى قرية ويروون للجميع، وإلاَّ فلو لم يكن هناك رجال عسكريون من قِبَل الباشا لقتل الفلاحون والعربان بعضهم بعضاً .

وفى بعض الأماكن توجد قناطر، أى كبارٍ، ويجرى النيل من تحتها ويروى هذه القُرى، ويسمونها بالترع، أى أن هناك ترعًا تتفرع من النيل عند هذه القناطر، وتتجه إلى القرى حيث تروى أراضيها، وهذه الترع تعنى نُهيراً ، أو نيلاً صغيراً فرعيا، ويجرى فى هذه النهيرات ، ويوصل المياه إلى هذه القُرى . والحاصل فى جميع أراضى مصر هكذا، عبارة عن أفرع من الخلجان والترع والبرك . وقد أقام هذا الطرحَ والدراسة على أساس من علم الهندسة مهندسون وعلماء وكهنة مصر السابقون بتعاليم من سيدنا إدريس . وهذه كلها تستحق الرؤية وإمعان النظر .

وخلال فترة فيضان النيل تكون بداية سنة ونهاية سنة كشوفية ، ففيها يقوم سائر الكُشَّاف والأمناء والملتزمين والرعايا والبرايا، بتجميع محصولاتهم وتصفية حساباتهم، وإذا ما أُخفيت، فلا يكون حكم الكُشَّاف نافذاً ، ويُعيَّن مكانه قائمقام، ومُسلَّم، ويعينون حتى يحول الحول، وبعده يُعيَّن من قبل الباشا أغا على جميع الكُشَّاف، ويُدْعَون جميعًا إلى ديوان مصر ويُحضَرون إليه، ويُقدَّم إلى أغا من الأغوات الذين يصلون إلى الكشَّاف أربعة آلاف بارة، وجواد كحيلانى هدية لا بد وأن تُقدم . وما فَوق هذا، وما زاد عنه، فهذا من كرم الكشَّاف فى أيام رأس السنة القبطية .

وفى هذه المدة أيضاً يكون بداية انفضاض مولد السيد أحمد البدوى الذى يستمر خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة من بدايته إلى نهايته، وهذا أيضاً يستحب الفرجة والمشاهدة، حيث تكون هذه المدة بطولها مشحونة بالذكر ، " والحى هو الله " ففيه كثير

من العبر والعظات . ولو أفْلس بعض الكشّاف أو الملتزمين أو الأمناء يصدر أمر من طرف الباشا بإحضاره، وأحيانًا يهرب الكشّاف المفلس من الأغا، ويدخل لاجئًا إلى مقام السيد البدوى، ولا يمكن للباشا أو أتباعه أن يدخلوا ويأخذوه بالقوة، ومَنْ يتجاسر على ذلك تُشل يده ، كما أن المشايخ والعلماء والدراويش الذين فى المقام، لا يسلمون صاحب الدم (= القاتل)، أو اللص أو المفلس الذى يلجأ إليه، أما الكُشّاف الذين يطيعون الأوامر، ويكونون مستورين، فيأتون إلى الديوان السلطانى ويجلسون مع المحاسب، ويؤدى الأمور السلطانية التى فى ذمته فيُلبس الخلعة السلطانية .

فى بيان الأفعال القبيحة فى مصر

أما إذا أفلس أحدهم فيُحبس فى العَرَقْخَانة ، ويرى ألوان القهر والتعذيب، والكسورات ونفش الجسد، ويذيق الجلادون هذا الكشّاف شتى ألوان التعذيب، وفى ديوان الغورى يضعونه فى المقارية، اللهم عافنا، ويذيقه الجلادون ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت . ويضربونه على جسمه العريان بالكرابيج المصنوعة من إحليل الفيل، ولا يعلم ألمها إلا مَنْ ذاقها، كما أن البعض يرى الهلاك مما يُحاق به من أفعال مخلة بالأدب، والبعض يجد الخلاص بالموت، فيباع كل ما يملك فى مزاد علنى، ومن هنا وهناك يتم إكمال المال السلطانى، وإذا كان وزير مصر يتصف بالرحمة، يؤجله إلى السنة التالية، ويلبسه الخلعة ويُبقيه فى منصبه، فيسعد الكشّاف بذلك ويُسر، ولكن تتحول الولاية إلى بحر كامل لمدة ستة أشهر من جراء الفيضان، ولا يذهب الكشّاف إلى مناصبهم طوال هذه الشهور الستة ، بل يقيمون حكم الحكومة عن طريق خمسمائة أو ستمائة رجل يقومون مقام رجال الدولة وهم فى السفن والمراكب، وتحت هذا التأثير يتحول جميع الفلاحين الذين فى هذه المناطق إلى حيات بسبعة رءوس، فلا عمل ولا شغل لهم، وليس لهم نصيب من المال الذى يزرعونه، أو ليس هناك ما يزرعونه، ولهم أشقياؤهم الكثيرون، وفى أيديهم نبابيتهم، ولا يملكون إلا النفخ فى راحة أيديهم

الممسكة بهذه النبابيت، ويتجهون بالسفن للسرقة واللصوصية، وينتقلون من ولاية إلى أخرى لهذا الغرض، ويغيرون على القرى والبُلَيْدات للنهب والسلب لأنهم لا يخافون أبداً من القائمقام الذى لا يوجد تحت يديه قوات كافية من عساكر البلوكات السبعة التى فى معيَّة الكاشف . فجميع الفلاحين والعربان العرايا يعيشون بلا حاكم، فلذلك هم يثورون، ويرفعون راية العصيان، ينتقم بعضهم من بعض ، ويسعى بعضهم لأخذ الثأر من بعض، لأنه قد شاءت قدرة الخالق أن يكون الفلاحون والعربان من نسل ابنَيْ سيدنا آدم هابيل وقابيل . ومنذ ذلك الحين وهم فرقتان، فرقة منهما هى فرقة بنى جذام، وهم رجال شجعان ، يتصفون بالشجاعة وهم القابيليون ، والفرقة الأخرى هم بنو جُذام وكأنهم كالجذام ، وهم الهابيليون ، وهم فى غاية المكر واللصوصية، ليس هناك عمل يستهويهم مثل الإغارة . ولو تسلطوا على مكان ما ، فهم بنو الجُذام، كالمرض الذى يتفشى . ولكن فيهم فتيانًا شجعانًا، وهم من أصلاب هابيل. يتجمع الهابيليون فى قرية، ولا بد أن يكون قد تجمع فى قرية أخرى القابيليون وكلاهما خصم قوى للآخر، وتستعر العداوة بينهم . وحتى أحيانًا يغير بعضهم على بعض، ويلوم بعضهم بعضًا، أى تقوم إحداهما بلَمِّ الجند وجمعهم ضد الأخرى، وأحيانًا يقطعون سدود الطرف الآخر، أو يهجمون على قراهم بالسفن والقَيَاحَة (= القايس)، ويوجعون بعضهم ضربًا وإيلامًا، ولا بد أن ينتصر أحدهما على الآخر، والويل كل الويل لهذا المغلوب، فيعمل السيف والموت والهلاك فى رجالهم شيبًا وشبابًا، ويبقرون بطون الحوامل ويخرجون الأجنة، ويحرقونها فى النيران، ويقطعون أثدية النسوة حتى يتحدثن عن الأماكن المخبوءة فيها الأموال؛ لا بد من أن يجدوا الأموال المخفاة . ويسوقون جميع الماشية ، ويضرمون النيران فى كل القرية أو البلدة، فتتحول إلى خراب يباب، ويتحول الأحياء كبابًا (= شواءً) على النيران المتقدة، ويجمعون كل هذه الغنائم وينصرفون بها بلا رحمة أو هوادة، بل هم يتغنون بأغانيهم ومواويلهم وأهازيجهم وهم عائدون إلى قراهم . ولما كان صاحب البلدة أو القرية قد نُهِب، فإنه بذلك يكون مفلسًا من جراء النهب والحرق والإغارة .

واللهم عافنا، ففلاحو مصر هم فراعنة، كتائب من الجبارين يتصفون بالعناد والحسد والفسق، وهم قوم جديرون بالرؤية . ولكن بعد ثلاثة أشهر أو خلالها، ينحسر النيل ويبقى الطمي والغرين، فيهمُّ جميع الفلاحين إلى الحقول والأراضي ويبذر الفلاحون كل أموالهم على هذه الأرض، ويبدأون في زراعتها، ويعقدون العزم على إنمائها . خلال هذا الوقت تسعد قلوب الكُشَّاف والأمناء والملتزمين، ويسيل لعابهم، وجميع الكُشَّاف يتجهون بعساكرهم، خلال شهرى بابة أو هاتور من السنة القبطية، إلى الولاية لتخطيرها، يعنى لحصادها ، وأيضًا خلال شهرين يأتى جميع الكُشَّاف ليستفيدوا من دخْل مصر، يأتون لكى يأخذوا حسب قانون سليم خان محافظين للبلوكات السبعة، فكل كاشف يتجه وفى معيته ما بين ألف وألف وخمسمائة وخمسين جنديا مع حاكم جرجا، ويتجهون نحو الولايات، ويبدأون التصرف فى مناصبهم، كما يقوم سائر الملتزمين بشراء ما بين أربعين وخمسين إلى مائة فتى من فتيان الروم الذين تُعقد لهم المزادات لهذا الغرض ، ويقومون بمساعدة هؤلاء بالسيطرة على مناطقهم وحكمها، وتسيير أمورها، فعلى هذا المنوال لا يكون حكم المتَسلِّمة الذين يعيَّنون بإذن من القائمقام، والبلوكات السبعة غير سائر المتسلمة، فالحكم والأمر كله للكُشَّاف فى هذه الشهور . وتواتيهم الفرصة للبحث والقبض على الذين نهبوا وسلبوا القرى فى وقت طغيان الفيضان، حتى ولو كانوا مختبئين فى قرون البقر الوحشى، فهو - أى الكاشف - يصطادهم وفق تدبير محكم، وعند القبض عليهم وسوقهم لتحقيق العقاب، فإنهم يتجهون لنيل العقوبة وهم يتغنون بما اقترفوه من أعمال، ولا يبالون بما ينتظرهم من تكسير عظام الأيدى والأرجل، أو حتى سلخ جلودهم، وبعد أن تُسترد منهم الأموال التى نهبوها يُنفذ فيهم حكم القتل من أجل الصالح العامٍّ .

فى وصف شجاعة وجراءة القوم الجبارين المصريين

الغريب فى الأمر أنه ما إن يُقبض على هؤلاء الهاربين من الحرامية والمناصرة ويمثلون أمام الكاشف فى المكان الذى سينفذ فيه الحكم حتى يُقدم إلى الكاشف كيستين أو ثلاثًا مشفوعًا بالرجاء بأن يحضره إلى ديوان الحكومة وسط موكب وتجريس لينفذ فيه الحكم هنالك ، وعلى الفور يأخذ الكاشف الأموال، ويقبل رجاءه . ويحضر الجلادون هذا الحرامى إلى ميدان السياسة، ويعلقونه على أربعة مسامير لسلخه وهو على قيد الحياة، ويبدأ السلخ من الظهر إلى الصدر ، ومن الصدر إلى الظهر . الغريب فى الأمر، أنه وهم مشغولون بهذا السلخ، يكون مشغولاً بتدخين التوتون، ويردد موّالاً مربعًا ، ويفتخر أمام رجاله وأهله الذين يشهدون السلخ بما ارتكبه، ويعدد عمليات السلب والنهب والإغارة التى قام بها، ويفتخر بصَلْبه هكذا ، ولا يتأوه مطلقًا أو يتبرم، حتى وهم يكسرون عظام الرجلين والذراعين لاستكمال عملية السلخ! وعندما ينتهى الجلادون من كسر عظامه وسلخ جلده، يملأونه بالتبن، ويشيعون الجسد الميت فوق حصان، وسط موكب تجريسى، وهم ينادون بأن فلانًا هذا الحرامى قد حُكم عليه ، وهكذا إلى أن يوصلوه إلى ديوان مصر !

يا له من منظر غريب وفرجة عجيبة! وهكذا فلا يضيع مال السلطان، فلو كان طيرًا طائرًا فى السماء ، أو سابحًا فى قاع البحر، فإنه ليتم تحصيله وتسليمه إلى الباشا، ويُربط بالخزينة السلطانية، ولكن كم من الأموال السلطانية تُحصَّل من الفلاحين الرعايا، وهم الحفاة العراة والمتدثرون فى عباءة وشال . ولكن خيراتهم كثيرة، لجدهم ودأبهم كفرهاد، فهم إما فَلاَّحٌ أو مَلاَّحٌ، لأن جناب الخالق قد شمل مصر برحمته، ولذلك يقولون عنها إنها تُنبت ذهبًا، وحقًا إنها تُنبت ذهبًا ، فما قالوه حق .

وكذلك قال الكبار كلامًا طيبًا عن مصر ، فـ "نيلها عجب، وأرضها ذهب، وهى لمن غلب"، وحقيقة ما حدث فى مصر هو هذا، فالغالب فى مصر يُصبح حاكمًا عليها، وقد ساد هذا المنوال منذ سيدنا يوسف، فالغالب هو المسيطر. سلاطينها ليسوا أُصلاء أو نسباء، وأهلها ليسوا أهل ذلة أو مسكنة ، جملة طائفة العسكر جبلت على العصيان والطغيان، بل يُصبحون متسلطين بالقوة والعنف، وأصل القول الذى يقولونه " إن مصر تُنبت ذهبًا " هى أنهم إذا ما زرعوا كيلة من الحبوب، يحصدونها عشرين، فيبيعونها فتصبح ذهبا.

ومن خواص مياه هذا النيل، ومفعولها أنه إذا ما شرب من ماء النيل ثلاث سنوات، فإن كان رجلاً روميا ، يصير جبارًا بلا رحمة، ونسوانها محبوبات فى غاية اللطف ، قليلات الأدب، قليلات الحياء . خيولهم تشرب من ماء النيل فتصبح شرًّانة وبطرانة. صحراء مصر تخرج منها القطية وأم الحسن ، ولكنها لا تصل إلى ديار أخرى . ولكن حميرها فى غاية الإدراك والفهم ، رهوانية السير، وما يجرف ويُطهر كل تُرع خلجان النيل هى ثيران مصر، وتلك الثيران فى حجم جاموس حاضنة كبيرة، وملّحِمة. ثيران مصر قوية جافية، وجميع حكام مصر قد استخدموها مرات عديدة، فى حفر الترع وتطهيرها، كما أن الكهنة السابقين قد استخدموا مئات الآلاف من العجول (= الفحول) فى حفر الخنادق، وكانت تلك الفحول تجر ما يشبه الصندوق الحافر للتراب والتربة، وتحملها إلى مسافات بعيدة، وهكذا حفر هؤلاء الكهنة الكثير من الخنادق والخلجان المتعددة . إن هذه الأماكن تحتاج إلى الرؤية !

فى وصف أسماء الشهور باللسان القبطى

إن الكهنة والحكماء السابقين هم الذين رتّبوا هذا النيل المبارك على علم الهندسة، وأرض النيل أيضًا ترتدى سنويا أربعة أردية مختلفة، وتنقسم السنة إلى اثنى عشر شهرًا ، وأربعة أقسام (= فصول)، وكل فصل ثلاثة شهور، وأسماء شهور الفصل

الأول باللسان القبطي هي: أبيب ومسرى وتوت، وهذه الشهور تُقابل في الشهور العربية: ذا القعدة، وذا الحجة، ومحرَّم . وقد شاءت قدرة الله أن تجرى العادة في أقاليم مصر على هذه العادة وأن يكون شهر توت دائمًا في شهر تموز (= يولية)، وأن الشهور القبطية لا تدور ولا تتغير مثل الشهور العربية .

وخلال شهور توت هذه يكون النيل المبارك مثل البحر المتلاطم، ويُغرق أراضى مصر، فتلبس الأرض الرداء الأحمر، لأن مياه النيل خلال هذه الشهور الثلاثة تكون طميًا أحمر .

وعندما تنحسر مياه الفيضان بعد هذه الشهور الثلاثة ، يبدأ الفصل الثانى، وهو شهور: بابة وهتور وكيهك، وهى تقابل فى الشهور العربية : صَفَر وربيع الأول وربيع الآخر، وفيها تنسحب مياه النيل عن جميع أراضى مصر، ويتحول الطمى إلى مسك عنبرى أسود خام، وقد خُلِط بماء الورد المقطر لمدة عام، وخمَّرته يد الخالق سبحانه وتعالى . وفورًا يشمِّر أقاربنا الذين خُلقوا من طين هذه الأرض الطيبة عن سواعدهم، ويزرعون هذه البرايا، ويباشرون رعايتها . وخلال هذه الفترة ترتدى أرض مصر لباسها الأسود العنبرى الخام . وينثر الفلاحون الزرِّيعة التى يسمونها البرسيم، والذى ينمو بأمر الله مقدار إصبعين فى كل ليلة، وما هى إلا فترة وجيزة حتى يتجاوز شبرًا فيربطون حيواناتهم فيه . وهذا النوع من النباتات نافع جدا لكل الحيوانات وكل ذوى الروح من الدوابُ ؛ فَتَسْمن وتَتَلَحَّم هذه الدواب . وبعد حصاده تخلع أرض مصر عباءتها الخضراء الحريرية (= الإبريشيمية) اليانعة وترتدى لباسها الزمردى والوردى، وتعلو قبابها الصفراء كل الأجران التى تمنح الحياة لكل من يراها . فى هذا الفصل تتحول الدوابُّ وبنو آدم إلى الشباب والحيوية وخلال هذا الموسم تكون بلاد الروم فى موسم الشتاء الذى تقوم فيه القيامة ، بينما تكون أراضى مصر كلها تعيش ريعان الربيع وتخرج كل الجياد إلى المراعى . شهور هذا الفصل هى طُوبة وأمْشِير وبَرْمهات . وتُقابل هذه الشهور بالشهور العربية: جمادى الأولى، وجمادى الآخرة،

ورجب . وفى هذه الشهور تخلع مصر الرداء السندسى الأخضر، وترتدى الخلعة الزعفرانية الصفراء الفاخرة، وتتحول كلها كالذهب النقى الخالص . تتحول جميع الحبوبيات، والنباتات إلى الكَهْرُبار الأصفر ويَحين وقت الحصاد ، ووقت تحصيل أموال خزائن السلطان الاثنتى عشرة، وغيرها من الأوقاف الخيرية ، إنه وقت الحصاد .

ويحين الفصل الرابع باللسان القبطى وشهوره هى بَرْمُودى (= برمودة)، وبَشَنْسَ وبُودينة (= بئونة) وهى تُقابل شهور شعبان ورمضان وشوال . وخلال شهور الحصاد هذه تكون الأرض كالذهب الأصفر . حقا نيلها عَجَبٌ، وأرضها ذَهَبٌ ، فإن مآل هذا القول حق وصدق، وهو فى مكانه تماماً، فجميع الدوابٌ، وفى جميع القرى، تُوضع فى الأجران، فمن ناحية هى تأكل وتَسمن، ومن ناحية تستعد للشهور الثلاثة التى سترتدى فيها عباءتها العباسية السوداء . وتنتظر أيضًا عادة الله التى أجرى عليها النيل المبارك، وسيظل كذلك ما دار الزمان ودار الفلك، ولن يتوقف إلا إذا توقف الدهر عن الدوران، وهذه هى حكمة الخالق التى يدور عليها النيل المبارك .

ولكن الدوران هو دوران شهورنا نحن، وليست الشهور القبطية لأنها ثابتة . والحاصل أن حال وأحوال الدنيا هكذا، فأقاليم مصر لا يشبه بعضها بعضًا ، ولا تُشبه إقليمًا واحدًا، ولا يُشبهها أى إقليم آخر، فنعاج صيفها وشتائها تلد مرتين، وتضع اثنين، وخضرواتها وفواكهها تتعاقب ويخلف بعضها بعضًا ، إنها بلاد من صنع الخالق العظيم، بلاد عجيبة !

فى بيان مضارب ماء النيل

إن هناك الكثير من القيل والقال عن النيل المبارك، ولكن وفقًا لمضمون مآل الحديث الشريف فإنه نهر من أنهار الجنة، باتفاق كل الآراء . وحقا إنه من ماء الجنة، فالعذوبة

التى فى مياه هذا النيل غير موجودة فى أى نهر آخر، فلو كانت مياه بعض عيون الأناضول من مياه الجنة ، أو مياه عيون إسلامبول الأربعين من الماء الزلال فقط ، فإن مياه النيل من منبعه إلى مصبِّه، أو لنقل من أوله حتى آخره، لا يخلط بأى ماء آخر ، وحتى لو خُلط فإنه يختلف عنها .

ويتفرع من نهر النيل فروع أخرى، فعند المنبع ، كما هو مسطور فى كل التواريخ والهيئات، تصب فيه ، ولكن طبيعة المياه عند القبض أو النقص أنها مياه بلغمية . وتظل إلى سقوط النقطة إلى النيل هكذا ، وما إن تسقط النقطة وتسيل المياه وتفيض حتى تجرى باللون الأخضر (= الريم الأخضر)، ويظل لمدة شهر كامل هكذا، وكل أصحاب الطبيعة المحترزة تحترز طوال هذه المدة . ويجب ألاَّ يشربوا من مياه النيل مباشرةً، وإذا ما شربوا منه لا بد أن يكون ماءً رقراقًا، أى ماءً رائقًا، ويضعون فيه اللبان ويغلونه، ثم يشربونه . أو أنهم يذهبون إلى مسافة تبعد عن عين شمس بمسيرة ساعتين ناحية الجنوب، حيث البئر التى حفرتها سيدتنا مريم أم السيد المسيح، والتى يسمونها بالمطرية، فيستقون منها ويشربون. فماء هذه البئر كأنه ماء الحياة، فهو ماء نافع ومن معجزات سيدنا عيسى .

ويظل ماء النيل يجرى باللون الأخضر (= بالريم الأخضر) لمدة شهر، وهذا هو سبب ضرره، فمنذ عام والمياه راكدة، وواقفة فى الترع والخلجان والبحيرات منذ العام الماضى، ويموت فيها كثير من الحشرات والعقارب والثعابين والمهلكات السامة، وكذا تنفق فيها بعض الحيوانات والفئران وغيرها من ذوات الذنَب التى تبقى فيها . ولما كانت هذه كلها سامة، فإن المياه أيضًا تتسمَّم ، وتتحول هذه الحيوانات والحشرات النافقة إلى ديدان دقيقة وجراثيم مهلكة، وهذه كلها تدخل إلى البركة والبحيرات والترع. وما إن ينزل الماء الجديد إليها حتى يجرف أمامه كل هذه المياه العطنة السامة، وتجرى هذه المياه فى كل مصر، ويكون لون مياه النيل أخضر غامقًا . ومن يَشْرب منه إما أن تنتفخ رجلاه وتُصبحا كالخرطوم ، وإما أن تنتشر السرطانات فى كل جسده ،

أو أن الخصيتين تتحولان إلى الفتاق. وإذا ما حملت النسوة خلال هذه المدة فإن الجنين البرىء يولد مجذومًا، لذلك وجب الحرص والاحتراز الكامل. ولمدة شهر يجب الشرب من مياه الأسبلة الزلالية، فهى ماء الحياة . وماء النيل نافع للخيول والنسوة جمعاء ، ولكن لكى تكون مملكة الفراعنة، فلا بد أن يكون حكم هوائها ومائها من طبيعة الجبار والمتكبر، وفى أوقات اليسر هم مكدرون، ودُوَلها دائمة مخلدة . ذلك لأن معيشتها قد اختلطت بمشيئة القدر، ووَفْقَه . وللنيل آلاف الخواص الأخرى ، ولكننا نكتفى بهذا القدر.

هنا نهاية الجزء الثانى من رحلة

الرحّالة العثمانى أوليا جلبى

إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

المؤلف فى سطور :

وُلد أوليا فى إستانبول عام ١٠٢٠هـ = ١٦٧٧م وتربى وترعرع فى أحضان السراى العثمانى . واسمه الكامل أوليا چلبى بن درويش محمد ظلّى .

- أتقن إلى جانب التركية : الفارسية والرومية والأرمنية والعربية حتى صار حافظًا ومقرئًا للقرآن الكريم ومنشداً للتواشيح الدينية لجمال صوته ودراسته للموسيقى .
- صار منادمًا للسلطان مراد الرابع .
- كان قريبًا للصدر الأعظم ملك أحمد باشا وقد مكّنه ذلك من مرافقته فى الكثير من الحروب والقيام بالعديد من المهام، فطاف بمعظم دول آسيا وأوروبا التى كانت معروفة فى زمنه .
- حج بيت الله الحرام عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧١م ، ثم رافق قافلة الحج المصرى عند العودة براً ، فكتب عن كل ما رأته عيناه وسمعته أذناه فى مصر والسودان وبلاد الحبش طوال سنوات الرحلة التى دامت ثمانى سنوات .
- كتب عن القاهرة مصر أم الدنيا وعن آثارها وجوامعها ومدارسها وعمارتها ومتنزّهاتها واحتفالاتها ومواكبها والعلماء والأئمة الذين يرقدون فى مراقدها ومدافنها وأضرحتها وموالد الأولياء والصالحين بها وبسائر مدن مصر العامرة .
- تابع رحلته إلى الدلتا وسلك طريقَىْ دمياط ورشيد حتى وصل إلى الإسكندرية وكتب عن كل مآثرها وقلاعها وعاداتها وأعرافها وتنوُّع سكانها .

- عاد إلى أم الدنيا مصر ، فوجد حامية عسكرية متجهة إلى الصعيد الأعلى فرافقها ... كتب عن كل ما رآه فى بلاد الصعيد وبلاد النوبة وبلاد الفونج حتى دخل السودان والحبشة وعاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر فالقصير وبنى سويف والفيوم وأكمل الكلام عن مصر المحروسة .
- استعانت الحملة الفرنسية على مصر بما جاء فى هذا الكتاب من معلومات قيِّمة عن كل ما يتصل بمصر من آثار وأعراف وتقاليد، إلخ .

المترجم فى سطور:

- الصفصافى أحمد المرسى القطورى (دكتور) .
- تدرج فى سلك التعليم العالى منذ ١٩٦٣م حتى صار أستاذًا متفرغًا فى الدراسات التركية والعثمانية والآذارية والتركمانية فى الجامعات المصرية .
- له العديد من المؤلفات حول الحضارة والثقافة التركية والعثمانية تجاوزت العشرين كتابًا . إلى جانب ما يتجاوز الخمسة عشر كتابًا مترجمًا .
- انتُدب وأُعيرَ وسافر أستاذًا زائرًا فى العديد من الجامعات العربية والتركية والأوروبية .
- ترجم عن العثمانية والتركية والآذارية أعمالاً تاريخية وإبداعية وفنية نُشرت ضمن ترجمات المجلس الأعلى للثقافة والعديد من دور النشر والمجلات فى مصر والمغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ومجلة الأدب الإسلامى العالمية ونال منها الجائزة الأولى عن الترجمة الإبداعية .

المراجعة اللغـوية :محمود عبد الرازق
الإشـراف الفنـى :حسن كامل